

شيلر
حياته وأعماله
تأليف
الدكتور مصطفى ماهر

شيللر

شيللر

حياته وأعماله

تأليف

دكتور مصطفى ماهر

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الإخراج الفنى : سهير معطى شنودة

المراجعة والإشراف الفنى : عفــاف توفيق



الإهـــداء

إلى محمود

إلى قطعة مني واراها الـتراب

مقدمه

لم تشهد ألمانيا فى تاريخها الأدبى الذى يرجع فى بدايته إلى القرن التاسع الميلادى عصراً ألمع من ذلك العصر الذى يغطى النصف الثانى من القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر ، تألق فى سمائها فيه نجمان ساطعان ينساب منهما نور الخلود : يوهان ڤولفجنج فون جوته [1] (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) وفريدرش شيللر [2] (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) . أما يوهان ڤولفجنج فون جوته فقد أتيح له عمر مديد وأحاطه القدر منذ مولده بالظروف المواتية والمصادفات السعيدة ، فأبدع فى كل الأنواع الأدبية أعمالاً أقل ما يقوله الإنسان عنها إنها ذخيرة فريدة من ذخائر الإنسانية جمعاء . وأما فريدريش شيللر فقد مات قبل أن يتم العقد الخامس من عمره ، وتعرض منذ مولده لظروف صعبة ، ومحن شاقة ، فعاش حياة المكافح العنيد ، المطالب بالحق والحرية ، وأبدع فى الفن المسرحى خاصة أعمالاً تعتبر من أروع ما كتب فيه .

(١) Johann Wolfgang von Goethe

(٢) Friedrich Schiller

وإذا كان عصر جوته وشيللر يمتلىء بالأيام المشهودة ، فلا شك أن يوم ١٣ يناير ١٧٨٢ يبرز من بينها ، حاملاً من الأهمية قدراً كبيراً . فى ذلك اليوم حدث شىء اهتزت له الأفئدة فى ألمانيا . لقد عرضت مسرحية « قطاع الطرق »[1] باكورة أعمال شيللر ، على المسرح القومى بمدينة مانهايم[2] ، بحضور المؤلف الشاب الذى كان يعمل طبيباً فى الجيش . ويذكر المعاصرون الذين شاهدوا هذا العرض الأول أن المسرح تحول إلى ما يشبه مستشفى المجانين ، فقد جحظت العيون ، وارتفعت الأيدى ، وانفرجت الأفواه وامتلأ المسرح بالصياح والهتاف . وتعانق الناس ، وأغمى على عدد من النساء ، وساد الهرج والبلبلة . وفقد المشاهدون السيطرة على أنفسهم أمام عمل جديد يتأجج بالعبقرية . ولقد خرجت هذه المسرحية مطبوعة فى عام ١٧٨١ ثم فى عام ١٧٨٢ ـ وتكرر طبعها بعد ذلك إلى ما لا نهاية ـ وكانت تحمل فى صفحتها الأولى شعاراً : « ضد الطغيان » . وتحلت الطبعة الأولى بصورة تمثل إنساناً يندفع إلى الأمام ويبسط ذراعيه ويرفع رأسه وكأنه يمثل المطالبة بالحرية . وتحلت الطبعة الثانية بصورة أسد هصور ، يستند فى عنف على رجليه الخلفيتين ، ويمد يمناه ويؤخر يسراه كأنه يتربص بالطاغية ، ويرفع ذيله إلى أعلى كأنه يعلن الثورة عليه ويكشر عن أنيابه كأنه يبين وسيلة العمل .

وتصور من سعوا إلى التعرف على صاحب العبقرية الوليدة أنهم سيلقون شاباً متأجج الحماس ، ملتهب الحديث ، ينظر كالصقر ، ويختال بقوته وسلاحه ، من نوع بطل مسرحيته التى شاهدوها ، فإذا بهم يجدون أنفسهم أمام شاب معتدل خجول شديد التواضع . هكذا وصفه أندرياس شترايشر[3] الموسيقى الناشىء الذى عرف شيللر فى مطلع حياته ثم ما لبثت الصداقة أن اتصلت بينهما . وهكذا وصفته فتاة اسمها مينا شتوك[4] التقت به عام ١٧٨٥ . قالت

(١) Die Räuber

(٢) Mannheim

(٣) Andreas Streicher

(٤) Minna Stock

مينا : « رأيت شاباً أشقر الشعر ، أزرق العينين ، متواضعاً ، تمتلىء عيناه بالدموع ويتملكه الخجل فلا يكاد يجرؤ على مبادرتنا الحديث » . ويمكننا أن نكمل صورته من أحاديث أخرى سجلها المعاصرون ، ومن اللوحات والتماثيل التي وصلتنا . كان طويل القامة معتدل البنية ، نحيف الذراعين والساقين ، وكان شعره أشقر يميل إلى الحمرة ، وكانت عيناه زرقاوين وأنفه دقيقاً فيه شيء من الانعقاف ، وذقنه بارزاً ، وجبهته عريضة ، وشفتاه معتدلتين ، وخداه غائرين . وكان يطيل شعره ويرسله إلى الخلف في غير تكلف . وكان يفضل ارتداء قميص مفتوح عند الرقبة ، ويحب لثيابه من الألوان الرمادي والأزرق الغامق .

وكان تواضعه يؤثر على أصدقائه وعلى معارفه وعلى كل من كان يلقاه . ولم يكن هناك شيء يثير خجله قدر تهافت الناس على تحيته ، والتلويح له . ويحكي المخرج جيناست [1] ، مخرج مسرح فايمار [2] عن أيام شهرة شيللر العريضة ، فيقول إن شيللر كان يختار الطرق التي يعتقد أنه سيكون فيها بعيداً عن الأنظار ، فيسير فيها ، وكان اذا صادفه من حياه ، رد التحية بانحناءة مهذبة ، مهما كان قدر من حياه ، وكان يجمع إلى التواضع أدباً جماً ، ورقة غير متكلفة ، وكرماً شمل به أصدقاءه ما مكنته يداه .

فإذا دار الحديث عن العمل تحمس ، وإذا دار الحديث عن شخصه ، وعن نجاحه ، وشهرته ، حوله إلى العمل وإلى المثل التي يسعى إليها وعلى رأسها اثنان : الحقيقة والحرية . لم يكن يقيم اعتباراً لذاته ، وكان يقيم الاعتبار كل الاعتبار لعمله . ويكفي أن نذكر أن المرض استبد به في الثلث الأخير من حياته ، فلم يركن إلى الراحة ، ولم يسع إلى استجمام ، وكانت السنوات العشر التي سبقت وفاته هي أخصب سنوات حياته كلها ، ويبدو أنه كان يعرف كيف يسيطر على آلامه في أثناء الكتابة ، فيبعدها عن فكره ووجدانه تماماً . وإلا فكيف

(١) Genast

(٢) Weimar

نعلل هذه الظاهرة الفريدة : اكتمال أعماله خالصة من كل أثر من آثار المرض أو الألم ؟

وشيللر شاعر مسرحي قبل أى شيء آخر . أتيحت له القدرة الفائقة على تقمص الشخصيات تقمصاً تاماً ، وعلى تشكيلها تشكيلاً متكاملاً لا عوج فيه ، وأتيحت له بعد ذلك القدرة الفائقة على ربط هذه الشخصيات ، التى تتميز كل منها بميزاتها الفريدة ، ربطاً محكماً ، يضع كل واحدة منها فى مكانها ، ويحركها فى دائرتها . وإذا كان شيللر قد فضل الشعر على النثر أسلوباً لمسرحياته ، فقد عرف كيف يطوع هذا الشعر ويلونه بألوان مختلفة تتناسب مع الشخصيات المختلفة . على أن شيللر يفضل النغمة الخطابية ، والجملة الحماسية على ماعداها ، ويوليها اهتمامه الأكبر ، حتى أصبحت هذه النغمة الخطابية الحماسية من أبرز سمات مؤلفاته .

وإذا كان الاهتمام بالنغمة الخطابية الحماسية يميز أسلوب شيللر ، وكان الاهتمام بالحقيقة والحرية يميز موضوعاته ، فقد تطور نشاط شيللر الابداعى ككل ، وتنقل من مرحلة إلى مرحلة فى حدود هذه الأبعاد . يتسم النشاط الابداعى المبكر بالثورية المباشرة وبالهجوم على الطغيان وعلى القوى التى تنال من حرية الإنسان ، وتعرقل سعيه إلى الحقيقة . وانتهت هذه المرحلة الأولى العنيفة إلى مرحلة ثانية تتسم بالكلف بالتاريخ وبمحاولة رباط الماضى بالحاضر . وأدت المرحلة التاريخية بدورها إلى مرحلة أكثر عمقاً هى المرحلة الفلسفية . ومالبثت هذه المراحل كلها أن اجتمعت ، كالروافد تصب فى النهر الكبير ، وأتاحت للشاعر المؤرخ الفيلسوف قمة الابداع الكامل فى الأعمال الأخيرة .

ولا تنحصر أهمية شيللر فى المؤلفات التى كتبها ، وفى الأفكار التى دعا إليها ، وفى الفلسفة الانسجامية التى آمن بها فحسب ، بل تمتد أهميته إلى التأثير على معاصريه الشعراء والمفكرين ، والتأثير على الأجيال التى تعاقبت بعد ذلك منهم . ولسنا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن الأدب المسرحى فى القرن التاسع عشر كان فى أكبر جزء منه حواراً مع التراث الشيللرى يسعى إلى توسيع عنصر من العناصر ، أو إلى تضييقه ، أو يسعى إلى المبالغة فيه ما سمحت حدود المبالغة .

وقد اجتهدنا فى هذه الدراسة فى أن نقدم عرضاً لأعمال شيللر على مختلف أنواعها ، فتناولنا أعماله المسرحية جميعها بالعرض والتحليل ، وكذلك مؤلفاته النظرية التى عبر فيها عن آرائه فى الفن أولاً وفى موضوعات الفلسفة والحياة بعد ذلك ، وأفرغنا لأعماله الغنائية مكاناً قدمنا فيه نماذج منها كاملة أحياناً ومختصرة أحياناً أخرى ، وحاولنا وضع هذه المؤلفات فى مكانها من حياته ومفاهيمه . ولم نغفل الدراسات التاريخية والخطط التى لم يجد وقتاً لإتمامها ، لأنها تكمل الصورة التى ينبغى أن نكونها عن نشاطه الأدبى فى مجموعه .

وأحطنا دراسة أعمال شيللر بإطار تاريخى فكرى عام استهللنا به الكتاب حتى تظهر الترابطات المختلفة واضحة ، ونكون على بينة من أسباب هذه الواقعة أو تلك فى حياة الرجل ، وخلفية هذا التعبير أو ذاك فى أعماله . وكان من الضرورى أن نرجع بهذا الفصل التمهيدى إلى الوراء وأن نتناول بالحديث موضوعات قد ترجع جذورها إلى العصر الوسيط ، وموضوعات انعكست بصفة خاصة فى أعمال شيللر بالذات مثل حرب الثلاثين .

واتبعنا فى تصوير أحداث حياة شيللر دقة علمية بعيدة عن الخيال والاستنتاج المتعسف والتقيد بنظرية سيكولوجية أو أدبية بعينها مما قد يتبع فى تصوير حياة الرجل العظيم فى الأعمال الأدبية المشابهة أو المناظرة . فلم نأخذ أنفسنا مثلاً بتفسير لحياة شيللر على ضوء فكرة من أفكار التحليل النفسى ولم نبحث عن عقدة كانت العبقرية نتيجة لها بل تركنا الأحداث نفسها تتحدث على النحو الذى وجدناها عليه فى كتابات شيللر نفسه أو فى مذكرات ورسائل المعاصرين . وكنا فى هذا المسعى ننقل النصوص ذاتها إلى العربية ، كاملة إذا كانت خطابات محدودة الطول ، أو مختصرة كثيراً أو قليلاً إذا كان طولها يحول بيننا وبين الاستشهاد بها كاملة .

وصورنا شيللر فى عصره ، فلم ننظر إليه من خلال مذهب من المذاهب التى انتشرت فى عصرنا ، وهكذا يطل عليك كما كان فى زمانه ، كريماً عظيماً حراً أبياً ، أو ضعيفاً مغالياً متطرفاً ، وتطالعك صورة عصره ، لا الفكرية والثقافية فحسب ، بل هى صورة حضارية كذلك ، فتعرف كيف كان الناس

يسكنون ويسافرون ويمرضون ويعالجون ويعملون وينالون أجورهم ويتصلون بالأمراء أو ينصرفون عنهم ، وكيف كان الطلاب يذهبون إلى الجامعات وكيف كان الأساتذة يعلمون .

ويمكننا أن نلخص محتويات الكتاب فيما يلي :

- عرض منهجي كامل لحياة شيللر .
- صورة لحضارة عصره .
- صورة لثقافة عصره .
- عرض وتحليل لمسرحيات شيللر جميعها .
- عرض وتحليل لنماذج من شعره الغنائي .
مع ترجمة وافية لبعضها .
- عرض وتحليل لآراء شيللر ومفاهيمه ، خاصة الفنية منها .

عسى أن يعين هذا الجهد المتواضع على مزيد من الاهتمام بأفكار وأعمال هذا الرجل الذي يمثل الكلاسيكية الألمانية لا يشاركه في ذلك سوى جوته ، والذي ظل طوال حياته يعمل مخلصاً من أجل الإنسانية . وعسى أن يأتي اليوم الذي تمتلىء فيه المكتبة العربية بترجمات عديدة جيدة لأعماله ، فيجد فيها القارىء العربي نفعاً كثيراً .

مصطفى ماهر

الباب الأول

أحداث العصر

لا نظن أن الإنسان يستطيع أن يفهم أدب عصر من العصور ، أو أدب أديب من الأدباء ، دون أن يلم بالأحداث التى أحاطت به ، والأحداث التى سبقته . ولقد كانت الأحداث التى شهدها القرن الثامن عشر وحده بالغة الضخامة والأهمية . ولسنا نعنى الأحداث التاريخية فحسب ولكننا نوسع الدائرة ونعنى كذلك الأحداث الفكرية .

والحقيقة أن أوروبا كانت فى العصر الوسيط تلتزم إلى حد كبير بنوع من الانسجام يعتمد على السلطة الدينية ، ويحكم العلاقة بين الإنسان والله من ناحية ، وبين الفرد والمجتمع من ناحية ثانية . وكان هذا الانسجام يظهر فى السياسة ويظهر فى الثقافة كذلك . وظل هذا الالتزام من عصر شارلمان إلى عصر الاصلاح الدينى إما حقيقة واقعة ، أو هدفاً يسعى إليه الساعون . ولكن الحروب التى سعت اليها أوروبا لمناهضة الإسلام فى الأندلس ولمناهضة الإسلام فى الشرق العربى ، ثم الحروب التى سعت اليها تركيا لتوسيع رقعة دولتها فى أوربا خاصة ، أدت إلى تغييرات فكرية وسياسية بعيد المدى ، بآثارها المباشرة وغير المباشرة معاً .

ولقد أوضحت حركة الإصلاح الديني ، وخاصة الحركة اللوثرية التي بدأت في عام ١٥١٧ أن هذا الانسجام الذي يحكم العلاقة بين الانسان والله ، ويحكم العلاقة بين الفرد والمجتمع قد أصبح في نهاية العصر الوسيط انسجاماً ظاهرياً ، وأن أفئدة الناس في أوروبا تضطرب بثورات في كل اتجاه ، ثورات تتلاحق فتخمد القوة بعضها ، وتحول بعضها الآخر عن طريقه ، ولكنها ما تلبث أن تفرض نفسها في النهاية . بدأت العلاقات الاجتماعية في ألمانيا مثلاً في الفترة بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، تتوتر . كانت هناك المدن القائمة على أساس النظام الرأسمالي المبكر ، تنعم بالغنى وتحصل من القيصر الألماني على امتيازات لقاء تقديم المال اليه . بل كانت المدن تدخل المعركة الانتخابية ـ انتخاب القيصر الألماني ـ وترجح كفة القيصر الذي ترى في انتخابه صالحها . ولكن المدن كانت في داخلها تعج بالخلافات بين رجال التجارة من ناحية ، ورجال الحرف من ناحية أخرى ، بين القلة الغنية والكثرة الكادحة . وكذلك كانت هناك توترات بين المدن من ناحية وبين الأمراء الاقطاعيين من ناحية ثانية . وكان الأمراء يحاولون ضم المدن الغنية كخطوة تؤدي إلى مزيد من القوة . وكانت المدن التي لا تجد لها في غير الامبراطور سنداً ، تتجه إليه بالمال ليعاونها ويذود عنها . هذه التوترات والاضطرابات كانت متصلة في داخل الدولة الألمانية ، التي كانت تتكون من إمارات إقطاعية ومن مدن ، وكانت تنضوي على الأقل إسمياً تحت اسم القيصر المنتخب من قبل الأمراء الكبار الذين عرفوا باسم الأمراء الناخبين . وكما أن المدن كانت تتعرض في داخلها لتوتر بين التجار وأصحاب الحرف ، كذلك كانت الإمارات الاقطاعية في الوقت نفسه ـ بداية القرن السادس عشر ـ تتعرض لاضطرابات شديدة في داخلها بين الفلاحين من ناحية والاقطاعيين من ناحية أخرى ، وكذلك بين قدماء الفرسان ـ الذين انخفضت قيمتهم بعد تغيير أساليب الحرب ومعدات التسليح والاعتماد على المرتزقة ، وأصابهم الفقر المتزايد ـ وبين الإقطاعيين . وكانت حال الإقطاعيين أنفسهم ، بعد أن فرض الاقتصاد النقدي نفسه على حياة الناس ، مضطربة وكانوا كلما ازدادت حاجاتهم إلى المال السائل مالوا على الفلاحين والعمال الزراعيين . وكان الفلاحون بين فقراء تتهددهم الضرائب الفادحة ، وتثقل عليهم

الأعمال العنيفة ، وعبيد لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً . وهكذا حدثت ثورة الفلاحين العارمة فى عام ١٥٢٥ ضد أصحاب الأرض وضد رجال الدين . وإذا كانت هذه الثورة قد أخمدت ونكل بالقائمين بها أشد التنكيل . فقد كان مرجع ذلك إلى افتقارها إلى القيادة الصحيحة والاتحاد والتماسك . وأياً كان الأمر فقد كانت هذه الثورة تأكيداً لاضطراب العلاقة بين الفرد والمجتمع واختلال العلاقة بين الانسان والكنيسة . وقد كانت هذه الثورة مرحلة أولى تنبىء بمراحل أخرى ، وخبرة ظلت عالقة فى الأذهان ، راسخة فى التراث (انظر : مسرحية « جوتس فون برليشينجن ذو اليد الحديدية » ليوهان ڤولفجنج فون جوته) [١] .

كانت ثورة الفلاحين فى حد ذاتها تبين فيما تبين اختلال العلاقة بين الإنسان والكنيسة ، وتبين أن كيان الكنيسة يهتز اهتزازاً شديداً وإن بدا صلباً منيعاً . وكانت الكنيسة قد وصلت إلى فرض سلطانها على الامارات حتى أصبح بعض المطارنة أمراء ، بل ان الأمراء الناخبين السبعة ـ أكبر الأمراء وأوسعهم ملكا ـ كان ثلاثة منهم أساقفة . وكان هؤلاء الأساقفة يعيشون حياة البذخ والسعة ، ويتوسلون إلى السياسة بسبلها الملتوية ، وكانوا بهذا يفقدون ثقة الناس فيهم كرجال دين ، ويهزون ايمان الناس بالدين هزاً عنيفاً . ـ وفى الوقت الذى كان الإيمان يهتز فى قلوب الناس لهذا السبب ولكثير غيره ، كانت الحركة الهومانية [٢] تفرض نفسها ، وكانت حركة الاصلاح الدينية تصبح شيئا لا راد له ، وتصبح ـ بفضل الطباعة ـ شيئا لا بد من انتشاره . وإذا كان لوتر قد بدأ اصلاحه الدينى بنقد لصكوك الغفران عام ١٥١٧ ، فقد كانت حركته تبشر بنتائج اجتماعية وسياسية خطيرة ، إلى جانب النتائج الدينية . كانت مسألة صكوك الغفران ـ وهى صكوك كانت الكنيسة تبيعها بالمال فتخول لشاريها الحق فى تجنب الشيطان طوال الحياة ، وفى نيل منة الله بعد الموت ـ تفتح السبيل إلى ثورة

(١) Götz von Berlichingen

انظر : يوهان ڤولفجنج فون جوته ، أورفاوست وجوتس فون برليشنجن ، ترجمة وتقديم دكتور مصطفى ماهر ، القاهرة ، هيئة الكتاب ١٩٧٥ .

(٢) Humanismus

الفقراء على هذه الصيغة التى ظهرت عليها «العلاقة بين الإنسان والله» ، وإلى التساؤل عن العدل الالهى وعن الدين والكنيسة . وقد ردت حركة لوتر المحتجة على هذه الأسئلة ، ردودا «عصرية» ، وتكون المذهب الاحتجاجى اللوترى ، وانقسمت الكنيسة انقساما هائلا . وكان هذا الانقسام الدينى سببا فى انقسام آخر فى داخل الدولة الألمانية ، لأن عددا من الأمراء ساندوا لوتر ، وكانوا فى مساندتهم اياه يمنون انفسهم بمزيد من الاستقلال عن روما . وكان الاتفاق بين لوتر وبين الأمراء ممكنا لأنه جعل الكنيسة الجديدة التى دعا اليها ، تحت سلطة الأمير (وهذا شىء لم يدع اليه المصلح السويسرى المعاصر له «كالفين»[1] الذى فتح الباب لمزيد من الحرية) .

واضطربت الأحوال على نطاق أوسع فى أوروبا كلها تدريجيا . ففى هذا الجو المتوتر تحرك الأتراك نحو أوروبا ، واختلف قيصر ألمانيا وملك فرنسا على حكم إيطاليا . وتمكن اللوتريون من نشر مذهبهم منتهزين فرصة انشغال القيصر كارل الخامس عدوهم فى شمال إيطاليا وانشغال فرانسوا الأول معه . ولقى اللوتريون آذاناً صاغية خاصة بعد أن تمت ترجمة لوتر للكتاب المقدس ، تلك الترجمة التى تعتبر عملا قوميا من الطراز الأول ، فهى التى صنعت اللغة الألمانية الحديثة ، وطوعتها للفلسفة الجديدة.والأدب الحديث . واستقرت الأحوال مؤقتا بالسلام الدينى الذى عقدت له اتفاقية فى مدينة أوجسبورج[2] فى عام ١٥٥٥ .

وكان من نتيجة الاضطرابات الدينية فى ألمانيا ، أن ظهر فى فرنسا اتجاه إلى إحكام القبضة على الحكم ، وإلى تأكيد سلطان الملك . وهو الاتجاه المعروف بالملكية المطلقة التى يمثلها لويس الرابع عشر خاصة . وهو اتجاه سينتقل إلى المانيا نفسها ، ويصبح مثلا يحتذيه الأمراء هناك . أصبح كل أمير يريد أن يكون هو الملك الإله ، الحاكم المتصرف ، المتمتع بحياة عظيمة فى قصر منيف ، وحوله النبلاء تحت امرته ورهن اشارته ، والرعايا عبيده ، وأولياء نعمته . وهكذا اندفع

(١) Calvin

(٢) Augsburg

تيار الطغيان من فرنسا يغرى الأمراء الواحد بعد الآخر ، ولكن بذور الثورة لم تكن قد ماتت ، بل كانت كامنة فى قلوب أصحابها تتحين الفرصة المواتية .

وبدأت حرب الثلاثين عاما فى عام ١٦١٨ بين الكاثوليك واللوتريين ، تلك الحرب التى نقص نتيجة لها تعداد الشعب الألمانى من ١٧ مليون نسمة إلى ٨ مليون ، وتحطمت فكرة الدولة الألمانية الموحدة إلى حين . ولم يقف اللوتريون الألمان فى مواجهة الكاثوليك الألمان فحسب ، بل دخلت دول أخرى إلى جانب هذا الجيش أو ذاك . دخلت السويد – وكانت قد اعتنقت المذهب البروتستنتى اللوترى – ودخلت الدنمارك . ودارت معارك لمعت فيها اسماء مثل ڤالنشتاين[1] قائد القوات القيصرية ضد القوات السويدية . وتحالفت فرنسا مع السويد فى فترة من فترات الحرب ضد بيت هابسبورج[2] ، وبهذا وقف الكاثوليك أمام الكاثوليك ! وانتهت الحرب فى عام ١٦٤٨ بتحطم ألمانيا فى الداخل ، وبازدياد قوة السويد وقوة فرنسا فى الخارج . ونال امراء ألمانيا استقلالا ذاتيا يكاد يكون كاملا ، كل فى إمارته ، وضعف القيصر ضعفا مسرفا . وعقد الأمراء معاهدات مع السويد أو مع فرنسا ، وبهذا أصبح التفكك حقيقة واقعة (عشرات من الامارات الصغيرة) . وكانت وطأة هذا التفكك على الرعايا على أشدها خاصة عندما أصبحت شخصية لويس الرابع عشر مثلا للأمراء الألمان يريدون ان يحتذوه فى استقلاله بالأمر وكلفه بالعظمة والأبهة .

ولكن انجلترا كانت تطل بوجه آخر . كان الحكم المطلق قد انتهى عهده بعد اعدام شارل الأول فى عام ١٦٤٩ ومحاولة كرمويل إقامة جمهورية برلمانية استمرت حتى عام ١٦٦٠ . وكان النظام البرلمانى قد ثبت أقدامه ، مؤكدا أن مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع مشكلة لها حل آخر ، حل عصرى ، يختلف اختلافا كليا عن الملكية المستبدة أو المطلقة . وليس هناك أدنى شك فى أن التجربة الانجليزية الناجحة كانت تجربة لها أعمق الأثر على البلاد الأوروبية

(١) Wallenstein

(٢) Habsburg

الأخرى ، وعلى ثورات الحرية فيها ، وعلى ثورات الحرية فيها . ويكفينا أن نذكر أن ڤولتير : أحد الممهدين لثورة فرنسا الكبرى ١٧٨٩ أمضى مدة فى انجلترا تشبع فيها بالجديد من الأفكار هناك ، وسجله فى رسائله التى وجدت آذانا صاغية فى فرنسا .

والخلاصة أن اتجاهين سيطرا على الحياة الأوروبية فى منتصف القرن السابع عشر ، اتجاه فى وجدان الشعب يسعى إلى مزيد من الحرية ، واتجاه بين الأمراء يسعى إلى مزيد من التسلط . وكذلك سيطر على الحياة الدينية اتجاهان ، اتجاه حركة الاصلاح اللوثرية بأفكاره الجديدة ، واتجاه حركة الاصلاح المضادة التى تمثلت فى المنظمة اليسوعية خاصة . وكانت شخصية لويس الرابع عشر فى فرنسا عظيمة التأثير على جوانب الحياة المختلفة ، وبخاصة على الثقافة التى تميز بها عصره . وكان للملك بلاط ممتاز يستجمع فيه النبلاء القدامى فى ظل الملك ، ويضم الملك اليهم جماعة من طبقات الشعب الأخرى ، تفوقت بجهدها أو علمها أو ميزاتها ، حتى تنكسر شوكة النبلاء القدامى ولا تكون لهم السيطرة . وكان البلاط يعج بالاحتفالات الباهرة وبمظاهر العظمة ، ويسعى إلى التأثير على أعين الناس أولا ، ثم على عقولهن وأفئدتهم بعد ذلك . وتطور الاهتمام بالثقافتين الرومانية والاغريقية القديمتين فى عصر النهضة فى ايطاليا وفرنسا إلى مرحلة الثقافة الكلاسيكية فى فرنسا ، التى أثمرت فى الأدب ، والأدب المسرحى خاصة ، أعمالا رائعة ـ راسين وكورنى وموليير .. وغيرهم ـ قامت على هذه المفاهيم ونقلتها إلى البيئات الثقافية المجاورة وخاصة فى ألمانيا .

وإذا كان الأدباء الألمان فى ذلك العصر لم يبرزوا بأعمال باقية وبالغوا فى الاهتمام بالنواحى الشكلية وبتقليد الفرنسيين ، وكانوا فى غالبيتهم يعيشون فى قصور الأمراء ويهتمون بالمظاهر والاحتفالات خاصة ، فقد اتيح لكثير منهم وضع لبنات لتكون أساسا لبناء يرتفع عندما يحين وقته ويظهر رجاله . فكتب الشاعر مارتين أوپيتس[١] فى عام ١٦٢٤ كتيبا فى فن الشعر . وألف جريفيوس[٢]

(١) Martin Opitz

(٢) Gryphius

ولوهنشتاين[1] للمسرح ما استطاعا . ويظهر أن جمهور المسرح فى ذلك الوقت كان يحب المسرح الانجليزى الذى أتت به إلى المانيا فرق انجليزية متجولة ، كان بعضها بدائيا ، ويحب المسرح الايطالى ، وخاصة الأعمال المسرحية الغنائية . ولسوف يتدهور المسرح الألمانى ، ويظل السنوات الطوال محصورا فى المسرحيات المرتجلة ، والمسرحيات المضحكة المبالغة فى الحركات وفى الهزأة ، المعتمدة على الشخصيات الثابتة التى تتكرر دواما مثل شخصية العبيط والملحوس وما إلى ذلك . ولسوف يحول هذا التدهور دون تفتق العبقريات ، ولسوف يؤدى إلى تشعب الطرق أمام المؤيدين والمعارضين ، بين المتنفعين وبين المصلحين ، حين تظهر كتابات جوتشد فى صدر القرن الثامن عشر مطالبة بتقليد الفرنسيين تقليدا صحيحا كاملا ، وتظهر كتابات ليسينج بعد ذلك بزمن مطالبة بالاهتمام بشيكسبير ، وتتضح بين جهود جوتشيد[2] وجهود ليسينج[3] الطريق التى ينبغى على المسرح الألمانى أن يسلكها ، فتنطلق العبقريات ، وعلى رأسها عبقرية شيللر.

حكمت الملكية المستبدة «دكتاتوريا» على أساس أن الحكم ملك يمينها — يقول لويس الرابع عشر «الدولة هى أنا» — وحولت النبلاء إلى ندماء ورفعت إلى مرتبتهم أصحاب المال والعلم والمواهب من الشعب ، وما لبثت ان منحتهم ألقاب النبلاء ، واعتمدت على جيوش من نوع جديد ، هى الجيوش النظامية . وأصبحت الجيوش النظامية — التى بعدت عن نفوذ النبلاء — محور الحياة فى الدولة . وقد اقتضى تكوين هذه الجيوش ، ارغام أبناء الفلاحين على احتراف حرفة أخرى لم يكن لهم بها شأن ، واقتضى انشاء هذه الجيوش تدبير أموال لها ، وبعبارة أخرى فرض ضرائب جديدة . ثم لما عجزت الضرائب عن تحقيق اطماح الملوك المستبدين ، اتجهت انظارهم إلى بلاد الفضة والذهب التى تواترت أخبارها بعد الكشوف الجغرافية ، وبدأ الاستعمار مرتبطا بالملكية المستبدة . بل ان

(١) Lohenstein

(٢) Gottsched

(٣) Lessing

الاستعمار وما استتبعه من نظام اقتصادى فى البلاد المستعمرة ، لم يلبث أن أتى بالضر لكثير من أهلها ، عندما نشأت المؤسسات «الصناعية» الاحتكارية لتصنع المواد الخام ، حتى يصدرها الملك أو الأمير ويحصل من ورائها على المال اللازم لأطماحه .. لجيشه الذى يوسع به ملكه ، ولبلاطه الذى يعيش فيه حياة البذخ ، ولقصوره التى كان الناس ينظرون اليها من بعيد ، ولا يقتربون منها . وما كان يمكن أن تؤدى هذه الأحوال إلا إلى ثورة يطالب فيها الفرد بحقه فى الوجود ، بحقه فى أن يكون شيئاً مذكوراً .

ولقد حاول الملك المستبد ، سواء كان هو لويس الرابع عشر ، أو من قلدوه ، أن يظهر منسجما ، يتربع على عرش كل شئ ، فيزيل منه التناقضات ، ويقفل عينيه عما يعتمل فى نفوس الناس ، ويعتقد أن كل شئ هادئ ، وان النظام مستتب ، حتى تملكه الوهم ، وأصبح فى نظره حقيقة . وأصبحت مشكلة العصر ، هى مشكلة إماطة اللثام عن الوهم ، والوصول إلى الحقيقة . ولا ينبغى أن ندهش عندما نجد الحياة الفكرية فى أوروبا تندفع بكل قوتها إلى «التنوير» و«التبصير» . ولا ينبغى أن ندهش عندما نجد الجد الأول لهذا التنوير أحد أبناء القرن السابع عشر . ولا ينبغى ان ندهش عندما نجد فلسفته قائمة على الفكر وعلى التأكيد على وجود الفرد : «أنا أفكر فأنا موجود» . انه ديكارت .

انساب هذان التياران ، تيار الطغيان وتيار التنوير ، من فرنسا إلى الدويلات الألمانية ، وشكلا التطور التالى فيها . كانت ألمانيا بعد نهاية حرب الثلاثين عاما ، أى بعد اتفاقية السلام الڤستفالية[1] عام ١٦٤٨ ، تتكون من ، أو على الأصح تتفرق إلى مئات من الدويلات الصغيرة التى لا يمكنها أن تقوم لها قائمة وحدها ــ ومن هذه الامارات مثلا امارة ڤرتمبرج التى كان عدد سكانها نصف مليون نسمة ، وكانت مدنها الكبيرة كالقرى يسكنها خمسة آلاف أو ستة آلاف ، وكانت حاضرتها شتوتجارت[2] تعد ٢٢ ألف نسمة . على أن إمارة النمسا

(١) Westfälischer Friede

(٢) Stuttgart

وإمارة بروسيا كانتا على درجة من الكبر ، تسمح لها بتطور من نوع آخر ، ربما يطاول تطور الدول الأوروبية الأخرى مثل فرنسا وانجلترا والسويد . أما النمسا فكانت أسرة الهابسبورج الحاكمة فيها ، قد تحولت إلى أسرة امبراطورية ، إلى الأسرة التي تقدم لألمانيا القيصر . وتمكنت النمسا من التوسع في شرق أوروبا حتى التحمت بالأتراك الذين كانوا يتوسعون في المنطقة نفسها وكانت النمسا كاثوليكية ، وكانت حكومتها ملكية مستبدة مثل فرنسا . — وأما بروسيا(١) ، أو على الأصح براندنبورج بروسيا ، فكانت إمارة لوثرية المذهب ، تمكن أميرها الناخب فريدريش ڤيلهلم من تنميتها وتطويرها بعد انتهاء حرب الثلاثين سنة ، واتبع في ذلك أسلوب الملكية المطلقة : حكم مركزى ، كسر شوكة النبلاء ، جيش نظامى ، ضرائب ، اقتصاد احتكارى ، استعمار . وقد أدى طرد فرنسا للبروتستانتيين ، ولجوئهم إلى براندنبورج بروسيا ، إلى حصول هذه الامارة النامية على مجموعة كبيرة من الفنيين المهرة في كل التخصصات تقريبا . — وفي الوقت الذى وقف فيه امراء المانيا جميعا ضد لويس الرابع عشر في مطالبته بأسبانيا وبهولندا وباللورين والبفالس(٢) ، وثاروا على سياسة فرنسا التوسعية ، وقف أمير براندنبورج بروسيا على الحياد ، فوعدته فرنسا بعدم مساعدة السويد عليه . — فلما ظهر الأتراك أمام ڤيينا في عام ١٦٨٣ ، وانتهز الملك لويس الرابع عشر هذه الفرصة لدخول البفالس ، تحالفت الدول الأوروبية كلها لمواجهة الأتراك والفرنسيين ، وكانت إمارة براندنبورج بروسيا في هذا الحلف . وفي عام ١٦٩٧ هزت القوات المتحالفة بقيادة الأمير أويجين(٣) الأتراك هزيمة حاسمة . وكذلك انصرف لويس الرابع عشر ، بعد هزائمه في منطقة نهر الراين ، عن سياسته التوسعية فلما مات فريدريش ڤيلهلم جد حكم دام خمسين سنة ، ترك إمارة قوية ، واسعة ، لها ادارة منظمة وجيش نظامى . وتمكن ابنه ، الذى تولى بعده ، من الحصول في عام ١٧٠١ على لقب ملك . وأصبح يسمى « فيدريش الأول » ملك بروسيا .

(١) Preussen

(٢) Pfalz

(٣) Prinz Eugen

وشهدت أوروبا فى مطلع القرن الثامن عشر حربين . تحالفت بروسيا وروسيا ـ القيصر بطرس الأكبر ـ على السويد فى ١٧٠٨ فهزمت السويد وفقدت سيطرتها على بحر البلطيق وأعادت أراضى پومرن إلى بروسيا . أما الحرب الثانية فكانت بين النمسا وفرنسا على عرش أسبانيا ، ودخلت فيها انجلترا . وانتهت هذه الحرب بحصول انجلترا على كندا وجبل طارق وبحصول النمسا على هولندا وشمال ايطاليا ونابلى .

ولقد سعى فريدريش الأول ملك بروسيا إلى تحويل مملكته إلى منافس لفرنسا ، وجعل برلين مركز النشاط الثقافى بها ، وأنشأ فيها الكثير من العمائر وقصراً جديداً . وكان تأثير الثقافة الفرنسية واضحاً فى البلاط وفى الطبقة المحيطة بالملك . أما الشعب ، فقد نشأت بين ظهرانيه حركة تبعد عن المظاهر ، وتهتم بالداخل ، بالوجدان ، وبالايمان . وهى تلك الحركة التى عرفت باسم التقوية أو الورعية (١) ، والتى كان لها أثرها فى الأدب ، وخاصة على الأديب كلوپشتوك(٢) الذى جدد الشعر الألمانى وفتح الطريق أمام جوته .

ومات فريدريش الأول فى عام ١٧١٣ ، وخلفه ابنه فريدريش فيلهلم الأول . وكان الملك الجديد على عكس الملك المتوفى فى بعض الأمور وخاصة فيما يتعلق بالحياة فى البلاط . كان ضد الترف ، وأسرف فى ذلك فاعتبر المسرح بذخاً وأهمله ثم حرمه ورأى فيه نشاطاً ينافى الأخلاق . وحصر نشاطه فيما تصور أنه يؤدى إلى القوة ، فترك العلوم والفنون وشأنها ، واهتم بالجيش ، حتى سمى « بملك الجنود » ، وبالحض على أخلاق متينة من إخلاص تام وتفان مطلق وطاعة كاملة للملك ، ونشاط لا يعرف الكلل ، وتغليب لمصلحة الدولة على كل ماعداها . وقد دخلت هذه الأخلاق التاريخ باسم « البروسية » أو الروح البروسية . وإذا كان فريدريش ڤيلهلم الأول يحكم على أساس الملكية المطلقة ، فقد دفعته مصلحة الجيش ، إلى الحيلولة بين النبلاء أصحاب الأرض وبين ظلم

(١) Pietismus

(٢) Klopstock

الفلاحين ، حتى يقدم الفلاحون أبناءهم للجيش غير مكرهين . كانت ثمرة حكم فريدريش ڤيلهلم الأول تتلخص فى تدعيم الاستقرار فى الدولة ، وفى إعداد أقوى وأكفأ جيش أوروبى ، وفى تعميق إتجاه متين من الأخلاق والدقة والضمير والبطولة . وقد بلغ التزمت بفريدريش ڤيلهلم الأول حداً غير مألوف ، ظهر خاصة فى معاملته القاسية لابنه ، فلم يحرم عليه الاشتغال بالأمور اللينة ــ مثل الموسيقى والشعر ــ فحسب ، بل أدخله فى جهاز الدولة ليتدرب على الإدارة والحكم على كل المستويات ، ولم يتورع عن الزج به فى السجن وإعدام صديق له ، عندما حاول الفرار من قيود أبيه ونظامه الفولاذى .

فلما تولى الابن العرش باسم فريدريش الثانى ــ فريدريش الأكبر(١) ــ وجد وسائل القوة رهن إشارته ليحقق أحلامه . وكان فريدريش الأكبر ، على عكس أبيه ، يحب الموسيقى والأدب خاصةً ، ويهتم بالفنون والفلسفة والعلوم عامةً ، وكان مغرماً بالأدب الفرنسى والفكر الفرنسى . ويذهب فى هذا الغرام إلى حد احتقار الأدب الألمانى ؛ وله عن الأدب الألمانى كتاب مشهور ، أثار عند ظهوره غضب الكثرة من الألمان المتمسكين بألمانيتهم . وكان فريدريش الأكبر ملكاً يمثل الملكية المطلقة من ناحية ، ويأخذ بكثير من مثل التنوير التى نادى بها المعاصرون من فلاسفة فرنسا من ناحية أخرى(٢) ، وكانت له علاقة خاصة بڤولتير الذى استدعاه إلى بلاطه ، فاتصل الود بينهما حيناً ، ودب الخلاف بينهما بعد ذلك .

وانتهز فريدريش الأكبر فرصة موت القيصر ، وكان من البيت الحاكم النمساوى ، وتولى ابنته الصغيرة ماريا تيريزيا الحكم بعده ، فبدأ يوسع ملكه على حسابها . وكانت الأميرة تواجه معارضة من جانب الأمراء الألمان عامةً ، لا يرضون بانتخابها لمنصب القيصر . وطالب فريدريش الأكبر بشيليزيا(٣)

(١) Friedrich der Grosse

(٢) من بين هذه المثل أن الملك هو الحاكم المطلق وهو فى الوقت نفسه الخادم الأول للدولة .

(٣) Schlesien

فرفضت ماريا تيريزيا ، فهجم فريدريش الأكبر وانتصر ، وتكررت المعارك ، وكان فريدريش الأكبر ينتصر دائماً . حتى تمكن من ضم شيليزيا إلى مملكته نهائياً ، وأصبحت مملكته تحتل مكان الصدارة . أما ماريا تيريزيا فقد حاولت تحطيم المعارضة المشتدة نحوها فحصلت على لقب القيصر لزوجها القيصر فرانتس الأول . ولكن التاريخ الألمانى سيظل فترة طويلة تاريخ التناحر بين الدولتين الألمانيتين الكبيرتين : النمسا وبروسيا . ويظهر هذا التناحر بصفة خاصة فى حرب السنين السبع من ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ . فقد تحالفت النمسا وروسيا على بروسيا ، وهزمتا فريدريش الأكبر هزيمة منكرة فى عام ١٧٥٩ ، وأصبحت الدولة على شفا الهاوية حقيقة ، ولكن الروح البروسية التى لا تتزعزع ، مكنت بروسيا من الصمود ، بل والانتصار فى معركة دفاعية فى العام التالى . ولعب الحظ دوره ، إذ ماتت الامبراطورة الروسية إليزابث وخلفها بطرس الثالث ، الذى وقف إلى جانب بروسيا ، وكذلك فعلت أرملته الامبراطورة كاترينه بعد قتله . وبهذا حصلت بروسيا على شيليزيا نهائياً . ولكن المعارك الدائمة كانت قد أحدثت الكثير من الخراب ، وأضرت باقتصاديات كثير من الإمارات الألمانية الصغيرة ، فاشتد فقر الطبقات الكادحة ، واشتد صلف الأمراء وتطلعهم إلى العظمة والأبهة من الناحية المقابلة .

ولا يخطىء الإنسان إذا قال إن هذه الفترة ، مطلع القرن الثامن عشر ، فترة فقيرة من الناحية الفنية ، ممزقة بين محاولة إنتاج للأمراء يتسم بالأبهة ، ومحاولة إنتاج للعامة ينبض بما فى قلوب الناس من مشاعر . وقد أتيح للعصر أديب استطاع أن يشق طريقاً بين الإتجاهين ، هو كلوپشتوك (١٧٢٤ ـ ١٨٠٣) فى ملحمته الدينية « ملحمة المسيح »[(١)] التى تدور حول موضوعات دينية ، فى قالب يتسم بالأبهة والعظمة . كذلك أتيح للعصر عبقرية موسيقية فريدة هى يوهان زباستيان باخ[(٢)] الذى جمع فى تأليفه بين الشكل المحكم العظيم والنواة الروحانية الدينية . وكان الاهتمام بالموضوعات الدينية الروحانية

(١) Der Messias

(٢) Johann Sebastian Bach

الصوفية يسيطر على ألباب الناس منذ لوتر ، وكان هذا الإهتمام يشتد كلما اشتدت المحن .

وليس من شك فى أن الثقافة الفرنسية وجدت لها فى بروسيا أرضاً خصبة وقد تحمس لها الملك . ولكن آثارها لم تسلك اتجاهاً واحداً ، بل تفرقت إلى اتجاهات عديدة ربما يعارض بعضها البعض أحياناً . كانت الثقافة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، ومنذ بدايته تقريباً ، توسع دائرة الفلسفة الديكارتية ، وتسعى إلى اقامة فكر انسانى مستقل عن المؤثرات الخارجية . كان ديكارت قد رفع شأن التفكير ، وجعله أساس الوجود الإنسانى فى عبارة « أنا أفكر فأنا موجود » . فوجود الإنسان لا يبرهن عليه ما جاء فى الكتاب المقدس ، بل يبرهن عليه الفكر . الفكر هو أساس كل شىء . حتى إثبات وجود الله عند ديكارت قضية يفصل فيها الفكر . كانت الثقافة فى القرن الثامن عشر توسع هذا المفهوم الديكارتى ، وتدعو إلى العقل ، وإلى العقلية ، وإلى تنوير الناس وتعريفهم بما تفتق عنه عقل الإنسان ، وبما يمكن أن يتفتق عنه من نتائج لا تنتهى عند حد . وشملت هذه الجهود تطوير العلوم الوضعية ، والدعوة إلى الايمان بالتقدم البشرى ، وإلى تحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع . وما من شك فى أن كتابات مونتسكيو وڤولتير وروسو وغيرهم من فلاسفة القرن الثامن عشر ، صنعت الثورة الفرنسية ، والحركات الثورية فى ألمانيا . كانت هذه الكتابات قد بلورت عدداً من المفاهيم الأساسية (مفاهيم حركة التنوير) : حرية الفرد ، المساواة بين الناس ، العدل . وكان التطبيق الأمريكى لهذه المفاهيم حافزاً على السعى إلى تطبيقها فى أوروبا .

ووجدت الثقافة الفرنسية فى لايبتسج داعية لها هو : يوهان كريستوف جوتشد[1] (١٧٠٠ ـ ١٧٦٦) الذى كان أستاذاً للفلسفة فى جامعة لايبتسج ، وكان يهتم بالأدب والمسرح اهتماماً لا يقل عن اهتمامه بالفلسفة . نشر جوتشد فى عام ١٧٣٠ كتاباً بعنوان « محاولة فى فن الأدب النقدى » دعا فيه إلى القضاء على

(١) Johann Christoph Gottsched

المسرحيات التافهة التى تقوم على الارتجال وعلى الشخصيات الثابتة المضحكة التى تتكرر فى كل مسرحية ، ودعا إلى الاعتماد على مسرحيات جادة مترجمة عن الفرنسية أو مقتبسة من مسرحيات فرنسية أو مقلدة لمسرحيات فرنسية . حتى يتاح لألمانيا أدباء من نوع راسين وكورنى وموليير وفولتير ينشئون أعمالا خاصة من نوع مؤلفات هؤلاء .

وقد أدت دعوة جوتشد إلى القضاء على المسرح التافه . وإلى خلق جمهور يهتم بالمسرح الجاد على الأسلوب الفرنسى خاصة ، وإلى خلق ذوق من مستوى رفيع . ولكن مطالب جوتشد مالبثت أن أثارت المعارضين . كان جوتشد يدعو إلى الالتزام بقانون الوحدات الثلاث (الزمن والمكان والحدث) فى المسرح ، ويطالب بالتزام العقل فى كل شئ . وكانت المعارضة تطالب بالتحلل من قانون الوحدات الثلاث ، وتطالب بإفساح مجال للعواطف والأحاسيس . ومثل المعارضة جوتهلد افرايم ليسينج[1] من ناحية . وبودمر[2] وبرايتنجر[3] من ناحية أخرى . وكانت قوة ليسينج تتلخص فى أنه كان لا يدعو إلى شئ إلا وينشئ عملاً يجسمه ، ولهذا فان أعماله النقدية وأعماله الفنية المسرحية تتسم بأهمية خاصة ، فى حد ذاتها ، وكمرحلة تؤدى إلى ظهور كبار كتاب المسرحيين الألمان فيما بعد . ويدين المسرح الألمانى لليسينج فوق ذلك بدين بالغ الأهمية . هو التعريف بشيكسبير ، وفتح أعين الألمان على القرابة التى بين العقلية الشيكسبيرية والعقلية الألمانية ، فتولد اهتمام بشيكسبير ظل يتزايد ويتزايد ، حتى أصبح شيكسبير ركناً ركيناً فى المسرح الألمانى . وليسينج هو الجد الأول للكلاسيكية الألمانية ، فقد أعد لمفاهيمها الجمالية ، ودعا إلى الإنسانية مثلاً أعلى قبل كانط[4] وشيللر وجوته . وكان ليسينج بصفة عامة يمثل التنوير فى ألمانيا ، فكان يدعو فى كتاباته إلى الحرية ، ويهاجم الاستعباد ، ويطالب بالتسامح .

(١) Gotthold Ephraim Lessing

(٢) Bodmer

(٣) Breitinger

(٤) Emanuel Kant

ولكن الدعوة إلى العقل والعقلية كانت فى اندفاعها إلى الأمام ، تمهد للدعوة المضادة لها . والفكر الإنسانى لا يعرف حركة إلا وجرت حركة مضادة لها . وكانت الحركة المقابلة للحركة العقلية هى التى عرفت فى ألمانيا باسم « العاصفة »(1) كانت حركة « العاصفة » تتأثر بروسو فى دعوته إلى العودة بالإنسان إلى الطبيعة ، ودعوته إلى تمجيد حالة الفطرة التى لم تفسدها ألوان التكلف التى يضطر الإنسان إليها فى المجتمع . وكانت انجلترا قد أحدثت فى ألمانيا أثراً دعّم أثر روسو . جاءت من انجلترا مجموعة قصائد أوسيان (أوشن) التى نشرها مكفرسن مترجمة ، على أنها من أقدم عصور أوروبا ، فتحمس الناس لهذا الفن العظيم الذى أتيح للإنسانية فى عصرها الأول ، أيام كانت على الفطرة تعيش فى أحضان الطبيعة . وظهرت نظرية « العبقرى » ليانج ، تتحدث عن الحرية العبقرية ، فما ينبغى أن تتقيد العبقرية بقيود ، بل لها أن تندفع كالعاصفة

. هذا الجو الذى شهد مولد باكورة أعمال شيللر « قطاع الطرق » . كانت حركة العاصفة قد تبلورت فى عدة مبادئ هى الاهتمام بالطبيعة والنظر اليها على أنها آية الله ، واعتبار الاندماج فيها عبادة ، وتخليص العبقرية المبدعة من القيود ، فهى حرة تنتج ما تشاء . وما أسهل الانتقال من مفهوم العبقرى الحر والفنان الحر ، إلى الانسان الحر والفرد الحر فى وقت كانت فيه مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع تغلى وتفور . هذا الانتقال المندفع من محراب الفن إلى الناس جميعاً ، من المفهوم الفنى إلى المفهوم السياسى والاجتماعى للحرية هو عمل شيللر فى مسرحيته الأولى.. كانت مسرحية شيللر قد ولدت فى موعدها فأحدثت أثرها . وشبيهتها مسرحية « جوتس فون برليشنجن ذو اليد الحديدية » التى ظهرت قبلها بعشرة أعوام تقريباً ، مسرحية ثورية أيضاً فى تكوينها وبنيانها ، وأسلوبها ، ومضمونها وشكلها ، ولكنها لم تحدث فى الجماهير أثراً مباشراً من الناحية السياسية والاجتماعية .

(1) Sturm und Drang

وفى الوقت الذى كانت فيه حركة العاصفة تسير فى اتجاهها بخطى بدأت تضعف بعد النجاح الساحق فى « قطاع الطرق » ، كانت هناك أحداث هامة تكتمل تدريجياً ، لتؤثر على الفكر الألمانى عامة ، وعلى شيللر خاصة . كان يؤاخيم ڤينكلمن [١] (١٧١٧ ـ ١٧٦٨) يتم كتابة « تاريخ الفن فى العصور القديمة » [٢] وكان إمانويل كانط يعمل فى تطوير فلسفة التنوير وفى تكوين مفاهيم جديدة للميتافزيقا ، والأخلاق والمعرفة . كان ڤينكلمن قد قصد روما فى عام ١٧٥٥ لدراسة الفنون التى ازدهرت فى العصور القديمة للإغريق والرومان ، واستطاع أن يتوصل إلى تحديد معايير الجمال عند الأقدمين أو تحديد القيم الاستطيقية عندهم . وقد مهدت دراسات ڤينكلمن على هذا النحو الطريق أمام الكلاسيكية الألمانية التى يمثلها جوته وشيللر معاً ، وفتحت عينيهما على هذه الآفاق الجديدة التى حلقا فيها بعد مرحلة من العنف العبقرى . أما إمانويل كانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) فيلسوف زمانه ، فكان قد تولى كرسى الفلسفة فى جامعة كونجسبرج ، وبدأ فى الإعداد العظيم لفلسفته التى أتاحت لمعاصريه من وضوح الرؤية الشئ الكثير ، تلك الفلسفة التى احتوتها إلى جانب محاضراته ، كتبه : « نقد العقل المحض » ١٧٨١ و « نقد العقل العملى » ١٧٨٨ و « نقد قدرة الحكم » [٣] ١٧٩٠ . غير كانط مفهوم الميتافيزيقا الذى روجته حركة التنوير ومنت نفسها أن تبلغ به المطلق ، وجعله ينحصر فى حدود إمكانات العقل البشرى التى عليها أن تأخذ فى اعتبارها إمكانات نظرية المعرفة وهى إمكانات لها حدودها التى لا تتجاوزها . والمعرفة عند كانط تقوم على التجربة والحس . والمعرفة يحددها العقل وتحددها تصورات الزمان والمكان الموجودة به مسبقاً . هذه هى خلاصة آراء كانط فى العقل المحض أو العقل الخالص ، أما فى حديثه عن العقل

(١) Joachim Winckelmann

(٢) Geschichte der Kunst des Altertums

(٣) Kritik der reinen Vernunft

Kritik der praktischen Vernunft

Kritik der Urteilskraft

العملي ، فانه يبدأ من أن الانسان يستحيل عليه أن يحيط بشيء إلا عن تجربة ، ولكن العقل قادر على تحديد إرادة الانسان ومسلكه العملي . وإذا كان الإنسان يخضع عموماً لقانون الطبيعة الذى يسيطر على الإنسان عامة ويجعله إنساناً غير حر ، فإن الإنسان يمكنه أن يكون حراً ، وأن يحقق حريته ، عندما ينمى شخصيته وينمى عقله العملي ، فلا يكون ملزماً إلا حيال العرف العام . وهذا العرف العام هو ما يسميه كانط « الأمر القطعى » . وقد أثرت فلسفة كانط على معاصريه ، وعلى شيللر خاصة ، تأثيراً هائلاً ، حتى أننا يمكننا أن نقول إن آراء شيللر عن الحرية لا يمكن تصورها بدون فلسفة كانط من ورائها .

شهد عام ١٧٨٦ أحداثاً هامة عديدة . فيه ظهر كتاب كانط « نقد العقل العملي » وفيه رحل جوته إلى إيطاليا هرباً من تكاليف الوزارة التى تولاها فى إمارة ڤايمار وحالت بينه وبين الاشتغال بالأدب ، وسعياً إلى عناصر جديدة يدعم بها نشاطه الإبداعى . وفيه مات فريدريش الأكبر بعد أن تمكن من إعادة بناء مملكته التى كانت حرب السنين السبع قد خربتها . والحقيقة أن الفترة التى تلت حرب السنين السبع كانت فترة هدوء فى الديار الألمانية بصفة عامة ، أتاحت الفرصة أمام الأمراء للنهوض بإماراتهم . وإذا صح أن الكثير من الأمراء بنوا وعمروا ومكنوا لأعداد كبيرة من سواد الناس أن تتقدم وتشغل مناصب رفيعة ، فإن المشكلة الكبرى ، مشكلة حرية الفرد كانت تزداد حدة ، وتتحول إلى معركة حقيقية .

ودخل شيللر المعركة بمسرحيته « مكيدة وحب »[١] ، مسرحية سدد بها الضربات إلى الحكم الطاغى ، ودافع بها عن كرامة المواطن الصغير . وقد شهدت العاصمة الباريسية بعد أيام من عرض مسرحية « مكيدة وحب » فى ألمانيا ، مسرحية تطالب بالشىء نفسه . كان ذلك فى يوم ٢٢ أبريل ١٧٨٤ عندما عرضت مسرحية « زواج فيجارو » تأليف كارون بومارشيه[٢] ، وأحدثت

(١) Kabale und Liebe

(٢) Caron de Beaumarchais : Le mariage de Figaro

دوياً هائلاً ، فقد كانت الثورة الفرنسية توشك على الاندلاع ، وكانت كلمات المسرحية نابعة من قلب الثورة الوشيكة : « ما معنى أنك من النبلاء ؟ كل ما فعلته يا سيدى أنك ولدت . ولم تفعل أكثر من هذا . إنك فيما عدا مولدك هذا رجل عادى كجميع الناس » . كان هذا التشابه بين الدعوة الشيللرية والدعوة البومارشية فى مسرحيتين ظهرتا فى وقت واحد ، تشابهاً محضاً ، لا يرجع إلى تدبير ، بل ينطلق من قلب يحس بآلام العصر وفى عام ١٧٨٧ بلغ شيللر الذروة بمسرحيته « دون كارلوس » التى دخلت التاريخ نموذجاً للمسرحية الفكرية المجسمة لأرفع المثل العليا الإنسانية : الحرية . وما مرت إلا شهور حتى كانت الجموع الثائرة فى باريس تهاجم الباستيل .

وإذا كان القدر قد شاء أن تندلع الثورة فى باريس ، وأن تجد من الظروف ومن الرجال ما يجعلها تنجح وتحتفظ بنجاحها ، فان القدر شاء أن تقف ألمانيا أو على الأصح الأمراء الألمان ، موقف المناهض للثورة . كان عدد كبير من النبلاء الفرنسيين قد هربوا إلى مناطق مختلفة من ألمانيا ، ونظموا حركة مناهضة للثورة ، ووجدوا آذاناً صاغية لدى الأمراء الذين كانوا يخافون أن تنتقل عدوى الثورة إلى إماراتهم . وكان بعض المفكرين ومنهم الإنجليزى بيرك قد نشروا مؤلفات تنفر الناس من الثورة ، وترغبهم فى التطوير التدريجى بدلاً منها ، ولقيت هذه الكتابات ترحيباً لا يستهان به خاصة بين المثقفين بعد أن سالت الدماء بحوراً فى فرنسا ، وأكلت الثورة بنيها ـ كما قيل فى ذلك الوقت . وكانت النمسا ، على رأس المهتمين بمناهضة الثورة الفرنسية ، فقد كانت مارى انطوانيت ، ملكة فرنسا ، من البيت الملكى النمساوى ، وابنة ماريا تيريزيا .

وقامت الحرب الأولى المضادة للثورة الفرنسية فى عام ١٧٩٢ ، وتزعمت هذه الحرب بروسيا والنمسا . وقد دخلت بروسيا الحرب وهى تمنى نفسها بتوسعات فى منطقة الراين . وتقدمت القوات البروسية النمساوية إلى فرنسا ، ولكن روسيا تحركت لتحتل بقية بولونيا . فسحبت بروسيا قواتها من فرنسا ، لتنقلها إلى الشرق ، كى تنال جزءاً من بولونيا . وبهذا تحولت الانتصارات البروسية النمساوية الأولى إلى الضد ، وفشل التدخل العسكرى ، وثبتت أقدام

الثورة الفرنسية . وكان جوته ممن رأوا طرفاً من المعارك التى دارت بين قوات الثورة الفرنسية ، والقوات البروسية النمساوية ، فقد كان على إمارة ڤايمار أن تقدم جيشها فى هذه الحرب ، واشترك فى حصار ماينس . فلما تحولت الثورة الفرنسية إلى سفك الدماء وسقط رأس الملك والملكة ، تجددت الحروب المناهضة للثورة الفرنسية واشتركت فيها إلى جانب بروسيا والنمسا ، هولندا وانجلترا ودويلات ألمانيا كلها تقريباً . وفشلت الحرب بدورها ، وانتصرت قوات الثورة الفرنسية . وتكونت فى الأراضى الألمانية غربى الراين دولة ثورية موالية لفرنسا هى « جمهورية الراين » .

كانت نشأة « جمهورية الراين » الموالية لفرنسا : ثم مطالبة فرنسا بتوسيع حدودها على حساب الأراضى الألمانية ، من أسباب إثارة الرأى العام الألمانى لا ضد الثورة الفرنسية فحسب ، ولكن ضد فكرة الثورة عامة . كان المطالبون بالحرية فى ألمانيا - شيللر مثلاً - يريدون الثورة ، ولكن « هذه » الثورة خيبت آمالهم . فلا ينبغى أن يدهش الانسان عندما يجد شيللر يشيح بوجهه عن الثورة الفرنسية ، ويجد فكره يتجه اتجاهاً غير اتجاهها ، وانتاجه الأدبى يتسم تدريجياً بمزيد من الهدوء والاعتدال ، وان ظل متمسكاً بمبادئه ومثله كل التمسك . كانت الثورة الفرنسية قد انتهت وتحولت فرنسا إلى دولة ككل الدول المجاورة ، لا تتمسك بالمبادئ قدر تمسكها بالمكاسب . فعقدت اتفاق صلح مع بروسيا . ونالت بروسيا جزءً من بولونيا ، بعد أن تدخلت روسيا فى بولونيا ، وقمعت الثورة البولونية بمنتهى العنف ، وكسبت من أراضيها الجزء الأكبر ، وتركت ما بقى للنمسا . كانت الدول الأوربية تعادى فرنسا وتحاربها ، ولكنها كانت تفضل على قمع الثورة ، التوسع أياً كان . وسرعان ما أدت العمليات العسكرية التى أحاطت بالثورة الفرنسية إلى ظهور شخصية نابليون ، الذى تمكن فى نهاية القرن الثامن عشر - بعد فشل حملته فى الشرق الأوسط - من السيطرة على الأمور فى فرنسا تدريجياً . وكان النصر العسكرى الذى حققه على النمسا ، واتفاق السلام فى ١٨٠٣ ، يعطى فرنسا الأراضى الألمانية غربى نهر الراين . وبدأ نابليون يفكر فى توزيع جديد للإمارات الألمانية بالاتفاق مع روسيا .

وكانت الإمارات الألمانية فى ذلك الوقت حوالى ثلاثمائة إمارة بين صغيرة وضئيلة. وانعقدت لهذا الغرض لجنة. كانت من نتائج أعمالها ضم الإمارات الصغيرة بعضها مع البعض وتكوين ولايات كبيرة، فكبرت بروسيا وبافاريا وڤورتمبرج وبادن. وليس من شك فى أن أعمال هذه اللجنة كانت متعسفة ولم تكن تأخذ فى اعتبارها رغبات الأهالى، ولكنها كانت على أية حال بداية لعصر جديد من الإصلاح، لن يلبث أن يأتى بالخير للفلاحين وغيرهم من طبقات الشعب المظلومة، ولن يلبث أن يقلم أظافر الإقطاع. على أن التدخل الفرنسى فى الشئون الألمانية كان يبيت نوايا أخرى، وكان يحرك تدريجياً أحاسيس كامنة فى الضمير الألمانى.

وما جاء عام ١٨٠٤ حتى كان نابليون يتوج نفسه إمبراطوراً ويحيط نفسه بهالة الإمبراطورية ويحلق بأحلامه فى آفاقها. وتخلى الإمبراطور الألمانى- وكان من بيت هابسبورج النمساوى- عن التاج الألمانى، وتتوج بتاج جديد، هو تاج الامبراطورية النمساوية، رافضاً بذلك الخضوع لنابليون. وتحالف القيصر النمساوى مع القيصر الروسى وملك انجلترا ودخل الثلاثة الحرب ضد نابليون الذى انتصر فى معركة القياصرة أو الأباطرة الثلاثة، معركة أوسترليتس، واحتل ڤيينا. كذلك احتل نابليون هانوفر، المدينة الألمانية التى كانت تتبع انجلترا. أما بروسيا فقد عرض عليها نابليون تاج ألمانيا وعرض عليها هانوفر ثمناً لوقوفها على الحياد أولا والسير فى الفلك الفرنسى بعد ذلك بطبيعة الحال. ولكن بروسيا فضلت الحرب، وتحالفت مع روسيا. وبدأ نابليون يعد للخطوة التالية. فعين عدداً من اخوته وأقاربه ملوكاً على المناطق الخاضعة له: نابلى وأسبانيا وهولندا وولايات جنوب وغرب ألمانيا... وكثرت العروش الملكية النابليونية. وبقى من الأمراء الألمان عدد قليل منهم أمير باڤاريا وأمير ڤرتمبورج، اللذان رفعهما نابليون إلى مرتبة الملوك! وكون نابليون من الولايات الألمانية بعد هذا التغيير رابطة هى «رابطة الراين» تضم ١٦ ولاية تعهدت بالوقوف إلى جانبه فى حالة الحرب. وبدأت بروسيا تجمع المناطق الألمانية الشمالية حولها، فهجم نابليون وتمكن فى فترة وجيزة لا تزيد على شهر ونصف شهر إلا قليلاً من القضاء على القوة البروسية فى معارك أشهرها معركة يينا وأورشتيدت واحتلال برلين (١٨٠٦) واضطر

فريدريش ڤيلهلم الثالث ملك بروسيا إلى قبول صلح مجحف هو صلح تيلزيت (١٨٠٧) تنازلت فيه بروسيا عن كثير من المناطق التابعة لها ، وقبلت الاحتلال الفرنسي حتى تدفع التعويضات . وبهذا أصبحت الأراضي الألمانية كلها تحت السيطرة النابليونية وأصبحت قضية الاحتلال الأجنبي قضية عامة في ألمانيا . وبدأت المقاومة الألمانية دعا اليها الفيلسوف فيشته . وظلت حركة المقاومة تستعد وتتأهب حتى تمكنت في عام ١٨١٣ من الدخول في حرب التحرير ضد نابليون والانتصار في معركة لايبتسيج .

الباب الثانى

البداية

اهتم كتاب سيرة شيللر القدامى خاصة بتتبع أسرة والد الشاعر الكبير ووالدته إلى أقدم الأجداد . ويقال إن الأديب جوستاف شفاب (1) (١٧٩٢ - ١٨٥٠) بحث فى السجلات القديمة التى ترجع إلى القرن السابع عشر فوجد أن أقدم أجداد شيللر كانوا خبازين يحترفون هذه الحرفة بأمانة وإتقان . كان الجد مثلا واسمه يوهانس شيللر خبازاً معروفاً فى قرية كثيرة السكان هى بيتنفلد (2) لا تبعد كثيراً عن مدينة فايبلينجن وشتوتجارت فى ولاية فرتمبورج ولا بد أنه كان يحظى بتقدير الأهلين لأنه انتخب عمدة للقرية علاوة على عمله . وتبين السجلات القديمة أن هذا الجد مات فى عام ١٧٢٣ تاركاً أرملة وأولاداً ثمانية بينهم صبى فى العاشرة من عمره هو يوهان كاسبار(3) . وخرج هذا الصبى على تقاليد الآباء وألح على أمه أن تسمح له بأن يحترف شيئاً آخر غير الخبازة ، وكان

(١) Gustav Schwab

(٢) Bittenfeld

(٣) Johann Caspar

يود لو أتيحت له فرصة ليدرس أو على الأقل ليدخل فى عداد الكتبة ولكنه لم يصل إلا إلى الحصول على موافقة أمه على الالتحاق صبياً لدى أحد الحلاقين. وكان الحلاقون يمارسون فى ذلك الوقت شيئاً من الجراحة التى لم تكن قد تطورت بعد لتصبح حكراً على الأطباء. وتعلم الصبى مبادىء الجراحة، وانتفع بوقت فراغه فى إتقان اللغة اللاتينية وفى تعلم علم النبات والزراعة. فلما أتم فترة صبيانية الحرفة خرج للتجوال على عادة طلاب الحرف، وتعلم المزيد فى نوردلينجن على يد جراح متخصص. وفى عام ١٧٤٥ التحق بإحدى الكتائب العسكرية البافارية التابعة للقوات الهولندية المشتركة فى الحروب التى دارت فى أوربا عقب تولى ماريا تيريزيا العرش النمساوى. وكانت وظيفته هى جراح احتياطى فلم تكن الحاجة إليه ماسة. ولهذا لم يحصل على حصان، بل تبع الكتيبة سيراً على الأقدام، حتى وصل إلى شارلروا، فلم يستطع مواصلة السير لفرط إجهاده وبقى يومين طلباً للراحة فوقع فى يد القوات الفرنسية التى ظنته جاسوساً، ثم اعتبرته أسيراً ونقلته إلى جنت واضطرته إلى الانخراط فى سلكها برغمه. وتشاء المصادفات أن يقع فى أيدى قوات القيصر الألمانى، فترده إلى الكتيبة البافارية التى كان بها أصلاً حيث خصص له راتب قدره ٣٠ جولدن. وشهد هكذا عدداً من المعارك. فلما عاد السلام باتفاقية آخن عام ١٧٤٨ ساح فى البلاد ما استطاع، وزار لاهاى وامستردام ولندن، ثم عاد فى العام التالى إلى موطنه، ونزل فى « فندق السبع الذهبى » بقرية مارباخ (١) التى كانت إحدى أخواته تقيم بها. وهناك التقى بابنة صاحب الفندق إليزابيت دوروتيا كودڤايس (٢) وكانت فى السادسة عشرة، وخطبها وتزوجها. وكان أجداد هذه الفتاة ــ للمصادفات العجيبة ــ يحترفون الخبازة أيضاً فى قرابة مارباخ. وكان أبوها يمتلك إلى جانب المخبز هذا الفندق ويشتغل بأعمال أخرى مربحة منها توريد الأخشاب. وسرعان ما تقلبت به الأحوال فحل به الفقر، وقدم إليه يوهان كاسپار شيللر، زوج ابنته، الذى كان قد استقر فى القرية يمارس فيها مهنة الجراحة، من المعونة

(١) Marbach

(٢) Elisabeth Dorothea Kodweis

ما استطاع . ولكن الخراب كان أكبر من أن ترده معونة أو معونات . وضاق زوج البنت بالحال وعاد إلى حياة الجندية القاسية ، والتحق بجيش الإمارة ، ورأى الكثير من الأهوال وأوشك على الموت أكثر من مرة فى أثناء المعارك التى خاضتها فرقته ، ولكنه أبلى بلاء حسناً ، وترقى إلى رتبة ملازم ، ثم إلى رتبة نقيب ، وكلف بقيادة فرقة وما إلى ذلك من مهام ، وحتى خرج من الجيش فى عام ١٧٧٥ ليعمل مراقباً عاماً على حدائق ومشاتل قصر الأمير الذى أطلق عليه صاحبه اسماً فرنسيا هو « سوليتيد » . وكان هذا العمل على هواه فقام به خير قيام ، وألف كتابين أحدهما « تأملات فى مسائل زراعية بإمارة فرتمبرج » والآخر « الزراعة فى خطوطها العريضة » .

كانت إمارة فرتمبرج فى ذلك الوقت صغيرة الرقعة ، قليلة الموارد ، وكان سكانها يبلغون نحو نصف مليون نسمة . ولم يكن بها من المدن الكبيرة سوى شتوتجارت وبها ٢٢٠٠٠ نسمة وتوبنجن وبها ٦٠٠٠ نسمة ولودفيجسبورج [١] وبها ٥٠٠٠ نسمة . وكان أهل الإمارة على المذهب اللوثرى البروتستانتى يتبعون بإخلاص شديد تعاليم كنيستهم التى كانت تسيطر على مجتمعهم سيطرة توشك على أن تكون كاملة . أما الأمير فكان كاثوليكى المذهب ، وكان يعيش حياة الأبهة التى أخذ بها أمراء العصر مقلدين . ولم يكن بينه وبين الأهلين علاقة من الود لاختلاف المذهب الدينى من ناحية ، ولاتباعه أسلوب حياة يتعارض مع مفهومهم البروتستنتى ومع حياتهم الجادة الزاهدة من ناحية أخرى .

فى العاشر من نوفمبر عام ١٧٥٩ ولد الأديب العظيم فريدريش شيلر ، أو يوهان كريستوف فريدريش شيللر [٢] ، ففرح به أبوه فرحاً شديداً يدل عليه ماكتبه فيما بعد : « وأنت يارب لقد دعوتك بعد مولد ابنى الوحيد ، أن تهبه من قوة العقل ما لم أستطع أنا عن افتقار إلى التعلم أن أبلغه ، ولقد استجبت دعائى . فشكراً لك اللهم ، يا واسع الفضل ، أن استجبت لرجاء أبناء الفانية ! » وتدل

(١) Stuttgart . Tübingen . Ludwigsburg

(٢) Johann Christoph Friedrich Schiller

هذه العبارة فوق ذلك على الطابع الدينى لوالد شيللر ، وتكاد تنبيء بأن الوالد سيوجهه وجهة دينية فى تربيته على أمل أن يصبح قسيساً فيما بعد . والحقيقة أن الوالد ، وإن كان من رجال الجيش ، كان يشبه القساوسة فى كثير من تصرفاته . كان يتلوا الصلوات بصوت عال فى البيت ، وينشيء هذه الصلوات والأدعية بنفسه . وكان الأب إلى هذا شديداً قد يصل إلى القسوة ، حتى شكا الابن من تلك القسوة ، وإن ظل يكن له الاحترام . وكان على الأم أن تتدخل بالتلطيف والتهدئة ، وتعطى من حبها وحنانها ماتحتاج إليه النفس الرقيقة لتنمو نمواً صالحاً سوياً .

ولم يكن فريدريش شيللر هو الابن الأول بل الثانى ، فقد ولدت قبله بعامين تقريباً أخته كريستوفينه أو إليزابيت كريستوفينه فريدريكه شيللر [1] التى كانت رفيقة طفولته ، والتى ظل وثيق الصلة بها طوال حياته .

وكان الطفل فريدريش شيللر منذ مولده ضعيف الصحة ، أصابته أمراض كثيرة على التوالى ولم ينقذه منها إلا الطبيعة النضرة فى مارباخ وحولها . فقد كانت المنطقة خصبة كثيرة الزرع والمراعى والغابات ، ولم تكن بعيدة عن الجبال ، وكانت تطل على نهر النيكار . على أن مقامه فى مارباخ لم يدم طويلاً ، فقد رقى الأمير والد شيللر إلى وظيفة ضابط تجنيد أو ضابط دعاية فى شقيبش جموند [2] فى عام ١٧٦٤ ، فنقل زوجته وابنته وابنه اليه هناك ، ثم ما لبث أن أعد لهم سكناً فى قرية لورش [3] حيث الحياة أقل تكلفة وأكثر هدوءً . أما وظيفة ضابط التجنيد أو ضابط الدعاية هذه فكانت تختص بجمع الرجال للجيش ، وكان ذلك العمل يتطلب من الضابط استعمال الحيلة والخبث بل والعنف أيضاً . وكان الناس يكرهون هذا النوع من الضباط كرهاً شديداً ، وكانوا على حق فى ذلك ، فنحن نعلم اليوم أن الأمير كان « يبيع » الجنود الذين يجمعون له إلى البلاد المتحاربة ويقبض الثمن . فإذا علمنا أن والد شيللر كان رجلاً حسن الأخلاق ،

(١) Elisabeth Christophine Friederike

(٢) Schwäbisch - Gmünd

(٣) Lorch

فهمنا حيرته فى تلك الفترة بين الأمير والضمير ، ولعله عرف له طريقاً وسطاً يرضى به الجانبين ، ولعله كان فى سره وبين أهله يذكر الأمير بالشر ، ويتحاشى الوسائل الملتوية مع الأهلين . وكانت لورش والمنطقة المحيطة بها فى جمال مارباخ وما حولها . ولكن هذه المنطقة كانت تفوق منطقة مارباخ فى قيمتها التاريخية التى كان يكثر الحديث عنها معلقاً على كنيسة الدير الرومانية القديمة والمدفن الأثرى بها .

وفى لورش ذهب شيللر إلى المدرسة الأولية ، وتعهده القسيس موزر (١) بعد عام وعلمه ، علاوة على المدرسة فى حصص خاصة مبادىء اللاتينية واليونانية ، وعلمه شيئاً مما كانت المدرسة الورعية تدعو إليه ، وكان موزر تلميذاً لألبرشت بنجل (٢) العالم اللاهوتى البروتستنتى الأكبر الذى خلف أثراً هائلاً على الفكر البورتستنتى وعلى المدرسة الورعية . وقد تأثر شيللر بشخصية موزر — ولا شك أنه صوره فى مسرحيته الأولى « قطاع الطرق » — وكان يقلده فيلبس قبعة وثوباً أسود ويرتقى كرسياً ويلقى عظة على من يكون حاضراً ، وكان يغضب إذا سخر منه أحد فى أثناء ذلك .

وقد عمقت الأم تأثير موزر على ابنها ، وغرست فيه منذ نعومة أظفاره لوناً من المسيحية العاطفية ملكت على الصغير نفسه تماماً . وتحكى أخت شيللر أن أمها كانت تأخذهما معها فى أيام الآحاد لزيارة الجدين فى مارباخ ، وكانت فى الطريق تحكى على صغيريها فصلاً مناسباً من الإنجيل . وكانت ذات مرة تحكى عن المسيح فى حله وترحاله فلم يتمالك فريدريش نفسه وبكى . ولقد بقيت هذه العناصر الدينية العاطفية من بين السمات التى حددت شخصية شيللر فى صغره إلى أن غيرتها الأحداث الجسام . وإذا شئنا أمثلة أخرى على هذا التأثير الدينى العاطفى الذى تغلغل فى نفس الطفل فى ذلك الوقت ، فلنذكر حرصه الساذج على العطف على الفقير والإحسان إلى المسكين . عاد ذات يوم إلى البيت وقد تجرد

(١) Moser

(٢) Albrecht Bengel

حذاؤه من الحلية المعدنية التي كانت تزين الحذاء وتقفله في آن واحد ، ووضع في مكانها رباطاً عادياً ، فلما سأله والده عن هذه الحلية ، أجابه بأنه عملاً بوصية الإنجيل ، قدمها إلى طفل مسكين ليدخل البهجة إلى نفسه . وكثيراً ما افتقدت الأم شيئاً من الملابس أو فرش السرير ، وتبينت أن الصغير تصدق به على شحاذ أو محتاج .

ماذا تعلم الصغير شيللر في مدرسة لورش الأولية ؟ لا نعلم على وجه التحديد ماذا تعلم شيللر في سنوات ثلاث هناك ، ولكننا بطبيعة الحال يمكننا أن نتصور أنه تعلم مبادىء القراءة والكتابة وما إلى ذلك من المبادىء . على أننا نعرف أنه كان يذهب إلى المدرسة بصحبة أخته كريستوفينه التي تأخر إرسالها إلى المدرسة حتى يكون الاثنان معاً . ونعرف كذلك أن الصغيرين كانا في الأيام الصحوة « يزوغان » من المدرسة ، ويذهبان إلى الطبيعة النضرة فيلهوان ويعبثان . وربما حق لنا أن نعتبر هذا التصرف تعبيراً عن شيء من عدم الرضا عن المدرسة ؛ وسيظل شيللر في تقلبه من مدرسة إلى مدرسة كارهاً لها ، وسيزداد به عدم الرضا شيئاً فشيئاً حتى تتحول هذه المحاولة الصبيانية البريئة في ذلك الوقت إلى تهديد بالانتحار بعد سنوات ، وإلى الفرار والهجرة بعد ذلك .

وفي أعياد الميلاد عام ١٧٦٦ انتقلت الأسرة من لورش إلى لودفيجسبورج . وكانت السنوات التي أمضاها الصغير شيللر في لورش سنوات سعيدة في مجموعها ، محملة بشحنات من التأثيرات المختلفة التي طبعت شخصيته ، ورسمت لها طريق السنوات التالية . ولعل الصغير شيللر قد اتصل هناك بفن التمثيل لأول مرة فشاهد شيئاً من تمثيلية آلام المسيح التي كانت تؤدى على نطاق واسع في جموند ، ولكن الأب كان يواجه صعوبات مالية كبيرة ترجع إلى تبذير الأمير كارل أويجين (١) الذي توقف عن صرف المرتبات سنوات طويلة لموظفيه وضباطه . ومن حسن حظ الأب أنه كان يمتلك بستاناً للكروم على سفح بمارباخ ، فباعه وأنفق من ثمنه على أسرته حتى تتحسن الأحوال وتنساب

(١) Karl Eugen

الأموال إلى خزينة الأمير فيدفع القديم والجديد . وأخيراً تقدم الأب بطلبات إلى الأمير أن يعفيه من عمله الحالى ويعيده إلى الكتيبة ضابطاً ، وأن يدفع له مستحقاته التى بلغت ألفى جولدن (عملة ذهبية) ، واستجاب الأمير ونقله إلى كتيبة لودفيجسبورج ووعده بتسديد المبلغ على أقساط .

كانت الأسرة فى ذلك الحين قد زادت إلى خمسة أفراد بعد مولد بنت أخرى هى لويزة . عندما انتقلت من القرية إلى المدينة ، من المناظر الطبيعية النضرة إلى زحام المدينة . وكان الأمير كارل أويجين قد انتقل ببلاطه إلى لودفيجسبورج عام ١٧٦٤ ، وأقام فى قصر ابتناه على نسق فرساى ، وصبغ المدينة كلها مااستطاع بالصبغة الفرنساوية ، فجعل لها الشوارع الطويلة المستقيمة الواسعة . ونسق الدور المطلة عليها ، وابتنى داراً للأوبرا ، واتخذ حديقة . وأقام مساكن للجند واسطبلات للخيول ؛ وكبرت المدينة وارتفع عدد سكانها من خمسة إلى عشرة آلاف نسمة فى أقل من عشرين سنة . وكان الأمير كارل أويجين الذى تولى العرش فى السادسة عشرة من عمره وحكم مدة تقرب من نصف قرن (من ١٧٤٤ـ إلى ١٧٩٣) يعيش على أسلوب الملك الشمس لويس الرابع عشر . ويحيط نفسه بالبذخ ما استطاع ، مرهقاً الرعية إرهاقاً أليماً . وكان يقدم إليهم لقاء هذا المواكب والمهرجانات ، فيشتد عزوفهم ونفورهم ، فما كانوا منذ حركة الإصلاح اللوثرية إلا قوماً منطوين على أنفسهم ، مؤثرين التقشف على السعة . والفقر فى سبيل الأخرى على الغنى فى سبيل الدنيا . وإذا صح أن هذا البذخ من غناء ورقص واحتفالات من كل نوع لم يؤثر أثراً طيباً على الصغير شيللر ، فلا شك أن المسرح الأميرى الذى أتيح له أن يذهب إليه فى صحبة أبيه قد ملك عليه نفسه حتى أصبح أكبر أديب مسرحى عرفته ألمانيا .

كان الأمير كارل أويجين يجمع فى شخصيته وأعماله بين الضدين ، كان يسعى إلى تحويل إمارته إلى فرساى ألمانيا . فيعمل فى ذلك بلا ملل أو كلل ، ولكنه كان فى سبيل ذلك يمثل الطغيان بعينه . ولا عجب فقد تربى فى البلاط البروسى ونشأ به وتشبع بروحه . كان يفعل الخير بيد ويطغى باليد الأخرى . ويحتوى سجل طغيانه على أسماء مثل يوهان ياكوب موزر والمدير هوبر والشاعر

شوبارت ، زج بهم فى غياهب السجون لأنهم وقفوا فى وجهه . وماكان يرجع فى ذلك إلى محكمة أو قانون . وقد تمكنت القوى المعارضة له من تنظيم صفوفها واضطر فى منتصف عصره تقريباً إلى التخفيف من غلوائه . وأصدق حكم قيل فى كارل أويجين هو حكم فريدريش شيللر الذى وقف على قبر الأمير بعد وفاته بأيام فى عام ١٧٩٣ وقال : «ها هو ذا قد سكن فى لحده ، هذا الرجل الذى كان نشيطاً لا يعرف الكلل أو الملل . ولقد كانت له أخطاؤه الكبيرة كحاكم ، وأخطاؤه الكبرى كإنسان . أما أخطاؤه كحاكم فكانت تقابلها ميزات تفوقها بكثير ، وأما أخطاؤه كإنسان فلابد أن تتوارى ذكراها فى التراب مع جثته» .

قضى شيللر فى لودفيجسبورج سبع سنين . وأدخله أبوه فور انتقالهم إلى هناك مدرسة أولية أو ابتدائية لاتينية تعد التلاميذ للدخول فى مدارس الأديرة وكان أول ما تعنى به هذه المدرسة ، كما يتضح من اسمها ، اللغة اللاتينية . كذلك كانت تهتم بشىء من اليونانية وتدريس الدين . وكانت طريقة التدريس تقوم على حفظ المواد عن ظهر قلب وكانت طريقة العقاب فيها هى الضرب المبرح . وقد ضرب شيللر فى المدرسة مراراً ، وقد ذكرت أخته كريستوفينه أن أحد الأساتذة واسمه ماجستر ڤينتر[1] ضربه بدون وجه حق ضرباً شديداً ترك آثاراً زرقاء على جسمه أياماً طوالا . وأن هذا الأستاذ تبين أنه أخطأ فى عقاب الصبى فذهب إلى أبيه واعتذر له . ولم يكن الأب هو الآخر يعرف مع ابنه وسيلة للتأديب أفضل من الضرب بالعصا ! ويمكننا أن نتصور إلى أى حد تفاهم الرجلان ! ! .

وإذا كان شيللر قد أوتى فى القسيس موزر شخصية الرجل الذى يمكن أن يكون قدوة له على طريق الدين ، فقد تغيرت به الحال فى المدرسة اللاتينية تغيراً كبيراً . كان مدرس الدين هناك يدعى هونولد[2] ، وكان كثير التكلف صعب العقوبة ، قليل الموهبة فاهتزت آثار الأستاذ الأول ، واضطرب الصبى ، واحتار فى أمره . ولكن هذه العوامل الخارجية فى البيت والمدرسة لم تؤثر كثيراً على

(١) Winter

(٢) Honold

تحصيل شيللر وعلى إرادته . وقد صوره زميل له فى ذلك الوقت هو ڤيلهلم فون هوفن [1] ، أصبح فيما بعد مستشاراً طبياً فى نورنبرج ، فقال : «كان الصبى شيللر ، على الرغم من القيود التى يفرضها عليه أبوه ، شديد الحيوية يكاد يصل إلى الشقاوة . وكان غالباً مايتزعم الألعاب التى يشترك فيها مع رفاقه ، وكانت فى كثير من الأحوال ألعاباً عنيفة . وكان الصغار يرهبونه ، وكان الكبار يعجبون به ، لأنه كان جريئاً لايعرف الخوف ... وكان يعتبر فى المدرسة واحداً من خيرة تلاميذ فصله ، وكان سريع الفهم شديد الاجتهاد . وكانت رهبته الشديدة من أبيه هى التى تدفعه إلى هذا الاجتهاد الشديد ، ذلك أن الأب ، الذى لم تتح له فى شبابه فرصة تنمية مواهبه الممتازة ، كان يحرص كل الحرص على أن يتعلم ابنه شيئاً ذا قيمة . ولذلك كانت الجهود التى يبذلها ابنه ويرضى عنها المدرسون لا تكفيه فإذا لم يستذكر بعد الفراغ من المدرسة ، وراح يلعب ويقفز فى الحديقة ، وعلم أبوه بذلك نال جزاء عنيفاً » .

أتيح للصبى فى هذه الفترة أن يشهد التمثيل المسرحى مع أبيه ، وكان أبوه يكافئه على جهوده الطيبة فى الدرس والتحصيل باصطحابه إلى المسرح ، فكان يرهف السمع ويدقق البصر ، ويتعلم مما يرى أكثر مما يتعلم غيره . وبدأ شغفه بالمسرح على الفور يتخذ صورة اللعب بعرائس من الورق تحركها خيوط لتؤدى أدوارها . وتطورت اللعبة إلى فرقة من الصبية كان يوزع عليهم الأدوار فيمثلون تحت قيادته . ووصل الأمر به إلى محاولة التأليف المسرحى فكتب أشياء لم تصل إلينا . والحق أن الصبى كان ذا موهبة أدبية واضحة فى المدرسة ، وكان المدرسون يعتمدون عليه فى الحفلات ، فيكتب لها شيئاً من الشعر باللاتينية على عادة العصر . ولكنه لم يكن على مايبدو يفكر فى أن يغير طريقه الذى بدأه متأثراً القسيس موزر ، الطريق إلى المدرسة اللاهوتية ليصبح قسيساً . ولم يمنعه ذلك من كتابة الشعر ، بل لعله حفزه إليه ، وكانت القصائد الأولى التى كتبها بالألمانية تبين تأثره بالكتاب والشعراء ذوى الصبغة الدينية مثل پاول جرهرت وأوتس

(1) Wilhelm von Hoven

وجيللرت وعلى الأخص كلوبشتوك صاحب الأهازيج وملحمة المسيح[1] . وكانت الموضوعات تدور حول شكر الله وتمجيد الخالق بالإشادة بجمال وعظمة الخليفة وما إلى ذلك .

كان تلاميذ المدارس اللاتينية يؤدون امتحانات متكررة أمام لجنة فى شتوتجارت ، وكانت الامتحانات قاسية ، وكان الاستعداد لها مرهقاً ، وقد نجح ، المرة بعد المرة ، حتى كانت المرة الأخيرة فرسب . وأعاد الامتحان للمرة الثانية فى العام التالى ونجح ، وكان قد اجتهد فى الاستذكار اجتهاداً كاد يودى بحياته ، ظل فيما بعد يذكره ويصف طريقة التعليم والامتحانات بأنها لا قلب لها ولا روح ، وكان شيللر فى الثالثة عشرة عندما نجح فى الامتحان الذى يتيح للطالب الالتحاق بمدرسة من مدارس الأديرة (أربع سنوات) تؤدى إلى معهد توبنجن الدينى (خمس سنوات) .

وكان شيللر قد عقد العزم على أن يسلك هذا السبيل الذى يؤدى فى النهاية بالتخريج إلى وظيفة معيد أو مدرس فى بداية التخرج ، ثم إلى سلك رجال الدين بعد ذلك ، وكانت أسرته قد عقدت العزم نفسه . ولكنهم جميعاً جاوزوا الصواب فيما عزموا عليه . لقد كانوا يعيشون فى عصر الملكية المستبدة ، وكان الأمير يتصرف فى الناس والأشياء . وهكذا سيق فريدريش شيللر إلى سبيل آخر .

(١) Klopstock . Gellert . Uz . Paul Gerhardt

الباب الثالث

الاكاديمية العسكرية

فى يناير عام ١٧٧٣ كتب الأستاذ فريدريش يان [١] أستاذ شيللر نص الشهادة التى منح اياها بعد نجاحه فى الامتحان وقال فيها : « .. وهو يترجم بمهارة مجموعة أعمال الأدباء اللاتين التى تستخدم فى المدارس الأولية ، ويترجم بمهارة لا تقل عن السابقة نص العهد الجديد باليونانية ، وبدأ بداية طيبة فى صناعة الشعر اللاتينى . أما خطه فهو أقل من المتوسط .. » .

كان الأمير كارل أويجين قد أرسل تعليماته إلى جميع مدارس الامارة يطلب ترشيح التلاميذ النابهين من أبناء الضباط والموظفين فقط ، حتى يدخلهم مدرسته ، « مدرسة كارل » [٢] التى بدأ يهتم بها اهتماماً متزايداً . وكان شيللر من بين الذين وصل تقرير عنهم إلى الأمير واختارهم . وفى يوم من الأيام طلب الأمير والد فريدريش شيللر إليه وأبلغه أنه قد اختار ابنه ليدخله فى مدرسته ليتعلم على

(١) Friedrich Jahn

(٢) Karlsschule

نفقته ويتخصص فى القانون . وتألم الرجل ألماً شديداً ولكنه لم يستطع أن يفصح عما به . وكان يعرف طريقة الأمير فى المعاملة . وتشجع وطلب إلى الأمير أن يمهله بعض الوقت . فلما طلبه الأمير للمرة الثانية أيقن الرجل أن الأمر قد قضى . ووقع على التعهد الذى طلبه الأمير بأن يستمر الابن فى المدرسة ولا يخرج منها ولا يحيد عنها بحال من الأحوال . ولما علم فريدريش شيللر بالأمر ثار ثورة عارمة ، وفكر فى الانتحار او هدد بالانتحار . ولكنه ما لبث أن انصاع فقد كان يعلم أن حياة أسرته كلها مرتبطة بالأمير ، وكانت الثورة فى هذه الحالة تعنى الخراب .

كانت مدرسة كارل هذه فى أول أمرها ملجأ للأيتام من أبناء الجند يتعلمون فيه بعض الحرف اليدوية التى تخدم الجيش . ففكر الأمير فى تحويله إلى مدرسة عسكرية من النوع المعروف فى العواصم الكبرى لتخريج ضباط للجيش ، ثم ضم إلى هذه المدرسة تخصصاً آخر هو تخريج موظفى الدولة وكانت حتى ذلك الحين – أى عام ١٧٧٥ – فى قصر سوليتود(١) ثم نقلت إلى شتوتجارت وتوسع الأمير فى المدرسة وضم إليها تخصصات من تلك التى كانت الجامعات تضطلع بها مثل الطب والحقوق ، وتخصصات أخرى مثل التجارة والموسيقى .. الخ وتحولت بذلك إلى أكاديمية ، رفعها القيصر يوزف الثانى فى عام ١٧٨١ إلى مرتبة المدارس العليا باسم «مدرسة كارل الأميرية العليا» .

كان الأمير كارل أوجين يسيطر على المدرسة سيطرة «شخصية» ويفرض عليها استبداده بكل قسوة . وقد عين لها مديراً يسوسها علمياً وبوليسياً حتى يصب التلاميذ فى قوالب ثابتة من الطاعة والاخلاص للأمير ، بعيداً عن التأثير الخارجى ، فقد كانت المدرسة «داخلية» . وكان التلاميذ ينامون فى عنابر كبيرة ويوقظون فى الساعة الخامسة صباحاً صيفاً والسادسة شتاء ، وينظمون فراشهم ويغتسلون فى موعد محدد ، ثم يذهبون إلى تمام الصبح ، ومن هناك إلى الافطار ، وتلى الافطار ساعات الدرس وكانت أربع ساعات . ثم تأتى فترة

(١) Solitude

« النظافة » فيلبس التلاميذ ملابس التشريفة التى تتكون من جاكته زرقاء لها قلابات سوداء ، وصديرى ، وبنطلون وحذاء برقبة طويلة وسيف وقبعة لها خصلة من الريش . وكان على التلاميذ أن يعقدوا إلى شعورهم ضفيرة « عبرة » ، ومن كان شعره أحمر اللون بطبيعته ـ مثل شيللر ـ كان عليه أن ينثر عليه طبقة من البودرة لأن الأمير كان يكره اللون الأحمر لوناً للشعر ! ويسير التلاميذ ببدل التشريفة هكذا إلى تمام الظهر ، ثم إلى طعام الغذاء . وتأتى بعد الغذاء فترة للنزهة والتمرين ، وتليها فترة الاستذكار ، وكان الاستذكار يسير حسب خطة موضوعة . وبعد تناول العشاء يذهب التلاميذ إلى الفراش . وكان التلاميذ لا يخرجون من المدرسة فى أجازة أو عطلة . وكان أهلهم لا يزورونهم إلا قليلاً ، ولا بد للزيارة من تصريح من الأمير . وقد بقى فريدريش شيللر فى هذه المدرسة ثمانية أعوام من عام ١٧٧٣ إلى عام ١٧٨٠ لم يخرج من المدرسة مطلقاً ، ولم ير والديه إلا مرات معدودة وفى حضور مشرفين من المدرسة ، أما أخته كريستوفينه فلم يرها مطلقاً . وقد طرأت على أسرته أحداث عديدة لم يشهد شيئاً منها . ماتت أخت له كانت فى الخامسة عندما دخل المدرسة ، وولدت له أخت وماتت دون أن يراها ، وعندما خرج من المدرسة رأى لأول مرة أخته الصغيرة وكانت فى الثالثة من عمرها .

ومع ذلك فقد كان الأمير لا يفتأ يكرر أن التلاميذ « أبناؤه » وكان يشرف عليهم ليلاً ونهاراً وكأنه انقطع لهذه المهمة . وكان يفاجئ المدرسة فى كل وقت ويتسلل خلال ممراتها وينظر متلصصاً من خلال خرق أعده فى كل باب ليطمئن على أن كل شئ يسير حسب الخطة العسكرية تماماً . وكانت معاقبة التلاميذ من شأن الأمير . فإذا ارتكب تلميذ عملاً يستوجب العقوبة علق المدرس له فى عروة الزرار تقريراً ، وكان الأمير يقرأه عند التمام ويقرر العقوبة وربما نفذها بنفسه ، وكانت هذه العقوبة تتراوح بين الضرب بالسياط والحرمان من الطعام أو التوبيخ و« الاستهزاء » .

وكانت المناسبات الأميرية الخاصة مثل عيد ميلاد الأمير أيام نشاط كبير فى المدرسة ، حيث تقام المهرجانات ، والاحتفالات ، وتسير المواكب . وكان

التلاميذ يقومون باستعراضات وهم يلبسون التشريفة ، ويلقون الكلمات ويقدمون تمثيليات يكرمون فيها الأمير ، وكانت الجوائز توزع ، وينتهى اليوم بقبلة يطبعها أبناء الأسر النبيلة على يد الأمير ، وأبناء الأسر « الأخرى » – مثل فريدريش شيللر – على ذيل سترة الأمير . وكانت المدرسة تفصل بصفة عامة بين « الفرسان » وبين « المواطنين » أى بين أبناء النبلاء وأبناء الطبقات الأخرى ، فى عنابر النوم ، وفى قاعات الطعام ، إلا فى أثناء الدرس فكانوا يجتمعون معاً .

كانت هناك ممنوعات كثيرة . منها القراءة بالليل ، ومنها قراءة كتب غير مقررة ، ومنها استعمال المكيفات . ولما كان كل ممنوع مرغوباً ، وكانت الحيلة تكسر القيد ، فقد وجد التلاميذ طرقاً للتهريب . فتعلم شيللر مثلاً تعاطى «النشوق» واعتاد عليه ولم يتخلص من تلك العادة فيمابعد . كذلك تعلم شيللر القراءة بالليل خلسة ، وكان يبحث بكل وسيلة عن كتب يهرب بها من قيود المنهج ، ويحتال بوسيلة أو بأخرى ليحصل على مصباح صغير يضيء له . ولعل عادة العمل بالليل ، التى عرف بها فيما بعد ، ترجع إلى تلك الأيام . فقد ظل شيللر طوال حياته يفضل للتأليف ساعات الليل على ساعات النهار .

ماذا تعلم شيللر من الأكاديمية ؟ من هم الرفاق الذين خالطهم وتأثر بهم ؟ وكيف تحول إلى الأدب ؟ كان برنامج الدراسة الذى اضطلع بتدريسه مدرسون من أصحاب الكفاءة العالية يتكون من اللغة اللاتينية وآدابها ، ومن اليونانية ، وعدد من اللغات الحديثة هى الفرنسية والانجليزية والايطالية . وكان يضم إلى جانب الدراسات اللغوية دراسات فلسفية ، وأخرى فى العلوم من رياضيات وطبيعيات . وفوق هذا كله مادة التخصص . وكانت مادة التخصص التى فرضت على فريدريش شيللر فى مبدأ الأمر فرضاً هى « الحقوق » . فلما أنشأ الأمير قسماً للطب سأل بعض الطلبة ومن بينهم شيللر هل يفضلون الانتقال إلى هذا القسم الجديد ، وكان شيللر بين الموافقين ، وبدأ يدرس الطب ويعد نفسه ليصبح طبيباً . ولسنا نعرف على وجه التحديد السبب الذى فضل شيللر من أجله دراسة الطب على دراسة القانون . وربما كان السبب هو أن المادتين كانتا تتساويان فى نظره فى البعد عن ميوله الحقيقية . يقول صديقه وزميله فى الدراسة

ڤيلهلم فون هوفن الذى اختار مثله الطب وترك دراسة الحقوق : « ... كان السبب الذى دفع شيلر ودفعنى إلى هذا التغيير شيئاً آخر غير كراهية دراسة الحقوق وتفضيل الطب ، كان هذا السبب هو ميلنا إلى الأدب فى ذلك الوقت ، وكان شيلر يجرب قلمه فى الشعر الغنائى والأدب المسرحى ، وكنت أنا قد بدأت أكتب الأغانى والبلادات والروايات ... » ويؤخذ من هذه الشهادة أن شيلر كان يعتقد أن الطب يتيح له فرصة أكبر للاقتراب من الأدب .

لم يكن شيلر فى الأكاديمية طالباً بارزاً فى الدراسة والتحصيل ، ولكنه كان على أية حال من المتوسطين ، تارة يتقدم وتارة يتأخر . كان رأى أحد مدرسيه فى العام الأول أن شيلر حسن الاستعداد ، يريد أن يتعلم ، ويبذل الجهد ، ويحب أن ينبهه الآخرون إلى أخطائه فيصلحها ، ولكنه بطئ لا بد من حثه وتنبيهه . وقد بينت شهادته فيما بعد أنه كان يهمل حصة « النظافة » إهمالاً جر عليه العقاب ، وكانت حصة النظافة تعنى خاصة لبس التشريفة وتصفيف الشعر ووضع البودرة وما إلى ذلك من وسائل الزينة . وقد زاد شيلر من نشاطه فى سنواته الأخيرة بالأكاديمية وحصل على بعض الجوائز .

وكان الأمير يكلف الطلاب بكتابة نقد ذاتى ، أو نقد للآخرين فطلب إليهم ذات مرة أن يكتبوا مقالاً يبينون فيه من هو أقلهم قيمة . وكتب الطلاب وهم فى غاية الحرج برأيهم - ومرة أخرى طلب إلى التلاميذ أن يصفوا رفاقهم ويصفوا أنفسهم ، وحدد أموراً بعينها كعناصر لهذا الوصف منها : موقف الشخص من الدين ، ومدى اجتهاده واهتمامه بالنظافة ، ومعاملته لرفاقه ومعلميه ، وميوله ... وكتب شيلر مقاله وفيه : « ولكننى ، ياسمو الأمير ، أتحرج من بعض ما جاء فى أمرك من نقاط ، أتحرج منها وأطلق الزفرات فى الوقت نفسه حسرة من ضعفى . إننى أحس بأننى أصغر من أن أتمكن من الحكم على هذا بأنه يحترم المسيحية ويتبعه ، أو على ذلك بأنه يحتقرها أو يتهرب منها .... وإذا ما حكمت على ياسمو الأمير ، حسب تعاليم المسيحية ، وجدتنى فى أحوال كثيرة أسرف فى العجلة وأسرف فى الاستخفاف .... أما إذا رأيتنى بين إخوانى .... وجدتنى عنيداً ، عنيفاً ، فارغ الصبر ، ولكن إخوانى سيشهدون لك على

إخلاصى وصراحتى وقلبى الطيب . وأنا لم أستغل المواهب التى أتيحت لى كما يفرض على الواجب . ولهذا أرانى أئن تحت وطأة لوم أستحقه ، وإن كنت ألتمس لنفسى شيئاً من العذر : فإن الجسم عندما يعانى من المرض ، قد تتعرقل طاقة الروح وقوة الإرادة نتيجة لضعف الجسم ولا تجد السبيل إلى تحقيق ما يعتمل بها .... » .

أما علاقة فريدريش بإخوانه فى الأكاديمية فكانت علاقة طيبة بصفة عامة ، لم يكن له بينهم أعداء ، بل على العكس كانت تربطه ببعضهم صلات صداقة قوية ظهرت آثارها فيما بعد . ولقد عرفنا من أصدقائه من قبل فيلهلم فون هوفن ، وكانت دائرتهم تضم دانيكر[1] الذى أصبح فيما بعد نحاتاً مشهوراً ، صنع لصديقه تمثالاً رائعاً ، وكارل هايدلوف الذى كان يعالج الرسم ، ورسم صورة لشيللر فى الأكاديمية يقرأ شيئاً من مسرحيته الأولى ، وتسومشتيج الذى كان يهوى الموسيقى ، وهاوج الذى برز فى كتابة القصائد الصغيرة ، وفريدريش شارفنشتاين وڤيلهلم پيترسن ، وكان الأخيران يهتمان بالأدب ويتميزان بحس فنى مرهف . وكانت دائرة الأصدقاء هذه تهتم بالأعمال الأدبية فيقرأها أحدهم بصوت عال ويسمعه الآخرون ، وكانوا يتنافسون ويتدارسون ويكونون ندوة من ناشئة الأدب . ولا شك أن وجود هذا المجتمع الواعى حول شيللر قد حفزه على الخلق على مستوى معين .

أما الأساتذة فكانت علاقة فريدريش شيللر بهم علاقة طيبة كذلك . وكانوا على الأغلب من الشباب ، لا يكبرون الطلاب إلا قليلاً ، ولم يكن للأمير فى هذا الاختيار فلسفة ، انما دفعه إلى ذلك « التوفير » ، لأن مرتبات هؤلاء الشباب كانت صغيرة إذا قيست بمرتبات كبار الأساتذة . وكان من نتائج هذا الوضع أن الطلاب كانوا متفاهمين مع أساتذتهم . كان شيللر على علاقة طيبة

(١) Johann Rudolf Zumsteeg . Karl Heideloff.
Johann Heinrich Dannecker
Johann Christoph Friedrich Haug
Wilhelm Petersen . Friedrich Scharffenstein

بالأستاذ بالتازار هاوج Balthasar Haug الذى كان يحرر مجلة « شفيبشس ماجاتسين » [1] ، وأستاذ التاريخ Schott شوت ، وأستاذ فقه اللغة اليونانية ناست Nast الذى شرح له شيئاً من هومير ، وأستاذ الأدب اللاتينى دروك Druck الذى عرفه معرفة طيبة بشعر فرجيل . على أن علاقة شيللر بالأستاذ ياكوب فريدريش آبل Jakob Friedrich Abel كانت أوثق علاقة . وكان الأستاذ آبل يدرس الفلسفة فأرسى فى عقل فريدريش شيللر أسس الفلسفة ، وحببه فيها . وكان بعض الأساتذة يلقون محاضرات خاصة فى بعض المناسبات الهامة ، مثل عيد الأكاديمية السنوى ، وقد ألقى الأستاذ آبل فى ديسمبر عام ١٧٧٦ محاضرة بعنوان « هل يولد كبار المفكرين كباراً ، أم يصبحون كباراً نتيجة للتربية ، وما هى مميزاتهم ؟ » وكان لهذه المحاضرة الفريدة عن العباقرة تأثيرها على شباب المستمعين . ويرجع إلى الأستاذ آبل فضل تعريف شيللر بشيكسبير ، كان يريد أن يسوق مثلاً على مشكلة العلاقة بين الواجب والعاطفة ، فاختار « عطيل » لشيكسبير ، فى ترجمة الأديب الشاعر المعروف آنذاك ڤيلاند Wieland . واستعار منه شيللر الكتاب والتهمه التهاماً . ثم تمكن من الحصول على مجلدات أخرى خلسة من بعض الرفاق ، وسرعان ما اكتشف المشرفون الكتب « المهربة » وصادروها وعاقبوا شيللر . وقد ظل شيكسبير فى مخيلة شيللر لا يفارقها حتى تخرج ، فكانت ترجمات أعماله أول الكتب التى اشتراها .

وإذا كانت الأكاديمية قد عزلت فريدريش شيللر عن العالم ، فإنها أتاحت له فرصة لقاء بعض الشخصيات الكبرى وبعض الشخصيات التى سيكون لها شأن فى حياته . فى عام ١٧٧٧ مثلاً زار المدرسة القيصر يوزف الثانى ، وكان فى طريق عودته من رحلة إلى باريس ، قام بها متنكراً تحت اسم الجراف فون فالكنشتاين . واهتم القيصر بمشاهدة أجزاء المدرسة وبالاطلاع على نشاطها ، وكان فى خلال زيارته مثلاً على الحاكم السمح الكريم ، على عكس كارل أويجين . وقد مدحه شيللر فى تلك المناسبة بقصيدة مرتجلة قال فيها :

يوزف ، حلية الأمراء .
مر بالولايات الشقابية .
لا كملك ، بل كإنسان صديق للبشر .

وفى عام ١٧٧٩ جاء إلى الأكاديمية زائران من ڤايمار هما الأمير كارل أوجوست[١] ووزيره الأديب الشاعر الكبير يوهان ڤولفجنج جوته ، وكانا عائدين من رحلة إلى سويسرا ، فدعاهما الأمير كارل أويجين إلى حضور حفل توزيع الجوائز بالأكاديمية ، وكان شيللر من بين من تلقوا شيئاً منها . كذلك زار المدرسة العالم يوهان كاسپار لافاتر[٢] الذى حظى فى زمانه بشهرة كبيرة كمؤسس لعلم الفراسة الجديد ، وكان يعتقد أنه من الممكن معرفة الكثير عن الإنسان إذا عرفنا مواصفات جمجمته . وكان رجلاً غريب الأطوار ، إذا رأى شخصاً تهمه سمات وجهه فى بحوثه لم يتورع عن الاقتراب منه ، ومد يده إلى وجهه بالجس والفحص .

كان شيللر كثير القراءة يهتم بالأدب خاصة . وقد عرفنا أنه اهتم بشيكسپير وقرأه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكنا قد بيّنّا من قبل أنه عرف كلوپشتوك والشعراء ذوى النزعة الدينية ، وتعلم طريقتهم ؛ وما من شك فى أنه كان يعرف مارتين لوتر فى قصائده الدينية وفى ترجمته للكتاب المقدس . كذلك قرأ أعمال چان چاك روسو ، و«إلويزة الجديدة» خاصة ، وكانت مشهورة فى ذلك الوقت شهرة فائقة ، وتأثر بنظريات روسو فى الحرية وفى الطبيعة وفى الخير ، وبأسلوبه الذى يجمع بين الخطابة والشاعرية . وقرأ مؤلفات جوته وخاصة «آلام الشاب ڤرتر» ومسرحية «جوتس فون برليشنجن ذو اليد الحديدية» . ويحكى بعض أصدقاء شيللر فى ذلك الوقت أنه قرأ فى عام ١٧٧٣ أو ١٧٧٤ مسرحية «أوجولينو» لجرستنبرج[٣] وأنه تأثر بها تأثراً هائلاً ، كذلك يحكون

(١) Karl August

(٢) Johann Kaspar Lavater

(٣) Gerstenberg , Ugolino

أنه اشترك فى تمثيل «كلاڤيجو» لجوته فى احدى المناسبات ،وأنه اهتم بمسرحيات حركة العاصفة اهتماماً كبيراً وخاصة : مسرحية « التوأمان » لماكسميليان كلينجر (١)، ومسرحية « يوليوس فون تارنت » من أعمال لايزيڤيتس (٢) هذا علاوة على مسرحيات فيلاند وترجماته لشيكسبير . ولم يكن شيللر يكتفى بالقراءة أو التلاوة ، بل كان يحفظ المسرحيات التى تعجبه عن ظهر قلب ويرددها .

وانطلقت عبقريته فى محاولات . كان فى لودڤيجسبورج قد بدأ يقرض الشعر ويكتب الدراما . وربما كانت مسرحية «المسيحيون» ـ التى لم يبق لنا إلا اسمها الذى جاء مصادفة فى خطاب تلقاه شيللر من أبيه ـ هى أول مسرحية كتبها ، وكان آنذاك فى الثالثة عشرة من عمره . وقد جمع الأمير كارل أوبجين ذات مرة آراء رفاق شيللر عنه ، فإذا بها كلها تقريباً تشير إلى موهبته الشعرية ، فمن قائل «إن خياله هو الذى يدفعه إلى الشعر » أو « إنه طيب القلب حلو الحديث يحب الشعر » أو « إن الشعر هو الشئ الذى يميل إليه أعظم الميل ، ويجتهد فيه أعظم الاجتهاد ، وليست هناك وسيلة لرده عنه » . وقد أتاح له الأمير كارل أويجين أكثر من مرة فرصة التعبير بالشعر أو بالدراما . أما الشعر فكان يلقيه فى المناسبات ، ومنه ما قاله ذات مرة فى حضرة الأمير وعقيلته « فرنتسيسكا » :

أنغام البهجة تدوى فى الهـواء .
وإسم فرنتسيسكا يعيش فى كل فؤاد !

ويحكى أن الأمير غضب وشتم شيللر (يا حمار !) وأصر على أن اسم فرنتسيسكا يعيش فى فؤاده هو فقط ! كذلك المسرحيات كان يكتبها للمناسبات . وقد ضاعت المحاولات المسرحية الأولى ولم يصلنا منها شئ .

وربما كان من المفيد أن نذكر أن مجلة « شڤيبيشس ماجاتسين » التى كان يحررها الأستاذ بالتازار هاوج ، نشرت فى عام ١٧٧٦ من شعر شيللر قصيدة

(١) Maximilian Klinger , Die Zwillinge

(٢) Johann Anton Leisewitz , Julius von Tarent

باسم «المساء» Der Abend ونشرت فى العام التالى قصيدة أخرى « الفاتح » Der Eroberer وهى من القصائد التى تقلد أسلوب كلوبشتوك وباول جرهرت مع إسراف فى الهتاف والتعجب ، وإعجاب ببديع صنع الخالق .

وفى عام ١٧٧٩ كتب شيللر بحثاً بعنوان « فلسفة الفسيولوجيا » ليكون الدراسة الختامية التى يتخرج بناء عليها . ولكن لجنة الامتحان وإن اعترفت بالجهد المبذول ، رأت أنه لا يكفى ، وكان من أعضائها من وجد البحث أطول من اللازم ، وكان من بينهم من قال إنه يحتوى على آراء تتعارض مع احترام السلطات المقدسة . أما الأمير فكان رأيه أن الشاب قد كتب فى البحث شيئاً جميلا ، ولكن عوده لم يصلب بعد . وقرر أن يبقى عاما آخر . وهكذا شاء القدر أن يبقى شيللر فى «سجنه» عاماً آخر ، العام الثامن : « لقد ظل حماسى ثمانية أعوام يصارع القيد العسكرى ، وحب الشعر حب نارى قوى ، كالحب الأول ، كلما أوشك أن يخبو ، تأجج من جديد » . وكتب شيللر بحثاً ثانياً بعنوان « محاولة دراسة العلاقة بين الانسان الحيوانية وطبيعته الروحية » ليكون خاتمة دراسته للطب . ونجح فى ديسمبر عام ١٧٨٠ ، وخرج إلى الحرية .

الباب الرابع

قطـــاع الطـرق

عين فريدريش شيللر بعد تخرجه طبيباً فى الجيش فى مدينة شتوتجارت بمرتب قدره ١٨ جولدن ، وكان عليه أن يلبس الزى العسكرى (اليونيفورم) ، دون أن يكون ذا رتبة عسكرية . ولكى نعلم القيمة الشرائية لمبلغ الـ ١٨ جولدن ، نذكر أن والد فريدريش شيللر صنع له بدلتين مدنيتين تكلفتا معاً ١٢٠ جولدن ، وكان يرجو أن يوافق الأمير على أن يلبس ابنه ملابس مدنية ويتخذ عيادة خاصة حتى تقل نفقاته ويجد فرصة لدخل إضافى . ولكن الأمير رفض . ولبس فريدريش الزى العسكرى « الاستعراضى » المعروف فى ذلك الوقت ، وكان يتألم منه تارة ويسخر منه تارة أخرى . وتبين كتابات أصدقائه عنه فى ذلك الوقت أنه كان يبدو فى هذا الزى مضحكاً من رأسه إلى قدميه ، برقبته الطويلة وساقيه المقوستين .

وسكن فريدريش شيللر فى حجرة عند أرملة أحد الضباط اسمها لويزة فيشر[1] وكانت فى الثلاثين من عمرها . ولسنا نعرف على وجه التحديد نوع

(١) Luise Vischer

العلاقة التى ربطت بين الاثنين ، فهناك عبارات كتبها شيللر تفيد بأن هذه المرأة هى التى أوحت إليه بالأغانى والقصائد العاطفية التى كتبها آنذاك ، وهناك أقوال رفاقه فى ذلك الوقت التى تقول إن فريدريش كان بصفة عامة عزوفاً عن النساء . ولم تكن المرأة على أية حال جميلة ، ولكنها كانت طيبة القلب ، وربما هام حولها بخياله الشعرى الذى كان يبحث عن موضوعات ينسج حولها الأغانى ، أو يستلهمها الدافع إلى الإنشاء من أى نوع . فى أغنية « إلى لاورا »[1] نقرأ له على سبيل المثال :

حبيبتى لاورا .. نبئينى عن هذا الشعور الجياش المضطرب
الذى يشد فى عنف جسماً إلى جسم
نبئينى ، يا حبيبتى لاورا ، عن ذلك السحر
الذى يدفع الروح بعنف إلى الروح

*

عندما تقبلنى لاورا
وتصب اللون الأحمر القانى إلى وجنتى
وتجعل قلبى يرتجف ارتجافاً سريعاً ،
لماذا يفور دمى ثائراً محموماً ؟

وكان فريدريش يخالط مجموعة من الأصدقاء ، هم رفاقه القدامى فى الأكاديمية الذين تخرجوا وعينوا فى وظائف فى شتوتجارت . كانوا يذهبون إلى حانة اسمها « حانة الثور » ويعبثون ويضيعون الوقت فى لعب الورق خاصة . وكان طابع شيللر فى هذا الوقت هو العبث والمرح ومحاولة الخروج على القيود . ويظهر ذلك الطابع خاصة فى قصيدة رثاء ، كتبها عندما مات صديق له كان معه فى

(١) Laura

الأكاديمية هو يوهان كريستيان ڤيكرلين [1] ، وأحدثت هذه القصيدة موجة من الاستنكار . يقول فيها :

ألا صفقوا ، صفقوا بأيديكم
واجعلوا التصفيق معبراً عن الفرح والابتهاج
فإن الموت هو نهاية كل جنون طويل
ورب ألمٍ واراه الإنسان فى جنبات القبر معه !
مَنْ هؤلاء الناس الذين يعيشون على الأرض فى نور القمر ؟
إنهم ممثلون ، إنهم يلبسون الأقنعة
وبينهم وبين الموت رباط لا يرونه حق اليقين .
إلى أن يخرج بهم النفاق من ساحة التمثيل :
فطوبى لمن كان دوره صغيراً
وساوى جسمه الطبيعة .
ألا إن القفزة من عرش الملك إلى قشرة الأرض
شىء يسير .. وكأنها إبدال ثوب بثوب .

فى هذه السطور يعبر شيللر - رغم كل شىء - عن نفسه وعن موقفه من الحياة والموت ، يعبر عن إنسان غير راض بالحياة التى يحياها ، ويجد هذه الحياة نوعاً من الجنون ، ويجد الناس منافقين ، ويعبر فيها عن رأيه فى الطغيان ، وكأنه ينتهز الفرصة فينصح الملك الطاغى بأن يخفف من غلوائه ، فالطريق بين العرش والقبر قصيرة ، وما الموت - أيها الطاغى - إلا كمن يخلع ثوباً ويلبس آخر ، يخلع ثوب النفاق والتمثيل ، ويلبس ثوب الحقيقة .

لم يكن فريدريش شيللر راضياً فى عمله كطبيب ، ذلك العمل الذى لم يستعد له إلا بشراء كتاب واحد فقط ، ولم تكن مهنة الطب تلقى قليلاً أو كثيراً من اهتمامه . وليس معنى ذلك أنه لم يمارس المهنة ، فالشواهد تؤكد أنه مارسها

(1) Johann Christian Weckherlin

ففحص مرضى الكتيبة وكانوا فى غالبيتهم من المشوهين وأصحاب العاهات ، ووصف لهم ما عن له من دواء . ولا بد أن علاجه لم يفلح لأن رئيسه ، الطبيب الأول ،أمر بأن تعرض عليه «الروشتات» قبل أن تعطى للمرضى ، ومالبث أن حول المرضى على طبيب آخر يحسن المهنة ، وكانت الأدوية التى يصفها شيللر فى الغالب مركزة تركيزاً يوشك أن يكون خطيراً . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا العمل لم يكن على هواه ، وما لبث أن تبين أن حياة الذل التى أكره عليها فى الأكاديمية سنوات ، لم تنته بالتخرج ، بل استمرت . كان على شيللر أن يحضر كل يوم للتمام مبكراً ، ولم يكن له أن يترك شتوتجارت ــ لزيارة أسرته ــ إلا بتصريح من الأمير .

فلا عجب أن يجد له متنفساً آخر ، ولا عجب أن يكون هذا المتنفس عملاً أدبياً ينقد الطغيان . والحقيقة أن شيللر بدأ يعالج كتابة مسرحيته الهامة « قطاع الطرق » فى الفترة الأخيرة من حياته بالأكاديمية ، وعلى وجه التحديد فى عام ١٧٧٧ ، وجد فى الكتابة فى عام ١٧٧٩ عند فشله فى الامتحان الأول ،ذلك الفشل الذى أشعل فى نفسه روح الثورة على القيود الغبية ، التى تدعى أنها الحرية ، وأنها جوهر الفهم . وقد عثر شيللر على المادة الأولى للمسرحية فى عدد من مجلة « شفيبيشس ماجاتسين » يرجع إلى عام ١٧٧٥ دفع به إليه صديقه فيلهلم فون هوفن فى قصة للشاعر المسكين شوبارت [١] الذى كان يرسف فى الأغلال فى سجن « هوهنأسبرج » [٢] لوقوفه فى وجه الطاغية كارل أويجين .

كانت هذه القصة تحمل عنوان « من قصص القلب الإنسانى » ، وتدور حول ابنين لأحد النبلاء فرقت العداوة بينهما احدهما واسمه فيلهلم ــ جاف غلظ لئيم خبيث والآخر ــ واسمه كارل ــ صريح موهوب عنيف يكاد حماسه يتأجج ناراً . وهذا هو كارل يندفع وهو فى الجامعة يطلب العلم ، إلى حياة المجون ،

(١) Christian Friedrich Daniel Schubart

(٢) Hohenasperg

ويضطر إلى الاستدانة وتصل أخبار كارل إلى أخيه فيلهلم ، فينقلها إلى أبيه مبالغاً فيها ليوغر صدره عليه . ويضطر كارل إلى الهرب من دائنيه والانضمام إلى الجيش البروسي ، وخوض بعض المعارك حيث يصاب فيها بجراح ، وينقل إلى المستشفى للعلاج . ويتملكه الندم ، وهو فى فراش المرض ، ويقرر الانسلاخ عن الحياة الماضية ، والرجوع إلى جادة الصواب ، ويرسل إلى أبيه خطاباً يطلب إليه أن يعفو عنه . ولكن فيلهلم ، الأخ العدو ، يتسلم الخطاب فيحجزه عن أبيه ، الذى يظل على اعتقاده أن ابنه كارل مستمر فى الضلال غارق فى الفساد . ويظن كارل أن أباه لم يغفر له لأنه لم يكتب رداً ، ويحاول أن يشق طريق الصلاح وحده . فيترك الجيش بعد عودة السلام ويلتحق بخدمة مزارع تجاور أرضه ضيعة الأب ، وما يلبث أن يكتسب حب الناس وتقديرهم له بما يبدى من نشاط وهمة وشهامة . وذات يوم يذهب هذا الابن ، كارل ، إلى الغابة لقطع الأخشاب فيرى أباه ، ثم يرى قطاع الطرق يهجمون عليه ، فيسرع إليه وينقذه من موت محقق . ويتبين أن قطاع الطرق ليسوا مدبرى الجريمة ، وإن كانوا أداتها ، وأن مدبر الجريمة هو فيلهلم الأخ العدو والابن العاق . ويتعرف الأب على ابنه الضائع ويضمه إليه . ويتقدم كارل إلى الأب يرجوه أن يغفر جرم أخيه فيستجيب له ويصفح عنه ، وتنتهى القصة نهاية سعيدة بعودة الابنين إلى أبيهما .

وكان كاتب القصة الشاعر الأديب شوبارت ، قد قدم لها بقوله إنها ليست من نسج الخيال ، بل إنها حدثت بالفعل ، وقدمها هدية لأى « عبقرى » ليصنع منها مسرحية أو رواية ، بشرط أن تكون لديه الشجاعة فلا ينقلها إلى بيئة أجنبية بل يجعل أحداثها تدور فى البيئة الألمانية .ــ وتولى فريدريش شيللر هذه المهمة الثورية وهو بعد طالب . ولم يكن نظام الأكاديمية ، كما علمنا ، يتيح للطلاب فرصة للاشتغال بأعمال لا يصدر بها أمر من صاحب الأمر . وبدأ يكتب سراً ، يتوارى ويرهف السمع إلى بعيد حتى لا يفاجئه مشرف أو رقيب ، وكلما سمع صوتاً أخفى أوراقه . ولم تكن اللحظات المختلسة بالنهار تكفى للتأليف والتصويب والتعديل ــ وكم صوب شيللر وعدل ! كان يستيقظ فى الليل ويكتب على ضوء شمعة صغيرة هربها لهذا الغرض . وكان فى اليوم التالى يأتى إلى

« التمام » وهو يترنح من فرط التعب ، فيعتقد من يراه أنه مخمور . وكان يستعين على السهر بالمنبهات وخاصة النشوق . كذلك كان يتصنع المرض أحياناً حتى يلازم الفراش ويجد فرصة ليخرج إلى الورق ما يجيش في قلبه من انفعالات اكتست بكلمات .

فلما خرج شيللر من الأكاديمية كانت المسرحية قد تم منها جزء كبير، وكان رفاقه في الأكاديمية قد استمعوا إليه مراراً يتلو عليهم فقرات منها . وظل يعمل على إكمالها ويعيد صياغة أجزاء منها حتى اكتملت وأصبحت صالحة للنشر في ربيع عام ١٧٨١ . قلنا للنشر ولم نقل للتمثيل لأن شيللر لم يفكر إلا في أن تكون كتاباً للقراءة ، كتاباً يحدث دوياً . وقد وقف إلى جانبه بالنقد البناء الأستاذ آبل الذى عرفه من قبل بشيكسبير ، وزميله بيترسن الذى عمل بعد التخرج أميناً للمكتبة في شتوتجارت ، وزميله الآخر فون هوفن الذى شغل وظيفة شبيهة بوظيفة شيللر في لودفيجسبورج ، وظيفة طبيب في كتيبة من كتائب الجيش ، ولم يكن شيللر يفرغ من التعديل أو التغير ، حتى المقدمة كتبها في ثلاث صياغات ، وظل يفكر ويقارن بينها ليختار أكثرها ملاءمة وأقلها عنفاً .

وحاول بيترسون أن يجد ناشراً في مانهايم يقبل نشر المسرحية فلم يوفق . وكان شيللر قد كتب إليه يقول : « السبب الأول والأهم لرغبتي في نشر المسرحية هو ... المال ... والسبب الثاني ، وما فهمه بالأمر العسير ، هو حكم الناس . وإلى هذين السببين تنضم أمور أخرى منها شوقي وأملي وتلهفي على ما يقصر إقامتي في جحر البلاء ، ويفرج عني كروبي ... ثم إنني بطبيعة الحال أريد أن أعرف المستقبل الذى ينتظرني كمؤلف مسرحي وصاحب قلم » . وإذا كانت محاولات بيترسن في مانهايم لم تصل إلى النتيجة المرجوة فيما يتعلق بالنشر ، فقد فتحت أفقاً جديداً : أفق التمثيل . والذى حدث أن الناشر « شفان »[١] عندما تردد في نشر المسرحية خوفاً من المواضع الجريئة العديدة بها ، لم يقطع الأمل منها مطلقاً ، بل ارسل النص إلى مدير مسرح مانهايم ڤولفجانج هريبرت دالبرج[٢] ليطلع عليها .

(١) Schwan

(٢) Wolfgang Heribert von Dalberg

ووجد دالبرج فى النص عبقرية لا سبيل إلى إنكارها ، وكتب شيللر خطاباً يرجوه فيه أن يعد المسرحية للتمثيل .

وكان شيللر قد اقترض مبلغ ١٥٠ جولدن ليطبع المسرحية على نفقته الخاصة ، وظهرت الطبعة بالفعل فى مايو عام ١٧٨١ وكان عدد نسخها ٨٠٠ نسخة . ولم تأت الطبعة بالمال الذى كان ينتظره ، بل لم تأت من المال بما يكفى لرد الدين . ولكنها كانت ناجحة . لقد نزل الكتاب على الناس كالصاعقة ، وتخاطفت الأيدى نسخه القليلة ، وظهرت مقالات مختلفة تتناول المسرحية بالنقد ، وكان من بينها مقال تنبأ للكاتب الناشىء بمستقبل باهر : « إذا كان لنا أن نتوقع أن يكون لألمانيا شيكسبير ، فها هو ذا قد أتى » . وبعد شهور قليلة ظهرت الطبعة الثانية ، طبعة عام ١٧٨٢ التى تحمل صورة الأسد وتتحلى بعبارة « ضد الطغيان » .

لم يكن دالبرج وهو يطلب إلى شيللر أن يعد النص للتمثيل يقصد إلى شىء آخر إلا إلى إعداد صيغة أخرى منها يرضى عنها أولو الأمر . وتتابعت الرسائل وتلاحقت الردود ، وظهرت تفصيلات الصيغة التى يرجوها دالبرج . كان يريد أن ينقل شيللر الأحداث من الوقت المعاصر إلى زمن مضى ، حتى لا يكون النقد موجهاً إلى أشياء قائمة ، وكان يريد هذا ذاك من التغييرات التى يطول شرحها . واضطر شيللر إلى الموافقة حتى لا يضيع منه الفرصة ، واشترط أن يظل له الحق فى نشر النص مطبوعاً كما هو ، وكتب إلى دالبرج يقول له إن عملية التعديل كلفته جهداً كان يكفى لتأليف مسرحية جديدة ، بل لتأليف درة من الدرر ، وينبهه إلى أن التعديل جعل المسرحية «كثوب ضم سبعين رقعة ، مشكلة الألوان مختلفات » !

وامتلأت شوارع مانهايم بإعلانات عن الحفلة الأولى « يوم الأحد ١٣ يناير ١٧٨٢ » لمسرحية « قطاع الطرق » التى أعدها المؤلف السيد شيللر خصيصاً للمسرح إعداداً جديداً . وفى آخر الإعلان ملاحظة طريفة : « نظراً لطول المسرحية فسيبدأ التمثيل اليوم فى الساعة الخامسة بالضبط » . ـ والوجه الآخر من الإعلان يحمل كلمة من المؤلف إلى الجمهور يبين له فيها الفائدة الخلقية

التى سيخرج بها من القطعة : أما الشباب فسيرون نهاية الضلال والانحراف ، وأما الكهول فسيتبينون أن يد العناية الإلهية الخفية قد تستعمل الشرير أداة تصل بها إلى أهدافها ، وتنفذ بها أحكامها ، وأنها تحل أعقد العقد التى يأتى بها القدر . ـ وأتى الناس لا من مانهايم وحدها بل من البلاد المجاورة كذلك ، وأخذوا أماكنهم فى القاعة منذ الساعة الواحدة وظلوا ينتظرون ساعات طوالاً قبل أن يبدأ العرض . وأتى شيللر برفقته پيترسن وجلسا فى لوج . وشاهد الجمهور فى تلك الليلة عرضاً يعتمد على نص ممتاز ، ومخرج ممتاز وممثلين ممتازين ، تضافرت المعينات الفنية المعروفة فى ذلك العصر على إظهاره فى الثوب اللائق . وشاهد شيللر فى تلك الليلة نجاحاً منقطع النظير حفزه على المضى قدماً فى هذا السبيل .

تقوم مسرحية « قطاع الطرق » فى صيغتها النثرية النهائية على أخوين ، أحدهما كريم طموح وهو كارل مور ، والآخر شرير مقيت هو فرانتس مور ، هما ابنا رجل من النبلاء اسمه ماكسيمليان مور[1] . يسعى فرانتس إلى الحصول على أموال أبيه وأملاكه لنفسه ، ويوغر صدر الأب على كارل ، ولا يتورع عن تزوير خطابات يطلع الأب عليها ليرى أن ابنه قد ضل الطريق السوى وكون عصابات من الأشرار وأن السلطات تطلب تسليمه حياً أو ميتاً وتعلن جائزة سخية لقاء رأسه . ويقرر الأب حرمان ابنه من الميراث ويكتب إليه بالقطيعة . وبينما كارل يتأهب للعودة إلى أبيه وهو ينوى أن يعترف له بالأخطاء التى ارتكبها وأن يرجوه الصفح ، وينوى أن يتزوج خطيبته أماليا[2] ويعيش حياة هادئة ، يصله خطاب الأب بالقطيعة النهائية التى لا أمل فى الوفاق بعدها . ويحتار كارل فى أمره وتزداد الفجوة التى تفصل بينه وبين المجتمع المضطرب المنافق الذى يسيطر على الأفراد ، فلا يجدون متنفساً لما يعتمل فى ذواتهم من حماس وإحساس وفكر . ويجتمع الطلاب الثائرون المطالبون بالحرية حول كارل ، ويتبعون نصيحة أحدهم وهو

(١) Maximilian Moor . Franz Moor . Karl Moor

(٢) Amalia

شبيجلبرج [١] ، ويكونون عصابة من قطاع الطرق ، ويختارون كارل رئيساً لها ، ويقبل كارل الرئاسة الآثمة دون كثير من التردد فقد انفصم الرباط الذى كان بينه وبين المجتمع القائم ، وضاع كل أمل له فى العودة وفى إصلاح الحال . ـ أما فرانتس ، فبعد أن نجحت خطته وحصل من أبيه على حرمان كارل من الميراث ، تقدم إلى أماليا خطيبة كارل يريدها لنفسه ، فما كان منها إلا أن ردت سعيه ووبخته واحتقرته . ولكنه لم يفقد الأمل وظل يحاول بالكذب والوشاية أن يحملها على تغيير فكرها .

ويفكر فرانتس فى وسيلة يتخلص بها من أبيه حتى يستأثر بالقصر والأموال والضياع ، ويكلف أحد رجاله ـ هرمن [٢] ـ بأن يتنكر فى هيئة رسول يأتى ليبلغ الأب أن ابنه انضم للجيش وسقط صريعاً فى معركة عند براغ ، حتى يفزع الأب الضعيف ويحزن ويموت كمداً . وينفذ هرمن المخطط ويوشك الأب أن يموت من هول المفاجأة خاصة وأنه قد أحس بأنه ظلم كارل وتسرع بلعنته وحرمانه . ـ أما العصابة التى تظهر فى غابات بوهيميا ، فتنقسم إلى مجموعتين ، مجموعة بقيادة شبيجلبرج تقطع الطرق وتسرق وتنهب وتقتل وتفجر ، ومجموعة بقيادة كارل مور تستعمل قوتها وحريتها فى انقاذ المظلومين واغاثة المكلومين والانتقام من الوزراء الفاسدين والموظفين المرتشين والمحامين الذين يبيعون العدل بثمن بخس . وكانت هذه الأعمال تتطلب معارك يسقط فيها موتى وتنسف مدن . وقد يتعرض فرد من أفراد العصابة للخطر ، مثل رولل [٣] ، فلا يتورع كارل عن نسف مدينة بأكملها فى سبيل انقاذه من المشنقة . ويعرف رولر لرئيس العصابة كارل مور هذا الصنيع .

وذات يوم يأتى أحد القساوسة ويعرض على العصابة تسليم رئيسها لقاء العفو عن افرادها جميعاً ، فيتقدم كارل مور مضحياً بنفسه من أجل الآخرين .

(١) Spiegelberg

(٢) Hermann

(٣) Roller

ثم هو قد تعب من حياة العنف وأراد أن يكف عنها بأى ثمن . وهنا يثير روللر حماس الرفاق جميعاً . ويحولون بين كارل وبين تسليم نفسه . وفى هذه الأثناء يكون فرانتس قد غير أسلوبه مع أماليا التى علمت أن كارل ما زال حياً ، وقرر أن يجعلها عشيقة له بالقوة ، ما دامت ترفض عروضه وترده بإباء وشمم .

أما العصابة فتضم عضواً جديداً هو كوزينسكى[1] بدلاً من روللر الذى سقط فى إحدى المعارك . ويتبين كارل مور تشابهاً بين ظروفه وظروف هذا الشاب حتى إن خطيبة كوزينسكى تحمل اسم خطيبته أماليا . وتدفعه هذه المصادفة إلى التفكير فى العودة إلى قصر أبيه متنكراً ليرى إلام صارت الأحوال . ويعود إلى منطقة فرانكن ، ويدخل القصر على أنه الجراف فون براند[2] ويلتقى بأماليا ، وبخادمه المخلص دانيل . وبينما يستعد كارل للرحيل ، وأفكار الانتحار تساوره ، يكتشف جريمة فرانتس التى كادت أن تصل إلى فصولها الأخيرة . كان فرانتس قد ضاق ذرعاً بأبيه الذى لم يمت من هول الصدمة ، فوضعه فى نعش ، وقرر أن يدفنه حياً . ولكن هرمن أخرجه من النعش ، وأخفاه فى مكان قرب القصر ، وتولاه بالطعام والشراب خفية . ويظن كارل أن أخاه فرانتس قتل أباه فعلاً ، فيكلف أحد أفراد العصابة ـ شفايتسر[3] ـ بأن يأتيه بفرانتس حياً . أما فرانتس فقد تحرك ضميره وأخذ يعذبه ويحرمه من الراحة ليلاً ونهاراً ، ويجعله يستدعى القسيس موزر[4] عله أن يسمع منه كلاماً يريحه . وعندما يظهر شفايتسر فى القصر ، يعتقد فرانتس أن القضاء قد حم عليه ، فيقتل نفسه . كذلك يقتل شفايتسر نفسه لفشله فى القبض على فرانتس حياً . ويلتقى الأب والابن ، وتلتقى الخطيبة والخطيب . وما يعلم الأب أن ابنه هو رئيس العصابة حتى يموت من فوره . وتحكم العصابة على أماليا بالموت ، فيقتلها كارل ظلماً ، على الرغم من أنها كانت لا تزال مخلصة له متمسكة به . وينتهى كارل عند هذه

(١) Kosinsky

(٢) Graf von Brand

(٣) Schweizer

(٤) Moser

الأهوال كلها إلى الاعتراف بأخطائه عندما حاول أن يصلح العالم بالعنف والخروج على القانون ، والاعتراف بأن رجلاً واحداً لا يصلح النظام الأخلاقى ، بل يفسده ويهدمه . ويذهب كارل إلى رجل فقير كثير العيال فيسلم نفسه إليه ويرجوه أن يسلمه إلى السلطات حتى ينال المكافأة وقدرها ١٠٠٠ جنيه ذهباً التى وعد بها من يمكن العدالة منه .

لا شك أن أثر هذه المسرحية على الناس كان نابعاً من فقرات معينة بها ، ولم يكن مرتبطاً بالضرورة بنهايتها . ولا شك أن أقوى الفقرات التى أثرت على الناس كانت الفقرات الخاصة بالحرية والعدالة والشرف والإخلاص والشهامة والثورة على الظلم والوقوف فى وجه الطغيان ، وهى التى كتبت الخلود لهذا العمل المبكر .

بعد أن نجحت المسرحية فى مانهايم مثلت فى هامبورج فى صيف العام نفسه بنجاح كبير . ثم مثلت فى لايبتسيج بنجاح أكبر . على أن السلطات فى لايبتسيج منعتها لأن نشاط قطاع الطرق زاد بشكل ملحوظ ! ولأن طلبة جامعة لايبتسيج ربما يتأثرون بها ويتحولون إلى حياة الشغب . كذلك ترجمت المسرحية إلى الإنجليزية باسم The Robbers, a tragedy وظهرت مقتبسة فى فرنسا ، ولقيت نجاحاً كبيراً فى عهد الثورة ، وكانت تعرض باسم : Robert, chef des Brigands. imité de l'Allemand. وظهرت فى العام نفسه محاولات لإكمالها ، أو لتغييرها . من هذه المحاولات واحدة منسوبة إلى شاعر برلينى مغمور اسمه پلوميكه [١] ، وأخرى منسوبة إلى أديبة اسمها فون ڤالينروت [٢] .

وبدأ شيللر يستعد للمستقبل . فكتب بقلمه نقداً ذاتياً شديداً نشره فى مجلة « ڤرتمبرجيشس [٣] ريپرتوريوم » ألقى فيه الضوء على نواحى الضعف فى مسرحية « قطاع الطرق » ، ونشر هذا النقد خالياً من اسم كاتبه . وبهذا صفى حسابه مع

(١) Plümicke

(٢) Wallenrodt

(٣) Wirtembergisches Repertorium .

المسرحية المنتهية قبل أن يبدأ فى مسرحيته الجديدة « فييسكو »[1] . وأنشأ عدداً من القصائد فى موضوعات مختلفة تبين تحوله من مقلد لكلوپشتوك ، إلى واحد من شعراء العاصفة ، تلك الحركة التى طبعت الإنتاج بطابعها فى الفترة بين ١٧٦٧ و١٧٨٥ .وأسهم هو فيها وكذلك جوته بعدد من الأعمال كانت هى التى كتبت لها البقاء بين إنتاج الحركة كلها تقريباً . على أن الإنتاج الغنائى فى تلك الفترة لم يكن بحال من الأحوال على مستوى « قطاع الطرق » ، وكانت له عيوب أبرزها العنف والانفعال الصاخب . ومهما يكن من أمر فإن شيللر أخرج فى عام ١٧٨٢ ديواناً باسم « مفضليات عام ١٧٨٢ »[2] . وجاء هذا الديوان وليد مصادفة . فقد اختلف شيللر مع شاعر شڤابى اسمه « شتويدلين » أخرج مفضليات بعنوان « باقة شڤابية »[3] جمع فيها إنتاج عدد من الشعراء القورتمبرجيين ، وطلب إلى شيللر الإسهام بإنتاجه فقبل ، وفوجىء شيللر بالديوان يصدر وليس به من إنتاجه إلا قصيدة واحدة ناقصة . وغضب شيللر لفنه ولكرامته وصمم على معارضة هذه الباقة . ولسنا نهتم اليوم لما ضمته هذه المفضليات الشيللرية من أشعار الآخرين ، فكلها عديمة القيمة . ولكننا نهتم لما احتوتها من إنتاجه هو : قصائد « لاورا » مثلاً التى يحتمل أن تكون الأرملة فيشر قد ألهمته إياها . ويدل على أسلوبها هذا النموذج :

إن نظراتك ، عندما تبتسم بالحب
تكاد تبث الحياة فى المرمر الصلب
وتجعل النبض يدب فى عروق الصخور .
إن الأحلام لتتحول من حولى إلى كائنات
إذا استطعت أن أقرأ فى عينك :
لاورا ، لاورا حبيبتى ! .

(١) Fiesco

(٢) Anthologie auf das Jahr 1782

(٣) Schwäbische Blumenlese

ولا بد أن يتوقف المرء عند قصيدة « روسو » من إنتاج عام ١٧٨٢ ، تلك القصيدة التى تنطق بالأثر الكبير الذى أثره فى شيللر ذلك الرجل الذى أحدث فى السياسة والمجتمع والأخلاق والفن هزة بالغة القوة ، نفضت عنها تراب الجمود ، ومنحتها حياة جديدة . وشيللر فى قصيدته يرثى روسو ، ويأسف للنهاية التى انتهى إليها :

كانت الدنيا فيما مضى من الزمان ظلاماً ، فمات الحكماء .
وها هى ذى الدنيا قد أضاءت بالنور ، والحكيم يموت .
لقد قضى سقراط نحبه بين السفسطائيين .
أما روسو فقد عانى وقاسى ومات بين ظهرانى المسيحيين .
روسو ، الذى أراد أن يجعل من المسيحيين بشراً .

وكذلك اشتغل شيللر ببعض أعمال التحرير ليحصل على شىء من المال يصلح به أحواله المالية التى ظلت مضطربة بعد ديونه التى اقترضها لطبع « قطاع الطرق » خاصة . فحرر بعض أعداد مجلة كانت تظهر فى شتوتجارت مرتين أسبوعياً اسمها « أخبار للفائدة والتسلية » (١) . كانت تصدر عن دار منتلر (٢) . وكذلك حرر العددين الأولين من مجلة « فيرتمبرجيشس ريبرتوريوم » .

لم تقتصر ثلة المعارف الجدد الذين تعرف شيللر عليهم فى أثناء الإعداد لتمثيل « قطاع الطرق » وفى أثناء عرضها ومناقشتها على الناشر شفان والمخرج المسرحى دالبرج ، بل شملت اناساً لا يقلون عن هذين أهمية فى حياة شيللر . تعرف شيللر على يوهان أندرياس شترايشر (٣) (١٧٦١ - ١٨٣٣) الذى كان يكمل دراسة الموسيقى ، وكان حاضراً يوم العرض الأول ، فوجد قلبه يهفو إلى المؤلف الناشىء ، وما اتصلت المعرفة بينهما حتى نشأت صداقة وثيقة تقوم على

(١) Nachrichten zum Nuzen und Vergnügen

(٢) Mantler

(٣) Johann Andreas Streicher

الإعجاب والإخلاص . وكذلك قدم ڤيلهلم فون ڤولتسوجن [1] ، أحد رفاق الأكاديمية ، صديقه شيللر إلى والدته السيدة هنريته فون ڤولتسوجن وأخته شارلوته ، ونشأت بينهم صداقة قوية ، كان لها أثرها على مستقبل شيللر .

وفى ٢٥ مايو عام ١٧٨٢ ذهب شيللر للمرة الثانية إلى مانهايم دون تصريح من الأمير فى هذه المرة كذلك . وانتهز فرصة غياب الأمير فى زيارة لڤيينا للقيام بالرحلة التى حثته عليها السيدة هنريته فون ڤولتسوجن والأرملة فيشر ، وكانتا تريدان التمتع بعرض آخر لمسرحية « قطاع الطرق » . فلما وصلوا إلى مانهايم تبينوا أن ظروفاً طرأت تحول دون تقديم العرض ، ولكن المخرج دالبرج استقبل شيللر استقبالاً حاراً ، وتحدث معه فى شئون المسرح وأكد له أن مسرح مانهايم بحاجة إليه وأنه سيسعى إلى تعيينه كاتباً مسرحياً للمسرح إذا تمكن من الانقطاع لهذا العمل الجديد . وعاد شيللر إلى شتوتجارت بأمل جديد . وكتب إلى دالبرج يذكره بوعوده ويقول :

« لقد كفرت عن المتعة التى نعمت بها فى مانهايم كاملة فياضةً ، بمرض وبالى أصابنى منذ عودتى ، وجعلنى فريسة للاكتئاب الذى لا يمكن التعبير عنه ، وحال بينى تماماً وبين الكتابة إليكم ، ياصاحب العزة : لأعبر لكم عن أحر شكرى على تقديركم البالغ ورقتكم الفائقة . وإننى مع ذلك أوشك أن أندم على القيام بهذه الرحلة التى تعتبر أسعد رحلات حياتى ، والتى أظهرتنى على التناقض البشع بين وطنى ومانهايم ، وجعلتنى لا أحتمل شتوتجارت والمناطق الشقابية بل وأنفر منها نفوراً . لا يمكن أن يكون هناك إنسان ألم به من التعاسة أكثر مما ألم بى ، أتسمح لى ، أيها الرجل العظيم ، بأن أرتمى بين ذراعيك ؟ » .

وكانت العيون تراقب شيللر وتقدم تقريراً إلى الأمير عن تحركاته بدون إذن . وتلقى شيللر أمراً من الأمير بالذهاب إليه فى مقره بهوهنهايم [2] . واستقبله استقبالاً ودياً وذهب معه إلى حديقة القصر ، وسار معه يشاهدان الزهور الجميلة

(١) Wilhelm von Wolzogen

(٢) Hohenheim

والأشجار المنسقة وفجأة قال له : « لقد كنت كذلك فى مانهايم . أنا أعرف كل شىء . أعنى أن رئيسك يعرف ذلك » . واعترف شيللر بأنه سافر إلى مانهايم فعلاً ، ولكن رفض أن يقر بأن رئيسه على علم بذلك ، حتى لا يصيبه ضر ، وكان شيللر قد وعده بأن يخرجه من المسئولية إذا حدث شىء . وغضب الأمير وأمر « الطبيب » شيللر بأن يذهب على الفور إلى رئاسة الحرس فى شتوتجارت ، ويسلم سيفه ، ويقدم نفسه للحبس أسبوعين . ومنعه منعاً صريحاً من الاتصال « بجهات أجنبية » ، يعنى بمانهايم . ـ وقضى شيللر فى السجن مدة العقوبة يفكر فى حياته ومستقبله الأدبى ، ويحرك مسرحيته الجديدة « فييسكو » فى خياله ، وينسج الخيوط الأولى لمسرحية ثالثة . وخرج من السجن ، وقد خرج بأفكار هامة : إنه لا بقاء له فى هذه البيئة الظالمة ، وإنه والطاغية لا يتفقان ، وإن المعركة لابد من أن تبدأ .

واستدعى الأمير كارل أويجين شيللر للمرة الثانية إليه . وكان السبب هو ضجة قامت حول عبارة لشبيجلبرج فى الفصل الثانى عن منطقة جراوبوندن [1] السويسرية إنها « أثينا قطاع الطرق فى هذه الأيام » ، وطالب بعض وجهاء جراوبوندن شيللر بأن يرد كرامتهم ، ويعلن على الملأ ذنبه وتوبته ! ! ووصل الأمر إلى الأمير عن طريق رجل اسمه ڤالتر يعمل مفتشاً فى الحدائق الأميرية بلودڤيجسبورج . ـ وكان الأمير غليظاً مع شيللر ، فذكره بالحظر الذى فرضه عليه ، وأوضح له تسببه فى إفساد العلاقات بين الإمارة والبلاد الأجنبية ، وأمره بأن يقدم إليه مؤلفاته الأدبية ، وألا يطبع شيئاً بدون تصريح منه ، فرفض شيللر . واستشاط الأمير غضباً وأصدر أمراً بمنع شيللر من التأليف المسرحى ، ومعاقبته بالطرد من الخدمة ، والسجن فى زنزانة هوهنأسبرج ، إذا خرج على هذا الأمر .

ولم تكن زنزانة هوهنأسبرج غريبة على شيللر . كان يعرف أن الأمير يزج فى غياهبها بمن يغضب عليهم ، ولا يكلف نفسه مشقة محاكمتهم حتى صوريا .

(1) Graubünden

وكان شيللر يعرف خاصة أحد نزلائها الشاعر دانييل شوبارت الذى كلفه نقده الأمير سنوات عزيزة من حياته فى ظلام السجن . ولقد اهتم به صاحب « قطاع الطرق » ، وسعى إلى زيارته من قبل ، وتمكن من ولوج زنزانته : بمساعدة صديقه ڤيلهلم فون هوفن . وكان اللقاء بين شيللر وبين شوبارت فى السجن لقاءً مؤثراً ، فما إن سمع شوبارت بأن الذى يزوره هو شيللر مؤلف « قطاع الطرق » حتى ارتمى بين ذراعيه ، وتعانقا ، والدموع ملء المآقى .

لا بد لشيللر إذن أن يأخذ حذره .

الباب الخامس

الهجرة

وقرر شيللر أن يهاجر .

ولم يكن هذا القرار سهلاً . وكان شيللر يخشى أن ينتقم الأمير كارل أويجين من أهله ، وقد علمنا أن أباه كان يعمل فى خدمة الأمير ، ويعيش على مرتبه . فماذا تعمل الأسرة إذا انقطع عنها دخلها؟ ثم المستقبل الذى يسعى إليه ؟ هل هو مستقبل مؤكد؟ هل هو أفضل ؟ ولذلك حاول شيللر محاولة أخيرة وأرسل فى أول سبتمبر إلى الأمير يرجوه أن يسمح له بالعودة إلى نشر مؤلفاته ، وبالسماح له بالاتصال بالخارج ، ويعلن موافقته على أن تخضع أعماله للرقابة . ولم يرد الأمير على هذا الخطاب ، وعلم شيللر أن الأمير أمر قائد الكتيبة بأن يحبس شيللر إذا تجرأ على الكتابة إلى الأمير مرة ثانية .

ويخبرنا أندرياس شترايشر أن شيللر كان فى ذلك الوقت عاكفاً على إتمام مسرحية فييسكو وأنه أتمها فى الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر . وكان شترايشر يقابل شيللر كل يوم ويسمع منه الجديد . كذلك عرف شترايشر بنية شيللر على الهرب . وقرر مرافقته ، ورتب أموره مع أمه على أنه ذاهب إلى هامبورج

لاستكمال دراسة الموسيقى على إمانويل باخ . وذهب شيللر إلى أمه وأخوته ووعهن . ولم يذكر لأبيه شيئاً عن نيته ، حتى لا تكون له أدنى صلة بهذه الفعلة التى سيغضب لها الأمير بلاشك أشد الغضب .

وتصادف أن كان الأمير كارل أويجين يستعد استعداداً ضخماً لاستقبال أمير روسى هو الأمير پاول وقرينته التى كانت تمت إلى الأمير كارل أويجين بصلة القرابة . وكان هذا الاستعداد يشمل القصور الأميرية والمدن الهامة ، ويكلف الموظفين والأهلين بأعمال تكاد تتجاوز طاقتهم ، لأن الأمير كان يريد أن يرى ضيوفه لديه « المستحيل » واقعاً . كان على المشرفين على أمور الصيد مثلاً أن يجمعوا فى الغابة ستة آلاف من الوعول ، فلما تم لهم ذلك ضربوا نطاقاً بشرياً حول الحيوانات يتكون من أعداد كبيرة من الفلاحين ، صدرت إليهم الأوامر بالترصد للحيوانات ومنعها من الفرار . واتخذت بركة فى مكان منخفض ، ومهد طريق فوقها فى مكان عال ، وكان حفل الصيد يقوم أساساً على دفع الحيوانات إلى الطريق المرتفع ، حتى إذا وجدت المطاردة من خلفها والبركة من تحتها آثرت القفز ، فتلقفها الصحاب وعاجلوها بعدة الصيد إن حلا لهم . وأقبل الكثيرون من علية القوم من الإمارات المجاورة تلبية لدعوة الأمير . وكان من بينهم دالبرج الذى زاره شيللر دون أن يحدثه عن نيته التى انعقدت على الهرب . ولا شك أن الاحتفالات الكبيرة وحركة الضيوف خارجين وداخلين من أبواب مدن الإمارة ، كانت تخلق أصلح الظروف للهرب . وفى مساء يوم ٢٢ سبتمبر ١٧٨٢ ، يوم حفلة صيد الوعول ، عندما سطعت الأنوار فى القصر الملكى وفى المناطق المحيطة ، وكان الحرس يمتعون أبصارهم بالمشاعل الوهاجة ، كانت عربة الهرب قد استعدت لحمل شيللر وصديقه المخلص شترايشر . وكان شترايشر أخذ على عاتقه تدبير العربة وما إلى ذلك من مستلزمات السفر . ويحكى شترايشر أنه عندما ذهب إلى شيللر فى الساعة العاشرة صباحاً وجده مستغرقاً فى قراءة قصائد كلوبشتوك ، ولم يحزم أمتعته بعد ! كانت هذه القصائد قد وقعت فى يده أثناء الشروع فى حزم المتاع فملكت عليه نفسه ، وأخذ يكتب تحت تأثيرها قصيدة جديدة . فلما جاء الموعد كان شيللر قد استعد بأمتعته ، وبمسدسين لاستعمالها عند

اللزوم ، وحملت العربة كذلك بيانو شترايشر الصغير . ومرت العربة على الحرس القائمين على باب إسلينجن ، فصاحوا بها حسب الأوامر : قف ! من أنت ؟ وأجاب شترايشر : دكتور ريتر ودكتور ڤولف فى رحلة إلى إسلينجن [١] . فكتب الحراس الاسمين ، وفتحا الباب . وخرجت العربة ، واندفعت إلى الطريق . وكان الراكبان عندما ينظران إلى الخلف يريان القصر الملكى غارقاً فى بحر رقراق من الأنوار ، وعندما ينظران إلى أمام يريان العربة تشق الظلام . وفى صباح اليوم التالى وصلا إلى قرية بريتن [٢] وتركا العربة تعود إلى شتوتجارت ، وركبا عربة البريد العادية التى سارت بهما طوال النهار حتى وصلا فى التاسعة إلى قرية شڤيتسينجن [٣] وفيها قضيا الليلة . وفى الصباح استأنفا الرحلة ودخلت بهما العربة مانهايم عند الظهر .

ويحكى شترايشر أنهما فى الطريق توقفا للراحة فى قرية « انتسڤايهينجن » [٤] فأخرج شيلر من جيبه كراسة فيها قصائد لشوبارت لم تكن قد ظهرت مطبوعة بعد ، وقرأ منها على شترايشر شيئاً ، وخاصة القصيدة المسماة « مقابر الأمراء » . فى هذه القصيدة يذكر شوبارت الأمراء الطغاة بأنهم بشر وبأنهم منتهون لا محالة إلى القبر ، فلم الغرور؟ وفيم الاستبداد؟ يقول مثلاً :

هاهو ذا فى القبر رفات الأمراء ذو الكبرياء .
وكان من قبل أصناماً فى عوالمها ،
بقايا ممددة ، وبريق رهيب .
من نور باهت يضيئها .

*

(١) Esslingen

(٢) Bretten

(٣) Sh' wetzingen

(٤) Entzweihingen

هنا ترقد جماجم انمحت نظراتها .
وكانت من قبل فى علياء ترنو بالوعيد لمن دونها .
وكانت تحمل للإنسانية الرعب والفزع ، لأن إيماءاتها .
كانت تعنى الحياة أو الممات .
وتعفنت اليد والتوت نحو العظام تحتها ،
وكثيراً ما كانت بجرة قلم باردة .
تصيب الحكم ، الذى يرفع صوته عند العرش .
وتزجه فى الأغلال الغلاظ .

*

هاهم أولاء يرقدون ، وينامون نوماً من الفولاذ ،
زبانية البشر ، لا يبكيهم أحد ،
فى قبر من الصخر ، وذل دونه ذل العبيد ،
وجدران كجدران السجن تحتويهم .
أولئك الذين لم تحس صدورهم العاتية يوماً
بوعيد الدين
وكانوا يعتبرون كرام الناس ، من هم خير منهم .
كالبهائم خلقت للسخرة .

*

هذا مكان لايولول فيه اليتيم الشاحب
الذى إنتزع منه الطاغية أباه
ولايشكو العاجز المعتمد على عصاه
الذى أصابه الشلل لقاء أجر غريب عجيب .

*

وهللوا لمقدم ذلك اليوم العظيم

الذى يوضع فيه الميزان لأعمال الأمراء كافة .
أما أنتم فستدق لكم أنغام القاضى كأنغام النجوم
وعندما توزن عليه فضائلكم
* ... الخ .

ولا شك أن شيللر وجد فى قصيدة الثائر شوبارت ماثبت فؤاده ، ومنحه القوة ، ودفعه إلى الأمام ، فالقضية قضية عدل . إنها قضية الإنسانية .

وفى مانهايم قابل شيللر المخرج ماير[1] ، وكان قد تعرف به فى أثناء عرض «قطاع الطرق» وتحدث إليه عن مشروعاته ، وأفهمه أنه هرب من الإمارة وأنه لا ينوى أن يعود . ودهش ماير لهذه الجرأة واقترح على شيللر أن يكتب إلى الأمير راجياً الصفح . ورحب شيللر بالفكرة ، لا لأنه ندم على الهرب ، ولا لأنه قرر أن يعود أدراجه ، ولكن لأنه رأى أن خطاب اعتذار منه إلى الأمير سيفيد أباه وربما صرف الأمير عن اتخاذ إجراء نهائى حاسم معه ، يحرمه من لقاء أهله أبداً . وكتب شيللر فى خطابه يقول : «لا يمكن أن تكون محنة واحد من رعيتكم وبنيكم يا صاحب السمو الأمير والأب ، شيئاً لا تعيرونه اهتماماً . ولقد اخترت طريقاً فظيعة لأحرك قلب سيدى الكريم .. وخشيت أن أتعرض للعقاب إذا أنا خرجت على أمر سموكم وكتبت إليكم خطاباً أعرض فيه موضوعى . فهربت إلى هنا حتى أفلت من العقاب . إننى أفقد كل أمل فى العودة ، إذا لم يتعطف سمو الأمير ويسمح لى بأن أكون أديباً وأن أقوم برحلات تتصل بالكتابة ، لأقابل كبار الأدباء ، وأعرفهم وأرى الدنيا ، وأن أرتدى الملابس المدنية وهو شىء من شأنه أن يسهل على مهمة ممارسة الطب .. الخ » .

وتلقى شيللر من قائد الكتيبة خطاباً مبهماً يطلب فيه إليه العودة إلى شتوتجارت فوراً « فإنك بذلك تفيد من عفو صاحب السمو » . ولكن شيللر رد على قائد الكتيبة يفهمه أن هذا الكلام المبهم لا يعنى بالطبع أن سمو الأمير وافق على طلباته ، ويرجوه أن يتمسك بمضمون الكتاب الذى رفعه إلى أعتاب

(١) Christian Dietrich Meyer

الأمير ، وأن يفعل ما فى وسعه لينال من الأمير موافقة على هذه الطلبات .

وجاءت الأخبار من شتوتجارت أن هرب شيللر أصبح على كل لسان وأن لأمير لا شك يبيت له نية ، وأنه لابد سيطلب من مانهايم تسليمه إليه ، أو يعلن عن مكافأة لمن يأتيه به . ولم تكن هذه الأخبار تعنى أكثر من دفع شيللر إلى مزيد من العناد ، ومزيد من الحيطة ، ومن الاندفاع فى الطريق الجديدة .

وكان وجود شيللر فى مانهايم معلقاً فى رباط واه ، فلم يكن لديه من المال إلا القليل ، وكذلك لم يكن صديقه شترايشر قد استطاع أن يحصل من المال على قدر كاف . وبدأت المحاولات للحصول على مال لقاء المسرحية الجديدة « فييسكو » . واجتمع الممثلون فى بيت المخرج ماير وجاء شيللر ليقرأ عليهم النص الجديد . وقدم شيللر للنص بمقدمة تاريخية ثم قرأ الفصل الأول فلم يعبر أحد عن الاستحسان . وقرأ الفصل الثانى فلم يتحسن الجو بل زاد السكون الذى خيم عليه . حتى إذا استبد بالحضور الملل انصرفوا إلى أشياء أخرى . وأخذ المخرج ماير شترايشر إلى بعيد وسأله عما إذا كان شيللر هذا هو الذى كتب « قطاع الطرق » وحده ، أو كان هناك من ساعده . فلما أكد شترايشر أن شيللر هو مؤلف « قطاع الطرق » ومؤلف « فييسكو » وأنه يؤكد أن أحداً لم يساعده فيهما قط . قال ماير : « إن مسرحية فييسكو هذه أسوأ مسرحية استمعت إليها طوال حياتى ! » وترك شيللر النص للمخرج على أية حال ، وخرج حزيناً . وحاول شترايشر ما استطاع أن يواسى صاحبه ويشجعه .

وفى اليوم التالى ذهب شترايشر إلى ماير ، ووجده فى غاية السرور ، فقد أعجبته المسرحية كل الإعجاب ! كان السبب فى الملل الذى استبد بالممثلين عند استماعهم إلى النص هو لهجة شيللر الشڤابية من ناحية ، وطريقته فى الإلقاء الحماسى الخطابى على وتيرة واحدة من ناحية أخرى . ووعد ماير باقتراح تمثيل فييسكو على دالبرج عندما يعود من شتوتجارت ، فهو المدير وهو الوحيد الذى يقبل أو يرفض . متى يعود دالبرج ؟ لا أحد يعرف .

ولم يكن من الحكمة الانتظار فى مانهايم فى وقت يفكر فيه الأمير كارل

أوبجين فى إجراء يتخذه ضد شيللر . واقترح الأصدقاء على شيللر أن يترك مانهايم مؤقتاً حتى تتضح الأمور . وأرسل شترايشر إلى والدته يطلب منها أن ترسل له ثلاثين جولدن على فرانكفورت [1] . وخرج شيللر وشترايشر فى رحلة على الأقدام إلى فرانكفورت . وتجولا فى الطريق الجبلى حتى أطبق الليل ، فذهبا إلى فندق فى دارمشتدت [2] ، وقضيا فيه الليلة . ولكن شيللر لم يذق طعم النوم . وفى اليوم التالى كان شيللر ضعيفاً شاحباً . وأصر على الاستمرار فى السير . ولكنه انهار فى الطريق ، واستلقى فى الحشائش واستسلم للنوم . وبقى شترايشر بجانبه ينظر إليه وقد استبد به القلق على صديقه الحميم ، وعلى العبقرية التى تمتحنها الأيام أقسى امتحان . وصحا شيللر من النوم على صوت شترايشر يرد رجلاً بغلظة ، كان هذا الرجل ضابط تجنيد يضرب فى الأرض بحثاً عن صيد يقع فى فخه ، وعرض على شترايشر أن يصبح جندياً فأغلظ له . واستأنف الصديقان السير ووصلا فرانكفورت قبل حلول الليل . ونزلا فى حجرة بفندق بسيط فى ضاحية زاكسنهاوزن [3] .

وفكر شيللر فى ديونه التى خلفها وراءه فى شتوتجارت وفى الرجل الذى ضمنه ، وفكر فى مسرحيته الجديدة التى تركها فى مانهايم انتظاراً لعودة دالبرج . وتناول القلم وكتب إلى دالبرج فى ٦ أكتوبر ١٧٨٢ يطلب إليه أن يرسل مبلغاً كمقدم الأجر إلى أن يبت فى المسرحية نهائياً . يقول شيللر فى هذا الخطاب : « لا بد أنك يا صاحب العزة ، قد علمت من أصدقائى فى مانهايم بوضعى قبل عودتك التى لم أتمكن من انتظارها . وإذا قلت لك إننى هارب ، فإننى بذلك أصف حالتى وصفاً كاملاً . أما أسوأ ما أعانى منه فوق ذلك ، فهو أننى أفتقر إلى المال اللازم لتمكينى من الوقوف فى وجه حظى العاثر ... ولقد وضعت أملى كله على مقامى فى مانهايم ، وعلى مساندتك لى يا صاحب العزة ، بقبول مسرحيتى ، لا على تسديد ديونى فحسب ، بل على تحسين أحوالى بصفة عامة ... فقد

(١) Frankfurt

(٢) Darmstadt

(٣) Sachsenhausen

خرجت خالى الوفاض ، مجرداً من الأمل . إن وجهى ليحمر خجلاً من الاعتراف بهذه الأمور ، ولكننى أعرف أن ذلك لا ينقص من كرامتى . وإنه لما يحزننى أشد الحزن أن أرى رغماً عنى الحقيقة المقيتة تتأكد فى حالتى ، تلك التى تحول بين كل شفائى حر أبى وبين النماء والاكتمال . أرجو أن تسمح لى ، يا صاحب العزة ، بأن أرجوك أن تبعث إلى بمساعدة . وإننى ، وإن كنت بمسيس الحاجة إلى الأجر الذى أنتظره من مسرحيتى « فييسكو » ، لا أستطيع أن أقدم النص فى صورة صالحة للتمثيل قبل ثلاثة أسابيع ، فقد تملك الحزن والانقباض قلبى منذ وقت طويل ، وشدنى إحساسى بحالتى شداً تاماً بعيداً عن الأحلام الشعرية . وإذا كنت أعد بتقديم النص تماماً فى المهلة المذكورة ، وأرجو أن يكون جديراً بالقبول ، فإننى أتشجع فأرجوك ، يا صاحب العزة ، بأن تتكرم وتأذن لى بمقدم من الأجر الذى تحددونه للمسرحية . ولما كانت حالتى الآن تتضح مما كتبت جلية لا لبس فيها ، فإننى أرى أننى أثقل عليك بلا فائدة ، يا صاحب العزة ، إذا أنا صورت لك المصاعب التى أتعرض لها . كل ما أفكر فيه وأتمناه الآن هو مساعدة عاجلة . . » .

وجاء الرد بعد أيام قلائل . تلقى شيللر خطاباً فى ٩ أكتوبر من ماير يقول له فيه إن السيد دالبرج لا يمكنه أن يبعث إليه بشىء من أجر على مسرحية لم تقبل بعد . وارتسم الحزن على وجه شيللر الشاحب وصمت . لقد خيب دالبرج أمله ، وتخلى عنه فى وقت المحنة . ومازلنا نحن حتى اليوم ندهش لموقف دالبرج هذا . حقيقة إن شيللر كان كاتباً ناشئاً ، ولكنه لم يكن مجهول المقدرة والإتقان ؛ لقد كان كاتباً ناجحاً رأى دالبرج بنفسه النجاح المنقطع النظير الذى حظيت به مسرحيته « قطاع الطرق » . فما باله لا يحتضنه ؟ ولماذا يتخلى عنه ؟ هذه أسئلة لا نعرف لها جواباً . وتلقى شيللر فى البريد ذاته خطاباً من صديق له ينقل إليه تهديد الأمير ووعيده .

وخرج شيللر بقصيدة كبيرة عنوانها « شيطان الحب » [1] إلى أحد الناشرين

(١) Teufel Amor

فى فرانكفورت وعرضها عليه لكى ينشرها وطلب أجراً قدره ٢٥ جولدن . وساومه الناشر وعرض ١٨ جولدن . فما كان من شيللر . وهو فى وسط المحنة ، إلا أن انصرف غاضباً يتألم للفن الذى يتعرض لمساومة المساومين . والطريف أن هذه القصيدة ضاعت من شيللر ، وانتهى أمرها ولم ينل لقاءها كثيراً أو قليلاً . ووصل شىء من المال إلى شترايشر ، أرسلته أمه إليه وهى تعتقد أنه فى طريقه إلى هامبورج للدراسة . ولكن شترايشر كان بدافع الإخلاص لصديقه ، قد قرر أن يؤجل مشروعاته الخاصة ، وأن يقف أولاً إلى جانبه فى محنته . ولما كانت الحياة فى فرانكفورت غالية التكاليف ، فقد استمع شيللر وصديقه لنصح الناصحين وانتقلا إلى قرية « أوجرسهايم » [1] على بعد ساعة من مانهايم ونزلا فى فندق بسيط اسمه « تسوم فيهوف » [2] . حيث وجدا المخرج ماير وزوجته واثنين من المعجبين فى انتظارهما . ودار الحديث حول تعديل مسرحية فييسكو . ووعدت زوجة المخرج ماير بأن ترسل إليهما الأمتعة والبيانو الصغير . وأمضى شيللر الأيام فى هذا الفندق المتواضع يشكل مسرحيته الجديدة « لويزة ميللرين » [3] فى وجدانه (١٣ أكتوبر) . ولما لم يكن المال يكفى لشراء شمعة ، فقد تعود على العمل فى الظلام ، فكان يقطع الحجرة جيئة وذهاباً ، يفكر فى المسرحية ويتمثل أشخاصها وفصولها ومناظرها ، بينما شترايشر جالس إلى البيانو يعزف له . كذلك عكف شيللر على إتمام الصياغة الجديدة لفييسكو ، فتمت فى الأيام الأولى من شهر نوفمبر . واعتقد شيللر أن دالبرج سيرضى عنها . ومضت الأيام وعلم شيللر أن دالبرج لم يوافق على المسرحية بعد تعديلها ، وأنه لذلك لا يستطيع أن يدفع شيئاً من أجرها . وكانت أحواله قد زادت حرجاً . ويكفى أن نذكر أنه اضطر لرهن ساعته لقاء شىء من المال يهدىء به صاحب الفندق .

وعرض شيللر مسرحية « فييسكو » على الناشر شفان فاشتراها لقاء جنيه ذهب للملزمة ، ودفع عشرة جنيهات مقدماً . وجاء هذا المبلغ فى حينه فسدد

(١) Oggersheim

(٢) Zum Viehhof

(٣) Luise Millerin

شيللر أجر الفندق وبقى معه ما يكفى للإنفاق على الرحلة إلى باورباخ[1] ، ليتزل فى بيت بضيعة تملكها السيدة هنريته فون ڤولتسوجن ، حيث لا تصل إليه عيون الأمير كارل أويجين .

تدور أحداث مسرحية فييسكو – أو : « مؤامرة فييسكو فى جنوا »[2] – إذا أردنا اسمها كاملاً – فى إيطاليا فى القرن السادس . وهى مسرحية نثرية فى خمسة فصول ، تعتمد على مادة تاريخية من مصادرها كتاب الكاردينال ريتس : « مؤامرة الكونت جان لوى دى فييسك » Cardinal de Retz, La Conjuration du Comte Jean Louis de Fiesque الذى يروى أن الكونت مات غرقاً ، بطريق المصادفة ، وهو يزور إحدى السفن . وقد حولها شيللر إلى تراجيديا ، إلى مأساة جمهورية على حد تعبيره ، تجسم فكرة « الحرية الجمهورية » أو الحرية فى دولة يتساوى فيها الناس ، ولا يكون فيها طاغية يستبد بهم – . تبدأ المسرحية بمشهد تعبر فيه ليونوره[3] ، زوجة الجراف (= الكونت) فييسكو ، عن غضبها من زوجها واعتقادها أنه يخونها مع الكونتيسة يوليا إمبريالى ، التى لا يفتأ يغازلها . والحقيقة أن فييسكو كان يسعى إلى أهداف سياسية ، وطنية ، فقد آلمه أن تتعرض جنوا لطغيان جانيتينو دوريا ، ابن أخى أندرياس دوريا الدوج الحاكم ، والطامع فى تاج الإمارة ، وقرر أن يفعل شيئاً . وأراد أن يصرف الأعين عنه ، أو أن يعميها عن نشاطه السياسى الوطنى ، فتظاهر بحب يوليا وبالإغراق فى الملذات . أما جانيتينو فهو لا يتورع عن ارتكاب أفظع الجرائم ليمكن لنفسه من بلوغ هدفه ، وهاهو ذا يجند أحد المغاربة – مولاى حسن – ليقتل فييسكو غيلة . وينجو فييسكو من القتل ، وينجح فى تجنيد مولاى حسن فى خدمته . وليس فييسكو هو الرجل الوحيد الذى يرى الخطر يحدق بجمهورية جنوا ، هناك فيرينا الذى يملأ قلبه الغيظ من جانيتينو لأنه

(١) Bauerbach

(٢) Die Verschwörung des Fiesco zu Genua

(٣) Berta . Verrina . Andreas Doria . Gianettino Doria . Julia Imperiali . Leonore . Bourgognino

اغتصب ابنته برتا ، وهناك بورجونيينو خطيب الفتاة المسكينة التى وقعت فى براثن جانيتينو . ولكنهما لا يعلمان بحقيقة نوايا فييسكو ، لحرصه على ألا يكشف ظاهره باطنه . ويبدأ التقارب بين هؤلاء جميعاً بالتلميح ، وينتهى إلى الاتفاق . ويدبر فييسكو فى الخفاء الجنود ، والسفن والمال لينفذ إنقلاباً يطيح بالطغيان . وفى الوقت نفسه يدبر جانيتينو فى الخفاء القوة اللازمة لاستيلائه على الحكم ، ويعجل بتنفيذ الاغتيالات ليبعد من طريقه المعارضين وعلى رأسهم فييسكو وفيرينا ، رجال المؤامرة الخفية ـ. وسرعان ماتتمخض الأيام عن مؤامرة أخرى ، فقد تملكت فيرينا الهواجس ، وأصبح يعتقد أن فييسكو سيقضى على الطاغية ، ولكنه سيحل محله فقد أعلن أنه أقوى رجل فى جنوا . هنا قرر فيرينا أن يقضى على فييسكو كذلك وفاتح بورجونيينو فيما قرر ـ. وعلم فييسكو عن طريق حسن المغربى بأن الكونتيسة جوليا إمبريالى تعد العدة لتقتل ليونوره ، زوجته ، بالسم . فصمم على البدء فى تنفيذ المؤامرة ودعا وجهاء جنوا إلى حفل ، وكشف لهم نيته ، ووضع أمامهم صورة الانقلاب الذى يدبره . وقر رأى فيرينا على أن يدعه يحرر جنوا من الطاغية ، ثم ينفذ فيه مخططه بعد ذلك . وفى اللحظة الحاسمة وصل خبر إلى المجتمعين يفيد بأن المغربى أبلغ الدوج أندرياس دوريا بما يدور فى الخفاء . واستبدت بالمتآمرين الحيرة ، وازدادت عندما أرسل الدوج بالمغربى إليهم مقيداً بالأغلال . واندفع فييسكو بكل عنف فى طريقه ، فكشف للكونتيسة جوليا إمبريالى عن حقيقته وحقيقة شعوره نحوها ، وصب عليها من عبارات الذل والإهانة فيضاً منهمراً . وحاولت زوجته ليونوره تهدئته بلا جدوى . إنها مؤامرة لابد من أن تصل إلى أهدافها . وهذا هو جانيتينو دوريا يخر صريعاً ، بعد ضربة سددها إليه بورجونيينو ، ولكن الأخطاء قد تحدث ، فهذه هى ليونورة تموت بضربة سددها إليها فييسكو ، خطأ ، وكانت فى الطريق متنكرة . وما يكتشف فييسكو أنها زوجته ، حتى يتملكه الفزع والذهول ، ولكنه يقهر أحاسيسه ، ويلتمس فى هذه الحادثة الشنيعة ، قوة جديدة تمكنه من الاستمرار . وينجح الانقلاب . ويلبس فييسكو ثوب الإمارة الأحمر . لقد قضى على الحكم المستبد . ولكن المخاوف تحققت فما جلس هو على العرش حتى أصبح حاكماً مستبداً . وهنا وقف فيرينا فى وجهه وطالبهُ بأن يلتزم طريق الحرية

التى كافحت عليها القوى الوطنية فى جنوا ، فإن لم يستطع فعليه أن يخلع عنه ثوب الإمارة . ويرفض فييسكو ، فيدفعه فيرينا دفعة قوية ناحية البحر فيبتلعه الموج . وتعود الحكومة الشرعية الحرة إلى حكم جنوا ، وينضم فيرينا إليها .

كان شيللر بهذه المسرحية يتقدم إلى الأمام فى طريق الأدب الثورى . إنه هنا يصور نهاية اثنين من الطغاة : جانيتينو وفييسكو . ويهتم خاصة بنهاية فييسكو ، تلك النهاية التراجيكية ، التى سار إليها رجل حر كان يريد فى البداية تحرير وطنه والقضاء على الطاغية المستبد به ، ولكنه ما لبث أن انحرف عن الطريق ، واعتقد أن الثورة ملك يمينه ، وأنها شىء يخصه هو ، وإنه لا بد أن يكون أول المنتفعين ، فوضع نفسه على القمة ، وسار سيرة هذا اللون من الحكام الذى كان من قبل يكرهه ويعتبره خائناً . إن شيللر يضع حق الثورة فوق القائمين بها ، ويتوج الحرية الجمهورية بالتاج الوحيد الذى لا تعرف لها تاجاً غيره .

ولسنا ندهش عندما نجد شيللر فى حيرة من أمره بعد أن هرب . كان يعلم أن الطاغية كارل أويجين سيتعقبه . ولذلك كان ينزل فى الفنادق تحت اسم مستعار الدكتور ريتر تارة والدكتور شميت تارة أخرى . فلما علم من المخرج ماير أن أحد الضباط ذهب إلى بيته وسأل عليه هناك وكذلك ذهب إلى المقهى وتحرى عنه ، قرر أن يترك هذه المنطقة كلها ويذهب إلى البيت الريفى الذى كانت السيدة فون فولتسوجن ، هذه السيدة الكريمة الشجاعة قد عرضته عليه . أما شترايشر فقد ترك شيللر متجهاً إلى مانهايم ، حتى يتابع رحلته الدراسية للتعمق فى فنون الموسيقى وتدبير شئونه حياته ومستقبله كمعلم للموسيقى وعازف . وكان الفراق بينهما صعباً ، صعباً على شيللر الذى بعد عنه صديقه المخلص إخلاصاً لا يعرف الحدود ، وعلى شترايشر الذى ترك أكرم قلب . أو أحس أن « قلباً ملكياً بحق » انتزع منه .

وكان شيللر قد أرسل إلى أمه وإخواته خطاباً وصلهم فى يوم ٢١ نوفمبر ، يرجوهم فيه أن يذهبوا لملاقاته فى اليوم التالى عند بريتن[١] . وذهبت الأم ومعها

(١) Bretten

الأخت كريستوفينة ، وانتظرتا وفى منتصف الليل وصلت العربة . والتقى الثلاثة لقاء مؤثراً ، وأمضوا معاً ثلاثة أيام ـ . ولم يكن شيللر قد أطلعهم من قبل على أحواله السيئة ، بل كان يكتب مثلاً : « إننى حر ، وإننى أتمتع بصحة جيدة ، كالسمك فى الماء ، وأين الإنسان الحر الذى لا يتمتع بنعم الحال ؟ » أو يكتب ـ إلى كريستوفينه ـ « يمكننى أن أطمئنك وأطمئن الدنيا ، فأقول إننى لا أفتقر حتى الآن إلى شئ من الأشياء التى كنت معتاداً عليها فى شتوتجارت . كذلك فإننى أنظر إلى المستقبل وكلى ثقة ، لأن أعمالى تدر الأجر الطيب ، ولأننى أجد وأجتهد » .

ترك شيللر أوجرسهايم فى ٣٠ نوفمبر ، ورافقه الأصدقاء إلى ڤورمس [١] .

وسافر شيللر فى أول ديسمبر فى عربة تنطلق وسط الثلوج ، وتناطح الريح الباردة ، سبعة أيام حتى وصل إلى مدينة ماينينجن [٢] فى تورنجن فى ٧ ديسمبر ١٧٨٢ واتصل على الفور بصديق لعائلة ڤولتسوجن ، هو أمين المكتبة راينڤالد [٣] وهو الوحيد الذى كان يعلم بسر شيللر ، والتقى الاثنان على مائدة الغذاء ، وتعارفا . ثم سار شيللر على قدميه إلى قرية باورباخ [٤] التى كانت الثلوج تغطيها فلا تكاد العين ترى منها شيئاً . وقدم شيللر الأوراق التى زودته بها السيدة هنريته فون فولتسوجن إلى ناظر العزبة ، الذى كان فى الوقت نفسه يعمل معلماً فى مدرسة القرية ، فاصطحبه هذا إلى البيت . كان البيت بناء متواضعاً صغيراً . ولكن شيللر وجد فيه ضالته : الهدوء . كان شيللر يريد أن يعمل الكثير ، وأن يتحاشى الناس ما استطاع حتى لا تعوقه الصداقات وتعطله اللقاءات ـ . كتب إلى شترايشر يقول : « وأخيراً وصلت إلى هنا ، سعيداً مسروراً ، ببلوغى شاطىء الأمان . ووجدت كل شىء هنا على نحو يفوق ماكنت أتوقع وآمل . ليست لى بعد الآن حاجة تؤرقنى ، ولن يأتى من الخارج منغص يعطل على أحلامى

(١) Worms

(٢) Meiningen

(٣) Reinwald

(٤) Bauerbach

الشعرية ، وأوهامى المثالية . أما بيت آل ڤولتسوجن فبيت جميل لطيف ، لا أتوق وأنا به إلى المدينة . عندى هنا كل وسائل الراحة : الطعام ، والفراش ، والتدفئة ، كل شيء يقوم به أهل القرية على أحسن وجه وعن طيب خاطر ... ولست أستطيع ولست أريد الآن أن أعقد صداقات ، لأننى أنوى على العمل الكثير الهائل .. » .

على أن شيللر لم يجد بداً من توطيد الصلة بينه وبين هرمان راينڤالد ، أمين مكتبة ماييننجن الذى تعرف به يوم وصوله ، فقد كان رجلاً ـ فى العقد الخامس من عمره ـ واسع العلم ، واسع الأفق ، وكان يقبض على مفاتيح خزائن الكتب . وكانت الخادمة يوديت تذهب إلى السيد راينفالد بخطابات من شيللر ، يطلب فيها كتباً أو مداداً أو «نصف كيلو» نشوق ، وتعود إليه محملة بمعينات العمل الشاق[1] .

(١) أما الكتب التى استعارها وعكف على قراءتها فنذكر منها :

- مؤلفات ليسينج كاملة .
- المؤلفات الفلسفية لزولتسر Sulzer وجارفه Garve
- عناصر النقد لهوم (الترجمة الألمانية)

H. Home, Elements of Criticism

- مدخل إلى الفنون لراملر

Ramler, Einführung in die schönen Wissenschaften

- تاريخ سكوتلنده لروبرتسسون

W. Robertson, History of Scotland

- عطيل وروميو وجولييت لشيكسبير

Shakespeare, Othello and Romeo und Julia

- نظرية الأحاسيس الأخلاقية لسميث

A. Smith, Theory of Moral Sentiments

- تاريخ بريطانيا العظمى لهيوم

D. Hume, History of Great Britain

- الخبرة فى علم العقاقير لتسيمرمن

=J. G. Zimmermann, Von der Erfahrung in der Arzneikunst

وكان شيللر يذهب أحياناً لزيارة راينڤالد فى داره ، فيقضيان وقتاً طال أو قصر ، فى الحديث ، والاستماع إلى الموسيقى ، يعزفها على البيانو صديق لراينفالد اسمه فلايشمن ، ربما ذكره بصديقه شترايشر الذى طالما عزف له وأعانه بالموسيقى على التفكير والكتابة ـ كذلك كان شيللر يجتمع أحياناً بنفر من أهل القرية مثل القسيس أو ناظر العزبة أو صاحب المطعم الذى كان يرسل إليه الطعام كل يوم أو غيرهم من الفلاحين ـ ويلعب معهم الورق أو ما شابه ذلك ـ وكانوا يعتقدون أنه رجل لابد قد طرد من وطنه لخروجه على الآراء الدينية السائدة .

أما هرمن راينڤالد فقد كتب فى يومياته عن شيللر يقول : « لقد فتح لى اليوم قلبه ، هذا الشاب ، شيللر ، الذى تمرس فى الحياة منذ وقت جد مبكر ، فأحببت أن أعتبره صديقاً ... إن روحاً خارقة للمألوف تسكن فى هذا الشاب ، وإننى لأعتقد أن ألمانيا ستذكر اسمه يوماً ما بالفخار . لقد رأيت الشرر يتطاير من عينين خيم عليهما القدر ، وتبينت ماتوحيان به من روح غنية ـ » . ولسنا نعرف هل كان راينڤالد ثاقب النظر على نحو خاص ، ام هل كانت عبقرية شيللر قد اتضحت معالمها فلم تعد تخفى على أولى البصيرة ؟ الذى نعلمه أن علاقة وثيقة ربطت بين الرجلين ، وأن راينڤالد تزوج فيما بعد كريستوفينه ، أخت شيللر .

ـ فى الذوق ومقال فى العبقرية لجيرارد

A. Gerard, On Taste and Essay on Genius

ـ تاريخ دون كارلوس لسان ريال

St. Réal, Histoire de Dom Carlos

ـ أجاتون لڤيلاند

Wieland, Agathon

ـ كتاب كيمدن عن عصر اليزابث

William Camden, Annales rerum anglicqrum et hibernicarum regnante Elisabetha

ـ مجموعة من قصص الرحلات .

وكلها كتب اعتمد عليها شيللر فى توسيع معرفته بالمسرح وفى تدعيم الخلفية الفلسفية لتصوراته الفنية ، وبدأ يبحث فيها عن موضوعات جديدة لأعمال مسرحية جديدة .

كان شيللر يعمل فى مسرحية جديدة هى « لويزة ميللر » ـ هى التى اشتهرت فيما بعد باسم « مكيدة وحب » ـ ويفكر فى مسرحية « دون كارلوس » ومسرحية « ماريا ستوارت » ـ وكان يريد كما كتب فى خطاب أول عام ١٧٨٣ أن يصبح « أديباً من الدرجة الأولى » ولكنه تبين فجأة أن الوحدة لا تشحذ الفكر ، وأنه يحتاج إلى أناس حوله يوقظون فى نفسه ما سكن . كتب إلى راينفالد يقول « ... إننى كثيراً ما أتمنى أن أضحى بطعامى كل يوم إذا نلت لقاءه صحبة الناس .. فإننى لا أخلق انطلاقة شعرية ... إلا بالجهد الجهيد وبالضغط الشديد على نفسى أحياناً ، وكانت تخطر لى فى عشرة دقائق عندما أكون فى صحبة إنسان مفكر » .

وفى مطلع عام ١٧٨٣ جاءت السيدة هنريتة فون ڤولتسوجن ومعها ابنتها شارلوته [1] وكانت فى ذلك الوقت فى السابعة عشرة من عمرها . وكانت هذه الابنة تتلقى العلم فى مدرسة داخلية على نفقة أميرة « جوطا » Gotha ، وحصلت من المدرسة على إجازة مقدارها نصف عام لتقضيها مع أمها . وكانت تجمع فى شخصيتها بين الطلاوة والسذاجة والجد غير المتكلف فى غطاء من الشباب شفاف لم يكتمل إلا منذ قليل . جاءت الأم والبنت لقضاء أيام قليلة فى باورباخ والتجول فى زيارات للأقارب والمعارف حولها . ونشأت بين شيللر (٢٣ ـ ٢٤ سنة) والفتاة علاقة إعجاب وتعاطف وحب خجول . فلما حانت ساعة الرحيل ، لم يستطع شيللر فراقها ، فرافقها إلى قرية ڤالدورف [2] ، وعاد فى المساء وحيداً إلى باورباخ . فأحس بالتغيير الذى طرأ على قلبه فى الأيام القليلة الماضية ، أحس بالفرحة القصيرة ، وبالكآبة الطويلة ، وحاول أن يعيش بخياله فى تلك الفرحة التى مضت ، وأن يلاحقها فى الواقع كلما لمح بريقها . وحرك هذا الحب فى قلبه حباً أكبر ، وإيماناً أعمق ، وعبر به محنة اليأس إلى حين . « كنت قد احتضنت نصف الدنيا بأحر عاطفة ، وفى النهاية ، وجدت أن ما بين يدى كتلة من الثلج البارد » . هذه هى نغمة اليأس من الناس التى اتى بها إلى باورباخ . « منذ أن

(١) Charlotte

(٢) Walldorf

رحلت ــ شارلوته ــ وأنا أحس كأن نفسى سرقت منى . وإن حالنا نحن البشر ، مع انتفاضات السعادة العظيمة القوية ، لتشبه حال من ينظر إلى الشمس طويلاً . أن الشمس تظل ماثلة أمامه ، حتى بعد أن تكون عينه قد فارقتها منذ زمن طويل . وإن أقل الأشعة لتخطف بصره . ولكنى سأحذر من أن أضيع هذا الوهم اللطيف » . ولم يحتمل الوحدة ، فانطلق بين الريح العاصفة والثلوج المتساقطة والمتراكمة إلى فالدورف . وأمضى أياماً مع آل فون فولتسوجن ، وتعرف بشقيق السيدة فون ڤولتسوجن ، ورأى شارلوته . وانتهت زيارة السيدة والآنسة فون ڤولتسوجن فى ٢٤ يناير ، وعادتا إلى شتوتجارت . ويصرح شيللر فى خطاب له : « ما أفظع أن يعيش الإنسان بعيداً عن الناس ، بعيداً عن روح تشاركه الإحساس ! ثم ما أفظع أن يتعلق الإنسان بقلب ، وهو يعلم أنه سيضطر ــ فليس على الأرض شىء كتب له الدوام ــ إلى انتزاع نفسه عنه ذات يوم ، والاعتصار حزناً عليه .. » .

وفى الوقت الذى اعتصره الألم لفراق القلب الحنون ، والصحبة الدافئة ، كان أمل اللقاء يراوده . فقد وعدت السيدة فون فولتسوجن بالعودة فى مايو التالى . وأصبح شيللر يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحها . فإذا الشتاء قد ولى ، والربيع قد أقبل ، وأقبل معه الحب الضائع . ويكتب إلى الصديقة : « لقد رافقتك آمالى ودموعى ، يا أعز صديقة ، وحيثما كنت ، فمعك منى رفيف من الدموع والآمال » . وعلم شيللر أن الزيارة الموعودة سيشترك فيها رجل اسمه ڤينكلمن لا تمانع الأم فى أن يتقرب إلى ابنتها شارلوته لينال يدها فى المستقبل . فثار واحتج لدى صاحبة الفضل عليه ، مستتراً وراء خوفه من أن يؤدى حضور هذا الرجل إلى اكتشاف أمره أمام الناس . والحقيقة أن الغيرة كانت قد اشتعلت فى قلبه وأرقته وحرمته من النوم واشتدت عباراته من خطاب إلى آخر حتى قال : « إذن فلابد أن أتركك . لا بد أن يكون لقاؤنا الأخير آخر لقاء . كم يكلفنى هذا الكلام الذى أقوله هنا لك ! » والغريب أن السيدة فون ڤولتسوجن تراجعت ، ودبرت أمرها على ألا يكون ڤنكلمن معها .

وأعد شيللر لها استقبالاً رائعاً ، يصفه فى خطاب له : « جعلت مقدم السيدة فون فولتسوجن مناسبة احتفل بها الأهالى هنا ، فكانت أمسية لطيفة

جداً . لقد أمرت بمد طريق من الزهور من أقصى حدود القرية حتى البيت ، وبإقامة قوس من فروع الأشجار تحية لها ،.. وسار الموكب من البيت إلى الكنيسة تصاحبه الطلقات النارية ، وكانت الكنيسة ذاتها قد حليت بالزهور من كل جانب . وأتينا بفرقة تعزف على آلات موسيقى حلوة ، وألقى القسيس كلمة للترحيب بها ... » وقضى شيللر الأيام التالية برفقة السيدة فون ڤولتسوجون وشارلوته ، يتنزه ثلاثتهم بين الأشجار والأزهار ويتمتعون بالربيع وقد بدأت براعمه تظهر فى الحقول . وكانت كل خطوة تزيد حبه قوة ، وكل نظرة إلى عينى شارلوته تنقله إلى دنيا غير هذه الدنيا ــ . وبدأت الأم تعتقد أن ما يعتمل فى قلب شيللر تجاه ابنتها ليس هو الصداقة فحسب ، بل هو الحب ، وكانت تعتبر فنكلمن أنسب لابنتها زوجاً . فأطلعت شيللر على « مفكرة » شارلوته التى دونت فيها مشاعرها نحو فنكلمن قائلة إنه يشغل بالها ، ويستحوز على قلبها .

ولم يستسلم شيللر للصدمة استسلاماً تاماً ، بل كان فى حيرة بين القبول بالواقع والثورة عليه . وتلقى خطاباً من ڤيلهلم فون ڤولتسوجن ، زميله القديم ، شقيق شارلوته ، بوصية باخته ، فكتب رده يقول فيه : «إنها ما تزال كما شكلتها يدا الخالق ، بريئة ، طاهرة ، أجمل وأرق ، وأحن روح إنسان .. لم تتعكر مرآة نفسها الصافية بأية نسمة من أنسام التلف الشائع ــ هذه هى لوته كما أعرفها . والويل لمن يدفع غمامه إلى هذه الروح البريئة ! » ويحكى شيللر بعد ذلك فى خطابه عن مكاشفة السيدة فون ڤولتسوجن له بميول شارلوته إلى ڤنكلمن ، ويتحدث عن فُنكلمن فيصفه بأنه رجل طيب كريم ، وإن لم يخل من نواحى الضعف . وينتهى إلى قوله : وأنا أقدره ، وإن لم أكن أستطيع أن أقول عنه إنه صديقى . إنه يحب لوته (= شارلوته) وأنا أعرف أنه يحبها حب رجل كريم نبيل ، ولوته تحبه ، حب فتاة تحب للمرة الأولى . ولا حاجة بى إلى قول المزيد .

واقتربت إجازة شارلوته من النهاية ، وفكرت الأم فى الذهاب إلى الأميرة ، أميرة جوطا ، لتتفاهم معها فى مستقبل ابنتها ، وهى ترجو أن تقبل الأميرة الموافقة على خروج ابنتها من المدرسة الداخلية ، والاستعداد للحياة . وكان شيللر يرجو أن توفق الأم فى إقناع الأميرة ، حتى تعود شالوته إلى باورباخ

وأخذ يكتب الخطابات الكثيرة إلى الأم ، ويرسل إلى لوته الزهور . وكله شوق إلى لقاء قريب . – وتأتى الأخبار بأن الأميرة أغلظت للسيدة فون ڤولتسوجن ، و « حرمتها » من المساعدة التى كانت تقدمها للبنت . ويفرح شيللر ، ويفكر فى سعادة الحب ، ويضعها فى مكان أعلى من السعادة التى كان يرجو أن تحققها له الشهرة . « ما أصغر الشهرة التى يصيبها – مهما عظمت – إذا قيست بالحياة السعيدة ! إننى أريد أن أتكلم مع حبيبتى ... وأقول لها : هيا بنا نهرب – هيا بنا نلتقى فى التراب بكل هذا العدم المتعاظم . هيا بنا نعيش للصداقة فى مروج رومنتيكية ... لقد أعدت قراءة الخطاب الذى كتبته ، فوجدته خطاباً مجنوناً . فاعذرينى » .

وأرسلت الأم البنت إلى بيت أحد الموظفين الكبار فى ماسفيلد [١] لتتعلم – على عادة العصر – التدبير المنزلى ، وذهبت إلى باورباخ . وأخذت تفكر فى علاقة شيللر بشارلوته . كان شيللر رجلاً يحظى بإعجابها كله ، وباحترامها كله . ولكنه كان رجلاً لم يتضح مستقبله بعد على نحو مطمئن فليس من المصلحة إذن تشجيعه على طلب يد ابنتها . وسرعان ما جرى حديث بين الاثنين عن العمل والمستقبل . أوضحت فيه المرأة الذكية لشيللر أن الوحدة لاتشحذ فكره ، وأنه لن يستطيع الإنتاج القوى إلا إذا اندفع إلى خضم الحياة ، وتقلب بين الأمواج عاليها وواطيها ، عارمها وناعمها . ولم تكن السيدة فون ڤولتسوجن هى وحدها التى ترى هذا الرأى ، بل كان راينڤالد كذلك يراه . وهذا هو يكتب فى خطاب له إلى كريستوفينه أخت شيللر : «لابد أن يتعرف السيد أخوك على كثير من الشخصيات الإنسانية ، لأن مهمته هى تصويرها على المسرح ، كذلك ينبغى عليه أن يتبادل الحديث مع الناس فى أمور الطبيعة والفن ، فإن الأحاديث الودية الخالصة تفرج عن النفس . إنه إذا بقى شتاء آخر منعزلاً فى هذه المنطقة سيصاب بمرض الاكتئاب كلية . لهذا فإننى أتمنى ملحاً أن ينتقل فى الخريف القادم إلى أية مدينة كبيرة ، يكون فيها مسرح ألمانى ، مثل برلين ». كذلك كان راينڤالد يرجو أن يصطحب شيللر إلى ڤايمار ويقدمه إلى مشاهير الكتاب مثل ڤيلاند .

(١) Massfeld

فى ١٤ إبريل ١٧٨٣ كتب شيللر إلى صديقه خطاباً اتخذ فيما بعد أهمية كبرى فى دراسة مذهب شيللر فى الإبداع الفنى. يقول فيه : «... إننى أتصور أن كل عمل أدبى ليس إلا صداقة حميمة أو حباً أفلاطونياً لمخلوق تفتقت عنه رأس الأديب ... إننا عندما نخلق شخصيات نمزج إحساساتنا ومعلوماتنا التاريخية لتصبح مركبات أخرى ــ فنبرز فى حالة الشخصيات الطيبة الناحية الإيجابية أو النور ، ونبرز فى حالة الشخصيات الشريرة الناحية السلبية أو الظلام . وكما أن الشعاع الأبيض البسيط ، بحسب السطوح التى يقع عليها ، يتفتق إلى العديد من الألوان ، كذلك فإننى أميل إلى الاعتقاد ، بأننا نحمل فى أنفسنا جميع الشخصيات كامنة فى موادها الأولى التى تتفتق إلى العديد من الشخصيات المختلفة المتباينة عندما تتاح لها الفرص الملائمة .... وما الصداقة ، وما الحب الأفلاطونى إلا سبيل هذا التفتق الممتع للكائنات ؟ ... والحب ... هذا الرباط العظيم الوثيق الذى أوتيت النفس الشاعرة القدرة عليه ليس فى نهاية أمره إلا وهماً سعيداً . فهل نفزع أو نلتهب ونستحيل إلى رماد أو ننصهر ونذوب من أجل هذا المخلوق الغريب الذى تبتدعه قريحة الفنان ولايستحيل أبداً إلى ملك لنا؟ لا شك : لا .إننا إنما نعانى هذا كله من أجلنا نحن فحسب ، من أجل «الأنا» ،التى يعكسها هذا المخلوق كمرآة لها ... ونحن إذا استطعنا أن نتحمس فى إحساسنا بحال صديق لنا ، فإننا نستطيع كذلك أن نتحمس من أجل أبطال إنتاجنا الشعرى . على أننا إذا استنتجنا أن القدرة على الصداقة وعلى الحب الأفلاطونى تستتبع القدرة على إنتاج الأدب العظيم ، كنا متعجلين فى الاستنتاج أشد التعجل . ــ لأننى قد أستطيع أن أحس تماما الإحساس بشخصية عظيمة ، دون أن أتمكن من خلقها . ولكننا نصيب الحقيقة الأكيدة ، إذا قلنا إن الشاعر العظيم يمتلك على الأقل القدرة على الصداقة فى أسمى درجاتها ، حتى وإن لم يفصح عنها دائماً ــ. وليس هناك أدنى شك فى أننا معشر الشعراء ينبغى أن نكون أصدقاء الأبطال الذين نخلقهم ، ما دام علينا أن نرتعش فيهم ، ونثور ونبكى ونيأس . ــ وأقل ما ينبغى على الشاعر أن يكون رساماً لأبطاله ، بل ينبغى عليه أن يزيد على ذلك فيكون حبيبهم ، وصديقهم الحميم . فإن المحب يدرك بتعاطفه من التفصيلات الدقيقة أكثر ألف مرة مما يدرك الملاحظ ذو البصر الثاقب . ــ

ولننتقل إلى تطبيق بسيط لهذا الكلام على «كارلوس»[1] الذى أنشئه . لابد أن أعترف لك بأننى أعتبره بديلاً لحبيبتى . فأنا أحمله فوق صدرى ـ وأحلم معه وأنا أتجول فى المنطقة المحيطة بباورباخ ... لقد أوتى كارلوس ، إذا كان لى أن أستعين بهذا القياس ، من هاملت لشيكسبير الروح ، ومن يوليوس للايزيڤيتس[2] الدم والأعصاب ، ومنى النبض ـ . هذا إلى أننى أريد أن أنهض فى هذه المسرحية إذ أصور محكمة التفتيش ـ بواجب الانتقام للإنسانية الممتهنة ، وكشف النقاب عن الفضائح المشينة التى لحقت بها . إننى أريد ـ حتى لو أدى هذا إلى سقوط المسرحية على المسرح ـ أن أسدد خنجر التراجيديا إلى روح نوع من الناس ، لم يزد ما فعله بهم حتى الآن عن مسهم مساً سطحياً ... أيها الصديق الغالى . إننى لست كما كان يمكن أن أكون . ربما كنت أستطيع أن أصبح عظيماً ، ولكن القدر بكر بمنازعتى ومعاندتى . فاحبنى وقدرنى على أساس ما كان يمكننى أن أكونه لو أتيح لى حظ سعيد ، وكرم فى النية التى لم تتمكن العناية من تحقيقها فى ... » .

كان هذا الخطاب يحمل فى طياته الانطواء الذى خشى منه راينفالد على شيللر وتبعته فى خشيته السيدة فون ڤولتسوجن . كذلك كان يحمل فى طياته نغمة من اليأس والهروب من الواقع ، والثورة على القدر ، فلم يعد شيللر ذلك الطفل المتعلق بتعاليم الكنيسة ، الذى يتوق إلى أن يصبح قسيساً ، لقد تحول إلى ثائر بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . ولقد أوردنا هذا الخطاب مفصلاً لأنه يكشف عن آراء شيللر الإستطيقية ، آراءه فى عملية الإبداع الفنى ، ويكشف عن عملية الإبداع الفنى ذاتها وكيف تجرى فى وجدانه . ولا شك أن راينفالد تبين أن العناصر غير الإبداعية ناقصة : الإحساسات والمعلومات التاريخية ينقصها شىء هام هو الخبرة الحية . ومادام شيللر يسعى إلى الصداقة ، ويعترف بأنه يضم فى جنباته قوة ممتازة للصداقة ، فما يمنع من الإفادة منها؟ ـ وهكذا تولدت فكرة الرحيل عن باورباخ .

(١) مسرحية « دون كارلوس »

(٢) سبق أن أشرنا إلى الأديب يوهان أنطون لايزيڤيتس (١٧٥٢ ـ ١٨٠٦) مؤلف « يوليوس التارنتى » .

وقد أتاحت إقامة شيللر فى باورباخ ، بما صاحبها من عزلة وحب وتأمل ، دراسات فى النظريات الفنية وخاصة « فن المسرح الهامبورجى » و« لاءوكؤون » [1] ودراسات تمهيدية مركزة لموضوعات دون كارلوس وماريا ستوارت ، وايمهوف[2] ، بالإضافة إلى إتمام الصياغة الأولى لمسرحية « لويزة ميللرين » (فى ١٤ فبراير ١٧٨٣) التى اقترح لها الممثل المانهايمى الشهير إيفلاند [3] اسماً أكثر جاذبية هو « مكيدة وحب ».[4] .

هذه المسرحية « مأساة بورجوازية » نثرية فى خمسة فصول ، تدور أحداثها فى الفترة المعاصرة ـ أى القرن الثامن عشر ـ فى بلاط أحد الأمراء . استبد القلق بعازف الموسيقى ميللر[5] على ابنته لويزه[6] التى نشأت بينها وبين سليل الأكابر فرديناند فون ڤالتر[7] ، ابن الرئيس علاقة حب ، وأخذ يخشى أن يكثر حولها القيل والقال . أما زوجته فإنها كانت تنظر إلى زيارات السيد الكبير لابنتها على أنها تشريف وتكريم ، وتتمنى أن تصبح ابنتها سيدة وسيمة فى الوسط الراقى بين الأكابر . ويفكر ميللر فى الذهاب إلى الوالد الرئيس ليفهمه أن لويزه لا تليق لابنه زوجة ، لاختلاف المستوى ، ويرجوه ، أن يمنع ابنه عنها . ولكن فرديناند الذى يحب لويزة حباً شديداً يصمم على الزواج بها دون النظر إلى ما بينهما من فارق فى المستوى الاجتماعى . وكذلك لويزه تحبه ، وتتمنى أن يتحقق حلمها . وتصل أنباء هذا الحب إلى الوالد الرئيس فون ڤالتر فلا يصدق أن ابنه يقصد بالفعل أن يقترن بواحدة من الرعاع ، ويفكر فى أن يزوج ابنه من محظية

(١) من أعمال ليسينج Laokoon , Hamburgische Dramaturgie
ظل الموضوع من بين الخطط التى لم ينفذها شيللر على الرغم من الإعداد الطويل لها .

(٢) Imhof

(٣) Iffland

(٤) Kabale und Liebe

(٥) Miller

(٦) Luise

(٧) Ferdinand von Walter

الأمير الليدى ميلفورد [1] حتى يتقرب هكذا من الأمير وينال رضاءه . وينتقل من التفكير إلى التنفيذ فيعلن أن الليدى ميلفورد ستحمل اسم فون ڤالتر . ويدعو ابنه إليه ويفاتحه فيما عزم عليه ، فيرفض أن يتزوج هذه الخليلة ، ويرفض أن يتزوج غيرها . ويهدده الأب ، ويتوعده إن هو خرج على أمره . ويذهب فرديناند إلى الليدى ميلفورد البريطانية ليعطيها درسا فى الأخلاق كما يفهمها شاب ألمانى نزيه شريف . وكم تكون دهشته عندما يجد أن المرأة تختلف كل الاختلاف عما كان يتصور . إنها امرأة كريمة القلب ، مرهفة الحس ، أصابها القدر الغادر فى شبابها ، وألقاها فى طريق الأمير ، فارتبطت به لا لشهوة أو نفع ، ولكن لتبذل ما تستطيع من جهد فى سبيل الحد من طغيانه . وقد تمكنت بالفعل من فعل الكثير فهدمت بعض السجون وألغت أحكاماً بالإعدام وخففت عن محكوم عليهم بالأشغال الشاقة المهلكة ، ولكن الأمور تتعقد عندما تعترف بأنها لم تحب فى حياتها غير مرة واحدة ، وغير رجل واحد هو فرديناند ، وأن الزواج الذى اقترحه ابوه عليه ليس وليد « مكيدة » بل وليد « حب » . وهنا يصارحها فرديناند بأنه يحب فتاة من أبناء الشعب . فتثور وتفقد صوابها وتهدده بأن ثلاثة سيلقون حتفهم إذا لم يتم لها ما تريد . ويصمم فرديناند على أن يحطم التقاليد البالية ، وأن ينال حريته فى تقرير شئونه الخاصة بنفسه ، وأن يتمسك بهذه الحرية إلى النهاية . ويذهب الأب الرئيس إلى بيت ميللر ، فيأمر بالأب أن يساق إلى السجن ، والأم وابنتها أن يشنع عليهما . ويتقدم فرديناند جريئاً ويهدد أباه بأن فعلته هذه ستدفعه إلى كشف سره وإشعال نار الثورة ضده . فيتراجع الأب ويترك لويزه وشأنها . وكيف لا يتراجع الأب وهو قد وصل إلى مركزه بالإجرام ، وارتقى إليه على جثة سلفه ـ . وبينما ينكمش الرئيس فون ڤالتر ، يحرضه سكرتيره ڤورم [2] على الاستمرار ، ويعرض عليه خطة للتفريق بين لويزه وفرديناند ويطلب ثمناً لنجاحها زواجه هو بلويزة التى طلب يدها قديماً ولم ينلها . وتتخلص

(١) Lady Milford

(٢) Wurm

الخطة فى تلفيق تهمة لميللر والقبض عليه ، ثم ارغام لويزة على كتابة خطاب إلى تشريفاتى البلاط يحمل معنى خيانتها لفرديناند ، وذلك بتهديدها بأنها ، إن لم تفعل ، تتسبب فى موت أبيها فى سجنه . فإذا ما رأى فرديناند هذا الخطاب ترك لويزه « الخائنة » . ويوافق الرئيس على هذه الخطة الشيطانية ، ويبدأ فى تنفيذها بالاشتراك مع سكرتيره ڤورم . وتقع لويزه بين نارين ، نار الخوف على حياة أبيها ، ونار الخوف على مستقبل حبها ، وتؤثر أباها فى النهاية وتكتب الخطاب مكرهة ، مصممة فى قرارة نفسها على الانتقام من ڤورم . ويتلقى فرديناند الخطاب الملفق فيصدق ما به ، ولكنه يريد الانتقام من غريمه التشريفاتى . وحين يعرض فرديناند على التشريفاتى أن يتبارزا بالمسدس ، يعترف هذا بأنه لا يعرف لويزه مطلقاً . ولا يصدق فرديناند هذا الإنكار ويعتبره حيلة جبانة من التشريفاتى للفرار من الموت ، ويصمم على قتل لويزه التى يتصور أنها خدعته . — أما الليدى ميلفورد فتدعو لويزة إليها لتؤثر عليها من ناحيتها ، ولكن لويزة تظهر من العظمة والشرف والنبل والإخلاص ما يخجل الليدى ، وما يدفعها إلى التصميم على فصم عرى علاقتها بالأمير والبلاط ، والارتماء فى أحضان الفضيلة وحدها — . وعندما يخرج الأب ، الموسيقى ميللر من السجن ، ويعود إلى البيت يجد ابنته فريسة لليأس ، توشك على أن تنهى حياتها بيدها ، فيبذل ما يستطيع من جهد لمنعها . ويأتى فرديناند إلى بيت ميللر للانتقام ، ويضع السم فى الليمونادة التى تشرب منها لويزة ، ويشرب منها هو كذلك حتى يموت معها وتعلن لويزة الحقيقة الواضحة التى لا شك فيها ، ويعرف فرديناند ، بعد فوات الأوان من المخلص ومن الآثم . وتنتهى المسرحية بحضور الأب الرئيس ومعه سكرتيره فورم . ويفاجأ بابنه فى النزع الأخير فيندم على المكيدة التى اشترك فى تدبيرها ، ويصب جام غضبه على ڤورم ، ويتهمه أنه هو المذنب الأول ليوقفه عند حده أو يتوعده بالويل والثبور وعظائم الأمور . ولكن ڤورم يهدد سيده بأنه يعرف من أسراره الكثير ، وأنه لن يتورع عن كشف الستار عنها . ويرثى الابن المحتضر لأبيه الذى يظن أن له من القوة ما يجعله يستبد بالناس وهو بآثامه وماضيه أضعف الناس . ويترك الرئيس منصب الرئاسة ، ويذهب بنفسه إلى السجن .

فى هذه المسرحية بالإضافة إلى العناصر التى عرفناها فى شيللر وإنتاجه السابق ـ الهجوم على الاستبداد ،والدفاع عن الحرية ، والوقوف فى وجه قوى الظلم ـ شيء جديد هو إبراز دور المرأة ، والاهتمام بشخصياتها . وليس أدل على ذلك من عنوان المسرحية نفسه : لويزة ميللرين . وليس هذا الاهتمام بالمرأة بجديد على الأدب الألمانى فى ذلك الوقت ولكنه جديد على شيللر . وإذا صح أن شيللر بدأ يفكر فى موضوع هذه المسرحية وهو فى الحبس فى شتوتجارت قبل فراره ، فلا شك أن علاقة الحب التى نشأت بينه وبين شارلوته أثرت أكبر الأثر على إدخال ذلك العنصر النسائى القوى فى المسرحية . فى مسرحية قطاع الطرق شخصية نسائية ، هذه حقيقة ، ولكننا نستطيع أن نحذفها ، فلا تفقد المسرحية شيئاً من قوتها . وكذلك مسرحية « فييسكو » فيها أكثر من شخصية نسائية (لينوره وجوليا وبيرتا) ولكنها كلها شخصيات ثانوية ، وعلاقتها بصلب الموضوع واهية . أما لويزة ميللرين فهى مأساة المرأة بين التقاليد البالية التى تمنع الزواج غير المتكافىء اجتماعياً ولا تنظر إلى عناصر التكافؤ الأخرى وعلى رأسها الحب والأخلاق والشخصية ، مأساة المرأة التى يضعها حظها العاثر فى طريق مخططات الأمراء المستبدين الذين يتصرفون فى الناس كما لو كانوا كائنات بلا قلوب . والمسرحية غنية بالتفصيلات الأليمة المؤثرة ومن أبرزها ذلك الجزء الذى نقرأ فيه أن الأمير قدم إلى خليلته الليدى ميلفورد هدية من الحلى دفع ثمناً لها سبعة آلاف من رعيته باعهم إلى تجار الحروب فى أمريكاه.

والحقيقة أن مادة عدم التكافؤ بين المتحابين وانتمائهم إلى طبقات مختلفة من المجتمع ، الرجل عادة من الطبقة الارستقراطية ، والبنت عادة من الطبقة البورجوازية أو طبقة سواد الشعب ، كانت مادة محببة إلى ذلك العصر الذى تحركت فيه القوى الممهدة للثورة الكبرى . نجدها فى مسرحية ديديرو « رب الأسرة » ، وكانت مسرحيات ديديرو معروفة فى ألمانيا فى ترجمات ليسينج ، وفى مسرحية مثل « إميليا جالوتى » لليسينج نفسه ، وفى مسرحية « التشريفاتى » للينس . وقد ثبتت هذه المادة أقدامها فى عالم الأدب ، واجتذبت الأدباء منذ ذلك الحين ، فى كل البلاد ، حتى أصبح لها سجل حافل .

وهذا النوع من المسرحيات يطلقون عليه اسم المأساة البورجوازية وقد لا يكون من الخطأ ترجمتها بـ « المأساة الشعبية » . كان المعروف أن المأساة ، التراجيديا ، تدور أصلاً فى الوسط الارستقراطى ، حول موضوع ارستقراطى . أما هذه المأساة فتدور أساساً فى بيئة شعبية ، وأحب موضوع إليها هو الصراع بين الطبقة الاجتماعية العالية والطبقة الاجتماعية العامة ، بين الارستقراطية والشعب ، وربما عالجت موضوعات ليس فيها صراع بين الطبقات ، بل موضوعات تراجيكية من قلب الطبقة البورجوازية ذاتها . وأقدم أمثلة على هذا النوع ترجع إلى منتصف القرن السابع عشر ، ولكنها كانت محاولات فردية ، لم تتسع دائرتها . حتى جاء القرن الثامن عشر فظهرت أمثلة طيبة عليها فى انجلتره مثل « تاجر لندن » (١٧٣١) ثم فى فرنسا مثل « رب الأسرة » (١٧٥٨) وفى ألمانيا « إميليا جالوتى » (١٧٧٢) فلما قامت حركة العاصفة تبنت هذا اللون الأدبى وأكثرت من الكتابة فيه .

الباب السادس

الاستقرار

نلاحظ فى مسرحية « لويزة ميللرين » ـ أو « مكيدة وحب » ـ أن شيللر بدأ يدخل فى مرحلة جديدة من الإنتاج الفنى تتميز بالاستقرار . حقيقة إن المسرحية ما تزال تحمل مميزات حركة « العاصفة » وعلى وجه التحديد حركة العاصفة المتأخرة ، من تغليب للعبقرية التى تعبر عن أشياء لا يستطيع التعبير عنها غيرها ، على العقلية التى تلتزم بحدود جامدة ، ومن تغليب للأصالة والعنصر الأولى القوى الخلاق الذى يبصر بنور الكون ، وتغليب للطبيعية فى الأحاسيس الفردية وفى النظم الاجتماعية على القيود التقليدية الحضارية والقيود الاستبدادية الطاغية ، وتغليب للقلب والحدس والغريزة على الفكر والتدبير ، وتغليب للبساطة على التعقيد ، وللبسطاء من أطفال ونساء وفلاحين ومزارعين وصيادين وأصحاب حرف على الخبثاء من ملوك وأمراء ونبلاء ، وللبدائيين على المتقدمين ، ... وما إلى ذلك . ولكن شيللر يلتزم بأشخاص فى المسرحية أقل عدداً ، وبسياق أقل تحملاً بالتفرعات والتضخمات ، وباعتدال فى التعبير وفى التصوير ـ هذه السمة الجديدة ، سمة الاستقرار ، هى انعكاس لما طرأ على حياته من بوادر انفراج الأزمة ، وبوادر الأمل فى الوصول إلى اعتراف المجتمع به أديباً وصاحب رسالة ، والخروج من العزلة إلى الناس .

كانت الأخبار قد وصلت إلى دالبرج ، عن طريق أصدقاء شيللر وخاصة الممثلين العاملين فى المسرح القومى بمانهايم ، أن شيللر يوشك أن يفرغ من مسرحية عظيمة . فانتبه من جديد إلى شيللر ، ولعله كان فى الفترة الماضية ينتظر أن تمر ثورة الأمير كارل أويجين ، ويمضى الزمن فينسج على هرب شيللر شيئاً من خيوط النسيان ، فيمد إليه يده من جديد . وكتب إلى شيللر يسأل عن العمل الجديد ، فلم يعجل بالإجابة . كان شيللر يعلم أن مسرح دالبرج لم يعرض بعد مسرحية « قطاع الطرق » مسرحية نالت نجاحاً يذكر ، فتأكد من أن دالبرج عرف الآن قيمته ، وأصبح يسعى إليه عله أن يرتفع إلى قمة كالتى ارتفع إليها آنذاك ، أو بعبارة أخرى عله أن ينقذ المسرح من المحنة التى انحدر إليها . فما كان المدير يرتاح إلى الصالة التى لا تمتلىء بالجمهور الا إلى نصفها ، وماكان الممثلون يرضون ببذل الجهد كل الجهد دون أن تحييهم الأكف الملتهبة بالتصفيق ، والأفواه الصارخة بالإعجاب .

وكتب شيللر إلى دالبرج رسالة بأسلوب جديد ينم عن فهم عميق لشخصية البرج ـ شخصية الرجل الذى يبحث عن مصلحته قبل كل شىء آخر ، ولا يهتم اليات إلا إذا كانت تحقق مآربه . يقول فى رسالته : « يبدو أنك يا صاحب العزة ، على الرغم من محاولتى المسرحية الفاشلة ـ يعنى مسرحية فييسكو التى رفضت ! ـ ، ما زلت تكن لقلمى المسرحى شيئاً من الثقة . ولست أتمنى شيئاً ، سوى أن أكون أهلاً لذلك فعلاً ، ـ ولماكنت لا أريد أن أتعرض مرة أخرى لخطر تقديم شىء لا يتفق مع ما تتوقع ، فإننى أسمح لنفسى بأن أرسل اليك أولاً مقتطفات من المسرحية ـ لويزة ميللرين ـ » ثم ينتقل إلى الحديث عن نواحى الضعف فى مسرحيته التى تتلخص فى حرية مفرطة تصل إلى الجنون والخبث فى التهكم على الأسلوب الرفيع ، وفى التنقل من عناصر المأساة إلى عناصر الملهاة ، وينبه إلى اعتقاده بأن المسرحية لا تصلح للمسرح .

ورد دالبرج ملحاً على شيللر فى الرجاء أن يعدلها حتى تتناسب مع المسرح . وها نحن أولاء نجد شيللر عاكفاً على هذا التعديل فى ابريل ومايو ١٧٨٣ . فى خطاب له إلى راينفالد يقول : « إن مسرحيتى لويزة ميللرين توقظنى من النوم فى الساعة الخامسة صباحاً . فأهيىء الريشة ، وأجلس شاحذاً أفكارى . وليس

هناك شك فى أن الإكراه يقلم أجنحة الفكر . وبقدر ما أنا فى رهبة من المسرح ــ بقدر ما أنا فى عجل ، وتصميم على الكتابة على نحو لا يعتوره عيب . والتوفيق بين هذا كله فن . ولكنى أحس على أية حال أن لويزة ميللرين تفيد من هذا العمل . »

وسافر شيللر فى ٢٤ يولية ١٧٨٣ متجهاً إلى مانهايم لمقابلة دالبرج ، وهو ينوى البقاء فى مانهايم عدة أسابيع يعود بعدها إلى باورباخ ، إلى ذلك المكان الذى ظل حبيباً إلى نفسه على الرغم من توتر العلاقة بينه وبين السيدة فون ڤولتسوجن . واستأجرت له زوجة الممثل ماير شقة مناسبة فى مانهايم سكن فيها . والتقى بصديقه القديم شترايشر ، الذى أتى إلى مانهايم فرأى أن شيللر قد تغير ، فأصبح أحسن صحة ، وأقوى مراساً . وبدأ شيللر يقوى صلاته بأصدقائه فى مانهايم ، ويعقد صداقات جديدة ، ويسرى عن نفسه فى الصحبة اللطيفة . وكانت إقامته أشبه بفترة الاستجمام ، خاصة وأن دالبرج لم يكن آنذاك فى مانهايم ، بل كان فى زيارة لهولنده ، وكان عدد كبير من المهيمنين على فرقة مانهايم فى الريف هرباً من حرارة الصيف فى المدينة . ــ وفى ١٠ أغسطس وصل دالبرج وتقابل الرجلان فى اليوم التالى فى المسرح ، وجرى بينهما حديث ودى ، وعد فيه دالبرج بإعادة تمثيل « قطاع الطرق » وبعرض « فييسكو » ، واهتم على الفور بالمسرحية الجديدة « لويزة ميللرين » .

ودخل دالبرج فى مفاوضات مع شيللر تعتبر بحق بداية عصر الاستقرار فى حياته من الناحية المادية . وانتهت المفاوضات فى الشهر نفسه باتفاق على تعيين شيللر كاتباً مسرحياً لمسرح مانهايم بمكافأة سنوية قدرها ٣٠٠ جولدن ودخل حفلة زيادة على ذلك . نقرأ عن هذا الاتفاق فى خطاب كتبه شيللر إلى السيدة فون ڤولتسوجن : « أولاً : يحصل المسرح منى على ثلاث مسرحيات جديدة ــ فييسكو ــ لويزة ميللرين ــ وقطعة ثالثة أفرغ منها فى فترة العقد . ثانياً : مدة العقد سنة تبدأ من أول سبتمبر الحالى إلى آخر أغسطس القادم ــ وحصلت على تصريح بقضاء فترة الحرارة الشديدة صيفاً فى مكان آخر بسبب صحتى ثالثاً : أحصل على مكافأة ثابتة قدرها ٣٠٠ جولدن ، دفع لى منها مقدماً ٢٠٠ . وأحصل علاوة على ذلك عن كل قطعة تظهر لى على المسرح على الدخل الكامل لحفلة لى

الحق فى تعيينها ، وهو مبلغ يتراوح بين ١٠٠ و ٣٠٠ جولدن . ثم تبقى المسرحية ملكاً لى ويكون لى أن أبيعها أو أطبعها كيفما أشاء » . وفرح شيللر بهذا الدخل السنوى الذى كان ينتظر أن يبلغ ١٢٠٠ جولدن وربما زاد عن ذلك ، وقرر أن يسدد ديونه المتراكمة والتى بلغت حوالى ٤٠٠ جولدن ، وأن يفكر فى الزواج .

وبالفعل كتب إلى السيدة فون ڤولتسوجن يطلب يد ابنتها شارلوته ، على الرغم من أنه كان يعرف رأيها من قبل . وردت على كل ما ورد فى خطاب شيللر من كلام ، إلا هذا الموضوع تركته بلا إجابة . ففهم شيللر أن طلبه لم يجد قبولاً فى هذه المرة كذلك ، فلزم الصمت تجاهه . وقد ظل شيللر رغم هذا الرفض على علاقة طيبة بالسيدة ڤولتسوجن وبابنها زميله القديم ڤيلهلم وبشارلوته . وفى خطابات شيللر فى تلك الفترة وفى السنوات التالية لها ، وكذلك فى الخطابات التى تلقاها ، إشارات مختلفة عن آل ڤولتسوجن ، نعلم منها أن السيدة ڤولتسوجن توفيت فى ٥ أغسطس عام ١٧٨٨ بعد مرض شديد ، وأن شيللر كتب إلى ڤيلهلم ابنها وصديقه خطاباً بالغ التأثر والتأثير ، يذكر فيها فضل المتوفاة عليه ، ونعلم كذلك أن شارلوته تزوجت موظفاً كبيراً فى هيلدبورجسهاوزن ، عاشت معه ستة أعوام ، رزقت فيها بطفل ثم وافتها منيتها وهى فى ريعان الصبا . أما ڤيلهلم فقد توطدت الصداقة بينه وبين شيللر فى سنوات حياته المثمرة فى ڤايمار .

والمؤكد أن رفض السيدة فون ڤولتسوجن الخطبة المقترحة لم يقع على شيللر وقع الصدمة . وكانت التطورات الطيبة التى بدأ يسعد بها فى مانهايم ، والعلاقات الجديدة مع الأصدقاء القدامى والأصدقاء الجدد عاملاً ساعده على التغلب على هذه الأزمة أو أخذها ببساطة . كانت حياته قد اقتربت من شاطىء الأمان . وبدأ يفكر فى الالتقاء بوالديه وأخواته ، وكتب إلى أختيه كريستوفينه ولويزة يدعوهما إلى الحضور لقضاء ٤ أسابيع لديه ، ويرجوهما إحضار قمصان وجوارب من صنعهما له .

لم يكن شيللر يتخفى ، أو يتسمى باسم آخر ــ كما ظل يفعل فيما مضى ــ بل كان يسير حراً ، يسره أن يعرف كل واحد أن هذا هو « الشاعر فريدريش شيللر » . وارتفع شيللر إلى مرتبة المشاهير الذين تسعى الطبقة الراقية إلى دعوتهم إلى موائدهم ومجالسهم ، وتعلم أسلوب الحياة الرفيعة ، وبدأ يعتنى بمظهره بما

يتناسب مع مظهر من يخالطهم . كان يزور آل دالبرج ، وكانت السيدة زوجة دالبرج لا تبخل عليه بالنصح والتوجيه الفني . كذلك كان يزور آل شفان ، ويعرف للسيد شفان فضله عليه في أوقات عصيبة مضت ، وفي فترة التفاوض مع دالبرج . وتعرف في بيت آل شفان على الابنة مارجريته Margaretha التي كان يسميها في خطاباته « شفانين » [1] ، وكانت مارجريته في الثامنة عشرة من عمرها ، تعوض جاذبيتها ما كان ينقصها من جمال ، وتبرز في المجتمعات خاصة برأيها الثاقب المهتم بالأدب والمسرح . واهتمت مارجريته بالشاعر الشاب ، وانصرفت عن ناشر بالمدينة اسمه جوتس ، كان أبوها يود أن يزوجها به ، كذلك اهتم شيللر بها ، وكان يأتيها بما يكتب من جديد فيقرأه عليها ، ويحدثها عن آرائه ومشروعاته . وإذا كانت قد أعانته على نسيان شارلوته فون ڤولتسوجن ، فلم تتمكن من دفعه إلى إعلان حبه لها . كذلك تعرف عن طريق أسرة شفان على السيدة صوفي دي لاروش [2] ، (١٧٣١ – ١٨٠٧) التي كان لها أثرها على تفكير جوته في شبابه ، وكانت تقيم في كوبلنتس [3] على الراين ، وتفتح صالونها للأدباء والنقاد والمهتمين بالأدب ، وكم زارها الأدباء الكبار المرموقون مثل جوته وڤيلاندر وهردر – ثم انتقلت إلى مدينة شباير [4] جنوباً ، واستمرت على أسلوبها ، تجعل من بيتها مركزاً يلتقي فيه أهل الفكر ، ويسعون إليه خاصةً وإن صوفي كانت مشهورة بين القراء كأديبة لها رواياتها وقصصها ، وكمربية ، وصاحبة رأي تنشره في مجلة « پومونا ، مجلة لبنات ألمانيا [5] » . زارها شللر في شباير – مدينة ليست بعيدة عن مانهايم – وأعجب بها ، وتأثر بشخصيتها وحديثها .

(١) Schwanin

(٢) Sophie de la Roche

(٣) Koblenz

(٤) Speyer

(٥) Pomona für Deutschlands Töchter

وبينما الدنيا تقبل على شيللر على هذا النحو ، وبينما أنجمه ترتفع فى سماء الشهرة ، وفنه يزداد قوة ورسوخاً ، أصابه القدر بضربة قوية ، أقوى من السجن وصنوف الإيذاء التى تخطر ببال حاكم مستبد ، لقد أصابه القدر بالمرض . وكم كان بحاجة إلى الصحة ليحقق مشروعاته ، وينقل إلى الواقع خيالاته ! وأصبح عليه فى السنوات الباقية من حياته أن يصارع المرض . ولكنه كان فى مصارعته المرض بلا ملل أو كلل ، قوة إذا تصورنا الجسد الواهى الذى كانت تنطلق منه ، وجدناها ضرباً من الإعجاز . كانت الإصابة التى عانى منها فى أعقاب هذا الصيف الحار ، إصابة وبائية انتشرت فى مانهايم فى أول سبتمبر ولقى نتيجة لها ألفان من الأهالى حتفهم ، منهم المخرج ماير ، وكان الكتاب القدامى يسمون الوباء انفلونزا ، ولا شك أنه كان مالاريا . فالأعراض التى نقرأ عنها وأبرزها الحمى المتقطعة ، والرعشة هى أعراض ملاريا . فشيللر يتحدث عن نوبات حمى على فترات منتظمة تفصل بينها ٤٨ ساعة بدون حمى . وكان شيللر ينتهز هذه الساعات الخالية من الحمى ليعمل . أما العلاج فكان يقوم على اجتناب الأكل والاكتفاء بشىء من البطاطس المسلوقة والسوائل ، وتناول جرعات من الكينين ـ كان الطبيب السابق شيللر يبالغ فيها مما أضره ضرراً إضافياً . وتحكى لويزة شفّان ، إحدى بنات الناشر شفّان ، عن مرض شيللر ، وعمله فى أثناء مرضه ، وبرغم مرضه فتقول : «كان شيللر فى بيتنا بيننا ذات مساء فاعترته نوبة من الحمى الباردة التى كانت تعتريه كثيراً . وكانت حاله سيئة ، فحمل إلى فراش ، وغطى بأغطية دافئة ، وأعطى منقوع الكينا ، فلما خفت الرعشة حمل على كرسى إلى البيت ، وكنت فى اليوم التالى أسير مع أبى كعادتنا للنزهة ، فقال لى ونحن فى طريق العودة ، إنه يريد أن يطل على شيللر ، ليرى كيف حاله ، ورجانى أن أنتظر فى القاعة ، لأن شيللر لابد سيكون فى الفراش . فلما وصلنا إلى باب القاعة ، سمعنا صياحاً عالياً ، ونظرنا فماذا رأينا ؟ كانت بالحجرة المظلمة شمعتان موقدتان ، وكانت على المائدة أوراق وزجاجة من نبيذ البورجوندر وكأس ، وكان شيللر يجرى فى الحجرة جيئة وذهاباً ، فى ملابسه الداخلية ، ويلوح بيديه ، ويصيح بكلام غير مفهوم . وصاح أبى فيه : ما هذا الذى تعمله يا عزيزى شيللر ! إنك ترهق نفسك ، ولقد كنت بالأمس فقط

مصاباً بالحمى؟ هل درست الطب يا ترى حتى تحطم نفسك عمداً؟ فلما التقط شيللر أنفاسه ، قال إنه كان متماسكاً مع المغربى ـ شخصية المغربى فى مسرحية فييسكو ـ وأنه لا يمكنه أن ينسجم فى الدور إذا نفذ ضوء النهار إلى حجرته . وألح عليه أبى ، فى أن ينتظر حتى تزول عنه الحمى ، وأن يترك المغربى والمغاربة وشأنهم . فوعد بذلك . وفى اليوم التالى عاد إلى زيارتنا . وأحضر مشهداً آخر من فييسكو ـ التى كان يعدها لتعرض عما قريب على المسرح ـ وقرأه على أبى . »

كان يعد فييسكو لتظهر على المسرح فى ١١ يناير ١٧٨٤ ، ويعد لويزة ميللرين لحفل ١٥ ابريل ١٧٨٤ . وكان يتعجل العمل فى فييسكو خاصة ، لأن الأخبار أتت من برلين تقول إن السيد پلوميكه [١] ـ لص الأعمال المسرحية الخطير الذى أخذ من قبل موضوع « قطاع الطرق » ـ يبذل الجهود المتواصلة ليخرج على المسرح بسرعة صياغة لموضوع هذه المسرحية . وتمت الاستعدادات فى مانهايم واضطلع بالأدوار خيرة الممثلين ولكن المسرحية سقطت إلا من شىء من الاستحسان لقيته بعض المشاهد . وكتب شيللر عن هذا الفشل يقول : « لم يفهم الجمهور مسرحية فييسكو . إن الحرية الجمهورية هنا صدى لا معنى له ، واسم فارغ ـ وأهل منطقة الپفالتس [٢] قوم لا يسرى الدم الرومانى فى عروقهم ، والناس فى مانهايم يقولون إن المسرحية أكثر عمقاً وعلماً مما يطيقون . » أما العرض الذى أتيح لأهل برلين فقد لقى نجاحاً ملحوظاً ، فأهل برلين ، المدينة الكبيرة كانوا أوسع أفقاً من الناحية السياسية من أهل المدينة الصغيرة مانهايم ، فاستطاعوا متابعة أفكار الشاعر السياسية التى حلق بها إلى بعيد .

وبينما أخذ شيللر يفكر فى أسباب الفشل ، ويقيم عمله الأدبى ، ويحاول الخروج بفائدة من هذه الخبرة ، كانت المسرحية التالية تأخذ طريقها إلى المسرح : لويزة ميللرين . خرجت أولاً مطبوعة لدى الناشر شڤان ـ مع مطلع ربيع عام ١٧٨٤ باسم « مكيدة وحب » . وفى ١٥ ابريل خرجت ممثلة على المسرح لأول مرة فى مانهايم فعوضت الفشل الذى منيت به مسرحية فييسكو .

(١) Plümicke .

(٢) Pfalz

كان النجاح ساحقاً ، يصفه شترايشر قائلاً : « ظل شيللر فى أثناء الفصل الأول صامتاً لا ينطق بكلمة واحدة ، حتى انتهى الفصل فقال « لقد سار على مايرام ». وكان الفصل الثانى نشيطاً ، أدى الممثلون نهايته بحماس متأجج وبالتزام للصدق مؤثر ، حتى إن المتفرجين هبوا — على نحو غير مألوف فى ذلك الوقت — وصفقوا تصفيقاً عاصفاً وصاحوا بقوة معبرين عن استحسانهم العام . ودهش الشاعر لهذا دهشة شديدة وقام وانحنى أمام الجمهور . وظهر على تعبير وجهه وعلى هيئته الكريمة الفخورة بأنه راض عن نفسه ، وراض عن الاعتراف بقيمته وتشريفه بهذا التقدير . »

قلنا إن هذا العرض كان الأول فى مانهايم ، ولكنه لم يكن الأول فى ألمانيا . فقد سبقه عرض آخر فى فرانكفورت فى ٨ أكتوبر ١٧٨٣ اهتم بإخراجه مدير المسرح هناك « جروسمن »[١] . والظاهر أن شيللر تعرف بجروسمن عن طريق ممثلى فرقة مانهايم الذين كانوا يقومون بأدوار فى فرانكفورت كممثلين زائرين . فلما سافر فيما بعد إلى فرانكفورت لزيارته نشأت بينهما صداقة استمرت طويلاً . كان شيللر قد سافر إلى فرانكفورت فى أواخر أبريل ١٧٨٤ وحضر فى ٣ مايو عرضاً « لمكيدة وحب » . وأوتى هناك فرصة الالتقاء والتعرف بشخصية فريدة هى شخصية الممثلة صوفى ألبريشت[٢] أو مدام ألبريشت ، كما يسميها فى خطاباته . كانت هذه الشابة الجميلة ، الجذابة ، ابنة أحد أساتذة الجامعة ، رباها تربية غريبة ، كتربية الصبيان ، وأراد لها أن تصبح من أهل العلم والأدب ، ولكنها كانت تحلق بخيالها فى آفاق أخرى ، وتبحث عن السعادة وتحقيق الذات فى ميادين غير التى تصورها أبوها . فلما تزوجت بالطبيب ألبريشت ، سمح لها بأن تجرب حظها حيث تريد ، فاتجهت إلى المسرح ، وتألقت على خشبته حتى أصبحت من أبرز ممثلات العصر فلما رآها شيللر وكانت تمثل دور لويزة وقع فى حبها ، ووجد روحه تهيم نحوها ، وفرح بأنها كانت تكن له الشعور نفسه . ولسنا نعلم مدى هذا الحب ، ولسنا نملك من تفصيلاته أكثر مما جاء فى خطاب شيللر إلى صديقه راينفالد :

(١) Grossmann

(٢) Sophie Albrecht

« لقد ارتبطنا ارتباطاً وثيقاً منذ الساعات الأولى وتقاربنا أعمق التقارب ، وتفاهمت روحانا . إننى سعيد وفخور بأنها تحبنى ، وبأن معرفتها بى ربما تجعلها سعيدة . » كذلك نجد شيللر يتحدث عن زوجها فى بعض خطاباته فيقول إنه صديقه .

ولعل من أهم الأشياء التى تحققت لشيللر فى هذا الوقت هو اختياره فى يناير ١٧٨٤ عضواً فى « الجمعية الأميرية اليفالتسية »(١) ، وكانت هذه الجمعية تجمع المهتمين بالأدب والفنون والثقافة فى منطقة اليفالتس »، وعلى رأسهم السيد دالبرج ، وتشجع الجهود المبذولة فى هذه الميادين : فتمنح جوائز ومكافآت ، وتقرر ما تراه صالحاً مفيداً . كذلك كانت مجالاً يتيح للأعضاء فرصة إلقاء المحاضرات ، والبحوث يعبرون فيها عن فلسفاتهم وآرائهم . وإذا غضضنا النظر عن الجهود التى بذلها شيللر فى المناقشات وفى توجيه المكافآت وما إلى ذلك ، وجدنا أن عضويته فيها أتاحت له الفرصة لتطوير رأيه عن المسرح ، أو لتعميق هذا الرأى فلسفياً . فى يونيو ١٧٨٤ ألقى شيللر محاضرة بعنوان « ما هى المهمة التى يمكن لمسرح جيد أن يؤديها ؟ » وهى المحاضرة التى غير شيللر فيما بعد عنوانها إلى « المسرح كمؤسسة أخلاقية » عندما نشرها فى مجلته « طاليا » (٢) . فى هذا البحث يعبر شيللر عن رأى معروف تبناه ، وهو أن أهم وأسمى مهمة يسعى إليها المسرح هى سعادة الناس عامة . ويرى أن المسرح مؤسسة ثقافية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى رفيع ، وضخامة شاملة . وأن هذه المؤسسة الثقافية ترضى حاجات طبيعية فى نفوس الناس ، هى الحاجة إلى الجديد وإلى الغريب ، وإلى العجيب ، والحاجة إلى الانفعال والاندماج فى مشاهد عاطفية ، ثم الحاجة إلى الفعالية والاندماج فى مشاهد تقوم على الفعالية . والمسرح كمؤسسة ثقافية يسعى إلى التسلية الرفيعة وإلى تثقيف القلب والعقل معاً ، وهو بذلك وسيلة للتوعية ، ومكمل للقوانين وللدين .

(١) Kurfürstlich Pfälzische Gesellschaft

(٢) Thalia

والحقيقة أن التفكير فى المسرح وفى قيمته الأخلاقية ، كان موضوعاً حساساً فى ذلك العصر ، وأنه قسم المفكرين إلى حزبين حزب مؤيد وحزب معارض . كان فولتير فى فرنسا مثلاً أكبر مدافع عن المسرح ، لا يكاد يتصور أن تكون هناك ثقافة ، أو أن تكون هناك جماعة متحضرة لا يكون فيها مسرح — وكان لفولتير حزبه . أما جان جاك روسو ، الذى نشر من الأفكار ما كان له الأثر أبلغ الأثر فى السياسة والتربية والأخلاق والأدب والفن ، فقد كان يقف من المسرح موقف الريبة ، وعبر عن رأيه فى رسالة اسمها « رسالة إلى السيد دالامبير عن المسرح » (١٧٥٨) رد بها على مقال دالامبير فى « الموسوعة » (الأنسيكلوپيدى) الذى طالب فيه هذا أهل چينيڤ بأن يقيموا فى مدينتهم مسرحاً . وكان روسو من أهل چينيڤ أصلاً فأخذ يدافع عن بلده ، ويفصل فى الوقت نفسه الرأى المناهض للمسرح . فالتراجيديا فى نظره تؤثر تأثيراً سيئاً على الأخلاق لأنها تتلق الرأى ولا تصنعه ، ولانها تقيم عقابها الخلق على أساليب غير مألوفة ، غير واقعية ، فلا تؤثر فى أعماق الناس . كذلك يتهم الكوميديا بأنها تتشفى فى عيوب الناس ... الخ . لكن شيللر وقد عهدناه معجباً بروسو ، يستقل برأيه ، ويقف مع الحزب الآخر ، ويدافع عن المسرح ، ويرفعه إلى أعلى مرتبة . ويندفع شيللر فى حماسه للمسرح إلى حد رفع اقتراح إلى السيد دالبرج بإخراج مجلة للمسرح المانهايمى على غرار « فن المسرح الهامبورجى » التى كان ليسينج يخرجها ، والتى قامت بدور هائل فى تطوير النقد المسرحى وفى تطوير الفن المسرحى . وكان شيللر يريد أن تهتم المجلة المقترحة بتاريخ المسرح ، وبمناقشة المسرحيات وبنقد الأدباء ، وبأخبار المسرح ، وبالجوائز ، وبجوانب الحياة المسرحية كلها . ولكن دالبرج لم يوافق .

الباب السابع

الحيرة

منذ أن فرغ شيللر من مسرحية « لويزة ميللرين » أو « مكيدة وحب » والسكون يخيم على نشاطه الإبداعى . من الممكن أن نعزو هذا السكون إلى مرضه . ولكن مرضه لم يكن فى أى فترة من حياته حائلاً بينه وبين الإنتاج الضخم ، ولقد شهد الثقاة على أنه كان إذا عزم فعل ، وانتهز ساعات الصحة التى تتخلل أزمات المرض ليندمج فى مشاهد مسرحياته وفى أشخاصها ، حتى يشكلها ويحولها إلى كلمات . ومن الممكن أن نعزو هذا السكون إلى كثرة أعماله ، واتصالاته بالأصدقاء والمعارف ، وتشتته فى أعمال فى لجنة المسرح وفى الجمعية الأميرية البفالتسية . ولكن الأديب المطبوع لا ينصرف عن الأدب مهما كانت المغريات ، وإنه ليعرف كيف يحول ألوان النشاط المختلفة التى يرتمى فى خضمها إلى خيوط ينسج منها أعماله الفنية . لا . إن السكون الذى خيم على نشاطه الإبداعى ، كان سكون التأنى والتدبير والإعداد لتحول عظيم ، والأعمال التالية تشهد على ذلك .

كان العقد المبرم بين شيللر ودالبرج ينص على أن يقدم شيللر مسرحية ثالثة ، وكان المفروض أن يتم شيللر مسرحية « دون كارلوس » التى وضع

خطوطها الكبيرة فى أثناء إقامته بباورباخ ، ونفذ جزءاً بالفعل منها . ولكن المسرحية لم تتقدم . وكان دالبرج يكثر السؤال عنها ويلح ، ولم يكن شيللر يقدم إليه الإجابة المرجوة . وما لبث الجفاء أن عرف طريقه إلى العلاقة بين الرجلين . ولم يسلك دالبرج فى التعبير عن عدم رضاه سبيلاً واضحاً ، بل فضل الالتواء ، فترك شيللر يقدم إليه المقترحات تلو المقترحات ، والتوصيات تلو التوصيات ، منها ما يدور حول ترجمة بعض المسرحيات الفرنسية ، ومنها ما يدور كما أشرنا من قبل حول مجلة لفن المسرح ، وما إلى ذلك ، ثم بعث إليه بطبيب المسرح الدكتور ماى ، فى يونيو ١٧٨٤ ، الذى أخذ يتحدث معه حديثاً عادياً ، خرج منه إلى أن خير ما يفعله شيللر الآن هو أن يترك الكتابة للمسرح ويرجع إلى مهنته الأصلية ، مهنة الطب . وأفهم شيللر أن هذا الكلام هو رسالة شفهية يبلغه إياها على لسان دالبرج أو نحو ذلك . وكتب شيللر إلى دالبرج رسالة يرجوه فيه أن يجدد عقده عندما ينتهى ، وأن يصرف النظر مؤقتاً عن تحويله من الكتابة للمسرح إلى الطب . ولم يظهر دالبرج نواياه النهائية حتى جاء يوم أول سبتمبر ١٧٨٤ فوجد شيللر نفسه بلا عمل ، وبلا مورد ، وبلا أمل فى الحصول على مال من أية جهة .

ولا ينبغى أن نغفل أن فرقة مانهايم المسرحية ذاتها كانت قد تحولت نواياها عن شيللر ، وأصبح الممثلون لا ينظرون إليه نظرة التقدير القديمة ، وبدأ جو يوشك أن يكون عدائياً يسيطر على المسرح ، ويلفظ شيللر تدريجياً . كان هؤلاء الممثلون يتوقعون أن يضع شيللر قلمه تحت تصرفهم فيصنع لهم التمثيليات التى يريدها الجمهور والتى تلتهب الأكف إعجاباً بها . فإذا بهم يتبينون أن الشاعر الموظف لديهم ليس طيعاً على النحو المرغوب ، فهو عندما يقبل تعديل مسرحياته ، لا يغيرها من أساسها ، ولا يغير أسلوبه ، ولا يتنزل إلى الجمهور ، بل يريد أن يرفع الجمهور إليه . وهذه هى المخاطرة التى لم يشأ أحد أن يقف معه فيها . ولقد أعطاه الممثل إيفلاند ــ الصديق فى أيام خلت ــ النموذج « الصالح » فى مسرحية ألفها باسم « جريمة من أجل الشرف [1] » ، راعى فيها متطلبات

(١) Verbrechen aus Ehrsucht

الجمهور فنجحت نجاحاً نقطع النظير . فما بال شيللر لا يجارى ، ويرهق الممثلين بأسلوبه الخاص ؟ ـ ولقد وصلت معارضة الممثلين لشيللر إلى حد التهكم عليه علناً ، فى مسرحية سخيفة اسمها « الرجل الأسود »[1] تدور حول أديب مسرحى اسمه فليكڤورت [2] (= أى لصّاق الكلام) اجتمعت فى شخصيته مجموعة من صفات شيللر مقلوبة حتى يضحك منها الناس .

ولقد تحول الممثل إيفلاند من صديق لشيللر إلى غريم له . وكلما تقدم إيفلاند فى الكتابة للمسرح ، ونجحت مسرحياته ، دفعته أنانيته إلى التخلص من شيللر . وساعد على توسيع الهوة بين الرجلين « غراميات » شيللر الخاطفة ، الكثيرة ، التى كانت لا تنتهى إلى نهاية ، والتى كانت تتصف فى الغالب بالسذاجة ، وكثيراً ما دارت حول صديقة أو خطيبة أو زوجة آخر . وقد اغتاظ إيفلاند من ملاحقة شيللر للممثلة الشابة كاتارينا باومن[3] ـ ١٨ سنة ـ التى حلت محل ممثلة الفرقة الأولى كارولينة تسيجلر بعد وفاتها المبكرة . كانت كاتارينا باومن آية فى الجمال ، وكانت تجيد دور لويزة فى مسرحية « لويزة ميللرين » إجادة فائقة . وقد تقدم إليها شيللر لأول مرة ، دون سابق معرفة ، وحياها وقدم إليها شيئاً ملفوفاً هدية . فلما ذهبت إلى البيت وفتحت الهدية وجدتها صورة لشيللر ! والظاهر من الشواهد التى بين ايدينا أن شيللر كان يغازلها ، وأنها كانت لا تهتم به كثيراً لأنه كان يهمل هندامه فلا يلفت نظر من تهتم بالمظهر . وأياً كان الأمر فقد أدت هذه العلاقة العابثة إلى مزيد من التعقيد فى الصلة بين شيللر وإيفلاند الذى كان يلاحق كاتارينا هو الآخر ويرجو أن يظفر بها . والمؤكد أن مسرح مانهايم أدار ظهره إلى شيللر وتركه ذات يوم فريسة للحيرة أشد الحيرة .

كان شيللر متهوراً فى الحب . ما إن يرى امرأة جميلة ، حساسة ، جذابة حتى يهيم بها . هكذا هام بمارجريته شڤان ، وبكاتارينا باومن وصوفى

(١) Der schwarze Mann

(٢) Flickwort

(٣) Katharina Baumann

ألبريشت ، وهكذا أيضاً هام بشارلوته فون كالب [1] . الا أن علاقته بشارلوته فون كالب كانت أكثر خطراً . كانت شارلوته هذه من عائلة عريقة ، سليلة الحسب والنسب ، وكانت تصغر شيللر بعامين ، وكانت تجمع إلى الجمال والجاذبية خيالاً لا يقف عند حد ، يتلهف على الحب والحنان . وقد مرت عليها فى أيام طفولتها سنوات كثيرة صعبة ، بعد أن مات أبوها فى أثناء الصيد ، وماتت أمها نتيجة لمرض عضال ، فعاشت يتيمة منذ نعومة أظفارها عند بعض الأقارب ، بعيدة عن إخوتها الذين تشتتوا كل فى جهة . وظلت تبحث عن بيت يكون بيتها ، وأناس يكونون أهلها ، وتبحث عن الحياة التى ضاعت منها فى البكاء والعزلة . واختار لها خالها رفيق حياتها الرائد هاينريش فون كالب ، الذى كان يخدم فى الجيوش الفرنسية ، وعاش حياة مليئة بالمغامرات فى أمريكا وغير أمريكا ، ولم يستطع هذا الرجل أن يفهم شارلوته ويحقق لها السعادة التى كانت ترجوها ، فظلت الحياة الزوجية قائمة بينهما : على أساس الاحترام ربما ، لا على أساس الحب . وأتى الزوجان إلى مانهايم فى ربيع عام ١٧٨٤ ، حيث حاول الرائد فون كالب أن يحصل على وظيفة بناء على توصية من البلاط . وبدأت علاقة شيللر بشارلوته فور وصولها تقريباً ، ومهد لهذه العلاقة خطاب أتت به معها من السيدراينفالد لتوصله إلى شيللر . كان شيللر يرافق شارلوته وهاينريش فون كالب فى جولات فى المدينة ، وحولها ليطلعها على ما يستحق المشاهدة ، وكانت الأحاديث اللطيفة والمداعبات تقرب بين القلوب شيئاً فشيئاً . ثم سافر الاثنان إلى لانداو [2] حيث كانت الكتيبة تعسكر ، فلم ترتح شارلوته إلى الجو هناك . وعادت فى أغسطس إلى مانهايم ، واتخذت فيها سكناً ، وكان زوجها يزورها فى الأسبوع مرة أو مرتين أو أكثر . وكان شيللر يزور شارلوته ويسليها فى وحدتها ، وكان الزوج يعرف لشيللر هذا الجميل . وقد قدم شيللر للسيدة شارلوته مساعدة كبيرة ، إذ أسعفها بالطبيب فى آخر دقيقة عندما فاجأتها آلام

(١) Charlotte von Kalb

(٢) Landau

الوضع ، وظل بجانبها ، حتى اطمأن على صحتها وصحة المولود ، وشملها برعايته فى الأيام التالية .وظلت الصداقة تزداد مع الأيام وثوقاً ،كل منهما يفتح للآخر قلبه ، ويلتمس لديه الفهم والسلوى . وكان شيللر يحدثها عن مصاعب حياته ، عن المسرح وما يلقاه فيه ، وعن صديقاته وما يفعلنه به ، وعن المال وكيف تؤرقه ديونه . وشاءت المصادفات أن يأتى الأمير كارل أوجوست ، أمير فايمار وصديق جوته ، إلى دارمشتات لزيارة والد زوجته هناك . وكانت شارلوته فون كالب واحدة من المعية الأميرية فى دارمشتات ، فكتبت إلى وصيفة الأميرة خطاباً حمله إليها شيللر فى ديسمبر ١٧٨٤ لكى توصى به الأمير كارل أوجوست . وبالفعل تمكن شيللر من مقابلة الأمير أكثر من مرة ، حيث قرأ عليه شيئا من مسرحية دون كارلوس ـ قراءة متقنة تعلمها من مخالطته ومن حياته فى المسرح ـ وكانت النتيجة أن كارل أوجوست أنعم عليه فى ٢٧ ديسمبر ١٧٨٤ بلقب « مستشار » ، فعاد إلى مانهايم وقد عاوده الأمل فى مستقبل زاهر ، وكيف لا يعاوده مثل هذا الأمل ، وقد اعترف أمير له جلاله وقدره ، بأن وظيفة الأديب المسرحى محترمة يحق لمن يشغلها أن يحمل لقب « مستشار » ؟

وفيما شيللر يحدث شارلوته عن رغبته فى مغادرة مانهايم والسعى إلى مستقبل أفضل فى واحدة من المدن الألمانية الكبرى ، تفجر الحب الجارف الذى بذلت الجهود لإخفائه ، أو ستره تحت اسم الصداقة . خافت أن تفقد الحبيب ، فصارحته بما تحس به نحوه حتى يبقى بجانبها فى مانهايم . وليس من شك فى أن شيللر بادلها الحب نفعه . وإذا كان شيللر فيما بعد قد وصف هذا الحب بأنه حب طاهر ، فلسنا نعلم إلى أى حد يمكننا تصديقه . الذى نعلمه أن شارلوته أحرقت خطاباتها وخطابات شيللر التى تبادلاها فى تلك الفترة ولابد أن أسباباً وجيهة حملتها على ذلك . وقد عمرت شارلوته ، وأملت ـ بعد أن كف بصرها ـ كتاباً عن حياتها ، ظاهر فيه أنها تجتهد فى إخفاء معالم هذا الحب . وهكذا كان شيللر إنساناً يرتفع إلى المثاليات كثيرا ، ويضعف أمام الإغراءات أحياناً . ولقد تعلم من علاقته بشارلوته الكثير عن المرأة ، وعن المرأة العاشقة ، وعن المرأة الارستقراطية ، وأصبح أكثر قدرة على رسم شخصية الأميرة أو الملكة فى مسرحيات قادمة مثل « ماريا ستوارت » .

وكتب شيللر قصيدتين فى هذه الفترة تعبران عن فكره وإحساسه أصدق تعبير . لقد تغير تغيراً هائلاً . لقد حركته الشهور التى مضت بما كان فيها من نجاح وفشل ، وهرب واستقرار ، وحب عابث وحب عارم ، وتجربة ، ومخالطة لألوان من الناس مختلفين ، وقراءات كثيرة وتأملات . ولكنها لم تصقله ، بل تركته فى مفترق الطرق حائراً يبحث عن كل شىء ، يبحث عن الشهرة ، وعن الفكرة وعن الحياة وعن الحب . هكذا نراه فى القصيدتين « مروق العاطفة »[١] و « امتثال »[٢] . القصيدة الأولى التى غير اسمها إلى «كفاح »[٣] تقول مثلاً :

لا . لن أستمر فى هذا الكفاح إلى أبعد من هذا
كفاح الواجب الشاق .
إذا لم تكونى قادرة على إخماد دافع القلب المتأجج ،
أيتها الفضيلة ، فلا تطلبى هذه التضحية منى .
لقد أقسمت ، أنا ، نعم أقسمت ،
على أن أتحكم فى نفسى ،
خذى تاجك ، لقد خسرته إلى الأبد ،
خذيه ودعينى أذنب .

أما قصيدة « امتثال » فنقرأ فيها :

« إننى أحب أبنائى حباً أسوى فيه بينهم »
هذا ما قاله واحد من الجن لا تراه العين .
ثم قال صائحاً : « اسمعوا يا بنى البشر ، هناك زهرتان ،
زهرتان تتفتحان للطالب الحكيم
اسم احداهما « أمل » و الأخرى اسمها « لذة » .
من قطف واحدة من الزهرتين ،

(١) Freigeisterei der Leidenschaft

(٢) Resignation

(٣) Der Kampf

ليس له أن يتوق إلى أختها .
فليطلب اللذة ، من لا يستطيع أن يؤمن .
حكمة خالدة خلود العالم . أما من يستطيع أن يؤمن ،
فليحرم من اللذة نفسه .
إن تاريخ العالم هو محكمة العالم .
« وأنت قد أخذت الأمل ، ولقد نلت جزاءك ،
وكان إيمانك هو نصيبك غير ممنون .
وكان يمكنك أن تسأل حكماءك :
إن ما يضيعه الإنسان من اللحظة
لا يعيده إليه الزمن إلى الأبد . »

كان شيللر فى ذلك الوقت قد جرب الحرمان وجرب اللذة ، وجرب الإيمان وجرب الكفر ، جرب الأمل وجرب اليأس ، وأصبح كالمندفع بسفينة فى تيار بين شاطئين متضادين ، يريد أن يصل إلى أحدهما وقد تبين أنه لا يستطيع أن يصل إليهما معاً فى وقت واحد . ولم يكن من الممكن أن يحسم شيللر أمره فى مانهايم ، فهو يتعرض لقوى عنيفة تدفعه وتجذبه : المسرح المانهايمى يلفظه ، دالبرج يحاول رده عن الأدب إلى الطب ، شارلوته فون كالب تشده إليها ، الديون تؤرقه ، الصداقات القديمة تتأرجح كلها . فما باله لا يجرب تجربة يغامر بها أو يقامر؟ وما باله لا يهرب مرة أخرى؟

إنه لا يبدأ بالتفكير فى الهرب ، بل بالتفكير فى العناد والمغامرة . «كلما ارتفع الهدف الذى نطمح إليه ، عظمت شجاعتنا ، وصفت ثقتنا فى أنفسنا ، وزاد استقلالنا عن رأى الناس ، فى الوقت الذى نكون قد حسمنا فيه أمرنا مع انفسنا ، وفى هذا الوقت فقط ، نكون قد تخلصنا من خطر المعاناة من حكم الآخرين ـ من الزهو إذا كان الحكم هو الإعجاب ، أو الجبن إذا كان الحكم هو الاستخفاف ... » (من كلمة شيللر إلى الجمعية الأميرية اليفالتسية) . وقرر شيللر أن يخرج مجلة باسم « راينيشه طاليا »(١) ولكنه لم يجد ناشراً يقبل النهوض

(١) Rheinische Thalia

بالناحية المالية والطبع والتوزيع ، فنهض بالمشروع وحده . وأعلن عن المجلة التى أراد أن يمولها عن طريق الاشتراكات ، إعلاناً جاء به : « اننى أكتب كمواطن وطنه الدنيا ، مواطن لا يخدم أميراً من الأمراء ، ولقد فقدت فيما مضى موطنى الأول لتكون الدنيا الواسعة التى لم أكن اعرفها إلا من خلال المنظار المقرب وطنى . ولقد حولنى خطأ عجيب فى فهم الطبيعة فى مسقط رأسى إلى شاعر . كان الميل إلى الشعر يعتبر إهانة لقوانين المعهد الذى تربيت فيه ، ونقضاً لخطة مؤسسه . وظل حماسى ثمانية أعوام طوال يناهض النظام العسكرى ، ولكن الولع بالشعر شىء نارى قوى ، مثله فى ذلك مثل الحب الأول . كان يشعل جذوة ما كان ينبغى عليه أن يخمد ناره . وأراد قلبى أن يهرب من ظروف كانت بالنسبة له تساوى العذاب ، فهام إلى عالم من المثاليات ، ولم يكن يعرف العالم الواقعى ، الذى كانت تفصلنى عنه القضبان ــ ولم يكن يعرف الناس ــ ولم يكن يعرف ميول الكائنات الحرة المضطلعة بأمر نفسها ، لأن ميلاً واحداً فقط ، لا أريد أن أذكره هنا ، هو الذى تمكن من النمو والنضوج . أما الجوانب الباقية من قوة الإرادة فقد وهنت ، نتيجة للتوتر الذى اعترى جانباً واحداً منها على نحو عنيف متشنج . لقد ضاعت كل خاصية ، وكل انطلاقه للطبيعة اللاعبة فى ألف اتجاه تحت ضغط الإيقاع المحسوب للنظام السائد ، ــ ولم يكن يعرف الجنس اللطيف ــ لأن أبواب هذا المعهد كانت ، كما سنعلم ، تنفتح للمرأة فى المرحلة التى لا تكون فيها قد بدأت تصبح ذات أهمية ، وفى المرحلة التى تكون فيها قد كفت عن أن تكون ذات أهمية ــ ولم يكن يعرف الناس ومصيرهم ، ولهذا فقد أخطأت ريشتى حتماً فى رسم الخط الوسط بين الملاك والشيطان ، واضطرت إلى إنتاج عمل هائل ، من حسن الحظ أنه ليس موجوداً فى الدنيا ، وما أتمنى له أن يبقى خالداً ، الا ليكون مثلاً باقياً على مولد عمل هو الثمرة التى قذف بها إلى الدنيا زواج مناف للطبيعة ، انعقد بين التبعية والعبقرية . ــ أعنى « قطاع الطرق » .

وظهرت المسرحية . واتهمت كل الدنيا المتمسكة بالأخلاق المؤلف بأنه يعيب فى الجلالة ــ وكانت كل مسئوليته محصورة فى الجو الذى ولدت فيه المسرحية . وإذا كان هناك بين الاتهامات العديدة التى لا تحصى التى وجهت إلى قطاع الطرق ، اتهام واحد يمسنى ، فهو أننى توهمت أننى أستطيع أن أرسم الناس

قبل أن ألتقى بواحد منهم .

وكلفتنى مسرحية « قطاع الطرق » اسرتى ووطنى .....

وقد انحلت كل الروابط التى تربطنى . وأصبح الجمهور بالنسبة إلى الآن كل شىء ، إنه دراستى وصاحب الأمر على والحائز على ثقتى . وأنا الآن ملك له وحده . وأنا أقدم نفسى إليه ، لا إلى أية محكمة أخرى . الجمهور هو وحده المحكمة التى أخشاها وأجلها . وإن شعوراً بالعظمة ليطوف بى وأنا أتخيل أننى لا أحمل من القيود إلا حكم الجمهور ، وأننى لم أعد ألجأ إلى عرش آخر إلا إلى النفس الإنسانية ...» .

وإننا اليوم نحزن مع شيللر الذى لم يجد كلامه الصادق المؤثر الجمهور المرهف الذى يتجاوب معه . كان شيللر قد انتهى بالنسبة لمانهايم ، وكانت قدرة الجمهور هناك على الاستيعاب قد تشبعت . فلم يتقدم للاشتراك فى المجلة الجديدة الا عدد قليل ، لا يسمن ولا يغنى من جوع . فما باله لا يهرب الآن ؟ لا ، إنه لا يستطيع الهرب ، لأن شارلوته فون كالب تتعلق به ولا تدعه يهجرها . ولأن أصحاب الديون أغلظوا له ، عندما علموا أن موارده قد نضبت وأن الفقر قد حل به على نحو أليم ، بعد فترة من الغنى العابر ، والحقيقة أن ذنب الاضطراب المالى الفظيع الذى تورط فيه شيللر ، يقع عليه هو إلى حد كبير ، فقد كان يستطيع أن يحسن كل أمر الا الاقتصاد والتدبير . فلم يوفر شيئا لوقت الحاجة عندما سال المال بين يديه من خزينة مسرح مانهايم ، ولم يسدد ديونه القديمة بل أجلها وزاد عليها . ومنها ما يرجع إلى أيام شتوتجارت وطبع « قطاع الطرق » ومنها ما حصل عليه بضمان السيدة فون ڤولتسوجن من اليهودى إسرائيل ليغطى تكاليف رحلته إلى مانهايم . ــ ويبدو أن شيللر خسر الكثير من المال على موائد القمار فى فترة الثراء العابر ، ويبدو أن أهله فى شتوتجارت كانوا يسمعون بشىء من أخبار لعبه القمار هذا لأننا نقرأ فى خطابات كريستوفينه إلى أخيها ما يفيد أنها تخشى عليه كارثة مالية . كذلك تبين رسائل الأب إلى شيللر فى ذلك الوقت قلقه عليه من الناحية المالية ، فنراه ينصحه بالسعى إلى مستقبل أفضل فى مسارح المدن الكبرى مثل برلين أو ڤيينا (خطاب ١٠ نوفمبر ١٧٨٣ و ٨ مارس ١٧٨٤) أو إلى مستقبل أفضل عن طريق ممارسة مهنة الطب فينصحه بالالتحاق بجامعة هايدلبرج واتمام

دراسة الطب حتى الحصول على الدكتوراه . ولم يكن الأب يستطيع أن يمد ابنه بشيء من المال يحسن به أحواله ، ولكنه فكر فى تدبير عودة الابن إلى وطنه ــ وفكر طبعاً فى أن يتوسل إلى الأمير كارل أويجين أن يرفع غضبه عن ابنه ــ ولم يكن لدى شيللر من إجابة إلا الرفض . ومهما يكن من أمر فإن شيللر لم يكن يتوقع أن يحصل على مساعدة مالية كبيرة من والده حتى عندما صارحه فى خطاب فى مطلع عام ١٧٨٤ بمخاوفه وبموقفه من الناحية المالية . ونحن نجد الأب يكتب إلى ابنه تارة يلومه على التبذير ، وتارة يحضه على تدبير أموره بالزواج ببنت غنية ــ ربما مارجريته شفان ــ ليخلص مما هو به من هم وغم .

حتى أشرف شهر يوليو عام ١٧٨٤ على نهايته فحضرت إلى مانهايم امرأة اسمها فريكه[١] ، كانت هى التى ضمنت شيللر لدى الدائن الذى قدم إليه المال اللازم لطبع « قطاع الطرق » . وقد جشمت نفسها مشاق السفر لأن صاحب الدين أصبح يلاحقها ، ويطالبها هى برد المبلغ . والتقت بشيللر فى مانهايم وطالبته بمبلغ ٢٠٠ جولدن ، وأصبح عليه أن يدفع أو أن يعرض نفسه لفضيحة كبرى . وفكر شيللر فى أصدقائه جميعاً ، فلم يجد بينهم من يعينه ، وحكى شترايشر ــ الذى كان يسكن مع شيللر فى ذلك الوقت فى بيت معلم بناء ــ لزوجة صاحب البيت عن المحنة التى يتعرض لها صديقه شيللر ، فما كان منها إلا أن قدمت مدخراتها وأعطت شيللر ال ٢٠٠ جولدن المطلوبة . وقد عرف شيللر لهذه المرأة واسمها أنه هولتسل[٢] جميلها ، ولم ينسه قط . وكان يرسل إليها عندما تحسنت أحواله بعد ذلك من حين لآخر مساعدات مالية ، بعد أن كبر زوجها وعجز عن العمل ، وساعد ابنها أدولف فى عام ١٨٠٢ على الحصول على عمل فى مسرح مانهايم .

وفى الوقت نفسه كانت السيدة فون فولتسوجن تطالب شيللر بأن يسدد لها المبالغ التى استدانها منها ، أو على الأصح التى استدانتها له . فلم تكن من الأغنياء رغم مركزها الرفيع وملكيتها لشيء من الأرض وما عليها . واضطرت للاستدانة

(١) Fricke

(٢) Anna Hölzel

للصرف على حياة شيللر عندما كان مقيماً فى بيتها بباورباخ . وكلما ألح صاحب الدين على السيدة فون ڤولتسوجن ألحت هى بدورها على شيللر . وكان شيللر يعدها بأن يدفع فى الشهر التالى ، ويذكر أنه يأمل أن يربح شيئاً من حفل قادم أو من مسرحية يفرغ منها وما شاكل ذلك . حتى تبين أنه لن يستطيع تسديد الدين فلزم الصمت ولم يرد على خطاباتها ، وتحاشى حتى مقابلتها عند سفره إلى لايبتسج وضحى بلقاء أسرته ، وكان أبوه قد اقترح عليه أن يكون لقاء يجمعهم فى هايلبرون[1] تحضره السيدة هنريته فون ڤولتسوجن .

وجاءت النجدة من جهة لم يكن شيللر يتوقعها . كان شيللر فى أوائل (يوم ٥ ؟) يونيو ١٧٨٤ قد تلقى من لايبتسج هدية حملها إليه أحد موظفى الناشر شڤان وكان قد ذهب إلى لايبتسج ليشترك فى سوقها، « سوق لايبتسج »[2] الشهيرة . كانت هذه الهدية عبارة عن محفظة من الحرير المطرز بها أربع صور مرسومة بقلم فضى، ولحن موسيقى لأغنية مأخوذة من « قطاع الطرق » وخطاب خال من التوقيع . كان الخطاب يحمل الكلمات التالية : « فى هذا الوقت الذى يتنزل فيه الفن وينحط ليصبح جارية رخيصة بين أيدى أصحاب القوة والغنى الذين لا هم لهم إلا شهواتهم ، يرتاح المرء ، عندما يظهر رجل عظيم ويبين ما يستطيع الإنسان الآن عمله . » ـ لم يعرف شيللر من أرسل إليه الخطاب والهدية ، ولكنه فرح فرحاً شديداً لهذا الإعجاب والتعضيد ... وخطاباته فى ذلك الوقت تنطق بهذا الفرح : « إن مثل هذه الهدية ، التى يرسلها إلى أناس لا أعرفهم ، ولا هم لهم إلا أن يعرفونى بأنهم راضون عنى ، وبأنهم يشكروننى على ساعات سعيدة أتحتها لهم ، هدية لها قيمة هائلة ... » وفى خطاب آخر يقول : « فإذا سرت الآن فى طريقى ، وفكرت فى أن الدنيا ربما تضم من هؤلاء عدداً أكبر ، يحبوننى دون أن أعرف ـ وفى أن ذكراى بعد أن أموت وتذرو الرياح رفاتى فلا يبقى منها شىء ، ستجد من يباركها ، ويمنحنى فى قبرى الدموع والإعجاب ـ ، فإننى أسعد بمهنتى كشاعر ، وأتصالح مع الرب ومع القدر الذى طالما قسى على » .

(١) Heilbronn

(٢) Leipziger Messe

ولسنا نعرف كيف عرف أسماء المعجبين الأربعة ، ولكننا نعرف أنه كتب إليهم فى ٧ ديسمبر ١٧٨٤ . كان هؤلاء الأربعة هم[1] كريستيان جوتفريد كورنر (١٧٥٦ ـ ١٨٣١) وخطيبته مينا شتوك ، ولودفيج فرديناند هوبر (١٧٦٤ ـ ١٨٠٤) وخطيبته دورا شتوك (أخت مينا شتوك) . كتب شيللر إليهم يحدثهم عن أفكاره ومشروعاته ومحنته ، فردوا بسرعة يطلبون إليه أن يسافر إليهم ، إلى لايبتسج . ولكن شيللر فضل أن يطلعهم على حقيقة أمره قبل أن يطلعوا هم عليها فعاد يكتب إليهم فى ١٠ فبراير ١٧٨٥: « إذا كنتم ترضون بإنسان يحمل فى قلبه أينما سار أشياء عظيمة ولم يحقق بالفعل إلا أشياء صغيرة ، إنسان يستنتج من حماقاته التى ليس فى جعبته حتى الآن سواها أن الطبيعة تدخره لمهمة خاصة ، فلا شك أن صداقتنا ستدوم أبداً ، فأنا هذا الإنسان .. هل أعدكم هذا الاعتراف لتلقى اعتراف آخر ؟ آه يا أصدقائى الأعزاء ، إن حبكم الخالص الذى حبوتمونى به قد أثر على الحالة الراهنة التى يمر بها قلبى أثراً عجيباً . وأنا أميل ميلاً أليماً إلى التضخيم والتهويل ، وكثيراً ما تلقى أسباب هينة بأملى إلى بعيد فيترنح معها ويضيع ، وكثيراً ما يلوح لى الشىء الهين كأنه نواة شىء عظيم لا نهائى . ولقد مستنى عباراتكم الصريحة فى وقت كانت حاجتى فيه ... » وينقطع الخطاب هنا ، ولا يكمله شيللر إلا بعد ١٢ يوماً ، ليقول : « ... إلى صديق على أشدها . (لقد قطعت على الخطاب زيارة لم أكن أتوقعها وقضيت هذه الأيام الاثنى عشر فى ثورة اعتملت فى نفسى ، ثورة تعطى هذا الخطاب من الأهمية أكبر مما كنت أحلم ـ أهمية تنهى مرحلة من حياتى وتبدأ مرحلة أخرى) . أنا لا أستطيع البقاء فى مانهايم . لقد حملت قرار الخروج من مانهايم فى قلبى طوال هذه الأيام الاثنى عشر ثقيلاً ، كأنه قرار بالخروج من الدنيا . لقد كرهت الناس والظروف والأرض والسماء . لست أجد هنا روحاً ، روحاً واحدة ، تملأ الفراغ فى قلبى ، لست أجد صديقة ، ولست أجد صديقاً . وما يبدو لى عزيزاً محبباً إلى قلبى ، تفصلنى عنه التقاليد والظروف ... آه إن روحى ظمآى إلى مشرب جديد ـ إلى أناس أفضل ـ إلى

(١) Ludwig Ferdinand Huber . Minna Stock . Christian Gottfried Körner . Dora Stock .

الصداقة ، إلى الود ، إلى الحب . لابد أن أذهب إليكم ، لابد أن أتعلم كيف أتمتع بقلبي أنا في علاقة أوثق ، تقربنا معا ، وأن أدفع بوجودي كله إلى أعلى دفعة مليئة بالحيوية . إن شرياني الشعري ليخفت ، وإن قلبي ليجف حيال الجماعة التي كنت حتى الآن أخالطها ، عليكم أن تعيدوا الحرارة إلى شرياني هذا . إنني أريد أن أكون بين ظهرانيكم ضعف أو ثلاثة أضعاف ما كنت من قبل ، وأريد أكثر من هذا ، سأكون سعيداً بينكم ، ايها الأصدقاء الأعزاء . فلم أكن سعيداً قط ... »

أما هذه الثورة التي يتحدث عنها فربما كانت نتيجة لزيارة بعض أصحاب الديون ، أو زيارة شارلوته فون كالب أو مارجريته شفان أو بعض رجال المسرح بعد عرض « مكيدة وحب » على صورة ضعيفة مهزوزة مما أثار ثائرة شيللر . والأرجح أنها زيارة شارلوته فون كالب ، ولابد أنها كانت تتسم بالعنف في التعبير عن المشاعر ، حتى اضطر شيللر أن يتخذ قراراً نهائياً لا رجعة فيه هو أن ينهي علاقته بشارلوته ويكرس اهتمامه كله للأدب أو لدراسة الطب في الجامعة واحتراف مهنة يعترف بها المجتمع .

ولم تكن رحلة الفردوس رحلة « الصباح الوردي الذي يشرق وراء تلال تكسوها الغابات » ، رحلة لايبتسج ، ممكنة إلا إذا حصل على شيء من المال يسدد به ديونه ويدفع تكاليف السفر . وبالفعل كتب شيللر في ٢٨ فبراير ١٧٨٥ إلى لودفيج فرديناند هوبر يشرح له الضائقة المالية التي تردى إليها ، ويطلب المساعدة : « لا أستطيع أن أطلب إلى أسرتي أن تقرضني شيئاً لأن أبي ضابط وليس له من أجر إلا ما يأتي به السيف . هذا إلى أنني لي ثلاث أخوات .... » واقترح شيللر على هوبر أن يجد أحد الناشرين يقبل شراء مجلته « طاليا » ويدفع له من المال لقاء ذلك ما ينقذه من ورطته . ــ وأبلغ هوبر الخبر إلى كورنر فاتصل كورنر بالناشر جوشن[1] الذي كان يشترك معه في دار النشر بنصيب ، وقبل جوشن الصفقة وحصل شيللر على ٣٠٠ تالر . وأعاد إلى السيدة أنه هولتسل

(١) Göschen

ما اقترضه منها شاكرا لها ولزوجها جميلهما الفريد . وكذلك أصلح حاله مع الدائنين الآخرين .

وكتب شيللر إلى هوبر خطاباً طريفاً يهيء الجو لحضوره ويتحدث عن مشاكله ورغباته : « ... لقد قررت عند الإقامة فى لايبتسج أن أعالج عيباً سبب لى قدراً كبيراً من المنغصات . أعنى : إننى لن أعود إلى تصريف أمورى المالية بنفسى ، ولن أسكن بمفردى . فلست أفهم فى تصريف الشئون المالية شيئاً . وإن تدبير مؤامرة وانقلاب ليسهل على بقدر ما يصعب على تدبير أمور منزلى . وليس هناك شيء ، كما تعلم ، يضر الشعر أكثر مما تضره الحسابات الاقتصادية ... وأما أننى لا أريد الحياة بمفردى ، فمرجع ذلك إلى أننى أحتاج لبلوغ أخلص سعادة إلى صديق ودود صدوق صريح يكون دائماً على مقربة منى ، كالملاك ، حتى أتمكن من إطلاعه على أفكارى النابتة عند بزوغها . ولا أكون بحاجة إلى كتابة خطابات أو القيام بزيارات طويلة لهذا الغرض . إن اضطرارى ـ عندما يكون صديقى فى سكن آخر بعيد عن حجرتى ـ إلى عبور شارع لأصل إليه ، وإلى ارتداء ملابس الخروج وما إلى ذلك ، يقتل على متعة اللحظة ، ويقطع حبل الأفكار التى تعن لى .

فإذا أمكن أن أسكن معك فى مسكن واحد ، فإن مخاوفى تتبدد .... وإذا تمكنت من تعريفى بأناس يقومون بشئون المسكن ، فسيكون كل شيء على ما يرام . وأنا لا أحتاج إلا إلى حجرة نوم يمكن أن تكون فى الوقت نفسه حجرة مكتب ، ثم حجرة استقبال . أما الأثاث الذى أحتاج إليه فخزانة جيدة ومكتب وسرير وأريكة ومنضدة وعدد من الكراسى الوثيرة . وأنا لا أحب السكنى لا فى الدور الأرضى ولا فى الدور الذى تحت السطح ، كذلك لا أحب أن يكون المنظر الذى أطل عليه فناء خالياً . فأنا أحب الناس وأحب بالتالى تزاحمهم . وإذا لم يكن من الممكن أن نأكل كلنا معاً (أعنى خمستنا) . فسأتناول طعامى على مائدة الضيوف بالفندق . فأنا أفضل أن أصوم على ألا آكل فى جماعة (جماعة إما كبيرة أو مختارة) .

إننى أكتب إليك كل هذا ، يا صديقى الأعز ، لأهيئك لمزاجى العجيب ولأتيح لك على أية حال الفرصة لتتخذ هنا وهناك خطوة تمهد بها لانضمامى

ولا شك أن طلباتى ساذجة تنم عن الحيرة ، ولكن طيبتك أغرتنى على التدلل . »

ولقد أوردنا هذا الخطاب كاملاً تقريبا لأنه يلقى الضوء على نواح قد تبدو بسيطة فى حياة الفنان ، ولكنها تؤثر على إنتاجه تأثيراً كبيراً وهى أمور تختلف من فنان إلى آخر مثل السكنى فى مكان هادىء أو مكان مزدحم ، فى عزلة أو مع آخر ، الأكل مع آخرين فى جماعة كبيرة ، أو الأكل على عجل حيثما اتفق ، ثم الحاجة إلى صديق واع يسرع إليه الفنان بخواطره فيحكيها له فتنمو أثناء الحديث وتكتمل وتكتسى الصيغة اللائقة . ـ والخطاب يبين أن شيللر كان يعد للسفر وقد امتلأ وجدانه بالكثير من المشروعات التى يود أن تتاح له إمكانية تحقيقها .

ولسنا نعرف على وجه التحديد كيف ودع شيللر مانهايم ومن فيها . ولكننا نستطيع أن نتصور أنه لم يهتم بدالبرج وغيره من الممثلين ورجال المسرح ، إلا الممثل بيك[1] الذى بينت المراسلات فيما بعد أن علاقة الود كانت قائمة بينهما . والمؤكد أن الوداع كان مؤثراً فى بيت أسرة شفان على الرغم من الغيرة الشديدة التى أكلت قلب مارجريته عندما علمت بأن شيللر يحب شارلوته فون كالب . وقد ظلت مارجريته تعمل وقتاً طويلاً فى توشية محفظة ثمينة أهدتها إلى الصديق المهاجر . فتأثر أشد التأثر ، وآمن بحبها له ، ووعدها بلقاء قريب . ـ كذلك من المؤكد أن وداع شارلوته كان كبركان من المشاعر آن وقت انفجاره ، ومن المؤكد أن شيللر كان رابط الجأش فلم يتأثر إلا ليتحكم فى نفسه ، ولم يبك إلا ليندفع إلى حياة جديدة . وأمضى شيللر اليوم الأخير مع صديقه الحميم شترايشر . وظل يتحدث عن مشروعاته فتارة يقول إنه سينتهز فرصة وجوده فى لايبتسج فيعد للدكتوراه فى الطب ، وتارة يتحدث عن رغبته فى دراسة القانون . حتى يجمع إلى صفة « الشاعر » ـ التى لم تكن تلقى الاعتبار الكافى ـ صفة أخرى يحترمها الناس . وكان شيللر على أية حال مصمماً على أن يصبح إنساناً مشهوراً . يشغل منصباً رفيعاً ـ « منصب وزير » إن أمكن ـ مثل جوته الذى كان وزيراً لأمير فايمار .

(1) Beck

وختم شيللر مرحلة مانهايم فى رحلة حياته الفنية بالعدد الأول من مجلة « طاليا » الذى ظهر فى منتصف مارس ١٧٨٥ فى ١٩٩ صفحة يحتوى على اهداء إلى الأمير الفايمارى كارل أوجوست ومقال عن المسرح الجيد وما يمكن أن يحققه من فائدة . وقصة انتقام امرأة . وبيانات عن الفصل الأول من مسرحيته دون كارلوس ومقتطفات . ومقال عن آثار مانهايم التى زارها مع شارلوته فون كالب . وعرض النشاط المسرحى فى مانهايم وغير ذلك من موضوعات تتصل بالمسرح والتمثيل والفن والأدب .

الباب الثامن

أغنية الفرحة

كان شيللر عند رحيله من مانهايم يحتاج إلى السعادة التى قال عنها إنه لم يذق لها طعماً فيما مضى من حياته ، وإلى صحبة واعية تمكنه من تحطيم هذه الطبقة الجامدة من الثلج الصلب التى تكونت باردة بليدة فوق قريحته وأصابت قدرته الإبداعية بالبطء الشديد ، ولكنه كان يحتاج إلى شىء أعظم وأكبر أهمية من هذين الأمرين ، كان يحتاج إلى التغلب على ذلك العنف الذى اتسم به إنتاجه سواء فى الأحاسيس أو فى الأهداف والذى ظهر فى أسلوبه على هيئة تكرار وتضخيم وتهويل ... كان بحاجة إلى التغلب على آثار حركة « العاصفة » التى ألهبت حماسه ، وفجرت القوة الخلاقة فى وجدانه ، ثم انتهى دورها . لا بد له من الاعتدال بين المضمون والشكل ، والحماس والتأنى ، القلب الثائر والعقل الهادىء .. ولقد أوتى شيللر إلى جانب الموهبة الشعرية النادرة ، والقدرة على العمل النشيط قارئاً متعلماً وكاتباً معلماً ، قدرة فريدة على النظر فى باطنه ، والحكم الثاقب على أعماله وعلى عملية الإبداع الفنى الدقيقة التى تتم فى نفسه .. وبهذا كانت الإمكانات كلها متوفرة لتجاوز الثورة التى خرج بها من المدرسة الظالمة ، ومن الإمارة الظالمة ، والتى كانت الرياح الفكرية الآتية من الغرب ، من فرنسا ، ومن شخصية روسو بالذات ، تدفعها فى اتجاهها .

فى ١٧ ابريل ١٧٨٥ – وقت انعقاد سوق لايبتسج – وصل شيللر إلى لايبتسج بعد رحلة متعبة ، فقد كانت الطريق فى حالة يرثى لها ، وكانت الظروف الجوية سيئة حيث تكومت الثلوج وسالت الأمطار . ثم أخذت الثلوج والأمطار تتحول إلى مستنقعات ، لا تجتازها العربة إلا بصعوبة بالغة . ونزل شيللر فى « فندق الملاك الأزرق » وحاول أن يلتقى بأصحابه فى اليوم نفسه ، ولكنه كان مجهداً فأجل اللقاء الكبير إلى اليوم التالى ، واكتفى بزيارة هوبر . وفى اليوم التالى حدث اللقاء الأول بين الجميع : شيللر وهوبر والآنستين مينا ودورا ، ولم يتمكن كورنر من الحضور لأنه كان فى دريسدن .. ودهش الثلاثة عندما رأوا أمامهم إنساناً أقرب إلى الخجل منه إلى أى صفة أخرى ، وسرعان ما تغلب الجميع على هذا الاحساس الأول بالدهشة، وسرعان ما ربط احساس دافىء صريح بين قلوبهم . تصف مينا شتوك تلك اللحظة فتقول : « تملكت نفوسنا من الرهبة أكثر مما اعتمل فيها من الفرح ، عندما أنبأنا هوبر بزيارة شيللر ، لأننا لم نكن نستطيع أن نتصور شاعر « قطاع الطرق » – رغم قصيدة « لهفة إلى لاورا » (١) – فى كيانه وملبسه إلا ككارل مور (بطل قطاع الطرق) أوكواحد من رفاقه فى الغابات البوهيمية ، يلبس الأحذية الطويلة الثقيلة ، والمهاميز ، ويتسلح بسيف يتدلى من جانبه ، ويحدث حفيفاً وصليلاً . وتملكنا إحساس كالدهشة عندما قدم إلينا هوبر شاباً أشقر الشعر ، أزرق العينين ، خجولاً ، تترقرق الدموع فى مآقيه ، ولا يكاد يجرؤ على توجيه الحديث إلينا . ولم يلبث إحساسه بالخجل أن اطمأن حتى فى الزيارة الأولى ، وإن ظل يكرر ولا يتعب من التكرار أنه يعرف لنا صنيعنا ، إذ جعلناه أسعد إنسان تحت الشمس » .

كان كريستيان جوتفريد كورنر (٢) (١٧٥٦ – ١٨٣١) من عائلة عريقة فى العلم ، يهتم أفرادها خاصة بالدراسات الدينية ، واختلف إلى المدرسة الأميرية فى جريما (٣) وتلقى فيها تعليماً متقناً ، خاصة فى الثقافة اليونانية واللاتينية ثم درس

(١) Die Entzückung an Laura

(٢) Christian Gottfried Körner

(٣) Fürstenschule in Grimma

اللغات فى الجامعة ، وجمع إليها دراسة الفلسفة والقانون ـ وحاول أن يدرس كذلك العلوم الطبيعية والرياضيات ، وانتهى بالحصول على الدكتوراه ثم على صلاحية التدريس بالجامعة . وأتيحت له فرصة القيام برحلات مختلفة فى البلدان الأوروبية فجمع إلى العلم المكتوب ، خبرة بالناس . وكانت حالته المالية ميسورة ، لأن أمه خاصة كانت من أسرة غنية . وكان كريماً ينفق عن سعة ولا يقيم للمال وزناً إذا اعتقد أنه يفيد به الناس . وكان يعمل فى وظيفة بالقضاء الدينى فى لايبتسج ، تركها فى مطلع عام ١٧٨٥ للعمل فى وظيفة مشابهة بدريسدن .

أما لودفيج هوبر[1] (١٧٦٢ ـ ١٨٠٤) فكان من أسرة تهتم بالأدب واللغات ، كان أبوه يحترف الترجمة فى باريس ، ويعمل محاضراً فى جامعة لايبتسج بعد ذلك ، وكانت أمه فرنسية ، فشب هوبر يجيد الفرنسية والإنجليزية إجادة تامة ، ويحسن الكتابة بالألمانية وإن لم يتدرج فى مدارس نظامية ، وكان شخصاً يجيد التصرف فى المجتمعات ، ويجتذب إعجاب الكثيرين باهتماماته الواسعة ، وذوقه السليم . وقد اتصل بكورنر منذ وقت مبكر ، وانعقدت بينهما صداقة وطيدة ، وتعرفا معاً بمينا ودورا شتوك .

كانت مينّا فتاة رائعة الجمال ، عظيمة الموهبة مرهفة الحس ، وكانت دورا التى تكبرها بعامين ، أقل منها جمالاً ، ولكنها كانت مرحة تضفى على من حولها البهجة . ودورا ومينا هما بنتا الرسام شتوك الذى تعرف به جوته فى لايبتسج وتعلم عليه شيئاً من الفن ، فلما مات الأب فى ١٧٧٣ ساءت حال الأسرة سوءاً لا نعلم مداه . حتى تعرف كورنر وهوبر بالآنستين ، وظهرت مشروعات زواج . ولكن والد كورنر رفض الموافقة على زواج ابنه من بنت ليست من طبقته ، فقرر الاستقلال عن أهله والزواج بمن أحب . وتم له ماأراد . أما هوبر فلم يخط بعروسه فى الطريق نفسها ، فافترق الاثنان ، وعاشت دورا دون أن تتزوج فى بيت أختها .

(١) Ludwig Ferdinand Huber

هذه صورة سريعة للأربعة الذين قدر لشيللر أن يلتقى بهم ويعيش فى كنفهم وفى صحبتهم فترة من حياته . ولم يبق شيللر فى لايبتسج مدة طويلة ولكنه رأى على أية حال أن المدينة الشهيرة ليست على الضخامة التى كان يتصورها ، واختلف إلى مقهى «ريشتر»[1] واختلط بالفنانين والأدباء ومنهم كريستيان ڤايسه[2] (١٧٢٦ – ١٨٠٤) الذى كان مشهوراً على مسرح لايبتسج لما قام بينه وبين جوتشد من مشاحنات حول المسرح ، ولما قدم من أعمال قلد فيها الفرنسيين تارة وشيكسبير تارة أخرى وشعراء الروكوكو بعد ذلك – ومنهم أيضا بعض ممثلى فرقة سيكوندا[3] المسرحية ورئيسها الممثل المشهور راينكه[4] . وأثار شيللر فى جمهور المقهى ، وأهل لايبتسج وزوارها عموماً إحساس الغرابة فلم يكن منظره مألوفاً لهم ، ولم يكن منظره يتفق مع شخصيات أبطال مسرحيتيه . ولكن شيللر سر لاهتمام الناس به على أية حال ، وسر أكثر لتحية الأدباء الشبان له واعتبارهم إياه « زميلاً » لهم ، وسر لألوان التكريم التى أحاطه بها محبو الفنون فى لايبتسج .

وأرسل شيللر فى ٢٤ ابريل ١٧٨٥ إلى الناشر شقّان فى مانهايم يطلب يد مارجريته كان يريد أن يعيش حياة هادئة ، وكان يتذكر نصيحة أبيه له بأن الزواج من ابنة عائلة غنية يؤدى إلى الاستقرار المنشود ، وكان يتذكر قبل هذا كله وداع مارجريته له وتعبيرها عن حب صادق . ومهما كان الدافع إلى هذه الخطوة ، فإنها كانت خطوة هوجاء لا تعقل فيها . والظاهر أن والد مارجريته لم يرد على شيللر ، وكان يعرفه حق المعرفة ، ويعرف تقلبه ، وخواطره السريعة المفاجئة التى تشرق كشعاع الشمس فى يوم تلبدت فيه السماء بالغيوم القاتمة ، ثم مايلبث أن يتوارى ، ولا يبقى منه شىء . – وانتهت المحاولة عند هذا الحد .

(١) Richters Kaffeehaus
(٢) Christian Felix Weisse
(٣) Seconda
(٤) Reinecke

وتعرف شيللر فى لايبتسج على الناشر جوشن [1] الذى اشترى مجلته «طاليا» . وبدأت بين الاثنين علاقة شخصية وثيقة قائمة على التفاهم المتبادل والصداقة المتينة ، وعلاقة عمل تشهد عليها السنوات التالية وما أخرجه فيها الناشر جوشن من مؤلفات شيللر .

وفى الأيام الأولى من شهر مايو ١٧٨٥ ترك شيللر المدينة الصاخبة وانتقل إلى ضاحية للايبتسج اسمها « جوليس » [2] ، كانت تضم شيئاً من صفات القرية والمدينة والمصيف فى وقت واحد . وكان أهل لايبتسج يقضون فيها وقتاً من الصيف الحار . كذلك انتقلت إلى هناك الفتاتان برفقة أخ لهما غير شقيق ، وهوبر . وسكن شيللر فى حجرتين صغيرتين تحت السطح كان ما بهما من أثاث قليل بسيط . وكانت الأبواب منخفضة يضطر شيللر - طويل القامة - إلى الانحناء كلما دخل أو خرج . ولكن شيللر كان سعيداً . كان يعمل بشىء من الجد فى « دون كارلوس » ويقرض شيئاً من الشعر . وكان يستيقظ فى وقت مبكر جداً . فى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً ويخرج إلى الخلاء للنزهة والتأمل وليس عليه من الملابس إلا الروب دى شامبر ، وكانت صحته معتلة ، يبدو - كما ذكر خادمه - شاحباً ، وكانت أرض الحجرة دائماً تكتسى بكثير من الأوراق التى يسجل فيها أفكاره . وكان الأصدقاء يلتقون ظهراً على مائدة الغذاء فى مطعم « ڤاسرشينكه » ، ويقومون برحلات فى المنطقة المحيطة ، ويلتقون مساء فيتسامرون ويلعبون الورق . وكان شيللر يجد الوقت ليهتم بالصديق الخامس - كورنر - الذى كانت أعماله تحول بينه وبين الاشتراك مع الآخرين فيما يقولون ويفعلون ، فكان يكتب إليه الخطاب تلو الخطاب . وفى نهاية مايو نجد شيللر يقتسم مسكنه مع الناشر الشاب جوشن ، جيورج يؤاخيم جوشن ، الذى قال فيما بعد عن هذا الوقت : « لقد سكنت مع شيللر ستة أشهر فى حجرة واحدة وكان الانطباع الذى يحدثه فى نفسى هو الاحترام والصداقة » .

(١) Georg Joachim Göschen

(٢) Gohlis على بعد نصف ساعة سيراً على الأقدام من لايبتسج .

كان شيللر فى خطاباته إلى كورنر يتحدث عن السعادة التى ينعم بها ، ويؤكد أن إنتاجه لا يتعثر نتيجة لها ، ويراها كنسمة من الربيع تهب على كلماته تبث فيها النشاط وتملؤها بالقوة . وفى أول شهر يوليو التقى الجميع فى ضيعة كانسدورف[1] بين لايبتسج ودريسدن ، التى كانت أسرة صديقة هى أسرة أرنستى[2] تمتلكها . واتفقت الآراء بين كورنر الرزين المتأنى وبين شيللر الثائر المشتعل بنيران الانفعال والوجدان . وليس مثل هذا الاتفاق أمراً غريباً على العلاقات بين البشر ، فربما اتفق اثنان لتشابه خصالهما ، وربما اتفقا لأن خصال كل منهما تكمل خصال الآخر . وفى اليوم التالى عاد شيللر مع هوبر إلى لايبتسج ، بينما رافقت الآنستان كورنر فى جزء من الطريق إلى دريسدن . وكتب شيللر على التو إلى كورنر :

« ... ما أجمل وما أروع اللقاء بين روحين تقابلتا على الطريق إلى الآلهة ... لقد ساقتنا السماء أحدنا إلى الآخر ، ولا بد أنها قد صنعت فى صداقتنا معجزة ... » .

وتبين الرسائل التالية المتبادلة بين شيللر وكورنر محاولة الاثنين الاتفاق على ترتيب الشئون المالية لشيللر ، أو بعبارة أخرى محاولة تدبير المال اللازم لحياته . كان شيللر صريحاً فى طلب المال ، وكان كورنر رقيقاً فى تقديم المال فى صورة لا تجرح كبرياء الشاعر المرهف الحس ، فقدم إليه قرضاً يسدده شيللر بأعمال يقدمها فى المستقبل إلى الناشر جوشن . وأوضح كورنر لشيللر أنه لن يبخل عليه بالمال ، ولن يتردد فى مساعدته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . « لقد كنت من قديم الزمان أقل من تقديرى للمال ، لدرجة أننى كنت دائماً أشعر بالتقزز من الحديث عنه مع أرواح عزيزة على ... » . وتولى كورنر بالفعل تسديد هذا القرض .

وفى ٧ أغسطس ١٧٨٥ احتفل كورنر ومينا شتوك بحفل زفافهما فى لايبتسج . وقدم شيللر الى العروسين هدية جميلة ــ آنيتين ثميتين ــ وشيئاً من

(١) Kahnsdorf

(٢) August Wilhelm Ernesti

الشعر و «بارامیتیا »[1] ـ وهى نوع أدبى يقوم على العظة والنصح على أساس الأساطير القديمة ـ جاء بها مثلاً :

« فى مثل هذا اليوم منذ خمسة آلاف سنة دعا زيوس الآلهة الخالدين إلى زيارته على الأوليمب فلما جلسوا بدأ سجال بين ثلاث من بنات جوبتر : الفضيلة والمحبة والصداقة . أرادت الفضيلة أن تسبق المحبة ، ولم تتراجع المحبة أمام الفضيلة ، وتمسكت الصداقة بمكانتها أمام الاثنين . وساد الهرج والمرج السماء كلها وذهبت الربات الثلاث المتصارعات إلى عرش ساتورن ... وتكلم أبو الآلهة فقال : عليكن بالاتفاق يا بناتى ... أما ابنتى الرجلة الفضيلة فعليها أن تعلم أختها المحبة والإخلاص وأن تعلمها ألا تسعد أحداً يطلب ودها إلا إذا كانت هى التى ساقته إليها . وأما الصداقة فعليها أن تتدخل بينكما وتعقد بينكما الرباط الذى لا ينفض أبداً » .

وركب شيللر وهوبر الخيل ورافقا العروسين فى طريقهما إلى دريسدن إلى منتصف الطريق ، ثم عادا . وفى الطريق انقلب شيللر بحصانه أو من فوق حصانه وكانت النتيجة هى إصابة يده اليمنى إصابة حالت بينه وبين الكتابة شهراً ، اللهم إلا القليل من السطور من حين لآخر مع احتمال ألم شديد . وكانت هذه السطور القليلة ، كما يمكننا أن نتصور ، موجهة إلى كورنر . وكان كورنر قد عرض على شيللر أن ينزل ضيفاً عليه فى دريسدن ، فدفعت الوحدة الصعبة فى الحجرة الضيقة بجوليس شيللر إلى التعجيل بقبول هذا العرض . إنه يكتب فى ١٠ سبتمبر : « لا بد أن أجىء إليكم ، فأعمالى تتطلب الراحة والإلهام والمزاج الملائم . ولن أجدها إلا فى صحبتكم » .

وبالفعل انطلق شيللر فى ١١ سبتمبر متجهاً إلى دريسدن ، ولم ينتظر صديقه هوبر الذى كان يفكر فى الانتقال هو الآخر إلى دريسدن . واعتقد أنه سيجد فى صحبة الأصدقاء فى ديسدن كل ما ينقصه ، فانطلق على عجل . وكان فى الطريق ينظر إلى الطبيعة ، ويظن أنه فى الطريق إلى أرض طفولته . واستقبله

(١) Paramythie

الأصدقاء استقبالاً جميلاً عند وصوله فى اليوم التالى وضموه إلى الأسرة واحداً منها ، فى البيت فى دريسدن أولاً ، وفى « الضيعة » الصغيرة التى كان كورنر يمتلكها على نهر الإلبة غير بعيد[1] ، فى منطقة غنية بالكروم ، بعد ذلك . ونعم شيللر بأسابيع من الحياة الناعمة فى الأسرة ، أحس فيها بالسعادة كل السعادة والبهجة كل البهجة . « لقد حصلت على ما كانت أحر أمانى تصبو إليه . إننى هنا فى حضن أحبابى ، مرفوعاً كأننى فى السماء ... إننى سعيد ، وليس هناك شىء أخشاه الآن فى الحالة النفسية التى أنعم بها الآن إلا الخوف من القدر ... من الزمن محطم كل شىء ... لقد تملكنى إحساس بحلاوة كل شىء ، لأننى شعرت بأننى فى البيت بين الأهل .. » .

وهناك قصة طريفة تحكيها مينا عن اليوم الأول فى الضيعة ، تقول : « عندما كان شيللر فى الصباح الأول جالساً معنا فى لوشڤيتس تحت شجرة بندق إلى مائدة الإفطار ، رفع كأسه لنشرب نخب حياة سعيدة تضمنا جميعاً ، وتقارعت الكؤوس محدثة رنيناً صافياً ، حتى قرع شيللر ، وقد تملكه حماس شديد ، كأسه إلى كأسى بعنف فتحطمت . وسال النبيذ الأحمر فوق مفرش المائدة الجديد الذى فرشته عليها لأول مرة على نحو أزعجنى . وصاح شيللر : « ليكن هذا النبيذ قرباناً إلى الآلهة ! لنسكب كؤوسنا جميعاً ! وسكب شيللر كأسه ، وتبع كورنر ودورا مثله فأفرغا على المفرش كأسيهما . وتناول شيللر الكؤوس الفارغة وقذف بها من فوق جدار الحديقة إلى بلاط الطريق فتحطمت وهو يصيح صيحة من قلبه : « لن ننفصل ! لن يكون بيننا من يعيش وحده ! ولنقض جميعاً ، عندما يحم القضاء علينا » .

كان إحساس شيللر بالفرحة يدفعه إلى هذه المشاهد التمثيلية ، التى كان يخرجها على الطبيعة مخلصاً ، غير متكلف ، والتى كان يعبر بها عن تيار العبقرية العنيف الذى يفور فى وجدانه ، ويتلوى فى مجرى لا ضابط له ، ويتدفق فيرغى ويزبد وكأنه يتدفق على الصخور والجنادل .

(١) Loschwitz an der Elbe

واتهت فى ٢٠ أكتوبر أسابيع السعادة فى أحضان الطبيعة على شاطىء نهر الإلبة ، وأقبل الشتاء ، وانتقل الجميع إلى المدينة دريسدن حيث سكن شيللر فى حجرة عند الحديقة اليابانية فى بيت البستانى فلايشمن (١) . وجاء هوبر إلى دريسدن بعد قليل ، فسكن مع شيللر فى حجرته هذه . وهكذا أصبح ينعم بالصديق المتأنى الفيلسوف كورنر والصديق الثائر ذى الخيال الخصب والوجدان المتقد هوبر فى وقت واحد ، كذلك كان ينعم بصحبة مينا ودورا ويحس بالراحة فى البيت السعيد الذى كان ضيفه الدائم . وتفجر التفاؤل العنيف ، والفرح الفياض بين أواخر أكتوبر وأول نوفمبر فى أغنية لم يكن شيللر وهو يصوغها يتوقع أن تحمل اسمه إلى أرجاء الأرض جميعاً ، فى خاتمة أروع سيمفونيات لودفيج فان بيتهوفن ، التاسعة :

إلــى الفـــرحة (٢)

أيتها الفرحة ، ياشرارة الآلهة الجميلة ،
يابنت جنة المثوى
إننا ندخل بالنار نشوى ،
بيتك الحرام ، ياأيتها السماوية .
وفنون سحرك تربط من جديد
مافصمته يد العنف التقاليد ،
فيتآخى البشر جميعهم
حيث يمتد جناحك الرقيق من فوقهم .

*

فإلى ضمة عناق أيها الملايين !
إليكم هذه القبلة من شفاه العالمين .

(١) Fleischmann
(٢) An die Freude

أيها الأخوة : فوق قبة النجوم
هناك لاريب مقام أب حبيب رؤوم .

*

إذا نجحت الرمية العظيمة
فأصبح الإنسان صديقاً لصديق ،
من نال امرأة كريمة ،
فليدخل بتهليل وتصفيق !
نعم ، ليأت من وجد روحاً واحدة
على صفحة الدنيا وعدها روحه !
أما من لم يوفق فى ذلك قط ،
فلينسحب باكياً من هذه الرابطة .

*

كل ما فى الفلك العظيم .
يمجد التعاطف .
فالتعاطف يقود إلى النجوم
حيث يتربع على العرش من لا نعرفه .

*

كل الكائنات تشرب الفرحة
من نهود الطبيعة ،
كل الأخيار ، وكل الأشرار ،
يتبعون آثارها الوردية .
لقد منحتنا الفرحة قبلات وكروما ،
وصديقاً امتحن فى الموت ،
فأوتى الدود شهوة ،
ووقف ملاك النور أمام الرب .

أم أنكم تنهارون أيها الملايين؟
هل تحس بالخالق أيها العالمين؟

*

فابحث عنه فوق قبة النجوم .
إن مقامه لاريب فوق النجوم .

*

الفرحة هي اسم اللولب المحرك القوى
فى الطبيعة الخالدة .
الفرحة ، الفرحة هى التى تحرك التروس .
فى ساعة الكون العظيمة .
إنها تجتذب الزهور من البذور
والشموس من السماوات
وتدحرج الأفلاك إلى مواضع
لايعرفها منظار الراصدين .

*

مثل الشموس التى تطير
عبر فلك السماوات البديع ،
سيروا أيها الاخوة بالفرحة ، فى طريقكم ،
بفرحة البطل يسير إلى الانتصار .

*

من صفحة المرآة النارية للحقيقة
تبتسم فى وجه الباحث الفرحة .
وعلى تل الفضيلة الوعور
تقود سعى الصبور .
وعلى جبل الشموس من فوقه الإيمان

احتملوا من أجل عالم أفضل صابرين

يرى الإنسان أعلامها ترفرف ،
ومن خلال الشقوق فى النعوش المنسوفة ،
يراها فى جموع الملائكة المصفوفة .

*

فاحتملوا بالصبر أيها الملايين .
احتملوا من أجل عالم أفضل صابرين
فوق قبة من النجوم علياء .
رب عظيم يوفى الجزاء .

*

ليس فى مقدور الإنسان أن يجازى الآلهة .
وما أجمل أن يكون الإنسان مثل الآلهة .
وليأت الفقر وحزن الحزين .
وليفرحا مع الفرحين .
ولننس الغيظ والثأر .
ولنغفر لألد أعدائنا ،
ولنرفع عنه ضغط الدموع
ولنبعد عنه حز الندم .

*

لقد تحطم سجل ذنوبنا وكتابها .
وساد الوفاق الدنيا بأسرها .
أيها الأخوة ــ فوق قبة السماء
يحكم الرب فى أمر الجزاء .

*

الفرحة تفور فى كئوس الشراب ،
فى دم الكرمة الذهبى
يشرب أكلة لحوم البشر وداعة

واليأس يسمى شجاعة .
أيها الأخوة ، هبوا من مقاعدكم ،
عندما تدور الكأس ملآنة ،
ودعوا الرغاوى تفور إلى السماء :
ولتكن هذه الكأس نخب روح الخير.

*

الذى يسبح له دوران النجوم
ويثنى عليه نشيد الملاك
لتكن هذه الكأس نخب روح الخير.
فوق قبة النجوم فى الأعالى .

*

شجاعة ثابتة فى المحن العسيرة ،
عوناً إذا مابكت الحيرة ،
خلوداً لأيمان قد عقدت ،
صدقاً حيال الصديق ونحو الغريم ،
اعتداداً بالكرامة عند عروش الملوك ـ
أيها الاخوة ، حتى إذا كان الثمن المال والدم :
لتكن التيجان للجديرين .
ولتفن سلالة الكاذبين .

*

ضموا الدائرة المقدسة
واقسموا على هذا النبيذ الذهبى ،
أن توفوا بالنذر مخلصين ،
اقسموا بقاض فوق النجوم .

وليس من شك فى أن الترجمة التى أعطيناها لا تعطى من أغنية شيللر إلا شيئاً طفيفاً . يمكنناأن نتصور الآفاق الواسعة التى حلق فيها شيللر على أجنحة الفرحة ، والتى رأى فيها الإنسانية وقد صفت كل الصفاء وسعدت كل السعادة وتغلبت على عيوبها ونواقصها . وإنه فى تحليقه ليرتفع إلى رموز كالنجوم والنار والنبيذ فيركب منها كلماته . وليست كلمات شيللر فى هذه الأغنية تكوينات لفظية من حروف ساكنة ومتحركة ، أسماء وأفعال وحروف فحسب بل هى فى المقام الأول أنغام تملك على الإنسان وجدانه ، إنها موسيقى صوفية . ولهذا فلا غرابة فى أن يتلقفها الموسيقى المعجز ، فريد زمانه وكل الأزمان ، لودفيج فان بيتهوفن ، ويعيش معها ثلاثين عاماً ليصنع منها « هرمه الأكبر » . إنها فكرة موسيقية من النوع الذى يقول عنه بيتهوفن : « عندما تخطر لى فكرة ، فأنا أسمعها فى آلة موسيقية ، ولا أسمعها فى أصوات » . وهذا يعنى أن بيتهوفن لم يجد فى أغنية البهجة كلمات بل وجد فيها أنغاماً . وكتابات بيتهوفن تشهد بأنه عاش طويلاً فى هذه الأنغام الشيللرية ، حتى أوشك أن يكتفى بها بلا كلمات . وفجأة ، وفى لحظة من لحظات الإشراق العبقرى ، وجد الحل : لقد وزع موسيقى السيمفونية التاسعة على الأوركسترا كما حلا له ، وجعلها تنساب ناعمة تارة ، عنيفة تارة أخرى ليوقفها فجأة ، حتى يتساءل المرء عن القوة الهائلة الغامضة الربانية التى أذهلت الآلات الموسيقية فلاذت بالصمت ، وتأتى الإجابة فى صورة كلام أنغام صنعته عبقريتان متآخيتان .

ولكن شيللر لم يكن يحلم بأن تصل أغنيته إلى ما وصلت إليه فلم تكن له أية علاقة ببيتهوفن فى ذلك الوقت . ولعله كان يريد بهذه الأغنية أن يودع ما تملكه من عنف حركة « العاصفة » ، ويصفى حسابه معها حتى يضع لعبقريته ما ينبغى أن يوضع على العبقرية الكلاسيكية من حدود . ولا شك أن كورنر أثر عليه فى هذا الاتجاه تأثيراً كبيراً . وقد دارت بين شيللر وكورنر أحاديث « فلسفية » كثيرة عمقت مفاهيم شيللر ، وألقت أمامه الكثير من الضوء . و« الرسائل الفلسفية »[1] التى كتبها شيللر فى ذلك الوقت وظهرت فى مجلة « طاليا » ، تشهد

(١) Philosophische Briefe

على ذلك . هذه الرسائل توشك أن تكون قصة على شكل رسائل يتبادلها اثنان هما «يوليوس» و«رفائيل»[1]، أما يوليوس فيمكننا أن نقول إنه شيللر وأما رفائيل فيمكننا أن نقول إنه كورنر . قلنا إنها توشك أن تكون قصة ، لأنها لم تتم ، وبقيت من قبيل المتفرقات . وهى وإن لم تكتمل إلى عمل أدبى قائم بذاته ، تعطينا فكرة عما تعلمه شيللر من كورنر ، لقد تعلم شيللر أن الإحساس ليس كل شىء وأن العقل المبصر فى وضوح هو الذى يصنع الأدب العظيم ، وأن الأديب مطالب بأن يفكر فى وسيلة المعرفة ، ويقطع فيها برأى حتى يكون إنتاجه قائماً على أساس متين . وكان كورنر متأثراً فى أفكاره بفيلسوف العصر إمانويل كانط ، فحض شيللر على دراسته ، ويبدو أن شيللر لم يعجل بدراسة كانط ، ولكنه على أية حال ظل محتفظاً بنصيحة الصديق حتى جاء الوقت فانهمك فى دراسة الفلسفة الكانطية انهماكاً تاماً .

كان أغلب نشاط شيللر فى هذه الفترة مركزاً على مجلة « طاليا » (وكلمة طاليا يونانية وهى اسم ربة الملهاة وفن التمثيل) التى صدر العدد الثانى منها فى فبراير عام ١٧٨٦ وكان يحتوى على الفصل الثانى من مسرحية « دون كاراوس » وترجمة مسرحية فيليب الثانى لمرسييه[2] وأغنية « إلى الفرحة » والقصيدتين اللتين أشرنا إليهما من قبل «كفاح» و« امتثال » وقصة قصيرة « المجرم الذى رده الامتهان إلى الإجرام »[3] . وتهمنا قصة « المجرم الذى رده الامتهان ... » بصفة خاصة لأنها تمثل نوعاً أدبياً لم نصادفه حتى الآن فى إنتاج شيللر : القصة . تقع القصة فى حوالى عشرين صفحة وتدور حول كرستيان فولف[4]، ابن رجل يحترف الفندقة ، هذا الشاب يتورط فى السرقة ، ويحكم عليه ثلاث مرات ، الأخيرة لمدة ثلاث سنوات . ويتحول نتيجة للمعاملة السيئة فى السجن إلى مجرم أشد خطراً ، ما إن تتاح له الفرصة حتى يغتال الرجل الذى أبلغ السلطات عنه ،

(١) Julius und Raphael

(٢) Mercier, Philipp der Zweite, König von Spanien

(٣) Der Verbrecher aus verlorener Ehre

(٤) Christian Wolf

وتسبب فى الزج به فى السجن ، ويهرب إلى الغابات فيقيم بها ويكون عصابة تحت زعامته . على أن ڤولف لم يفسد فساداً تاماً ، بل ظل يحتفظ بحنين إلى الحياة الشريفة العادية ، وأخذ يرسل الطلبات والتوسلات عله أن ينال العفو ، ولكنه لا يناله . ويسقط ڤولف ذات يوم فى يد السلطات التى تنفذ فيه حكم الإعدام .

وموضوع هذه القصة ليس من نسج الخيال . فقد عرفت إمارة ڤرتمبرج رجلاً اسمه يوهان فريدريش شڤان (ولد عام ١٧٢٩) أعدم فى عام ١٧٦٠ لارتكابه جرائم السرقة والنهب . وكانت قصته معروفة فى المنطقة ، يعرفها أهل شتوتجارت وضواحيها خاصة ، ولا ينسونها ، فسمع شيللر بها صغيراً . ثم عاد الأستاذ آبل فى الأكاديمية فذكره بها ، وطلب منه أن يصوغها ففعل ، وكان الأستاذ آبل مهتمًا بالقصة اهتماماً خاصاً ، لأن أباه هو الذى قبض على المجرم . وظلت القصة فى وجدان شيللر حتى عالجها من جديد لمجلة « طاليا » . واتبع شيللر فى معالجة القصة منهجاً تاريخياً « تسجيلياً » ومنهجاً سيكولوجياً فى آن واحد . فنراه قد اعتمد على رواية المتصلين بالحادثة عن كثب ، واعتمد على المحاضر الرسمية ، ولكنه فى اعتماده هذا على المصادر يفسر ، وينزل إلى أعماق النفس ، ويحلل ، ويضع نصب عينيه هدفاً أخلاقياً . وشيللر يعرف القارىء من البداية أن بطل قصته سينتهى إلى الموت ، حتى ينصرف القارىء عن الاهتمام بالحدث لذاته ، ويركز على التطور ، وعلى التحليل النفسى ، وعلى الفكرة الأخلاقية التى يبشر بها وهى أن المجرمين ليسوا جميعاً من الأشرار الغارقين فى الشر غرقاً لا نجاة معه ، بل إن فيهم جماعة صفت نفوسهم ، ولم يدفعهم إلى الجريمة إلا ظرف قهرى لا حيلة لهم به . ويطالب شيللر القارىء بأن يعتبر هذا المجرم « إنساناً ، مثلنا تماماً » وضعته المقادير بتكوين نفسى لا يقبل التغيير ، فى وسط ظروف خارجية تقوم على التغيير . وعس شيللر فى قصته مشكلة هامة هى مشكلة السجن وهل يصلح المجرمين أو يفسدهم ، ويرى أن السجن بوسائله « الإجرامية » فى العقاب ، لا يربى ولا يصلح ، بل يحول المجرم الصغير إلى مجرم كبير ، المجرم الذى تورط فى الإجرام مصادفة ، إلى مجرم « محترف » تأكل الرغبة فى الانتقام صدره .

وخرج العدد الثالث من مجلة « طاليا » فى مايو من العام نفسه وكان يحتوى على قطعة أخرى من « دون كارلوس » ويحتوى على جزء من « الرسائل الفلسفية » التى أشرنا إليها عبارة عن أربع رسائل من بينها الرسالة المتضمنة « تيوزوفيا يوليوس »(١) (كلمة مركبة من الله + الحكمة) والتى نجد فيها شيللر يعتبر الكمال هدف الإنسان ويعتبر السعادة نتيجته ـ والسعادة تزيد وتعظم إذا جعلناها أكثر شمولاً ، وأشركنا الآخرين فيها ، وهذا السعى إلى إسعاد الآخرين هو الحب بأسمى معانيه . ويبدو أن شيللر لا يفرق بين الحب والصداقة . والمؤكد أنه يدخلهما فى سر العبقرية ، حين يجعل الشاعر العبقرى يحب ما هو بسبيل إبداعه ، حباً صوفياً ، يندمج فيه الحبيب والمحبوب . « إننى أعتقد اعتقاداً وثيقاً بأن الفنان والفيلسوف والشاعر هم بالفعل الشخصيات العظيمة الطيبة التى يرسمون صورها » .

ولم يكن ارتباط شيللر بتحرير « طاليا » يرضيه إلا بقدر ما يرهقه ، كان هذا الارتباط ينتقص من حريته التى يتوق إلى الاسترسال فيها إلى أقصاها . ولكنه كان يعرف كيف يصبر ويحتمل ، ويكب على العمل . وحدث أن سافر كورنر وهوبر إلى لايبتسج لقضاء أسبوعين فيها ، وتركا شيللر فى دريسدن يحرر طاليا ويؤلف «دون كارلوس» ، فحزن شيللر حزناً شديداً للعزلة التى تردى فيها ، وأخذ يصرخ صرخات الشوق إلى الأصدقاء ، وإلى كورنر بالذات الذى أصبح متعلقاً به على نحو غريب . ولعل شيللر تبين من خلال هذه الأزمة كيف أن السعادة التى ينعم بها ناقصة ، وكيف أن فرحته معلقة فى خيط واه ، ولعله بدأ يفكر فى طريق أخرى لحياته ، أو يعد لمرحلة قادمة .

وكان يتسلى بقراءة التاريخ ودراسته ويجد فى ذلك متعة يشهد عليها قوله : ليتنى أستطيع أن أفرغ لدراسة التاريخ عشر سنين متوالية .. إننى كلما درسته ازددت حباً له .

(١) Theosophie

وأخرج شيللر فى العدد الرابع من طاليا فى يناير ١٧٨٧ ، على اية حال ، جزءاً جديداً من « دون كارلوس » و« الحلقة الأولى » من قصة « الرجل الذى رأى العفاريت »[1] التى أراد شيللر أن ينشرها على أسلوب « الرواية المسلسلة » . ولسنا نجد من بين النقاد من يحفل كثيراً بهذه القصة التى رفعت توزيع المجلة بشكل ملحوظ وأثرت على جمهور القراء تأثيراً كبيراً . ولكنها مع ذلك تستحق أن نتوقف عندها لحظة ونتأملها لأن الناس فى أوروبا فى ذلك الوقت بالذات كانوا يهتمون اهتماماً غريباً بالسحر والشعوذة والعفاريت وتحضير الأرواح وما إلى ذلك من أعمال خارقة للمألوف ، وكان اهتمامهم هذا يرجع إلى البحوث التى خص بها العلماء القوة الكهربية والقوة المغناطيسية ، والتنويم المغنطيسى ، والتى أدت من ناحية إلى تقدم علمى ، ومن الناحية الأخرى إلى إلهاب الخيال والهيام فى عالم الخوارق ــ خاصة بعد فترات من القسوة العقلية وكبت الخيال والعاطفة كالفترة الكلاسيكية فى فرنسا . وتدور قصة شيللر حول تحضير روح رجل ميت تدخل فى مكائد ومؤامرات كاثوليكية تستهدف أميراً ألمانياً بروتستانتياً وتريد أن تحوله إلى الكاثوليكية . وأصدر شيللر من القصة حلقات أخرى فى الأعداد التالية من « طاليا » الأعداد من ٤ إلى ٨ (١٧٨٧ ــ ١٧٨٩) ــ وكانت الحلقة الأخيرة منها بعنوان « وداع » وتحمل تنبيهاً إلى أنها جزء من المجلد الثانى ، ولكن هذا المجلد الثانى لم يتم مطلقاً . والسبب هو أن شيللر نفر من روايته تدريجياً رغم إقبال القراء عليها ، وأصبح فى فترات من حياته لا يكتبها إلا لكسب المال ، وأصبح يتوق إلى أول فرصة يقطع ما بينه وبينها من صلة . وفى عام ١٧٨٩ ضم الأجزاء التى تمت وظهرت فى مجلة « طاليا » معاً فى مجلد واحد نشره باسم « الرجل الذى رأى العفاريت ــ المجلد الأول » ــ وأصم أذنيه عن الصيحات المطالبة بالمجلد الثانى .

ومهما يكن من أمر هذه القصة ، فإنها تبين لنا مجموعة من اهتمامات شيللر ، ليست بالتأكيد بين اهتماماته الأساسية ، ولكنها على أية حال استحوذت عليه فى وقت من الأوقات . القصة فيها شىء من « البوليسية » وفيها شىء من الخيال

(١) Der Gesichterseher

الخارق ، وفيها إلى جانب هذا وذاك العنصر السياسى والتاريخى والأخلاقى . أما الناحية التاريخية من القصة فهى المؤامرات التى كانت المنظمات اليسوعية الكاثوليكية تحيكها لمناهضة النفوذ البروتستانتى . ويرى بعض النقاد أن شخصية الأمير فى قصة شيللر تحمل كثيراً من ملامح الأمير أويجين (١٧٥٨ـ ١٨٢٢) ابن أخى الأمير كارل أويجين أمير ڤرتمبرج ، وكان ابن الأخ هذا بروتستانتى المذهب بينما كان العم كاثوليكياً . والطريف أن شيللر يصور نشاطاً غريباً للمنظمات اليسوعية التى تسلط العفاريت على الأمير البروتستانتى فتحدث فى تفكيره اضطراباً ، ثم توحى إليه أن علاجه فى اعتناق الكاثوليكية ـ وهى فى الوقت نفسه تعد لمؤامرة تهدف إلى قتل الأمير الحاكم حتى يخلفه هذا الأمير « المهتدى » ويثبت نفوذ الكاثوليكية فى الإمارة البروتستانتية . وليس من شك فى أن شيللر انتهز الفرصة ليصب نقده العنيف على هذا اللون من السياسة القائم على المؤامرات ، وعلى هذه الأخلاق التى لا تتورع عن ارتكاب الجرائم فى سبيل تأكيد سلطان مذهب لا يؤمن به شعب الإمارة .

ولا بأس بأن نشير فى هذا المقام إلى جانب آخر من شخصية شيللر كثيراً ما يغفله الكتاب مفضلين عليه الجوانب الجادة المتأملة المتعمقة العابسة . هذا الجانب هو الجانب المرح الهازل الضاحك الكوميدى . وليس هناك خطأ يمكن أن نتورط فيه أكبر من الذهاب إلى أن شيللر كان عبقرية لا تعرف إلا الجد ولا تهتم إلا بالمأساة . حقيقة أن التراجيديا تغلب على إنتاجه ، ولكن الناحية المازحة فى شخصيته حقيقة أخرى لا ينبغى اهمالها . كان يضحك من الآخرين ويضحك من نفسه ، وكان يضحك بالكلمة المكتوبة والكلمة الشفهية وبالرسم الكاريكاتيرى . وفى مخلفات شيللر صور كاريكاتيرية تمثل صديقه كورنر وقد أخذه النعاس وهو يقرأ بعض كتب كانط ، أو وهو مسافر أو على مفترق الطرق ـ كذلك هناك صورة كاريكاتيرية رسمها شيللر لكورنر بمناسبة عيد ميلاده الثلاثين ، تارة يركب عربة حنطور وتارة ينحنى أمام الحوذى ـ . كذلك وصلتنا قصيدة لطيفة كتبها شيللر فى منتصف اكتوبر ١٧٨٥ وقدمها إلى صديقه كورنر يشكو فيها من الغسالات اللاتى يحدثن من الضجيج ما يحول بينه وبين التأليف ، منها مثلاً :

« مخى احتار وثقل مثل الرصاص
وعلبة النشوق فارغة
ومعدتى خاوية
لعل السماء ترحم المأساة ! (يقصد مأساة دون كارلوس)

*

الغسيل يحدث صوتاً كالتصفيق أمام بابى
والشغالة فى المطبخ تحدث ضجيجاً مزعجاً ـ
أما أنا ـ فدابة الخيال المجنحة تنادينى
أن أركب فوقها وأطير إلى بلاط الملك فيليب .
فأركب الحصان شجاعاً
وما تمضى إلا ساعات قليلة
حتى أرى مدريد ـ وهناك عند قصر الملك
أربط الحصان ،

*

وأسرع خلال القاعة خطاى
يا للعجب ! ـ وأتسمع من مكمنى
إلى الأميرة الشابة ايبولى[1]
فى نشوة الحب الحلوة .

*

وبينما تصيح الأميرة الجميلة صيحة النصر ،
يأتى إلى سمعى ـ أعوذ بالله !
ماذا أسمع ؟ ـ أسمع جورباً مبتلاً
تلقى به غسالة فى الماء !

(١) Eboli

وضاع الحلم ، وضاع عالم الجنيات .
وانصرفت الأميرة ، آه ، رباه !
والشعر « يروح فى ستين داهية »
عندما تغسل الغسالات القمصان .

ويوقع شيللر القصيدة ويكتب تحت اسمه « شاعر البيت والمطبخ والكرار » ، ويكتب عبارة طريفة : « سلمت القصيدة (المذكرة !) فى مأوانا الأليم المسكين الذى لا يبعد عن المخازن » ـ وما إلى ذلك من التلميحات الطريفة .

ومن الأمثلة الجيدة على الإنتاج الفكاهى المكتوب ، الذى كان شيللر يدخل به الفرح على جماعة الأصدقاء نص مسرحى صغير اسمه « صباح كورنر » أو « كان الحلاق يحلق لى ذقنى » يصور الصديق كورنر مرتدياً معطف البيت ـ الروب دى شامبر والشبشب ـ البانتوفل ـ جالساً إلى مكتبه يستعد لجلسة المجلس القضائى الكنسى ، يستعد بحلاقة ذقنه ، وهناك خادمه جوتليب[1] يعد له الصابون . وفى هذه الأثناء يدخل عدد من الناس بين أصدقاء وأصحاب حاجات ويتحدثون مع كورنر فى أمور مختلفة حتى ينسى كورنر موعد الجلسة الهامة ، ولا يجد من اعتذار إلا قوله « كان الحلاق يحلق لى ذقنى » . وهناك حوار مسرحى طريف بين شيللر وكورنر ، يتصور شيللر فيه أنه ذهب إلى كورنر طالباً رسالة من الرسائل الفلسفية التى كانا يشتركان فيها باسم يوليوس ورفائيل :

كورنر : الرسالة التى كتبتها موجودة على مكتبى .

شيللر : (يبحث عنها فيجدها ويقرأ فيها) : « إن السعادة التى ننعم بها ، يا يوليوس مستمرة لا تنقطع ، قد تكون أكثر مما ينبغى لـ ... » (يسأل) وأين بقية الكلام ؟ .

كورنر : هذا هو كل ما عندى .

(١) Gottlieb

شيللر : رباه ، هأنذا أقع فى المقلب من جديد . (وهنا تدخل مينا التى تغلظ للصديق الشاعر) .

مينا : ها هو ذا يقف هنا ويعطل زوجى . ألا ترى أيها الصعلوك أن على زوجى أن يذهب إلى الجلسة ؟ .

شيللر: آه . آه . إنما أريد أن أقول ...

كورنر : (يحاول أن يهدىء زوجته الغاضبة) : لا تغضبى ياقطة ! فلست على عجل » .

وهكذا فقد كان شيللر يعرف كيف يسلى الأصدقاء ، وكيف يجعل وجوده بينهم مطلوباً ، مرغوباً ، تماماً كما كان يعرف كيف يسترسل فى الأحاديث الفلسفية السياسية الاخلاقية الجادة ، وكيف يندمج فى الإبداع الأدبى العظيم .

ولم تخل حياة شيللر فى دريسدن من الغرام . كان يعبر النهر فى خريف ١٧٨٥ بسفينة إلى منطقة اسمها بلازيفيتس(١) فيقضى شيئاً من الوقت فى بيت رجل اسمه زيجادين(٢) ، كانت له بنت اسمها يوستينه تعلق بها شيللر على عادته . كانت يوستينه(٣) بسيطة ساذجة تحب الفكاهة والعبث الخفيف ، وكان شيللر يحب فيها هاتين الخصلتين . ولسنا نعرف تفصيلات كافية عن هذه العلاقة ، اللهم إلا أنها ألهمته شيئاً من الشعر(٤) . وانقطعت الصلة بين الاثنين فجأة وتزوجت يوستينه فيما بعد موظفاً مرموقاً فى دريسدن . وتعرف شيللر على فتاة أخرى هام بها ، ولكن على نحو أشد عنفاً هى هنريته فون أرنيم(٥) .

(١) Blasewitz

(٢) Segadin

(٣) Justine

(٤) شخصية جوستل فون بلازيفيتس فى مسرحية فالنشتاين

(٥) Henriette von Arnim

وقد حكت مينا أن شيللر تعرف إلى هذه الفتاة فى أثناء حفل كرنفال مقنع ، أول عام ١٧٨٧ ، وقالت إن شيللر سمح لنفسه فى تلك الليلة بقسط من الحرية أثار انتقاد الآخرين ، وأنه كان يلازم بنتاً فى التاسعة عشر من عمرها ، فائقة الجمال ، ذات عينين ناريتين ، وشعر أسود ساحر ، كانت تلبس للكرنفال ثياب بنت من الغجر ، وتتسلى بتمثيل قراءة البخت . وكانت هذه البنت ، هنريته ، ابنة أسرة أصابها الفقر بعد الغنى ، لما مات الأب الذى كان ضابطاً ، وأصبحت تعيش مع أمها على ما بقى لديهما من مال . وقد سلبت البنت بحلاوتها اللعوب عقل شيللر حتى أنه نسى الآخرين والأخريات ، وأصبح لا يقضى أمسياته إلا معها ، ويغدق عليها من الهدايا ما أتلف ميزانيته ، واضطره إلى الاستدانة من المرابين .. فما كان شيللر حبيبها الوحيد ، بل واحداً من ثلاثة يجرون وراءها ، فى منافسة خطيرة ، خاصة وأن الآخرين كان أحدهما بارون والثانى صاحب بنك . ورأى الأصدقاء المحنة التى انحدر شيللر إليها ، وتصوروا الخطر الداهم الذى يوشك أن يبعده عن عمله ، ففعلوا ما استطاعوا ليردوه إلى العقل . واقترح كورنر على شيللر أن يترك المدينة ويبتعد عن مكان هذا الحب الذى لا يرجى من ورائه أمل . وبالفعل نجد شيللر يترك دريسدن فى ابريل ١٧٨٧ ويقيم فترة فى مدينة صغيرة قرب دريسدن هى « تارانت » يقرأ ويحلم ويتألم .. ويتم « دون كارلوس » . ثم ما يلبث أن يعود إلى دريسدن فى مايو ، ويعود إلحاح الأصدقاء عليه أن يعكف على عمله ، وأن يتابع رسالته ، وأن ينصت إلى نداء العبقرية فى ضميره . واجتمعت عوامل كثيرة على شيللر ، فردته إلى صوابه ، وجعلته يتحول من حب مجنون ، إلى صداقة متزنة : « لا أستطيع أن أمنحك أكثر من صداقة مخلصة » تلك هى العبارة التى حسم بها شيللر أمر علاقته بهنريته فون أرنيم . وكما كانت نهاية علاقته بشارلوته فون كالب مرتبطة بنهاية اقامته فى مانهايم ، كذلك كانت نهاية علاقته بهنريته فون أرنيم مؤذنة بنهاية اقامته فى دريسدن . فقد بدأ يقوى علاقته القديمة بأديب لامع كبير النفوذ فى ڤايمار هو الأديب ڤيلاند ، وأخذ يفكر جدياً فى الانتقال إلى الإمارة التى كرمه أميرها بلقب مستشار . فلما تلقى شيللر فى ٢١ ابريل دعوة من السيدة فون كالب لزيارة ڤايمار ، قرر تلبيتها على الفور .

وإذا كان شيللر قد ترك مانهايم ، إذ تركها ، كارهاً لها فلم تنقطع علاقته بها انقطاعاً تاماً . كانت الخطابات تربطه بعدد من الأصدقاء هناك . منهم مثلاً الناشر شفان . وقد حضر الناشر شفان فى ربيع عام ١٧٨٦ إلى لايبتسج للاشتراك فى سوقها السنوية على عادته ، وأحضر معه ابنتيه ، وذهب بهما إلى دريسدن لزيارة شيللر ، وبقى الثلاثة هناك فترة ليست بالقصيرة حيث تعرفوا بأصدقاء شيللر الجدد . ولسنا نعرف هل كانت هذه الزيارة مجرد مصادفة ، أما كانت محاولة من السيد شفان لإحياء ذكرى حب شيللر لابنته مارجريته ، وذكرى طلبه يدها ؟ ولكننا نكاد نعلم أن شيللر لم يكن فى ذلك الوقت بالذات يفكر فى الزواج ، ولا بد أن شفان أحس بهذا فلم يفاتحه فى شيء من ذلك .

كذلك ظل شيللر على علاقة طيبة بالممثل بيك [١] الذى كان يعرفه منذ أيام العمل معاً فى مانهايم . وقد أوصى بيك فى أكتوبر ١٧٨٦ واحداً من كبار مديرى المسارح الألمانية هو فريدريش لودفيج شرودر [٢] ، بشيللر وبمسرحيته الجديدة « دون كارلوس » التى لم تكن قد تمت بعد . كان شرودر يعمل حتى وقت قريب فى مسرح فيينا حيث حقق شهرة كبيرة ، ثم انتقل إلى هامبورج . وما إن علم بمسرحية « دون كارلوس » حتى اهتم بها اهتماماً خاصاً ، وكاتب شيللر بشأنها . وكان شرودر فى خطاباته يندفع إلى أقصى درجات الحماس يقول مثلاً : « ليس هناك شيء اتمناه بقدر ما أتمنى أن ينشأ بينى وبينك رباط وثيق ــ فأنت الوحيد الذى يستطيع أن يحقق أفكارى » . أو يقول : « هل أنت خال من الارتباطات ؟ هل يمكنك أن تترك دريسدن وتأتى إلى هامبورج ؟ وما هى شروطك ؟ » ــ حقيقة إن دعوة شرودر لم تلق الاستجابة المرجوة لدى شيللر ، ولكنها كانت على اية حال تعبيراً عن تقدير كبير ، من نوع غير عادى لأنه تقدير رجل له وزنه فى عالم المسرح .

أتم شيللر « دون كارلوس » فى أبريل ١٧٨٧ وقرأ الجزء الختامى منها على

(١) Beck

(٢) Friedrich Ludwig Schröder

أصدقائه فى دريسدن فى يونية ١٧٨٧ ، ودفع بها إلى جوشن ليطبعها بسرعة ، وبهذا وصل شيللر بهذه المسرحية إلى غايته ، بعد أن حملها فى وجدانه ، وفى مخطوطاته مدة طويلة من الزمن انتقل فيها من باورباخ إلى مانهايم إلى لايبتسج إلى دريسدن إلى تارانت ، وتأثر فى غضونها بمؤثرات فكرية كثيرة أهمها توجيهات دالبرج وتوجيهات كورنر ، وعاطفية أهمها علاقته الغرامية بشارلوته فون كالب وهنريته فون أرنيم وصداقته لكورنر وهوبر ومينا ودورا ، وتحول من شاب عنيف لا يؤمن بشيء قدر ايمانه بالعبقرية ، إلى رجل يسعى إلى الكمال ، وأديب يريد أن يتخلص من « العاصفة » ويبلغ الكلاسيكية . كان شيللر قبل خمس سنوات يتصور « دون كارلوس » مسرحية بورجوازية فى بلاط الأمراء وكانت النهاية التى انتهى إليها هى « المأساة الرفيعة » بما تتسم به من عظمة إنسانية ، وأشخاص مختارة ، وصراع من مستوى خاص ، وهى مسرحية الفكرة التى يعتبر شيللر أعظم ممثل لها فى الأدب الألمانى .

تدور أحداث مسرحية « دون كارلوس » ــ مسرحية شعرية [1] طويلة فى خمسة فصول ــ فى أسبانيا فى منتصف القرن السادس عشر ، فى بلاط الملك فيليب الثانى . القسيس دومينجو [2] الذى يعمل فى بلاط الملك فيليب الثانى [3] كاهناً للاعتراف ، يلاحظ أن ولى العهد دون كارلوس غارق فى الحزن منذ شهور ولا يعرف لهذا الحزن سبباً . ويلتقى دون كارلوس بصديقه المركيز فون پوزا [4] بعد عودة هذا من رحلة طويلة فى أوروبا ، ويفتح له قلبه ويحكى له عن محنته : أنه يحب الملكة اليزابت [5] زوجة أبيه ، والتى كانت قبل أن يتزوجها الأب خطيبته . كان المركيز فون پوزا يرجو أن يرى كارلوس على صورة أخرى غير صورة الحبيب

(١) Don Carlos, Infant von Spanien

هناك أيضاً صياغة نثرية مختلفة ويعتمد عرضنا على النص النهائى لعام ١٨٠٥ .

(٢) Domingo

(٣) Philipp II.

(٤) Marquis von Posa

(٥) Elisabeth von Valois

المعذب ، فقد كان يعرف أنه شاب يتعلق بالمثاليات وينظر بالعطف إلى مطالبة الأقاليم الهولندية الخاضعة للحكم الأسبانى بحياة أفضل . وتدفع الصداقة الماركيز بوزا إلى أن يرتب مقابلة بين دون كارلوس والملكة اليزابت . وتتم هذه المقابلة فى القصر الصيفى بأرانخويث [1] ، ويصارح كارلوس الملكة بما يجيش فى قلبه نحوها ، ولكنها لا تتأثر تأثراً كبيراً بالعبارات النارية التى يلقيها الشاب على مسامعها . وتحاول الملكة أن توجهه إلى ما هو أعظم من الحب ، إلى واجبه كولى عهد اسبانيا . وفى هذه الأثناء يظهر الملك ، ويجد الملكة وحدها لا ترافقها حاشيتها وهو شيء لا تسمح به تقاليد البلاط ، ويحمل المركيزة مونديكار [2] المسئولية ويطردها من الحاشية . وهكذا تجتمع لنا بعض عناصر صورة الملك فيليب الثانى : إنه رجل متعلق بالسلطة ، مغرم بالسيطرة ، وهو لا يستطيع أن يفهم زوجته اليزابت كإنسانة لها قلب وإحساس ، وسرعان ما يتسرب الشك إلى نفسه ويحس بأن تصرف ولى العهد نحو زوجته اليزابت ، ونحوه ينضوى على شيء ما . ويظهر كلف فيليب بالسلطة والتسلط والعنف فى مواجهته ثورة هولندا ، وكانت هولندا تتبع التاج الاسبانى ، وكانت الثورة دينية بروتستانتية اجتماعية سياسية فكرية فى وقت واحد . وهذا فيليب يقرر أن تخمد الثورة بالحديد والنار ، وأن تسيل الدماء بلا شفقة أو رحمة . ويتبادل دون كارلوس والماركيز بوزا الرأى فى هذه المحنة ، ويتفق عزمهما على الوقوف فى وجه العنف والظلم ، وعلى الاخلاص أحدهما للآخر فى سبيل المبدأ . ويلتقى دون كارلوس بوالده الملك فيليب فى القصر بمدريد ، ويحاول أن يصفى ما بينه وبين أبيه وأن يحل الوفاق محل الصدام ، ويصوغ هذه المحاولة على هيئة طلب يتقدم به إلى الملك هو أن يكون هو قائد الجيش المزمع إرساله إلى هولندا . ويرفض الملك ويصمم على أن يقود الجيش الأمير ألبا [3] ولا أحد غيره ، ويوحى إلى ابنه بأنه يعتبره صغيراً غريراً ، وبأنه يظن أنه إنما يريد أن يقود الجيش لكى ينفذ فى أبيه مؤامرة

(١) Aranjuez

(٢) Marquise von Mondekar

(٣) Herzog von Alba

دنيئة تهدف إلى اغتياله والجلوس على عرشه . ولم تؤد هذه المصارحة إلى هدم العلاقة بين الابن والأب ، بل إن الأب ارتاح نفساً ، واعتقد أنه أثر على ابنه ، وأن ابنه بيتحسن حالاً بمضى الوقت ويتطور فى الاتجاه الذى يرجوه له . وفى هذه الأثناء تنهمك الأميرة ايبولى [1] فى تنفيذ مكيدة تصل بها إلى أغراضها ، وتستأثر بالأمير دون كارلوس الذى تحبه ، فهى تبعث إليه برسالة خالية من التوقيع تدعوه إلى لقاء . ويظن كارلوس أن الرسالة من الملكة اليزابت ، ففرح لهذا التحول المفاجىء الذى لا يمكن إلا أن يأتيه بالسعادة . ثم تكون المفاجأة النكراء . وتمتلىء نفس دون كارلوس بالغضب ويعلن الأميرة ايبولى أنه لا يحبها ، ويفهمها أنه يهيم بزوجة أبيه . وتصمم ايبولى على الانتقام . وتقرر أن تستجيب لمحاولات الملك فيليب لكسب ودها ، وأن تستغل العلاقة التى تنشأ بينهما فى تنفيذ مخططها الانتقامى ، وتستعين فى ذلك بأصدقاء لها مثل الأمير إلبا والقسيس دومينجو . ثم هى لا تخفى مخططها هذا على كارلوس . ولكن كارلوس لا يعبأ بها ولا يتصور الخطر المحدق . أما صديقه الماركيز پوزا فأبعد منه نظراً ، وأقدر منه على توقع النتائج التى يمكن أن تصل إليها الأميرة الشريرة . وتنجح ايبولى فى إثارة شكوك الملك ، وحمله على الاعتقاد بأن اليزابت تخونه مع كارلوس ، ويقرر الملك أن ينتقم من الاثنين انتقاماً رهيباً . ولكنه يريد أن يتحقق من الأمر وأن يوقن منه أولاً ، ويبحث عن شخص يمكنه أن يأتى بالحقيقة الخالصة . ويعتقد الملك أن المركيز بوزا هو هذا الرجل . ويطلبه إليه ، ويتحدث معه . ولكن المركيز پوزا يعلن للملك صراحة أنه لا يمكن أن يكون خادماً للملوك ، ويستطرد فى الحماس فيصف للملك الحالة السيئة التى وصل الناس إليها ، والمستقبل المظلم الذى سيأتى لا محالة ، ويطلب إلى الملك أن يتخلى عن الألوهية وأن يتبنى أفكار الحرية والإنسانية وأن يتقدم الملوك فى أوروبا رائداً . وليس من شك فى أن كلمات المركيز قد أثرت فى قلبه ، ولكن هيهات أن يكون هذا التأثير عميقاً . إن فيليب لا يعرف رداً يواجه به المركيز إلا التهديد بمحاكم التفتيش . ولا ينصرف فى الوقت نفسه عن عزمه الأول ، وهو استخدام الماركيز

(١) Prinzessin von Eboli

على نحو أو آخر ، لكشف خبايا الملكة وولى العهد . ولهذا يقدمه فى البلاط إلى الصف الأول . وينتهز الماركيز بوزا هذا الوضع الممتاز ليحقق آمالاً ظلت حبيسة فى ضميره ، إنه يفكر فى إرسال كارلوس سراً إلى بروكسل ليحدث انقلاباً يمكنه من الوصول إلى عرش اسبانيا عنوة ، ومن تطبيق سياسة إنسانية تجاه الولايات التابعة لأسبانيا . ويسر بوزا بنيته هذه إلى الملكة فتوافق عليها وتدعمها . ويهيىء بوزا الجو ، فيقدم إلى الملك فيليب من المستندات مايقنعه بأن العلاقة بين كارلوس واليزابت بريئة ، ويحمله على الاعتقاد بأنه ظلم الملكة وظلم ابنه ظلماً عظيماً حين صدق الشائعات التى بلغته فى حقهما . ولا يكتفى بوزا بفضح دسيسة الأميرة إيبولى ومعاونيها إلبا ودومينجو ، بل يتقدم فى خطته إلى ما هو أبعد من هذا . إنه يحصل من الملك على أمر باعتقال كارلوس ، حتى يتمكن بهذه الطريقة من إرساله إلى بروكسل دون أن تحوطه الشبهات . ويبالغ الماركيز بوزا فى الحيطة فيخفى خطته على كارلوس نفسه . ولكن هذه الحيطة على مافيها من عوامل النجاح ، تحمل فى طياتها الكارثة . فقد بدأ كارلوس يشك فى نوايا صديقه . وماجاءه الجراف ليرما [1] يحذره من خيانة الماركيز بوزا ، حتى صدقه . ويقرر أن يغير سياسته وأن يميل إلى جانب الأميرة إيبولى . ويفاجىء الماركيز بوزا صديقه كارلوس عند الأميرة إيبولى ، يقدم إليها دليلاً جديداً على حبه للملكة . ويعتقله على الفور تنفيذاً للأمر الذى كان قد حصل عليه من الملك . ويحتار الماركيز فى أمره وقد وصل إلى هذا الحد : هذا هو صديقه كارلوس أصبح يشك فيه ، وهذا هو يقدم دليلاً على حب خطير العواقب اجتهد فى إنكاره ونجح فى تغيير فكر الملك عنه . ولا يجد الماركيز مخرجاً إلا أن يقتل الأميرة إيبولى أو ينتحر ، ويختار الحل الثانى . ولكنه قبل أن ينتحر يودع الملكة ويؤكد لها حبه الخالص لكارلوس ويرجوها أن تبلغ كارلوس وصيته وهى أن يحقق حلمه فى إنشاء الدولة الحديثة القائمة على الحرية والعدالة ، ثم يكتب رسالة إلى ڤيلهلم فون أورانيين [2] فى هولندا يخبره فيها أنه هو الذى وقع فى حب الملكة ، ولقد فعل ذلك لأنه يعلم

(١) Graf von Lerma

(٢) Wilhelm von Oranien

أن الرسائل الصادرة من البلاط إلى هولندا تمر على الملك فيليب . ويصل الخطاب بالفعل إلى الملك فيظن أنه كشف سر الآثم وعرفه ويقرر الإفراج عن دون كارلوس حالاً وإعدام الماركيز بوزا . ويتمكن الماركيز قبل أن يموت من إظهار دون كارلوس على الخطة التى فشلت . ويبكى دون كارلوس بجوار جثة بوزا الصديق المخلص ، والبطل الذى ضحى بنفسه من أجل الآخرين ومن أجل تحقيق أهداف كبرى ، ويتهم كارلوس الملك فيليب بأنه قاتل بوزا ـ . وتندلع ثورة فى مدريد نتيجة لانتشار خبر اعتقال دون كارلوس ، وتطالب بالإفراج عنه فوراً ، ولكن دون كارلوس يظل إلى جانب جثة الصديق لا يبارحها . حتى تطلبه الملكة لتبلغه وصية بوزا . ويضع خطة ترمى إلى أن يأتى إليها متنكراً فى مسوح الرهبان ، ثم يهرب متنكراً إلى هولندا على النحو الذى أعده بوزا قبل موته . وتتطور الأحداث فى اتجاه آخر ، فقد اكتشف الأمير إلبا خيوط هذه المؤامرة المتصلة بشبكة واسعة فى هولندا تمارس نشاطها لفصل هولندا عن التاج الأسبانى ، وأبلغ الملك بما توصل إليه . فما يكون من الملك إلا أن يستدعى الكاردينال رئيس محاكم التفتيش ويبلغه بالقصة من أولها إلى آخرها ، فيلومه الكاردينال على ثقته فى شخص ملحد مثل الماركيز بوزا ، ويطالبه بأن يضع نفسه فى خدمة الكنيسة الكاثوليكية . ويوافق فيليب على تسليم ابنه دون كارلوس إلى محاكم التفتيش . وبينما دون كارلوس يتلقى من فم الملكة وصية الصديق الشهيد ويعلن أنه سيذهب إلى هولندا ليقود الانقلاب ضد أبيه ولينصر الشعب المظلوم ويعينه على الحصول على حريته ، يدخل الملك ومعه الكاردينال رئيس محاكم التفتيش وتموت اليزابث من هول المفاجأة ، ويتولى الكاردينال الباقى .

وتحتل مسرحية دون كارلوس مكاناً هاماً فى الأدب الألمانى ، والأدب الشيللرى والأدب العالمى . فهى من ناحية واحدة من أضخم التراجيديات الألمانية (٥٣٧٠ بيتاً من الشعر) وهى من ناحية ثانية تجسيم للمثل الأعلى السياسى . وهى المسرحية التى ختم بها شيللر إنتاج فترة الشباب ووقف بها على عتبة الكلاسيكية ، وظل يشتغل بها حتى وفاته ويعدل فى اسلوبها من نثر إلى شعر ، فلا عجب أن تلهم المسرحية الأدباء والساسة والمفكرين والفنانين ، ونذكر مثلاً اهتمام الموسيقار فردى بها وتحويله اياها إلى أوبرا .

وعرضت المسرحية لأول مرة على مسرح هامبورج فى ٣٠ أغسطس ١٧٨٧ ونجحت نجاحاً كبيراً وإن صادفنا من بين النقاد من وجد تفاوتاً فى الأحداث والشخصيات . كذلك عرضت المسرحية فى العام نفسه على مسرح لايبتسج بعد أن جعلها شيللر كلها منثورة لأن ممثلى الفرقة لم تكن لهم دربة على إلقاء الشعر . وتبعت هذين العرضين عروض كثيرة ناجحة فى دريسدن ومانهايم وريجا ..

الباب التاسع

فايمـــــار

لا يمكن أن نعرف على وجه التحديد متى بدأ شيللر يفكر فى ڤايمار وفى الانتقال للحياة فيها ، ولكننا نعرف أنه تعرف بالمراسلة على الأديب كريستوف مارتين ڤيلاند ، الذى كان يحتل مكاناً هاماً فى هذا البلاط منذ قيامه بالإشراف على تربية الأمير ثـم بتوجيه الحياة الثقافية بعد ذلك وكانت الفرصة التى مهدت لهذا التعرف هى مسرحية « قطاع الطرق » . ثـم اقترب شيللر من ڤايمار عن طريق شارلوته فون كالب ، وتعرف بأميرها الواعى كارل أوْجوست عند زيارة هذا لبلاط دارمشتات ، وقرأ عليه الفصل الأول من مسرحية « دون كارلوس » وتبين أن هذا الأمير هو الأمير الوحيد الذى يشرفه أن يكون تحت ولايته ، إن فكر مرة فى أن يسمح لأمير بأن تكون له عليه ولاية ما . وكانت شارلوته فون كالب على علاقة مستمرة ببلاط ڤايمار وبالشاعر شيللر بعد مغادرته مانهايم وإقامته ضيفاً على كورنر وصحبه . وكثيراً ما كتبت إلى شيللر تدعوه إلى قضاء أيام معها فى ضيعتها ، وتدعوه إلى ڤايمار .. ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد لتنفيذ شىء من هذه اللقاءات . وخطا شيللر نحو ڤايمار خطوة أخرى عندما زاره الناشر شڤان فى دريسدن بصحبة ابنتيه بعد إشتراكه فى سوق لايبتسيج ، فقد سلمه شيللر خطاباً إلى ڤيلاند ، أراد به أن تتجدد العلاقات القديمة ، واعتمد على أن شڤان سيجد

كلمات مناسبة يقولها لفيلاند عنه عندما يقدم الخطاب . على أن السيدة شارلوته فون كالب هى التى رتبت لزيارة شيللر إلى ڤايمار وانتظرته هناك .

ڤايمار ؟ كانت ڤايمار ــ وتبعد عن دريسدن غرباً مسافة أكبر قليلاً من المسافة بين دريسدن ولايبتسج ، وبين ڤايمار وباورباخ جنوباً مسافة تساوى تقريباً المسافة بين ڤايمار ولايبتسج ــ فى منتصف القرن الثامن عشر مدينة صغيرة ذات أسوار حصينة ، أقرب إلى القرية منها إلى المدينة ، يعيش فيها نحو ٦٠٠٠ نسمة ، وتعتبر حاضرة لإمارة تَعُدُّ وإمارة إيزناخ (١) معاً حوالى ٩٠٠٠٠ نسمة ، وقد وصفها الأديب الشهير هردر قائلاً : « إنها وسط مسكين بين مدينة ذات بلاط وقرية » . وكان أهلها فقراء يحترفون الزراعة والتعدين والحرف البسيطة ، ولا يربحون من أعمالهم إلا القليل . وكانت تدير دفة الحكم فيها الأميرة الأم أنّا أماليا بوصفها وصية على ابنها ، حتى بلغ هذا الابن ــ كارل أوجوست ــ سن الرشد (١٨ سنة) فى عام ١٧٧٥ ، فتولى الأمر بنفسه ، وكانت قد زوجته من الأمير لويزة فون هسن دارمشتات التى ظلت على هامش الحياة فى الإمارة لم تسعد مع زوجها سعادة حقيقية ، وإن ظلت صامتة صابرة . وشاءت المصادفات السعيدة أن تختار الأميرة الأم لتربية ابنها الأديب المعروف ڤيلاند (٢) فاصطبغ البلاط بصبغة ثقافية زادت مع الأيام شهرة . كذلك شاءت المصادفات أن يربط رباط التعارف والصداقة بين الأمير كارل أوجوست والأديب الشاعر يوهان ڤولفجنج جوته وأن يقبل جوته الدعوة ويذهب إلى ڤايمار فى عام ١٧٧٥ ويبقى هناك طوال حياته بين الوزارة والأدب ، فيضيف إلى شهرة ڤايمار الصاعدة المزيد . وما يلبث جوته أن يجتذب إلى فايمار صديقه القديم يوهان جوتفريد هردر (٣) ليعمل واعظاً للبلاط ومشرفاً على الشئون الدينية بالإمارة . وهكذا اجتمع العمالقة فى ڤايمار ، وأصبح البلاط مركزاً لنشاط فكرى لا ينافسه نشاط آخر فى إمارة أخرى . وعاش جوته سنوات مليئة بالخبرات من

(١) Eisenach

(٢) Christoph Martin Wieland

(٣) Johann Gottfried Herder

كل نوع ، حتى تبين أن الوزارة تلتهم وقته وجهوده ، وأن الأدب يدعوه أن يخلص له وأن يخلق فيه كل باق ثمين ، فركب العربة فى يوم ٣ سبتمبر ١٧٨٦ وهاجر إلى إيطاليا ليعيش فى أحضان الثقافة القديمة الخالدة ، وليدخل فى المرحلة الكلاسيكية العظيمة من حياته الأدبية ..

وهكذا يشاء القدر أن تكون الأعوام ١٧٨٦ و ١٧٨٧ و ١٧٨٨ أعوام الإعداد للنضج الكلاسيكى بالنسبة لجوته وشيللر فى وقت واحد تقريباً . ولكن شيللر لا يمكن أن يلتقى الآن بجوته فى ڤايمار ، لأنه لا يزال فى إيطاليا ، فى أرض الثقافات القديمة ، أرض « العظمة الساكنة والبساطة الرفيعة » وربما كان الخير فى أن يتأخر لقاء الأديبين القطبين حتى تتبلور بينهما نقط التقارب والتفاهم ويصبح التبادل الفكرى فعالاً بتأثره وتأثيره .

كانت شارلوته فون كالب فى ڤايمار ، تعالج عينيها عند طبيب مشهور هناك اسمه هوفلاند ، وليس من المستبعد أنها كانت لا تطيق البقاء مع زوجها طويلاً ، بعد أن تأججت نيران حب عنيف مجنون ربطها بشيللر وكانت تفكر فى الطلاق والزواج من شيللر . كانت شارلوته فون كالب هى السبب المباشر لرحلة شيللر إلى ڤايمار . والتقى بها شيللر مساء يوم وصوله ٢٢ يوليه ١٧٨٧ ، فما أن رأته حتى تملكها تأثر خارق للمألوف جعلها تبدو كالمشلولة . يقول شيللر عن هذا اللقاء الأول : « كان لقاؤنا الأول يتسم بكثير من الانقباض والذهول ، حتى ليستحيل على أن أصوره لكم ... والغريب أننى فى الساعة الأولى للقائنا لم أكن أشعر بأننى افترقت عنها إلا بالأمس فقط . كان كل شىء فيها يلوح أليفاً إلى نفسى ، فاتصل كل خيط من خيوط علاقتنا بسرعة » . وظل شيللر على علاقة دائمة بشارلوته ، التى علمته كيف يتصرف مع رجال ونساء البلاط ،وفتحت له الطريق إلى هذا البلاط . وإن الإنسان ليدهش عندما يقرا ما قاله شيللر عنها فيما بعد : « .. إنها إنسان ذكى كريم ـ ولكن أثرها على لم يكن أثراً طيباً » .. لا شك أن فى هذا الحكم قدراً كبيراً من نكران الجميل ، لا يمنعنا من الحديث عنه تقديرنا لشيللر وحبنا له . والمؤكد أنها فاتحت شيللر برغبتها فى أن يتزوجا ، بعد أن تحصل على الطلاق من زوجها الذى انفصلت عنه ، ولكن شيللر كان قد تحول إلى إنسان

آخر ، إنه لا يريد أن يتردى فى هاوية الحب العنيف وإن ظل يجد فيها موضوعاً للدراسة . إنه يكتب إلى صديقه كورنر عنها : « إن لها روحاً عظيمة فيها أنوثة غريبة ، وإنها بالنسبة إلى موضوع دراسة حقيقى ، يتعب فيها عقلى ، ويتعب فيها عقل من يفوقنى ذكاء وفهماً » :

وعلم شيللر فور وصوله أن الأميركارل أوجوست قد سافر منذ ساعات ، وأنه لن يعود قريباً ، وكذلك علم أن الأميرة لويزة غائبة هى الأخرى فأحس بالخيبة ، خاصة وأن أخباراً وصلته بأن الاميرة الشابة تكن لأعماله من الإعجاب الشيء الكثير .

وتضاعف شعور شيللر بالخيبة حيال فايمار ذاتها ، فلم يكن يتصورها على هذا القدر من « القروية » والتجرد من كل ما يحفز البصر والقلب . ولكنه بدأ يتصل بأهل الفكر ويجد فى اتصاله بهم قوة يمكن أن تصلح نواحى النقص والضعف فى شخصيته وإنتاجه الأدبى . وفى اليوم التالى لوصوله ٢٣ يولية ذهب لزيارة ڤيلاند ، وفى يوم ٢٤ لزيارة هردر ، ثم قابل الأميرة الأم أنا إماليا .

أما اللقاء مع ڤيلاند فقد كان مفيداً طريفاً فى وقت واحد . نبه ڤيلاند شيللر إلى أشياء يفتقر إليها ما كتب من أدب تمثيلى ، وهى « الذوق » و« الرقة » .. وإن كنا اليوم أبعد ما نكون عن الموافقة على نقد ڤيلاند ، فإننا ننظر بالرضا على أية حال إلى صنوف التوجيه المختلفة التى كان شيللر يتعرض لها والتى كانت تفتح عينيه على آفاق كثيرة . فلما قرأ شيللر على ڤيلاند شيئاً من دراساته التاريخية التى اندفع إليها فى أثناء كتابة « دون كارلوس » ، قام ڤيلاند فى نوبة من الحماس الشديد ، وعانقه ، وكان لهذا التشجيع أثره الهائل على مستقبل شيللر ، خاصة وأن ڤيلاند أتبع التشجيع اللفظى والعاطفى بتوصية شيللر بالذهاب إلى يينا [1] زيارة زوج ابنته الأستاذ راينهولد [2] ، والاحتكاك بالجامعة التى لن يلبث شيللر أن ينضم إليها . ودار الحديث بين ڤيلاند وشيللر حول مجلة ڤيلاند المسماة « دويتشه

(١) Jena

(٢) Karl Leonhard Reinhold

ميركور »[1] وامكانية اشتراك شيللر فى تحريرها . والشواهد التى وصلتنا من هذه الفترة ، وعن الاتصال بين ڤيلاند وشيللر ، توحى أن ڤيلاند كان فى اهتمامه بشيللر يرجو أن يجد « عريساً » مناسباً لواحدة من بناته الكثيرات ، وأن شيللر أحس بذلك وعرف كيف يتصرف بحيث يرضى الرجل من ناحية ، وينجو بنفسه من التورط من ناحية ثانية . فى أواخر أكتوبر كتب إلى هوبر يقول : « إننى الآن كواحد من أبناء الأسرة ... أقابل ڤيلاند كل يوم ، وأعيش معه ، وأعرف منه كل شيء » .

أما اللقاء مع هردر فكان من نوع آخر . كان هردر رجلاً هادئاً ، لم يخف على شيللر أنه لا يعرف من أعماله شيئاً ، وإن رحب بالاشتراك فى الاستماع إلى مسرحية « دون كارلوس » . وتحدث الاثنان عن الأمير كارل أوجين ، وكان هردر يعرفه ، ويكرهه ، فتلاقى الاثنان على إحساس صادق واحد . وتحدث هردر عن جوته ، فأحس شيللر كأنه يسمع كلاماً عن شخص فوق مستوى البشر ، وما لبث شيللر أن أحس أن جوته ملأ البلاط الڤايمارى بمذهبه الفنى القائم على حب الطبيعة وتقديسها وتركيز الحواس والأحاسيس عليها ، وأحس بالتالى بأنه سيكون غريباً بين هؤلاء الناس ، بعد أن اتخذ من التأمل الفلسفى والتفكير مذهباً . ولا شك أن الحديث بين هردر وشيللر دار حول الكتاب العظيم الذى كان هردر عاكفاً على تأليفه : « أفكار فى فلسفة تاريخ الإنسانية » . وكان انطباع شيللر عن هردر هو أنه : « خلاب للب وخطير فى وقت معاً » .

كان هذان اللقاءان وكثير غيرهما مبعث ثقة تأكدت فى نفس شيللر . إنه يكتب إلى كورنر قائلاً : « لا أعرف كيف بلغت هذه الثقة فى نفسى ، وهذه اللباقة التى أتبعها هنا مطمئناً . وشارلوته تؤكد لى أننى أستطيع أن أظهر فى كل مكان هنا بطريقتى فى التصرف دون أن أرهب شيئاً . والحقيقة إننى لم أحس بالفشل حتى الآن فى أى موقف من المواقف التى وقفتها . وفكرة شارلوته عنى تمنحنى الثقة فى نفسى ، وكذلك اتصالى الوثيق بعمالقة ڤايمار ــ وهذا شيء أعترف لك به ــ جعلنى أحسن رأيى فى نفسى » .

(١) Deutscher Menkun .

ومهدت شارلوته لزيارة شيللر لـلأميرة الأم أنا أماليا (ابنة أخ فريدريش الأكبر) فى قصر « تيفورت » [1] ، وحضر الزيارة ڤيلاند . وخرج شيللر من هذه المقابلة الأولى بإحساس مختلط ، يضطرب بين الإعجاب ، والنقد . وما لبث الإعجاب أن تغلب ، وعرف شيللر كيف يقدر هذه المرأة العظيمة ، التى قدرت قيمته على الفور ، وضمته إلى الصحبة التى تأتى إلى ما يقام فى القصر من حفلات وموائد . وأتاحت هذه الدعوات لشيللر فرصة التعرف على عدد كبير من رجال ونساء الطبقة الراقية فى ڤايمار . تعرف على السيدة شارلوته فون شتاين التى خلقت جوته خلقاً جديداً ، وعلى اختها السيدة أماليا فون إيمهوف [2] التى عاونته على الحصول على سكن لائق ، وعلى الممثلة الحساسة كورونا شروتر [3] التى كان العمر قد تقدم بها ، وزادت فى الخبرة وأفادت شيللر فنياً فائدة كبيرة . كذلك اتصل بفريدريش هيلدبيراند فون أينزيدل [4] وبالرائد كارل لودڤيج فون كنيبل [5] مربى الأمير قسطنطين ، والوزير كرستيان جوتلوب [6] ، والأديب فريدريش يوستين برتوخ [7] مترجم « دون كيخوته » ، ويوهان يواخيم كريستوف بوده [8] مترجم العديد من المؤلفات الكلاسيكية ، والأديب فريدريش ڤيلهلم جوتر [9] مؤلف « الرجل الأسود » والطبيب هوفيلاند [10] وكانت هذه العلاقات ترقى بشيللر سلم المجتمع الڤايمارى درجة درجة .

(١) Tiefurt

(٢) Amalie von Imhoff

(٣) Corona Schröter

(٤) Friedrich Hildebrand von Einsiedel

(٥) Karl Ludwig von Knebel

(٦) Christian Gottlob Voigt

(٧) Friedrich Justin Bertuch

(٨) Johann Joachim Bode

(٩) Friedrich Wilhelm Gotter

(١٠) Christoph Wilhelm Hufeland

إنه يكتب إلى أصدقائه فى دريسدن عن لقاء مع الرائد فون كنيبل بحديقة جوته : «كنت فى هذه الأيام كذلك فى حديقة جوته ، مع الرائد فون كنيبل ، صديق جوته الحميم . لقد شكل عقل جوته جميع الناس الذين يدخلون فى دائرته . فهم يحتقرون على نحو فلسفى متكبر التأمل كل التأمل ، ويخصون الطبيعة باهتمام يصل إلى الحب والإستسلام للحواس الخمس .. إن نوعاً من السذاجة الصبيانية للعقل يميز جوته وحزبه هنا كله . إنهم يفضلون البحث عن الأعشاب ودراسة الصخور المعدنية على التورط فى إثباتات وبراهين فارغة . وربما كانت الفكرة صحيحة جداً ومفيدة جداً ، ولكن المبالغة ممكنة أيضاً . » ... وفى يوم ٢٨ أغسطس احتفل أصحاب جوته بعيد ميلاده وهو غائب فى إيطاليا واشترك شيللر فى الحفل : « لقد التهمنا الطعام على نحو ما اشتهينا ، ورفعت أنا نخب جوته وشربنا له نبيذ الراين . ومن المستبعد أن يتصور وهو فى إيطاليا أننى بين ضيوفه ولكن القدر يصنع العجب » .

وفى الحادى والعشرين من شهر أغسطس ١٧٨٧ سافر شيللر إلى يينا ، مدينة الجامعة ، برفقة السيدة شارلوته فون كالب وابنة ڤيلاند زوجة الأستاذ راينهولد الأستاذ بالجامعة هناك . وفى يينا نزل شيللر ضيفاً على بيت راينهولد . ودار بين راينهولد ، بالرغم من أنه كان كاثوليكى المذهب ، ومن أتباع المنظمة اليسوعية ، وبين شيللر ، الذى فرغ لتوه من مسرحية دون كارلوس التى تهاجم الكاثوليكية الأسبانية واليسوعية ، حديث ودى مفيد . كان راينهولد من أكثر أتباع الفلسفة الكانطية تمسكاً بها ، ومن أقوى الداعين لها ، فلفت نظر شيللر إليها للمرة الثانية ، وكان كرونر هو الذى لفت نظر شيللر إليها للمرة الأولى . وسمع راينهولد من شيللر عن اهتمامه بالتاريخ ودراساته التى أخذ يهتم بها أكثر وأكثر ويركزها حول موضوع تاريخ « الأراضى الواطئة » ، فحثه على الاستمرار فيها تمهيداً للحصول على وظيفة أستاذية فى هيئة الجامعة . وكانت تلك فكرة حبيبة إلى نفس شيللر بالقدر الذى كانت فيه بعيدة عن تقديره . كان شيللر قد اكتشف أنه يجمع إلى الشغف بالأدب الشغف بالتاريخ ، وكان يرجو أن يحصل على وظيفة ثابتة الدخل تتيح له الاستقرار . وكانت وظيفة الأساتذة تجذبه على نحو خاص لما تتسم به من الاستقلال . واتصل شيللر فى يينا بناقدها الأدبى وأستاذ فقه

اللغة المعروف شوتس[1] الذى كان يحرر المجلة الأدبية [2] ، وسرعان ما أثمر هذا الاتصال عقداً ينص على اشتراك شيلر فى تحرير هذه المجلة .

وكانت حياة شيلر مليئة باللقاءات المثمرة المفيدة الطريفة العجيبة ! فى خطاب إلى كورنر يقول شيلر : « .. قرع أحدهم بابى . فقلت : ادخل . ودخل رجل نحيف قصير قصراً شديداً ، ويلبس بدلة فراك بيضاء وصدرية صفراء مائلة إلى الخضرة . وقال : « هل أسعدنى الحظ بالوقوف أمام السيد المستشار شيلر ؟ » فقلت « أنا هذا » ، فقال : « لقد سمعت أنك هنا ، فلم استطع أن أمنع نفسى من الذهاب لرؤية الرجل الذى كنت لتوى مع مسرحيته دون كارلوس » . فقلت : « تشرفنا . هلا تكرمت وقلت لى من أنت ؟ » فقال : « لا يمكن أن أكون قد حظيت بسعادة معرفتك بى . أنا إسمى فولبيوس » . فقلت : « أنا أشكر لك هذا التكريم ، ويؤسفنى ... أننى على وشك الخروج . » فقال الرجل : « أرجو أن تسامحنى لقد رأيتك وهذا يكفينى . » ـ هذا الشخص هو أخو كريستيانه فولبيوس التى سيتعرف عليها جوته بعد عودته من إيطاليا ، ويتزوجها ويرزق منها بابنه الوحيد .

وعاد شيلر إلى ڤايمار وقد قرر شيئاً ، قرر أن يعكف على الدرس ، ويمنحه أكثر الوقت ، وأن يقلل من اختلاطه بالناس ، ومن الاشتراك فى الحفلات ، ومن تلبية الدعوات حتى يتفرغ لما هو أهم . فى خطاب إلى هوبر يقول : « والنتيجة التى خرجت بها من خبراتى هنا كلها ، هى أننى أعترف بفقرى ، وفى الوقت نفسه ارتفع بتقديرى لعقلى إلى درجة لم ارتفع إليها من قبل . إن النقص الذى تبينته فىّ بالقياس إلى الآخرين ، نقص يمكننى أن أعالجه بالجهد والمثابرة ، وعندما يتم لى ذلك سأشعر شعوراً خالصاً كاملاً باعتداد سعيد بنفسى . ولعلى أمدح نفسى ، عندما أقول إننى وعيت الأثر الذى تحدثه عبقريتى فى فكر أناس كثيرين أعظم منى بكثير ومادمت قد عرفت هذا الأثر ، وتوصلت إلى نقطة تلتقى

(١) Christian Gottfried Schütz

(٢) Allgemeine Literatur - Zeitung

فيها آراء الناس المختلفة عنى ، فلم يعد ينقصنى شيء لأكون حكماً ذاتياً عن نفسى . وينبغى على ، لأصل إلى ما أستطيع وإلى ما يجب على ، أن أصلح فكرتى عن نفسى ، وأن أكف عن التقليل من شأنى فى تصورى الذاتى . صدقنى ، إننا نستطيع أن نفعل الكثير ، ولكننا لم نتبين قدرتنا ، وقدرتنا هى الوقت . إننا عندما نستغل الوقت استغلالاً دقيقاً سليماً نستطيع أن نغير أنفسنا تغييراً كبيراً يثير العجب . وإن الإنسان ليطمئن أعظم الاطمئنان لهذه الفكرة الجميلة : إن مجرد استخدام الوقت استخداماً صحيحاً . والوقت ملك لنا ، يمكننا وحدنا بدون مساعدة الآخرين ، وبدون اعتماد على أى أشياء خارجية ، من الحصول على طيبات الحياة كلها . فبأى حق نلوم القدر أو السماء لأننا لم ننل من الحظ إلا أقل مما ناله الآخرون ؟ ـ لقد أوتينا الوقت . ولقد أوتينا كل شيء إذا استخدمنا عقلنا وإرادتنا الجادة ، لنستثمر رأس المال هذا » .

وهكذا بدأ عصر جديد فى حياة شيللر ، عصر العمل والمبالغة فى العمل . كان يلزم حجرته الساعات الطوال يشرب الشاى ويدخن الغليون ، ويستنشق النشوق ، ويقرأ تلالاً من الكتب والمخطوطات . ويقصر علاقته على شارلوته فون كالب التى كان يراها كل يوم ، مرة أو مرات والتى كان المجتمع الڤايمارى المتحرر يعتبرها صديقته الرسمية . وأصبح شيللر يعتبر ڤايمار « فردوسا » ، ويكتب إلى أصدقائه أنه سعيد بالجهود المضنية التى يبذلها ، وأنه وجد السعادة فى داخله ، بعد أن ظن طويلاً أن السعادة فى خارجه .

كان شيللر مشغولاً بأمرين : اتمام تأليف كتاب عن ثورة الأراضى الواطئة [1] وانفصالها عن أسبانيا ، وكتابة مقالات لمجلة « دويتشه مركور » بعنوان « رسائل عن دون كارلوس » . ولعلنا ندهش لانصراف شيللر عن المشروعات الأدبية الإبداعية إلى هذه المقالات والدراسات التاريخية . والحقيقة إن شيللر كان يرجو أن تنجح مسرحية دون كارلوس نجاحاً أكبر من الذى أحرزته ، فأصيب بما يشبه الصدمة . والرسائل المتبادلة بينه وبين كورنر فى ذلك الوقت تشهد على

(١) Abfall der Niederlande

ذلك : كورنر يبذل جهده ليرد شيللر إلى الشعر ، وشيللر يرفض . يقول شيللر فى إحدى هذه الرسائل : « إننى أستطيع أن أنشىء بنصف الجهد مؤلفاً تاريخياً يأتينى بقدر من تقدير العالم المثقف المهذب أكبر مما يأتينى به استنزاف جهدى العقلى كله فى عمل من الترف مثل المسرحية . لم أنل من مسرحيتى « دون كارلوس » بعد جهد ثلاثة أعوام ، إلا المضايقات . وربما حققت بكتابى عن الأراضى الواطئة الذى سيستغرق العمل فيه خمسة أو ستة أشهر ، الاحترام والشهرة » . وكان من أثره هذه الصدمة أن شيللر أصبح لا يجد الإلهام ، فلا هو يصل إلى أفكار جديدة لمسرحيات جديدة ولا هو يستطيع أن يتم مسرحية أتى بفكرتها معه من مانهايم إلى لايبتسيج ودريسدن وتركها ، وهى مسرحية « عدو البشر » (١) ، وأصبح يتصور الخطر الذى يحدق به .

وأتم شيللر كتابة « تاريخ انفصال الأراضى الواطئة المتحدة عن الحكومة الأسبانية الجزء الأول » وأعلن عنه فى مجلة فيلاند « دويتشه مركور » فى عدد يناير ١٧٨٨ . وظهر الكتاب ونجح نجاحاً هائلاً وأدر ربحاً هو أكبر ما ربحه شيللر من كتاب . وقد وفق شيللر فى عرض التاريخ بأسلوب جديد لم يعهده الناس من قبل ، إذ جعله حياً أمام أعينهم بأشخاصه وأحداثه ، وبث فيه الكثير من حماسه وبراعته الخطابية البيانية . وشمل الفترة بين ١٥٦٠ و ١٥٦٧ ، ووعد بأن يخرج أجزاء أخرى (لم يخرجها) . ولا ينبغى أن نترك الحديث عن هذا الكتاب دون أن نذكر أن الناحية العلمية فيه لم تلق من الكاتب الاهتمام الكامل الواجب . وهو على أية حال ، بغض النظر عن الأخطاء وعن نواحى الضعف ، كتاب لم يأت بجديد من الناحية العلمية . ومع ذلك فقد ظل الجمهور يطالب بالأجزاء التالية ويشتاق إلى إكمال القراءة الممتعة التى أتاحها له شيللر .

وشهدت الفترة نفسها خروج « رسائل عن دون كارلوس » (٢) ، فى مجلة « دويتشه مركور » رد فيها شيللر على النقد الذى وجه إلى المسرحية ، سواء منه المدح والقدح . كان البعض يرون أن تصرفات المركيز بوزا تفتقر إلى التبرير

(١) Der Menschenfeind

(٢) Briefe über Don Carlos

الكافى ، وكان البعض الآخر يرون مبالغة فى تصوير الصداقة . وقد أظهر شيللر فى مقالاته النقدية وضوحاً فريداً فى الرؤية ، ومقدرة على تفنيد الحجج ، وشجاعة فى الاعتراف بالأخطاء . وما من شك فى أن هذه الرسائل من أروع ما كتب شيللر ناقداً .

كانت السيدة فون ڤولتسوجن قد أرسلت إلى شيللر الدعوة تلو الدعوة ليزورها فى باورباخ ، التى لم تكن تبعد عن ڤايمار كثيراً . وكذلك كانت دعوات مماثلة تأتيه من أخته الحبيبة كريستوفينه التى كانت قد تزوجت من صديق شيللر القديم راينڤالد وأقامت معه فى ماينينجن[1] . وفى أغسطس ١٧٨٧ فكر شيللر فى القيام بهاتين الزيارتين ، ولكنه لم يتمكن من ذلك إلا فى نوفمبر . ومن الخير أنه قام بالزيارة على أية حال لأن السيدة فون ڤولتسوجن ماتت فى العام التالى (٥ أغسطس ١٧٨٨) ولو استرسل فى التأجيل لما رآها ولما استطاع أن يكرر لها شكره على عونها العظيم فى وقت المحنة . وكتب إلى السيدة ڤولتسجن بالموافقة : « إن قلبى يشدنى إلى هناك ، ولابد أن أحقق رغبتك وألبى دعوتك . وأنا أنتظر أن تأتينى هذه الرحلة بأحاسيس جديدة غالية ـ أحاسيس أيام الطفولة وصدر الشباب ـ وكذلك أحاسيس حج مقدس إلى الأفكار التى التصقت بهذا المكان منذ إقامتى الماضية الهادئة » . وغادر شيللر ڤايمار فى ٢١ نوفبر ١٧٨٧ وذهب أولاً إلى ماينينجن حيث قضى أياماً سعيدة مع أخته وزوجها ، وتشرف بمقابلة الأمير هناك . ولزواج كريستوفينه براينڤالد قصة طريفة . فقد ذهب شيللر أيام إقامته فى باورباخ ذات مرة لزيارة راينڤالد على غير موعد سابق فلم يجده فجلس فى مسكنه ينتظره ، وأخرج حافظته وأخذ يعبث بها ليضيع الوقت حتى يعود راينڤالد إلى البيت ، وتشاء المصادفات أن يسقط من الحافظة خطاب من كريستوفينة إلى أخيها ، ولا يراه شيللر . ويكتشف راينڤالد الخطاب فيما بعد ويقرأه فيجد فيه طرافة ورقة ، فيكتب إلى كريستوفينه معتذراً لها عن قراءة هذا الخطاب عن غير قصد ، وما تلبث العلاقة أن تتصل بين كريستوفينة وراينڤالد رغم فارق السن الكبير بينهما ، وتنتهى إلى الزواج .

(١) Meiningen

وسافر شيللر من ماينينجن إلى باوورباخ حيث تقابل مع السيدة هنريته فون ڤولتسجن ، ولكنه لم يجد فى المكان هناك المشاعر التى كان يتوقع أن يجدها . يصور شيللر الموقف فى خطاب أرسله إلى صديقه كورنر فيما بعد ، يقول : « عدت إذن إلى المنطقة التى عشت فيها وحيداً فى المدة بين عام ١٧٨٢ و ١٧٨٣ . لم أكن فى ذلك الوقت قد دخلت الدنيا بعد ، بل كنت أقف .. مترنحاً على عتبتها إن صح هذا التعبير ، وكان خيالى نشيطاً نشاطاً عجيباً . ولقد عدت اليوم بعد مرور خمسة أعوام بجعبة لا تخلو من خبرات عن الناس والظروف وعنى . فإذا بالسحر قد ولى كأن الريح أطاحت به . لم أحس بشىء . لم يعد مكان واحد من الأماكن التى خففت عنى وحدتى قديماً يوحى إلى الآن بشىء . لقد فقد كل شىء لغته التى كان يتحدث بها إلى . ولقد تبينت من هذا التحول أن تغيراً كبيراً حدث فى . وكيف لا ؟ ألم تمتلىء هذه الفترة بالكثير من الأحاسيس والمقادير والمواقف الجديدة ؟ ظهوركم فى حياتى ، صداقتنا كلها ، مانهايم وما كان بها من أفراح وآلام ، شارلوته ، فايمار ، عصر جديد تماماً فى تفكيرى ! » .

والتقى شيللر فى باوورباخ بزميله فى الأكاديمية ڤيلهلم فون ڤولتسوجن ، الذى أتى ليودع أمه قبل ان يسافر إلى باريس ليدرس العمارة . ودعاه شيللر إلى مرافقته إلى ڤايمار وقضاء عدة أيام فى ضيافته . وركب الصديقان الخيل فى ٦ ديسمبر ١٧٨٧ واجتازا الغابة التورنجية وقد خيم عليها جو الشتاء . واقترح ڤيلهلم وهما فى الطريق أن يقطعا الرحلة فى رودلشتات [1] ويزور ابنتى خالته كارولينه وشارلوته فون لينجيفيلد[2] . وذهبا . وتحكى كارولينه فى مذكراتها عن هذه الزيارة فتقول : « فى يوم من أيام شهر نوفمبر عام ١٧٨٧ (لا شك أن الذاكرة خانتها ، فقد حدثت الزيارة فى يوم ٦ ديسمبر) تلبدت السماء فيه بالغيوم ، رأينا فارسين يقبلان ناحيتنا ، كانا ملتفين فى معطفيهما ، وتبينا أن أحدهما هو قريبنا ڤيلهلم فون ڤولتسوجن على الرغم من أنه كان يخفى وجهه على سبيل المزاح . وأثار الآخر

(١) Rudolstadt

(٢) Karoline und Charlotte von Lengefeld

ولم تكن لويزه لينجيفيلد الأم خالة فيلهلم مباشرة كانت بنت عم أو خال والدته .

فضولنا . وما لبث اللغز أن انحل ، عندما زارنا ڤيلهلم ورجانا أن نسمح له باصطحاب صديقه إلينا فى المساء ... » .

ودخل شيللر بيت أسرة شاء القدر أن يربطه بها . كتب بعد يومين من الزيارة إلى كورنر يقول : « قضيت يوماً أيضاً فى رودلشتات وتعرفت بأسرة أخرى كريمة لطيفة . سيدة اسمها فون لينجيفلد تعيش هناك مع ابنة متزوجة وأخرى لم تتزوج بعد . والابنتان ـ وان لم تكونا جميلتين ـ جذابتان وتحظيان بإعجابى . ولقد وجدت فى هذه الصحبة معرفة بالأدب الحديث ورقة وإحساساً وذكاء . والابنتان تعزفان على البيانو عزفاً جيداً ، وقد أتاحتا لى أمسية جميلة جداً بما عزفتا . والمنطقة المحيطة برودلشتات منطقة جميلة جمالاً فائقاً . ويدهشنى أننى لم أكن قد سمعت بها من قبل . » ورجعة بالذاكرة إلى الوراء تبين لنا أن لقاء شيللر بالأم وبنتيها لم يكن اللقاء الأول ، فقد رآهن فى ٦ يونيه ١٧٨٤ رؤية عابرة فى مانهايم ، وكن عائدات من سويسرا بعد رحلة مررن فى خلالها على السيدة فون فولتسوجن التى أرسلتهن إلى الشاعر الشاب .

كان رب الأسرة كارل كريستوف فون لينجيفيلد قد تخصص فى شئون الغابات وتدبيرها وأصاب فى ذلك شهرة كبيرة ، جعلت فريدريش الأكبر يستدعيه إليه فى ١٧٦٣ إلى لايبتسيج ويعينه مديراً لإدارة الغابات البروسية جميعها . وبهذا دخل فى عداد القلائل الذين يترددون على بلاط الملك ، وبلاط أمير ڤايمار . وإذا كان كارل كريستوف فون لينجيفيلد قد عرف كيف ينجح فى عمله ، فقد عرف بالقدر نفسه كيف يربى بنتيه التربية الباهرة ، كارولينه (المولودة فى عام ١٧٦٣) وشارلوته (المولودة فى عام ١٧٦٦) ، ويجعلهما تهتمان بالآداب والفنون وتنميان شخصيتهما النمو السليم . وكانت الأم كذلك ، لويزة فون لينجيفيلد ، تحسن القيام على إعداد البنتين للمستقبل ، وكيف لا ، وهى قدتكلفت بتربية أميرات رودولشتات فنجحت نجاحاً كبيراً وحصلت على رتبة فى البلاط وحظوة ؟ فلما مات الأب فى عام ١٧٧٦ احتضنت الأم البنتين وعاشت لهما وكانت البنتان مختلفتين فى الطبع إلى حد كبير . كانت كارولينة ، الكبرى ، ذات خيال خصب وقدرة على الإبداع ، وطموح إلى بلوغ شىء فى عالم الأدب .

وتزوجت فى عام ١٧٨٤ من رجل يدعى فريدريش ڤيلهلم فون بويلڤيتس [(١)] فلم تجد منه الفهم لعبقريتها ، فانفصلا ومرت السنوات تزيد الشقة بين الزوجين حتى تم الطلاق . أما شارلوته فكانت تحمل إلى جانب القدرة على الإحساس والفهم والمشاركة ميلاً إلى السكون والسلام ، ولا تصل فى معالجة الأدب إلى خلق شىء مكتمل ، إذا ما قارناها بكارولينه . ولا ينبغى أن نغفل عن ذكر رواية « انجنيس فون ليلين » [(٢)] التى نشرت كارولينه الجزء الأول منها فى مجلة « هورين » خالية من اسم المؤلف وظن البعض أنها من تأليف جوته ، وكتاب « حياة شيللر » الذى أخرجته عام ١٨٣٠ بعد وفاة شيللر بخمسة وعشرين عاماً . وكانت العلاقة بين الأم ، لويزة فون لينجيفيلد ، وبلاط ڤايمار وثيقة ، وكانت حلقة الاتصال هى السيدة شارلوته فون شتاين، صديقة جوته الحميمة ، وكانت السيدة فون شتاين تهتم بشارلوته فون لينجيفيلد اهتماماً خاصاً وتأخذها إلى ضيعتها فى كوخبيرج [(٣)] على بعد ميل واحد من رودلشتات ، فتستضيفها الأيام بل والأسابيع ، وكم التقت الصبية هناك بالأديب الكبير جوته ! كذلك كانت تأخذها معها إلى بلاط ڤايمار ، حيث عرفتها الأمير الأم أنا أماليا ووعدت بقبولها وصيفة فى البلاط فى المستقبل عندما تؤهل نفسها لهذه الرتبة . وبدأت شارلوته من عام ١٧٨٢ تكمل ثقافتها وتتعلم الفرنسية إلى جانب الإنجليزية . وفى أبريل عام ١٧٨٣ سافرت الأم مع ابنتها شارلوته واصطحبت كذلك كارولينه وخطيبها إلى سويسرا لممارسة اللغة الفرنسية فى بيئتها . وفى الطريق زاروا السيدة فون ڤولتسوجن التى عرفتهم بأخت شيللر كريستوفينه . وبعد انقضاء نحو عام عاد الركب فى صيف عام ١٧٨٤ إلى رودلشتات ، وفى أثناء إختراق مانهايم فى ٦ يونية التقت السيدة لويزة لينجيفيلد وبنتاها بشيللر — على نحو ما ذكرنا — بتوصية من السيدة ڤولتسوجن ، ولكن اللقاء كان سريعاً لأن شيللر كان فى ذلك الوقت يقوم برحلة خارج مانهايم وعاد فى الوقت الذى كانت فيه عربة لينجيفيلد تتأهب للمسير . وما لبث اللقاء أن انمحى

(١) Friedrich Wilhelm von Beulwitz

(٢) Agnes von Lilien

(٣) Kochberg

من ذاكرة شيللر ، وإن لم ينمح من ذاكرة شارلوته التى عرفت فيما بعد كيف تذكر شيللر به وبالفتور الذى اتصف به . فلما عادت شارلوته إلى رودلشتات ، عادت علاقتها بالسيدة فون شتاين إلى ما كانت عليه ، فكانت شارلوته تتردد من حين لآخر على ڤايمار،وهناك تعرفت فى عام ١٧٨٦ على ضابط إنجليزى هو الكابتن هيرون ، كان ينزل ضيفاً على الرائد كنيبل ، ونشأ بينهما حب ما لبث أن ملك عليها فؤادها . ولكن حبها كان مقضياً عليه منذ نشأته بنهاية حزينة ، لأن الضابط الإنجليزى كان مكلفاً بمهمة فى الهند الشرقية ، ولم تكن هناك وسيلة للربط بين هذه المهمة وبين الحب . ورحل هو وبقيت هى حزينة . وحاولت أن تتغلب على المحنة ما استطاعت ، ولكن مسحة من الحزن ظلت تعكر ابتسامتها ، وتثير فى العالمين بسرها الشفقة عليها .

وعاد شيللر من رودلشتات إلى ڤايمار بعد أن قرر فيما بينه وبين نفسه أن يتزوج شارلوته فون لينجيفيلد ، ولم يشأ أن يكشف عن شىء مما فى نفسه اللهم إلا بقوله إنه ينوى أن يأتى فى الصيف القادم لقضاء أجازة فى المنطقة الجميلة التى أعجبته . وليس من شك فى أن شارلوته أحست بأن الأديب الشاب يميل إليها ، وليس من شك فى أنه أحس أنها تبادله عاطفة بعاطفة . ولعله كان يظن أن شهوراً ستمر حتى يكون لقاء . ولكن الظروف شاءت غير ذلك . والخطابات التى أرسلها شيللر فى ذلك الوقت إلى كورنر تشهد بأنه قرر فعلاً أن يتزوج . يقول فى أحدها : « ... لابد أن يكون حولى إنسان يتعلق بى ، وأنا أستطيع ، بل وسيكون على أن أجعله سعيداً ، إنسان تستطيع حياتى أن تنتعش بالاحتكاك بحياته ... إننى أتوق إلى حياة عائلية كحياة الناس جميعاً ، وهذا هو الشىء الوحيد الذى يتعلق به املى ... على أننى مازلت خالياً من كل ارتباط ، ومازالت النساء أمامى لأختار من بينهن ... ». ويتحدث عن الناحية المالية فيقول فى خطاب آخر : « لابد أن أسيطر على مصيرى تماماً فى غضون عام واحد » . أو يقول : « لابد أن أعيش من التأليف ، يعنى لابد أن أركز بصرى على ما يحقق ربحاً » . أصبح شيللر يفكر تفكيراً بعيداً عن المثالية إلى حين ، لأنه رأى أن المثالية فقط لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وهو يريد أن يتزوج وان ينعم مثله مثل

الآخرين من البشر بحياة عائلية هادئة . فتوقف فترة عن كتابة المسرحيات ، وعكف على التعمق فى دراسة التاريخ على أمل الوصول إلى وظيفة ثابتة فى الجامعة من ناحية ، واهتم من ناحية أخرى بكتابة مقالات لمجلة ڤيلاند تأتى بكسب سريع ، وبتأليف كتاب فى التاريخ يدر دخلاً معقولاً . كان يكتب فصولاً من قصة « الرجل الذى رأى العفاريت » ويلعنها ، ولكنه يصبر نفسه ويقول : « إنها تأتى بالمال .. » .

وحاول كورنر أن يرد شيللر عن مشروعاته هذه ويذكره بأنه خلق ليسيطر على النفوس ويأخذ بمجامع القلوب ، وينأى به عن الاهتمام بما يهتم به السوقة والعوام . ولكن شيللر كان مصمماً : « .. إننى متمسك بأن أتزوج . وأنت لو كنت تستطيع أن تقرأ ما فى نفسى ، كما أستطيع أنا ، لما ترددت لحظة فى تقرير ما قررته . لقد استهلكت كل ما لدى من دوافع للحياة والنشاط ، إلا هذا الدافع ، فلم أجربه بعد ... أنت لا تعرف مدى الخراب الذى أصاب نفسى ، والحلكة التى أحاطت برأسى .. ولقد حدث هذا لغير سبب من قدر خارجى ، فأنا هنا مرتاح فعلاً من هذه الناحية ، انه حدث نتيجة لاستهلاك داخلى اعترى مشاعرى . فإذا لم أضفر فى حياتى الأمل ، الأمل الذى يكاد أن يكون قد اختفى من نفسى تماماً ، إذا لم أجدد عجلات تفكيرى وإحساسى من جديد ، فنهايتى محتومة . هناك كآبة فلسفية تفترس روحى ، حتى لتوشك زهورها على السقوط .. » .

وبينما شيللر فى التفكير والتدبير ، وفى حوار عنيف مع الأصدقاء ، حضرت شارلوته فون لينجيفيلد إلى ڤايمار لتتقدم إلى البلاط (أواخر يناير أو أوائل فبراير ١٧٨٨) ، وسكنت فى بيت السيدة أماليا فون إمهوف ــ أخت السيدة فون شتاين ــ الذى أمضى فيه شيللر بعض الوقت عند وصوله إلى ڤايمار . وعلم شيللر بوصول شارلوته فسعى إليها . وكانت لقاءات ومكاتبات تأكد بها الحب بينهما . فى مرة يكتب إليها : « لقد رأيتك ، ويكفينى هذا اليوم » . وفى مرة أخرى : «كم يحزننى أننى لا أستطيع أن أراك كثيراً كما أتمنى » . ولم يكن شيللر يستطيع أن يراها كلما أراد لأنها كانت مشغولة بما أتت إليه ، الاشتراك فى احتفالات ومراسم

البلاط على أمل الدخول فيه وصيفة . وفى أبريل انتهت زيارتها لفايمار ، فرجاها شيللر أن تبحث له عن سكن هادىء قرب رودلشتات ليقضى فيه فترة يفرغ فيها للتأليف . واشتركت شارلوته مع اختها كارولينه فى البحث ووجدنا سكناً مناسباً فى فولكشتيدت [1] . وكتبت إلى شيللر تقول : « الحجرة التى اخترتها لك ليست كبيرة جداً ، ولكنها جميلة ، وكذلك الكراسى التى بها ليست من الكراسى الريفية تماماً ، لأنها مكسوة ، وهناك حجرة بجوارها يمكن أن يوضع فيها السرير .. » .

وسافر شيللر فى ١٨ مايو إلى رودلشتات فوصلها فى اليوم التالى ، وانتقل فى ٢٠ مايو إلى المسكن الذى اختارته له شارلوته . وسعد به . كانت فولكشتدت قرية صغيرة تجمع بين مناظر الوادى ومناظر الجبل ، وتجمع بين حقول القمح والحدائق والغابات ، تفسح لنهر الزاله [2] بين حناياها مكاناً متعرجاً بطوله طريق ضيق يوصل بعد نصف ساعة من السير على الأقدام إلى رودلشتات . وكان شيللر يقضى وقته فى العمل ـ تاريخ انفصال الأراضى الواطئة ... والرجل الذى رأى العفاريت ـ فإذا فرغ منه ذهب إلى رودلشتات لينعم بصحبة شارلوته ، فإذا حال بينه وبين الذهاب جو عاصف أو مطير ، أو إرهاق شديد ، بعث رسولاً بخطاب قصير أو طويل . وقد وصفت كارولينة لقاءات شيللر : « بدأت فى بيتنا حياة جديدة بالنسبة لشيللر . كان قد عانى وقتاً طويلاً من الحرمان من سحر المخالطة الودية المنطلقة ، فوجدنا دائماً متفتحين لتلقى الأفكار التى تملأ روحه فى كل لحظة . كان يريد أن يؤثر فينا ، وأن يحكى لنا عن الشعر والفن والآراء الفلسفية ، وما يمكن أن يفيدنا . وكان هذا الجهد الذى يبذله يضفى على نفسه مزاجاً معتدلاً منسجماً . كان حديثه ينساب بمزاج منشرح ، فإذا جاء بعض الأشخاص المقلقين ، وأفسدوا علينا صحبتنا الصغيرة ، تقنا إلى بعدهم ، وازداد شوقنا إلى التمتع بلذة انسجامنا الصافى ازدياداً شديداً . ما أعظم سعادتنا عندما كنا نقابل الصديق العبقرى وهو مقبل علينا تحت الأشجار الجميلة القائمة على

(١) Volkstädt

(٢) Saale

شاطىء نهر الزالة . بعد أن نكون قد عانينا من زيارة بعض الناس لنا ، شربوا القهوة وأصابونا بالملل . كنا ننتظره عادة عند نهير ينحدر من الغابة ويصب فى نهر الزالة ، وقد ابتنى عليه جسر ضيق صغير . كنا عندما نراه مقبلاً فى بريق الشفق ، نحس حياة صافية مثالية تتملك إحساسنا الباطنى . كانت تصرفات شيللر حيالنا تتصف دائماً بجد رفيع وبساطة لطيفة طريفة نابعة من نفس صافية خالصة ، وكنا نجول فى أحاديثه وكأننا نجول بين نجوم السماء الثابتة وأزاهير الأرض المتفتحة . كنا نتمثل أنفسنا أرواحاً نعمت بالسعادة ، وتخلصت من رباط الأرض ، فأخذت تهيم فى أفق أكثر صفاء ولطفاً وتنعم بحرية انسجام أكثر كمالاً . كانت الحياة التى عشناها فى ذلك الصيف تبدو فى نظرنا جميعاً كأنها سلسلة من الزهور والثمار بأيامها وساعاتها المفيدة الممتعة . وازداد شيللر هدوءًا وصفاءًا ، وازدادت هيئته وشخصيته لطفاً ، وازداد فكره بعداً عن التصورات العجيبة التى كان حتى ذلك الحين يتمثل الدنيا عليها ولا يستطيع أن يتخلص منها تماماً » .

ورسائل شيللر فى هذا الوقت تشهد هى الأخرى بهذا التحول العظيم . فى رسالة إلى شارلوته ـ أو لوته ، إذا أردنا اسم المداعبة ـ يقول : « عندما أكون معك ، لا أحس إلا بأننى بخير . إننى لأفضل التمتع فى سكون بهذا الإحساس على التعبير عنه بكلام » . وفى رسالة أخرى يقول لها : «كم أتمنى لو استطعت أن أنقل إليك روحى كلها . ان ما أريده يستعصى على الكلام ، ويستعصى أكثر على الكتابة » . ولقد أوشك شيللر أكثر من مرة على أن يعلن حبه ، ولكنه بعد خبرته المتكررة عندما حاول خطبة هنريتة ڤولتسوجن أو مارجريته شڤان ، كان يعلم أن عليه أن يقدم إلى خطيبته القلب والمال معاً ، ولهذا آثر الانتظار . وحدث ذات مرة أن كانت شارلوته ثائرة النفس لخلاف نشب بين أمها وأختها ، وأخذ شيللر يخفف عنها ويواسيها ، فتحولت ثورة نفسها إلى موجة من الحب دفعتها إلى الإمساك بيد شيللر ، وتحركت نفس شيللر كذلك ، وكاد أن يفتح فمه بالاعتراف الحاسم ، ولكن ثالثاً دخل عليهما حيث كانا فعادت الكلمات إلى حيث كانت من القلب . وليس من شك فى أن الأم كانت تتوقع أن يتحدث شيللر بشىء ، ولهذا كلمت السيدة فون شتاين ، صاحبة النفوذ فى بلاط ڤايمار ، فكان رد السيدة

فون شتاين فى صالح شيللر ، لأنها كانت تحمل له ولعبقريته الإعجاب والتقدير ، ووعدت السيدة فون شتاين أن تفعل ما فى وسعها لينال شيللر منصباً ثابتاً ، إذا ما وصلت العلاقة بينه وبين شارلوته إلى الخطبة .

كانت شخصيات هومير وأوسيان وشيكسبير من الشخصيات المحببة إلى جيل حركة العاصفة ، لأنها شخصيات تمثل العبقرية التى تنفجر كما ينفجر نبع فى صخر أو فى صحراء ، العبقرية التى تظهر فجأة بلا انتظار وبلا إعداد ، وتعرف كيف تصل إلى أعمق أعماق الإنسانية مبدعة ومؤثرة . وإننا لنرى شيللر فى هذا الوقت يعكف على قراءة هومير . ولكنه يقرأه بعين أخرى ، ويتأثر به على نحو آخر . فهومير هو فى الوقت نفسه شاعر اليونانية الخالصة وفاتح الطريق إلى الكلاسيكية . فى ٢٠ أغسطس يكتب شيللر إلى كورنر : « أنا لا أقرأ الآن إلا هومير وحده تقريباً ... ولقد عزمتُ على ألا أقرأ فى العامين القادمين شيئاً مما يكتبه الأدباء المحدثون » . ويظهر أن هذا الاهتمام بدأ منذ قصيدة « آلهة اليونان » وأنه استمر على هيئة اهتمام بترجمة المؤلفات الكلاسيكية التمثيلية عند اليونان مثل « ايفيجينيا فى أوليد » لأوريبيدس و « أجاممنون » لإسخيلوس . ولم يكن شيللر يتقن اللغة اليونانية ، بل كان يعتمد على ترجمة لاتينية وأخرى فرنسية ، و « يستنتج » أو « يختلق » النص اليونانى ، على حد قوله . كانت قصيدة « آلهة اليونان » وترجمات الاعمال اليونانية تدريباً بطيئاً لقلمه على الأسلوب الشعرى المناسب للتراجيديا الكاملة بالمفهوم الكلاسيكى ، وتدريباً لقلمه على الأسلوب الشعرى المعبر عن الغنائية الفكرية ، وهذان هما النوعان الأدبيان البارزان فى إنتاج شيللر ناضجاً .

وقد ظهرت قصيدة « آلهة اليونان » (١) فى مارس من عام ١٧٨٨ فى مجلة « دويتشر ميركور » وأثارت ضمائر بعض الناس لأن شيللر ذهب فى تمجيده اليونان والثقافة اليونانية إلى حد اتهام المسيحية بأنها مسئولة عن القضاء على الروح اليونانية ومسئولة عن نهاية الثقافة اليونانية ، مسئولية كبيرة أمام الإنسانية . فى هذه القصيدة نقرأ مثلاً :

(١) Die Götter Griechenlands

« بين البشر والآلهة والأبطال
ربط « آمور »[1] (إله الحب) رباطاً جميلاً
واشترك البشر والآلهة والأبطال
فى التهليل والتكبير فى أماتونت .[2]
كان الجد العابس والحرمان الحزين
منفيين عن عبادتكم الصافية ،
كان على القلوب كلها أن تنبض بالسعادة
لأن السعيد كان من أقاربكم .
لم يكن فى ذلك الوقت شيء مقدس إلا الجمال
ولم يكن الإله يخجل من أى متعة

*

لم يكن فى ذلك الوقت هيكل عظمى بشع
يتقدم إلى فراش المحتضر . بل كانت
قبلة تنطبع على شفتيه فتأخذ منهما آخر الحياة
وكان واحد من الجن ينكس مشعله .

*

ومهما يكن من أمر هذه القصيدة ، وما أحدثته من انقسام فى الرأى بين القراء والنقاد ، فقد قربت بين فكر شيللر وفكر جوته ، فى وقت كان القدر فيه يقرب تلاقى الرجلين . فى ١٨ يونية ١٧٨٨ عاد جوته من إيطاليا . وفى ٧ يوليه كتب شيللر إلى المستشار القيمارى ريدل[3] ، مربى الأنجال يقول : « جوته الآن بينكم . وإننى لمشتاق أشد الشوق إلى رؤيته . وإنى لأحس نحوه باهتمام لم أحسه إلا نحو القليل من البشر . عندما تكتب إلى الرد ، يا أيها الصديق العزيز ،

(١) Amor
(٢) Amathunt
(٣) Ridel

أرجوك أن تكتب إلى كثيراً عن جوته . وإذا التقيت به وكلمته ، فأبلغه عنى أجمل ما يمكن أن يلهج به لسان . » وفى ٧ سبتمبر ١٧٨٨ ظهر جوته فى بيت بويلڤيتس ، آتياً من كوخبيرج ، حيث كان فى زيارة للسيدة فون شتاين . ولم يكن جوته عندما أتى بمفرده ، بل كانت معه مجموعة من السيدات نذكر منهن السيدة فون شارت والسيدة هردر والسيدة فون شتاين بطبيعة الحال . ودعى شيللر ، عن طريق لينجيفيلد ، إلى حفلة الاستقبال . وتظاهر الاثنان جوته وشيللر بأنهما معجبان أحدهما بالآخر ، والحقيقة أنهما أحسا أحدهما حيال الآخر « بالنفور » ! كتب شيللر فى اليوم التالى إلى كورنر يصف اللقاء : « لقد أدت نظرتى الأولى إليه إلى الهبوط الشديد بالفكرة العالية التى أعطانيها الناس عن هذه الشخصية الجذابة الجميلة ، إنه رجل متوسط الطول ، يلبس الملابس الجامدة ، ويسير كذلك جامداً . ووجهه مغلق ، ولكن عينه مليئة بالتعبير ، شديدة الحيوية ، وإن الإنسان ليجد متعة فى التعلق بنظرته . وتعبير وجهه على ما فيه من جد كثير يتسم بالكثير من البشاشة والطيبة . وهو أسمر ، وقد بدا أكبر سناً مما هو فعلاً على قدر ما حسبت . وصوته لطيف جداً ، وحديثه سلس ، طريف وملىء بالحياة ، والإنسان يسمعه بمتعة فائقة ، وهو عندما يكون معتدل المزاج ، وهو ما حدث هذه المرة إلى حد كبير ، فإنه يحب أن يتكلم بما يشوق . وانعقدت أواصر التعارف بيننا بسرعة دون أدنى تكلف . كان عدد الحاضرين بطبيعة الحال كبيراً جداً ، وكانوا جميعاً كلفين بالاتصال به ، فلم أتمكن من الانفراد به كثيراً ، ومن الحديث معه إلا فى موضوعات عامة وهو يحب أن يتكلم عن إيطاليا ، وكلامه عنها ملىء بذكريات عاطفية . وعموماً ، لم تتغير الفكرة العظيمة التى كنت قد كونتها عنه عند التقائى به فى الواقع شخصياً . ولكنى أشك فى أننا سنتقارب فى يوم من الأيام عاجلاً أو آجلاً تقارباً شديداً . فكثير من الأشياء التى مازالت تهمنى ، ومازلت أتمناها وأرجوها ، قد مرت بعصرها عنده وانتهت . وهو متقدم على (فى خبرات الحياة وفى النمو الذاتى الذى هو أكثر من الأعوام) تقدماً كبيراً ، يستحيل معه أن نلتقى معاً فى منتصف الطريق . ثم إن شخصيته كلها اتخذت من البداية وضعاً آخر يختلف عن الوضع الذى اتخذته شخصيتى ، وعالمه يختلف عن عالمى ، وتصوراتنا تبدو مختلفة اختلافاً جوهرياً . على أن

الاستنتاج القائم على لقاء مثل هذا ، استنتاج يفتقر إلى اليقين التام والعمق . والوقت كفيل بكشف الباقى » .

كان جوته بعد عودته من إيطاليا قد تحول إلى شخص آخر ، وتغيرت علاقاته بالناس ، الأصدقاء منهم وغير الأصدقاء ، وأصبح أكثر تمكناً من الصياغة الفنية الكلاسيكية ، أكثر تمكناً من روح الثقافة القديمة ، أكثر قرباً من المثل الإنسانية العليا التى تعبر عنها المأساة الكلاسيكية فى غير اندفاع وثورة . ولهذا دون جوته فى مذكراته حكمه على شيللر : « لقد كرهته » ! ! وعلى الرغم من أن جوته مدح قصيدة شيللر « آلهة الاغريق » ، إلا أن شيللر أحس فى المدح دبلوماسية أكثر من الصدق ، ووقف يفكر فيما يعنيه جوته بقوله إن القصيدة طويلة جداً . لعله كان يقصد أن فيها كلاماً فارغاً ؟ لعله يقصد أن أسلوب شيللر يحتاج إلى ضابط يحكمه ويمنعه من الاسترسال ؟ المهم أن شيللر تحفظ مع جوته ، ولاحظت كارولينة أن حديثه إلى جوته كان يفتقر إلى كثير من الدفء . ومرت أيام ليست بالكثيرة ، ونشرت مجلة « ألجماينه ليتيراتور تسايتونج » (المجلة الأدبية العامة)[1] بتاريخ ٢٠ سبتمبر مقالاً لشيللر ينقد فيه مسرحية « إجمونت » لجوته ، ويجمع فى نقده بين العمق والدقة ، مخلصاً لمعاييره كناقد حر . وقد امتدح جوته هذا النقد وقال للأمير كارل أوجوست إن كاتب المقال أصاب فى تحليل العنصر الأخلاقى من المسرحية .

ثم إن شيللر انتهز فرصة تقلب الجو، فانتقل بسكنه من فولكشتيدت إلى رودلشتات قريباً من الأختين ، ولو لم ترتفع بعض الأشجار فى مسار النظر بين مسكنه ومسكنهما ، لاستطاع أن يراهما كلما شاء . وكان شيللر قد كتب إلى الأختين منذ مدة قصيرة يتمنى لو استطاع أن يسكن فى بيت مواجه لبيتهما ، ويضع مرآة أمامه تعكس صورتهما أمام عينيه فيراهما ويحادثهما حتى وهو عاكف على العمل . وكان شيللر كلما فكر فى الرحيل عاد وقرر البقاء . وانتهى الصيف وجاء الخريف وهو باق لا يستطيع أن ينزع نفسه . يقول : « لا بد أن أكره القدر

(١) Allgemeine Literatur - Zeitung

على أن ينتزعني من دائرتكما » ، واحتفل شيللر بعيد ميلاده فى ١٠ نوفمبر (٢٩ سنة) فى بيت لينجيفيلد ولعلنا لا نخطىء إن قلنا إن الاحتفال بعيد ميلاد شيللر مع ما صاحبه من فرح ومرح نبهه إلى أن الأعوام تمر ، وأن الأفضل أن يعود إلى ڤايمار وأن يسعى لمستقبله . ورحل شيللر فى ١٢ نوفمبر وكتب إلى كارولينة وشارلوته : « اذكرانى كثيراً ، وتمثلانى فى فكركما قريباً منكما » .

يميل كتاب سيرة شيللر إلى التغاضى عن علاقته بكارولينة ، لأنه سيتزوج أختها شارلوته . والحقيقة أن شيللر كان فى هذه الفترة يحب الفتاتين معاً ، وأنه كان يحاول أن يقهر حب الواحدة بضربه بحب الأخرى . ولكن الأختين لم تحسا بشىء كثير من هذا لأن كارولينة ، وإن لم تكن دائمة السكنى مع زوجها ، كانت على أية حالة زوجة لرجل موجود على قيد الحياة ، ولم تكن شارلوته تجد سبباً يجعلها تغار من أختها . كتب شيللر إلى كرونر يطمئنه على حالته العاطفية ، ويطمئنه على أنه لم يتورط فى حب أو خطبة ، يقول : « قلبى خال تماماً ، أقول لك هذا حتى ترضى . لقد تمسكت بما فرضته على نفسى ووعدتك به . لقد أضعفت أحاسيسى بشطرها شطرين ، فبقيت العلاقة فى حدود صداقة ودية معقولة » . فى هذا الخطاب يعترف شيللر بأنه أحب الأختين معاً ، وبأنه فعل ذلك عامداً . وقد ظل الثلاثة معاً يكونون مجموعة « عاشقة » ، ويكرهون من يندس بينهم أو يدس نفسه عليهم . وإذا صح أنه كان يخص شارلوته بقدر خاص من الحب وهو شىء لا شك فيه ، فقد عرف كذلك كيف يحب كارولينه ، فى الوقت نفسه . ولعل كارولينه هى التى قربت إلى نفسه فكرة الاشتغال بتدريس التاريخ فى جامعة يينا ، وهى الفكرة التى عرضها عليه الأستاذ راينهولد زوج ابنة ڤيلاند ، فى الوقت الذى كانت فيه السيدة فون شتاين تسعى على الصعيد الرسمى لتمكين شيللر من هذا المنصب . فلما ظهر كتاب « تاريخ انفصال الأراضى الواطئة المتحدة عن الحكومة الأسبانية » ، كان الأساس القوى قد وضع لتحقيق هذه الفكرة .

وبدأ شيللر فى ڤايمار ، بعد عودته ، يشتغل بهمة كبيرة . لقد تبين فى رودلشتات أن عبقريته الشعرية لم تعد تسعفه ، ولم تعد تطاوعه فلم يتمكن من

كتابة شيء يذكر فى مسرحيتين حمل مشروعهما معه مسرحية « عدو البشر يتصالح مع البشر » ومسرحية « فرسان مالطة » . فلا بأس بأن يتجه وجهات أخرى . عرض عليه ڤيلاند أن يشترك على نحو أكبر فى الكتابة لمجلته لقاء أجر كبير هو ٥٠٠ تالر . وفكر هو فى إخراج أعداد أخرى من مجلته القديمة « طاليا » ، وكذلك فى إخراج مجموعة من «المذكرات التاريخية». وأتم ترجمة «إفيجينيا فى أوليد»[1] وفكر فى تأليف ملحمة عن « فريدريش الأكبر » على نسق الالياذة يجمع فيها فى وحدة جميلة منسجمة صوراً عن فروع الثقافة المختلفة ، ونواحى الحياة المتعددة ، حول شخصية هذا الملك العظيم ، ولكنه لم يكتب فيها شيئاً لأنه لم يكن الشاعر الملحمى المطبوع ، وبقى لنا اسمها فقط « الفريدريشياده » ! وكان بين كل هذا يفكر فى مذهبه كفنان ، وفى مرحلة النضوج التى يتوق إليها ، والتى يتصورها على نحو ما فى المستقبل ، فيمنعه هذا التصور من الإنتاج الكبير ، إلا أن يصل إلى تحقيقها فى حاضره أولاً . وهناك قصيدة كبيرة (٤٨١ بيتاً من الشعر) كتبها فى رودلشتات ، وظل يصلح فيها ويصلح ، ويستشير الأصدقاء والنقاد ويهتم بتتبع آراء الآخرين فيها ، وبالافادة من أحسن ما يبلغه عنها ، حتى تمت وهى قصيدة « الفنانون » . فيها يعبر عن مفهومه الفنى فى تلك المرحلة من تطوره ، وفيها يبلغ مرتبة أعلى ، وتمكناً أكبر فى معالجة الشعر الفلسفى أو الغنائية الفكرية . فيها يقول مثلاً :

« ما أجملك ، أيها الإنسان ، وأنت تقف بغصن النخيل
على حافة العصر
فى رجولة كريمة فخورة
بحس متفتح ، وعقل ملآن ،
وجد عنيف ، وسكون غنى بالأعمال ،
وقد أصبحت أكثر أبناء الزمان نضوجاً ،
تحررت بالعقل ، وقويت بالقوانين ،

(١) Iphigenie in Aulis

وعظمت بالحلم ، وأثريت بكنوز
أخفاها عنك صدرك زمناً طويلاً ،
سيد الطبيعة ، الطبيعة التى تحب قيودك ،
والتى تعرف قوتك فى ألف من المعارك ،
والتى سمت منبثقة من تحتك خارجة من الهمجية .

*

النحل قد يتفوق عليك فى الجد
والدود قد يعلمك المهارة
والعلم قسمة بينك وبين الأرواح المصطفاة
أما الفن ، أيها الإنسان ، فلك وحدك ..
من الباب المشرق للجمال وحده
تنفذ إلى أرض المعرفة .
أما ما اخترعه ، بعد آلاف السنين ،
العقل المتقدم فى السن ،
فقد كان من قبل فى رمز الجمال والعظمة ،
الذى انبثق من الفهم الإنسانى فى صباه .

*

وظلت تنتفض وترتفع إلى أعلى ، إلى أعلى الأعالى ،
العبقرية الخلاقة
فما يرى الإنسان إلا خلقاً يخرج من خلق ،
وانسجاماً ينشأ من انسجامات .
الدنيا تتغير نتيجة للجهود التى يبذلها البشر
وقلب الإنسان يتحرك بدوافع جديدة ،
تتبارى فى معارك حامية ،
توسع مجال إبداعكم .

والإنسان المتقدم يرفع بانتفاضات سامية
الفن معه إلى أعلى شاكراً ممنوناً ،
وموجات جديدة من الجمال تنبثق
من الطبيعة التى ازدادت ثراء .

*

وهكذا نفهم تطوره الفكرى ... كان شيللر حتى ذلك الوقت قد كافح ، وكانت كل كتاباته مختلطة بنغمة جدالية عنيفة ، إنه يصارع الطغاة ، ويصارع الطبيعة المنحرفة ، ويصارع ضيق الأفق . وها هو ذا يتوق إلى عالم الجمال والعظمة والانسجام الإغريقى ... ويتوقف عن المجادلة المباشرة ... ويوجه بصره إلى الحقيقة الواقعة ، إلى الخلق والإبداع ، فيرى مستقبلاً لامعاً كالذهب . وهاهوذا الشاعر الذى كان قبل ثمانية أعوام يسب العصر ويرى أن بقعاً كالحبر تلطخه ، يرى النور ، حيث كان يرى الظلام . إنه يرى الإنسان يقف جميلاً على حافة العصر ، ويرى أنه أكثر أبناء الزمان نضوجاً وأنه قد تحرر بعقله ، وقوى بقوانينه .

ولكن الفرصة لم تسنح له بعد ليطبق هذه المفاهيم الفكرية الجديدة التى عبر عنها فى هذه القصيدة . والخبرة الأسلوبية التى حصل عليها فى أثناء ترجمته الشعرية لشىء من مسرح اليونان ، فى عمل كبير من أعماله . كان يتعرض كإنسان لشد وجذب من جهات كثيرة ، وكان فى قرارة نفسه يتوق إلى الاستقرار . فلما نجح كتابه « سقوط البلاد الواطئة » ، كان هذا النجاح يعنى أن شيللر زج بنفسه فى طريق التاريخ ، ووضع نفسه بين المرشحين لشغل كرسى التاريخ فى جامعة يينا إذا فرغ ، أو مهد لنجاح المساعى التى كانت تتجه إلى تعيينه فى هذا المنصب . وحدث أن ترك المؤرخ أيشهورن جامعة يينا وانتقل للعمل فى جامعة جوتنجن فخلا مكانه . ولكن المكان الذى خلا لم يكن وظيفة داخل الهيئة ، بل خارجها ، أو بعبارة أخرى وظيفة بلا راتب ثابت . ولم تكن هذه الوظيفة بهذا الشكل هى ما يسعى إليه شيللر ، ولكنه اهتم بها على أمل الترقى فى المستقبل .

وأرسل جوته ، بناء على توصية صديقته شارلوته فون شتاين ، المستشار فوجت إلى شيللر ليبحث معه موضوع المنصب . ووافق شيللر فى الحال . ودارت مناقشات بين أمراء ڤايمار وجوتا وكوبورج مَيْنينجن حول الموضوع ، وكانت الجامعة فى يينا تتبعهم جميعاً ، ووافقوا . ورفع جوته إلى مجلس الوزراء فى ڤايمار مذكرة نصها : « السيد فريدريش شيللر ، الذى يقيم منذ مدة تارة هنا ، وتارة فى مناطق مجاورة ، اشتهر بفضل مؤلفاته ، وخاصة كتابه الأخير « سقوط الأراضى الواطئة » الذى ينطق بقدرته على معالجة مادة التاريخ بنجاح .. والذين يعرفونه ، يرسمون له صورة طيبة تشمل فيما تشمل الأخلاق والسلوك ، وهو فى تصرفه يجمع بين الجد والود ، ويمكن أن يتصور المرء أنه يستطيع أن يؤثر على الشباب تأثيراً طيباً .. » وتمت الموافقة على التعيين خاصة وأنه لن يكلف الميزانية شيئاً .

وتلقى شيللر فى ١٥ ديسمبر خطاباً رسمياً بالاستعداد لتولى المنصب فى الربيع . وبدأ شيللر يتبين أنه وقع فى مأزق وأن العمل الجديد يكلفه من المال الكثير . كان عليه أن يحصل على دبلوم الماجستير قبل أن يتسلم العمل ، وكان هذا الدبلوم له ثمن لابد أن يدفع . وهذا هو يكتب إلى كورنر : « لعن الله هذه الأستاذية ، إنها تجر من جيبى الجنيه تلو الآخر .. والمفروض أن شهادة الماجستير القذرة ستكلفنى أكثر من ٣٠ تالر واستلامى العمل فى الجامعة نحو ٦ تالر .. » — كذلك تبين شيللر أن هذا العمل الجديد يحتاج إلى دراسة مركزة ، فليس من الممكن أن يلقى « الأستاذ » شيللر المحاضرات بلا إعداد . ولقد زار شيللر جوته وشكى له من المنصب الجديد ، وعبر له عن تخوفه من قلة علمه ، ما كان من بين الطلاب من يعلم أكثر منه فقال جوته : « تعلم وأنت تعلم » . وكتب بسرعة إلى صديقه كورنر يسأله النصيحة ، ويرجوه أن يمده بأسماء الكتب الضرورية للاستعداد للمحاضرات فوافاه بها . وأكب على قراءة كتب التاريخ فوجد أنها تستنزف وقته كله ، ولكنها ترضى شغفه القديم الحقيقى بالتاريخ . فإذا صح أن شيللر هو الشاعر التمثيلى الألمانى الأول ، فهو أيضاً شاعر التمثيلية الألمانية التاريخية الأول . ولهذا فكر أن يأخذ إجازة ، إجازة دراسية ، من الشعر ..

تكون إجازة وتكون دراسية فى الوقت نفسه ، تبعد عن الإنتاج الشعرى لتقترب منه فيما بعد بمادة كبيرة .

إنه يكتب إلى كورنر : « لابد أن أكون فناناً وفناناً فقط ، ولا أريد أن أعيش إذا لم أتمكن من ذلك .. وكل ما اهتم به الآن هو أن أصل فى غضون سنتين إلى الحصول على مرتب ، يؤمن حياتى تماماً من الناحية المادية ، ويأتينى بمبلغ أساسى لتسديد ديونى . فهذه الديون تجعل حياتى مريرة ، وتؤثر على حالتى النفسية على نحو يقضى على نشاطى كأديب . اننى أتوق إلى الراحة وإلى الحرية ، وهذه الخطوة الأخيرة (الأستاذية فى يينا) هى الخطوة الوحيدة التى يمكنها أن تصل بى إلى ما أتوق إليه ...وعند ذاك أبداً .. » .

وليس من المستبعد أن شيللر كان يمنى نفسه بأن يجد من جوته ، الأديب ، فهما لمحنة الأديب الذى يعيش لفنه ، فيساعده وهو الوزير صاحب النفوذ الواسع ، بمنحة تمكنه من التفرغ لمشروعاته . ولكن جوته لم يفهمه آنذاك ، واضطربت أحكام شيللر عليه ، فهو يعترف له بالعظمة ، ويحبه من أجلها ، ويتبين فيه الأنانية ، ويكرهه بسببها . كتب شيللر فى ذلك الوقت يقول : « لو كان على أن أكثر من التردد على جوته ، لكان فى ذلك شقائى » ... وأنا فى الواقع أعتقد أنه أنانى إلى درجة غير عادية وأن له موهبة تمكنه من السيطرة على قلوب الناس ، ومن جعلهم يرتبطون به لما يفعله من صنائع صغيرة وكبيرة . ولكنه يعرف كيف يظل دائماً متمسكاً بحريته . وهو يحب أن يعلن عن حياته ، ولكنه يفعل ذلك كإله ، وبدون أن يفقد ذاته ـ وهذا تصرف يبدو لى مرتباً مقصوداً وأنه محسوب ليأتى بأكبر متعة يمكن أن ينالها حب الذات . وينبغى على الناس أن يمنعوا مثل هذا الإنسان من أن ينشأ ويكبر بين ظهرانيهم . وأنا لهذا أكرهه ، على الرغم من أننى أحب فكره من كل قلبى ، وأكبره ... لقد أثار فى خليطاً غريباً من الكره والحب ، تارة أود أن أقتل فكره ، وتارة أحبه من كل قلبى . وأنا أعلق الكثير على حكمه . ولقد كان حكمه على «آلهة اليونان» حكماً طيباً جداً ، وإن وجد القصيدة طويلة أكثر مما ينبغى ، ولعله لم يخطىء فى ذلك كثيراً . رأسه ناضج ، وحكمه على يميل إلى جانب واحد ، هو ضدى أكثر مما هو معى . ولما

كنت مهتماً بمعرفة حقيقتي ، فإن هذا الإنسان هو بالضبط الوحيد بين الكثيرين ممن أعرف ، الذى يمكنه أن يقدم لى هذه الخدمة . وسوف أحيطه بأشخاص يتسمعون حكمه على ، لأننى لن أطلبه منه أبداً » .

وأرسل شيللر إلى كورنر يقول عن علاقته بجوته : « أنا لا أقيس نفسى بجوته عندما يقرر أن يستخدم طاقته كلها . فعبقريته أعظم بكثير من عبقريتى ، وله علاوة على ذلك ثروة من المعلومات أكبر من ثروتى ، وحساسية أكثر إصابةً من حساسيتى ، وله حس فنى صاف مصقول ، اكتسبه من معرفة بالفنون من كل الأنواع ، وهذا الحس الفنى ينقصنى إلى درجة تصل إلى الجهل المطبق . ولو لم تكن لى مواهب أخرى ، ولو لم أوت القدرة اللطيفة على الاستفادة من هذه المواهب والمهارات فى مجال الدراما ، لما أمكننى أن أظهر بجانبه فى هذا الفن » . إن شيللر يبذل جهداً كبيراً ليتغلب على إحساسه بكراهية رجل ناجح ، ويحاول أن يحلل شخصية هذا الرجل الناجح ، ويحلل شخصيته هو ، ليخلص بفائدة . إنه يرى فى جوته شيئاً من الكبر ، والتعالى ، والبعد عن الناس ــ ذلك أن جوته كان قد تحول إلى شخص آخر بعد إقامته فى إيطاليا ــ تحول إلى الأديب الكلاسيكى الذى يرتفع عن العوارض وعن الانفعالات الهوجاء ، ويهتم بالانسجام فى الشكل والمضمون . وشيللر يوشك أن يفهم هذه العظمة الكلاسيكية لأنه يطمح إليها منذ دريسدن ، ولكنه يتبين أن حسه الفنى يحتاج إلى مزيد من الصقل ، وأن مفهومه الفنى يحتاج إلى مستويات عالية من خبرة بالفنون الأخرى . انه فى حكمه على جوته يضطرب بين الذاتية والموضوعية . فى مارس ١٧٨٩ ــ قبل الثورة الفرنسية الكبرى بأسابيع ــ يكتب إلى كورنر : « هذا الرجل ، هذا الجوته ، يقف فى طريقى ، إنه يذكرنى كثيراً بأن القدر قسى على . فما أسهل ما وجدت عبقريته القدر الذى يحملها ، وما أشق الكفاح الذى ينبغى على أن أكافحه حتى هذه اللحظة . لم يعد من الممكن أن يعوض الإنسان كل ما فاته ــ فلا يمكن أن يغير الإنسان تشكيل نفسه بعد الثلاثين ــ وإن أمكن ذلك ، فلن يمكننى أن أبدأ هذا التغيير قبل ثلاث أو أربع سنوات ، لأنه ينبغى على أن أقدم نفسى ضحية لقدرى لمدة لا تقل عن أربع سنوات . ولكننى ثابت

الشجاعة ، وأؤمن بثورة سعيدة تحدث فى المستقبل . (يقصد ثورة فى حياته ، ويشاء القدر أن تحدث الثورة الكبرى فى فرنسا قبل أن تحدث ثورة فى حياته ! !) فإذا استطعت أن تأتينى فى غضون عام بامرأة تمتلك ١٢٠٠٠ تالر ، أعيش معها ، وأتعلق بها ؛ فأنا أعدك بأن أقدم لك فى خمس سنوات ملحمة «الفريديشيادة» وتراجيديا كلاسيكية ، ونصف دستة من الأغانى الجميلة ـ ما دمت تهيم بالأغانى الجميلة ـ و «طز فى جامعة يينا» .. ! !

الباب العاشر

الاستاذية

فى ٢٨ ابريل ١٧٨٩ حصل شيللر من جامعة يينا على « شرف ودرجة وحقوق وحريات ماجستير فى الفنون ودكتوراه فى الفلسفة » ـ على مايدو دون ماحاجة إلى تقديم رسالة ماجستير أو دكتوراه أو التقدم لامتحان ، فقد جاء التعيين من قبل مجلس الوزراء ، وأصبحت الشهادات مجرد شكليات . وفى ٣٠ ابريل وقع على يمين الأستاذية الذى يقسم فيه على أن يخدم الأكاديمية مخلصاً . ـ وكان شيللر قد سافر فى مارس إلى يينا وقضى بضعة أيام اعد فيها المسكن الذى سيسكن فيه ، وأعانه فى ذلك الأستاذ شوتس[1] . وانتهز الفرصة فسافر إلى رودلشتات حيث التقى بالأختين لوته وكارولينه . ولم تكن أمهما موجودة لأنها كانت قد تسلمت عملاً فى البلاط مربية لأميرات رودلشتات .

وفى يوم ١١ مايو وصل شيللر إلى يينا ـ المدينة التى سيرتبط بها مصيره لمدة عشرة أعوام ـ وبدأ يستعد لإلقاء المحاضرة الافتتاحية . وكان الطلاب فى شوق إلى الاستماع إلى الأستاذ الشاب ـ ٣٠ سنة ـ صاحب « قطاع الطرق » ، المسرحية التى ذاعت شهرتها فى كل مكان وكان الطلبة خاصة يحبون ترديد أغنيتها : «إننا نحيا حياة حرة !» . وكان موعد هذه المحاضرة هو يوم ٢٦ مايو

(١) Schütz

١٧٨٩ . والطريف ان الجامعة لم تكن لها مبان خاصة بها بعد ، وكان الأساتذة يدرسون فى بيوتهم ، أو فى أماكن استؤجرت لهذا الغرض . ولما لم يكن « المستشار القايماري البروفسور دكتور فريدريش شيللر » ـ وهذا هو اسمه ولقبه الرسمى الذى اتخذه فى الجامعة ـ قد أوتى المكان المناسب ، فقد استعار حجرة محاضرات الأستاذ راينهولد وكانت حجرة تتسع لثمانين جلوساً وعشرين وقوفاً . ويصف شيللر فى خطاب إلى كورنر ماحدث فى ذلك اليوم : «أنت تعرف تواضعى . وقد لقى تواضعى هذا مكافأة باهرة . كان موعد محاضرتى بين السادسة والسابعة مساء . وفى منتصف الساعة السادسة كانت القاعة قد امتلأت . ونظرت من نافذة راينهولد إلى الشارع فوجدت الطوابير تلو الطوابير تتقدم ولاتنتهى إلى نهاية . وعلى الرغم من أننى لم اكن خالياً تماماً من الخوف ، فقد كنت أجد فى تكاثر الحضور متعة ، وزادت شجاعتى لذلك بدلاً من أن تضعف . وكنت قد دعمت نفسى بقوة من نوع خاص ، ساعدتنى عليها فكرة وهى أن محاضرتى لا ينبغى أن تتردد أمام المقارنة بأى محاضرة أخرى ألقيت من فوق منصة من منصات جامعة يينا ، وأن جميع من سيستمعون إلى سيعترفون بتفوقى . ولكن الجمع تزايد ، بحيث ازدحمت القاعة والمدخل والسلم ، واضطر كثيرون إلى الانصراف . وهنا خطر ببال شخص كان عندى أن يقترح على أن أختار مكاناً آخر لإلقاء محاضرتى . وكان نسيب جريسباخ فى هذا الوقت بين الطلاب ، فأعلنت عليهم اقتراح القاء المحاضرة عند جريسباخ ، ولقى الاقتراح قبولاً وترحيباً . وهنا حدثت ملهاة لطيفة . فقد اندفع الجميع إلى الخارج ،وساروا فى موكب لافت للنظر فى شارع يوهانس ،وهو من أكبر شوارع يينا ، حتى امتلأ الشارع كله . ولما كانوا يسرعون ما استطاعوا ليحصلوا على مكان جيد فى قاعة جريسباخ[1] ، فقد كان المنظر فى الشارع مثيراً ، وأسرع من بالبيوت إلى النوافذ . وتردد التساؤل فى كل مكان : ماذا حدث؟ ماذا جرى؟ وكانت الإجابة : «الأستاذ الجديد سيلقى محاضرة ! » وهكذا ترى أن المصادفة ذاتها

(١) Johann Jakob Griesbach

أسهمت فى جعل بداية عملى باهرة جداً . وتبعت أنا الجمع بعد مسافة ، وبرفقتى راينهولد ، وأحسست ، وأنا أجتاز المدينة ، التى طالما تجولت فيها ، كأننى أسير بين صفوف من الجلادين ينهالون على بالسياط . وقاعة محاضرات جريسباخ هى أكبر قاعة ، ويمكنها أن تضم ثلاثمائة أو أربعمائة من الناس متزاحمين . ولقد امتلأت القاعة[1] ، وكذلك الطرقة والمدخل حتى باب البيت ، ووقف الكثيرون فى قاعة المحاضرات ذاتها على المدرجات السفلية . وشققت طريقى بين حشود المشاهدين والمستمعين ، ولم أصل إلى المنصة إلا بشق الأنفس . وارتقيت المنصة ، بينما دوت عاصفة شديدة من الاستحسان ، ورأيت نفسى محوطاً بمدرج من البشر . وعلى الرغم من أن الحرارة كانت شديدة فى القاعة ، فقد كان الجو محتملاً عند المنصة ، حيث فتحت النوافذ كلها ، وأتتنى بنسمة منعشة . فلما نطقت بالكلمات العشر الأولى مطمئناً ، تمكنت من السيطرة على نفسى تماماً . وتلوت المحاضرة بصوت قوى مطمئن ، حتى أننى نفسى دهشت لذلك ، وكان من بالباب يستطيعون الاستماع إلى ومتابعتى على نحو طيب . »

وهكذا نجحت المحاضرة نجاحاً منقطع النظير ، وأصبحت حديث المدينة كلها[2] . وفى المساء ذهب عدد من الطلبة إلى بيت شيللر ووقفوا تحت نافذته ومعهم فرقة موسيقية فعزفوا شيئاً من الموسيقى لتحيته وهتفوا بحياته . وفى اليوم التالى كان الازدحام على النحونفسه تقريباً ، ثم بدأ يخف تدريجياً بعد أن أشبع أصحاب الفضول فضولهم ، وعاد الطلاب إلى محاضراتهم العادية الأخرى ، أو إلى لهوهم الشهير فى حانات البيرة . وسواء كثر الطلاب فى القاعة أو قلوا ، فلم يكن شيللر يستفيد من ذلك مالياً ، فلم تكن محاضراته تدر شيئاً من الربح عليه ، كما تدر محاضرات الأساتذة الآخرين عليهم من الربح ، فقد كانت محاضراته « عامة » مجانية ، لأنها لم تكن تعد أحداً لكسب لقمة العيش .

(١) أكثر من نصف طلاب الجامعة كلها .

(٢) من الطريف أن تجمهر الطلاب على هذا النحو غير المألوف ملأ المدينة بالشائعات وخرج الكثيرون من الأهالى لاستطلاع الأمر ، وكذلك البعض رجال المطافئ باعتقاده أن كارثة قد حدثت ! !

كانت المحاضرة الافتتاحية تحمل عنوان : « ماهو تاريخ العالم ولماذا ندرسه ؟ »[٢] وقد بدأها شيللر بداية حماسية مثيرة عندما فرق بين نوعين من طلاب العلم ، نوع يطلب العلم الكسب العيش ، ونوع يطلب العلم لأنه ذو عقلية فلسفية ، يسعى إلى الحقيقة ويجد مكافأة ذاتية سخية عندما يلقاها . وقال إنه يتجه إلى النوع الثانى من الطلاب فقط . وأخذ يشرح أهمية تاريخ العالم ، فاعتبر تاريخ العالم ضرورة جوهرية لفهم الحاضر . وسواء أخذنا بأن شيللر لم يكن يحيط بفلسفة كانط ، أو أخذنا بأنه كان يعلم شيئا منها ، فالثابت أن محاولة تفسير التاريخ والوصول إلى معناه ، دعوة دعا إليها كانط واشتهر بها . وربما كان الأرجح أن شيللر كان قد عزم على التعمق فى فلسفة كانط بعد أن نبهه إليها كورنر أولاً وراينهولد بعد ذلك ، فقرأ المقالات الصغيرة ، وأجل الكتب الكبيرة إلى المستقبل القريب . ــ وحديث شيللر عن العصر الحاضر حديث مختلف عن حديثه عنه أيام قطاع الطرق وأيام « آلهة اليونان » ، إنه مفهوم قصيدة « الفنانون » ــ فهو يرفع العصر الحديث إلى أعلى المراتب ، ويجد من الخطل[١] تمنى عودة العصور القديمة التى كثيراً ما تحمس لها المتحمسون واطلقوا عليها اسم العصور الذهبية . كذلك يجد من البعد عن الصواب لوم المسيحية لقضائها على آلهة اليونان ، ويعتبر ذلك اللوم من قبيل الصبيانية فى التفكير . ويتحدث عن مهمة المؤرخ فيرى أنها جمع الحقائق من مصادرها ، ثم اكمالها ــ حيث دعو الحاجة ــ عن طريق الاستنتاج المنطقى ، حتى تكتمل فى شكل منسجم صورة الإنسان وكيف تطور من الحياة فى الكهوف ــ حياة غير اجتماعية ــ إلى الحياة كإنسان مفكر فى مجتمع يقوم على عقد أو عقود (صورة مقلوبة لنظرية روسو فى « العقد الاجتماعى ») .

ونظر الأساتذة ، زملاء شيللر ، إليه بنظرات يغلب عليها الاستغراب ، خاصة وقد ركز هجومه على من يشتغلون بالعلم من أجل كسب العيش . ولكنه وجد بينهم من أقبلوا عليه مخلصين . نشأت بين شيللر وبين أستاذ اللاهوت يوهان ياكوب جريسباخ مثلاً ــ صاحب قاعة المحاضرات التى استعارها ــ علاقة ودية ،

(١) Was heisst und zu welchem Ende studiert man Universalgeschichte

وكان شيللر يتردد على البيت ويحظى باهتمام زوجة الأستاذ جريسباخ التى كانت تحب أن تدس نفسها ببساطة وسذاجة فى أمور الآخرين وتتمنى أن ترى شيللر فى القريب العاجل زوجاً سعيداً . وظلت العلاقات بين شيللر وبين بيت جريسباخ قائمة قوية ، وعرفت السيدة جريسباخ كيف تبرهن على صداقتها واخلاصها فى أوقات المحنة ، وخاصة عندما مرض شيللر . ـ واتصلت العلاقة الودية بين شيللر وبين الأستاذ باولوس والأستاذ راينهولد ـ بطبيعة الحال ـ والأستاذ هوفيلاند ، وشوتس وغيرهم .

كان شيللر فى يينا يسكن فى بيت تمتلكه آنستان عانستان ، اسمهما شرام[1] ، فسمى البيت نسبة إليهما « شرامای » ، وكان أغلب سكانه من الطلاب . وكان يستأجر ثلاث حجرات جميلة واسعة كثيرة الأثاث : بها كنبتان ومنضدة للعب و١٨ كرسياً وسريراً منجداً بالقطيفة الحمراء ، ومكتب صنعه شيللر على نفقته . ـ وكان شيللر يرتاح إلى السكن كل الراحة ويكتب إلى الأصدقاء متفائلاً مؤكداً أنه فى أحسن الأحوال وأن مزاجه فى غاية الاعتدال . ـ كان يكب على المحاضرات يعدها بدقة ، ويفكر فى صديقتيه كارولينه وشارلوته اللتين كانت الرسائل تربطه بهما . وكلما نشطت الرسائل فى الذهاب والإياب زاد حنينه ، واشتد احساسه بالوحدة . وفكرت الأختان فى الذهاب إلى قرية لوبيدا بالقرب من يينا لقضاء الصيف والاقتراب من شيللر ، ولكن أمهما اعترضت على الفكرة خوفاً من لسان الناس . وفى أول يولية قضيتا فى يينا يوماً وهما فى الطريق إلى صديقة اسمها كارولينه داخرؤدن ، ولكن شيللر لم يجد الفرصة ليفصح عما فى نفسه . وانصرفتا عنه وعاد إلى احساسه بالوحدة . وتشاء المصادفات أن تتفق الأختان مع الصديقة كارولينه داخرؤدن على قضاء الصيف فى مصيف لاوخشتيت قرب مدينة هالله[2] . كانت كارولينه داخرؤدن[3] من جيل الأختين لينجيفيلد ، وكانت حائرة بين رجلين أحدهما ابن الأديبة المعروفة صوفى لاروش

(١) Schrammei . Schramm

(٢) Halle , Lauchstädt

(٣) Karcline Dacheroden

والآخر ـ ڤيلهلم ـ أخو الأديب الفيلسوف العالم الكسندر فون هومبولت . أما كارولينه فون بويلڤيتس[1] فكانت بخبرتها السيئة مع زوجها ـ الذى كانت تطلق عليه فى خطاباتها اسم « الدب » دلالة على استثقالها دمه ـ تشجع الأخت والصديقة على المضى فى طريق الحب وضرب الصفح عما سواه .

وبينما الثلاثة فى لاوخشتيت وصل شيللر فى ٢ أغسطس ١٧٨٩ ، وقد ترك يينا مدعياً أنه مسافر إلى لايبتسج لمقابلة كورنر . وهنا قر رأيه على اختيار شارلوته لتكون رفيقة المستقبل . ولا شك فى أن كارولينه هى التى صارحته بأن أختها تحبه ، وحثته على الزواج بها . فقد كتب شيللر إلى شارلوته بعد سفره من لاوخشتيت إلى لايبتسج يقول : « هل صحيح يالوته ، ياأغلى الناس عندى؟ هل يحق لى أن آمل أن كارولينه قد قرأت مافى نفسك ، وأجابت على إجابة استمدتها من قلبك ، إجابة لم أكن أجد فى نفسى الشجاعة للتصريح بها ؟ ماكان أشد ثقل هذا السر على ، وقد حملته وحافظت عليه منذ زمن طويل ، وكثيراً ماكنت ـ عندما كنا نعيش معاً ـ استجمع شجاعتى ، وأذهب إليك وأنا أنوى أن أكشف لك سرى ـ ولكن شجاعتى كانت دائما تتخلى عنى . كنت أعتقد أننى أنانى فى رغبتى ، وكنت أخشى أن أكون متمثلاً سعادتى أنا فقط أمام عينى ، وكنت أتردد نتيجة لهذا الاعتقادوكنت أفكر فى أننى مادمت لم أصبح بالنسبة إليك ، ماأصبحت أنت بالنسبة إلى ، فإن محنتى كانت ستعكر صفوك ، واعترافى بحالى كان سيحطم الانسجام الجميل الذى اتسمت به صداقتنا ، وكنت سأفقد مانلته ، أعنى صداقتنا الأخوية النقية ، ثم كانت لحظات ستمر على ، يبرز فيها أملى من مكمنه ، وتبدو لى السعادة التى كنا نستطيع أن نمنح أنفسنا إياها ، أسمى من كل الاعتبارات ، ويلوح لى فيها أن السعادة من العظمة بحيث ينبغى أن أضحى من أجلها بكل ماعداها . كان من الممكن أن تنعمى بالسعادة بدونى ، ولم يكن من المحتمل قط أن تعانى الشقاء بسببى . كان هذا هو إحساسى القوى ـ وعليه بنيت آمالى بعد ذلك . كان من الممكن أن تهبى نفسك

(١) Karoline von Beulwitz

شخصاً آخر ، ولكن ليس هناك إنسان يمكن أن يحبك حباً أكثر صفاء ورقة من حبي . ليس هنك إنسان يمكن أن تكون سعادتك بالنسبة إليه أكثر قدسية مما كانت وستكون بالنسبة إلى . إننى أهبك كل كيانى ، كل ما فى نفسى ، كل شىء ، يا أغلى الناس عندى ، وأنا عندما أسعى إلى السمو بنفسى ، فإننى إنما أفعل ذلك لكى أكون أكثر جدارة بك ، ولكى أتمكن من اسعادك أكثر . إن عظمة النفوس رباط جميل وثيق من الصداقة والحب . إن صداقتنا وحبنا سيكونان رباطين وثيقين لاينقطعان وسيكونان خالدين ، مثل المشاعر التى يقومان عليها . ـ فانس الآن كل شىء يمكن أن يثقل على قلبك بقيد أو إكراه ، ودعى أحاسيسك تتكلم . أكدى لى ما جعلتنى كارولينه أعلق عليه الأمل . قولى لى إنك تريدين أن تكونى لى ، وإن سعادتى لن تكلفك تضحية . آه ، أكدى لى هذا ، وقولى كلمة واحدة فقط . لقد تقاربت قلوبنا منذ زمن طويل . انبذى الغربة التى اندست بيننا ، ولا تدعى شيئاً يعكر علينا صفو حديث روحينا . ـ وداعاً يالوته ، يا أغلى الناس عندى . إننى مشتاق إلى لحظة هادئة أصف لك فيها كل أحاسيس قلبى التى أسعدتنى وأشقتنى فى هذا الوقت الطويل الذى تملك فيه هذا الشوق نفسى وحده . وما أكثر ما أريد أن أقوله لك ؟ ـ لاتترددى فى انقاذى من القلق نهائياً وإلى الأبد . إننى أضع كل المتع والمباهج فى يدك . آه ، إننى منذ زمن طويل لا أتصورها فى شكل آخر غير صورتك . » .

إذن لقد حثته كارولينه على التقدم فى طريق الحب ولقد فعل . ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى يأتيه رد شارلوته . إنه يعتقد أنه لابد أن يضيف إلى ما قد قاله شيئاً جديداً . فهو يرسل خطاباً آخر يقول فيه : « هذا اليوم ، هو أول يوم أحس فيه بالسعادة . لا . أنا لم أعرف إلا اليوم معنى السعادة » . ثم يذكر أنه تقابل مع كورنر فى لايتسج وأخبره بحبه وبالخطوة التى تقدمها ويضيف : « ولقد قرأت فى روحه سعادتى ، وأسعدته معى . آه ، وإننى لا أعرف ما بى . إن دمى ينفعل ولايعرف السكون » . ـ ويلى هذا الخطاب خطاب آخر : « ما أجمل وما أروع المستقبل الذى ينتظرنى . ما أروع الأيام التى سيهبها كل منا للآخر .... إننى أحس أن روحاً تعيش فى ، قادرة على كل جميل طيب . لقد وجدت نفسى من جديد ، وأنا مهتم بنفسى لأننى أهبك نفسى » .

وفى ٥ أغسطس كتبت لوته الرد : « لقد بدأت مرتين كتابة الرد إليك ، ولكنني كنت فى كل مرة أجد أن مشاعرى أكثر من أتمكن من التعبير عنها . لقد قرأت كارولينه فى روحى ، واستمدت من قلبى الإجابة . إن فكرة الممكن من الاشتراك فى إسعادك ، تمثل واضحة براقة أمام روحى . فإذا كان تحقيق هذه الفكرة رهناً بالحب العميق المخلص والصداقة ، فإن أعز آمال قلبى قد تحقق ، ألا وهو أن أراك سعيداً . ـ لست أريد أن أكتب اليوم أكثر من هذا ، وسنتقابل يوم الجمعة ، ما أعظم فرحى بأننا سنلتقى بصديقنا كورنر . سأدعك يا حبيبى تقرأ فى نفسى ، مدى تعلقى بك . إلى اللقاء . المخلصة إلى الأبد ، لوته » .

وفى ٧ أغسطس ذهبت كارولينه وشارلوته إلى لايبتسج ، للقاء شيللر وأصحابه . ولكن اللقاء كان مخيبًا للآمال ، لأن كورنر ومينا ودورا لم يغفروا لشيللر إخفاءه عنهم قصة حبه الطويلة ، ووضعهم أمام الأمر الواقع . وكان تدخل أصدقاء لايبتسج فى حياة شيللر منذ مساعدتهم له فى وقت محنته الكبرى ، ويأسه كبيراً . لقد كانوا يعطون أنفسهم ما يشبه الحق ، فى الاشتراك مع شيللر فى القرارات الكبيرة التى يتخذها فى حياته . إننا نرى شيللر فى خطاباته إلى كورنر ـ والتى بعثها من فايمار خاصة ـ يجتهد فى إعطاء تفسيرات مقبولة لخطواته المختلفة وبخاصة فى موضوع الأستاذية . وكأنما كان شيللر يعتبر كورنر ومينا ودورا أسرته ـ لا يريد أن يتصرف دون استشارتهم .

وبقدر ما سعد شيللر بلقاء شارلوته وسعدت هى بلقائه ، تأكدت الجفوة بين كورنر ومينا ودورا من ناحية وكارولينه وشارلوته من ناحية ثانية . ـ ورحل شيللر فى ٨ أغسطس مع الأختين الحبيبتين إلى لاوخشتيت ، حيث أمضوا وقتاً سعيداً يتحدثون عن المستقبل . وكان شيللر كبير التفاؤل ، وإن لم يكن فى ذلك الوقت يجد من المال ما يكفيه ، وما يمكنه من تحقيق حلمه وإعلان الخطبة فالزواج . ولهذا قرر الثلاثة أن تبقى الخطبة سراً بينهم ، لا يبلغونه إلى الأم العزيزة ، حتى تتحسن الأحوال . وكان شيللر يأمل أن تتحول الوظيفة المجانية التى حصل عليها ، إلى وظيفة ذات مرتب خاصة بعد المحاضرة الافتتاحية التاريخية ، التى اهتزت لها الأوساط . ولكن أمله كان مجرد أمل ، فلم يحرك الأمير

الفايماري ساكناً ، ولم يمد يده إلى خزينة المال ، ولم يفتح فمه بوعد مباشر او غير مباشر .

وانفتح أمام شيللر سبيل أمل آخر . فقد دلته كارولينه فون داخرؤدن على قريب لها عظيم النفوذ هو الكونت كارل تيودور فون دالبرج[1] ، أخو دالبرج مدير مسرح مانهايم ، هذا الكونت فون دالبرج كان محافظ مدينة إرفورت القريبة ، وكان يرجو أن يخلف الأمير الناخب على عرشه . (وقد أدى به شغفه بالحكم إلى مسلك غير وطنى فيما بعد عند احتلال نابليون لألمانيا ، يعتبر فى تاريخ الكفاح الوطنى الألمانى عملاً من أعمال الخيانة) ـ كان دالبرج يهتم بالشئون الثقافية ، ويعرف أن التقدم لايتم بدونها . فإذا جردناه من شخصيته السياسية ، ونظرنا إليه كشخصية ثقافية فحسب ، وجدناه كبيراً بين قلة من الكبراء : وحسبه تشجيعه أكاديمية إرفورت وجامعة ڤورتسبورج . ـ كان دالبرج هذا يعرف شيللر كاتباً ، ويقدره ، فلما علم بالصعوبات المالية التى يتعرض لها ، وعد بأن يساعده على التخلص مما يؤرقه ، ويمكنه من التفرغ للعمل الأدبى ، على أن هذا الوعد كن مرتبطاً بتوليه إمارة « ماينتس » بعد أن يموت أميرها الناخب .

وهكذا أشرق فى سماء شيللر نجم أمل آخر ، ولكنه كان مجرد أمل . ومهما يكن من أمره فقد فرح له شيللر ، ووجد فيه اعترافاً بقدره ، ووجد فيه سبباً جديداً للتفاؤل ، بل إنه أخذ يفكر فى حياته عندما تتاح له فرصة الانتقال إلى ماينتس ، وراح يرسم لها الخطط ، ويهيم بخياله ما شاء .

كان شيللر مستمراً فى تزويد مجلته « طاليا » بمواد جديدة وأصدر فى مايو ١٧٨٩ العدد السابع منها وفيه جزء من ترجمة « إيفيجينيا » وفصل من رواية «الرجل الذى رأى الأرواح » ، وأخرج فى أكتوبر ونوفمبر العدد الثامن وفيه ترجمة جزء آخر من مسرحية أوبريبيدس وفصل آخر من الرواية المسلسلة . كذلك عكف جاداً على التعمق فى دراسة التاريخ الذى شاءت المقادير أن يصبح أستاذاً فيه . حتى جاء عطلة الخريف الجامعية ، فسافر فى ١٨ سبتمبر إلى

(١) Karl Theodor von Dalberg

رودلشتات ليقضيها هناك . وعادت اللقاءات الحبيبة تتجدد ، وعاد الحديث الحلو وقد عرف لنفسه طريقاً واضحة ، وكم طاف شيللر بالأختين الحبيبتين فى آفاق من الخيال بعيدة عرف كيف يقربها . تقول كارولينه : «كان يصور المدن والبلاد والظروف وخيار الناس فإذا بها تمتلىء بالحياة وتمثل أمام الأعين . ولم يكن الأمر يحتاج منا إلا إلى شحذ خياله ، كمصباح علاء الدين ، فتنهمر الكنوز الغنية العظيمة الوفيرة أمامنا » .

على أننا نخطىء إن تصورنا أن شيللر اختار شارلوته ، ومنحها قلبه كله ، فعلاً ، وانصرف عن أختها كارولينه تماماً . إنه مايزال يكتب إلى الأختين : « ما أكثر انشغال روحى بالمستقبل ومناظره ! .. إننى أصحو وقد تملكنى احساس بأنى أجدكما معى ، أو إحساس بأننى سأجدكما فى الغد معى ، ثم أغفو . إن المتعة يعطلها الأمل ، والأمل الحلو يعطله التحقيق ، وحياتنا الذهبية تطير محمولة على أجنحة ملائكية سماوية .. » - ولقد شهد شاهد أن شيللر كان يعانق كارولينه ويغدق عليها القبلات الحارة . حتى تشجعت شارلوته وكتبت إلى شيللر بعد مبارحته رودلشتات عائداً إلى يينا ، تسأله عن حقيقة شعوره نحوها ، وعن مشروعاته فى المستقبل تجاهها ، ولم تخف مخاوفها ، وغيرتها ، فكتب شيللر يرد عليها : «إنك تخافين من أنك ربما لن تكونى بالنسبة إلى ما أنت الآن بالنسبة إلى . إذن فلابد أنك ستكفين عن حبى . ليس حبنا بحاجة إلى الخوف والحرص - وكيف يمكننى أن أتمتع بحياتى بينكما إذا لم تؤت أحاسيسى حيالكما الثقة الحلوة ، فى أننى لا أمنع الواحدة ما أمنحه للأخرى .... إن كارولينه أقرب منى سناً ، ولهذا فهى أكثر شبهاً بى فى الأفكار . وهى قد أيقظت فى نفسى من المشاعر أكثر مما أيقظت أنت ، .ياحبيبتى لوته ، ولكنى ما كنت لأتمنى على الإطلاق أن يتغير الحال ، ولا أن تكونى غير ما أنت . فما تزيده كارولينه عليك ، ستناليه منى . ينبغى أن تنمو روحك فى حبى ، وينبغى أن تكونى مخلوقتى وينبغى أن تتفتح زهرتك فى ربيعى . ولو أننا التقينا بعد إذ التقينا ، لضاعت على بهجتى وفرحتى بالنظر إليك وأنت تترعرعين من أجلى . فاأجمل علاقتنا كما صنعها القدر ! هذه العلاقة الرقيقة لا يمكن الكلام أن يصفها ، ولكن الروح تحس بها جميلة واضحة » .

ولابد أن شيللر صمم على أن يحتفظ بالأختين ، أما الأولى فلتكون الحبيبة الملهمة المتأججة بالمشاعر والأفكار واما الثانية فلتكون الزوجة الهادئة الوديعة الطيعة المطيعة .

وعاد شيللر إلى يينا فى ٢٢ أكتوبر واستأنف المحاضرات بعد أربعة أيام من وصوله ، وحدثت لشيللر حادثة أغضبته غضباً شديداً . كان قد نشر محاضرته الافتتاحية وذكر أن وظيفته هى « أستاذ التاريخ » ، بينما كانت وظيفته الرسمية هى «أستاذ الفلسفة» وهى التسمية العامة لوظائف الأساتذة فى الجامعة . وتصادف أن كان بين أساتذة الجامعة أستاذ اسمه هاينريش ، كان لقبه الرسمى « أستاذ التاريخ » فاغتاظ لفعلة شيللر ، واعتبر ذلك منه تطاولاً على لقب ليس له ، وقدم احتجاجاً رسمياً إلى مجلس الأكاديمية ، فقرر المجلس تكليف أحد موظفيه بمصادرة المكتوبات التى تحمل هذا اللقب الذى لا يحق اضافته إلى اسمه . ـ واتخذ غضب شيللر شكل محاولات للانتقال من يينا والعمل فى أماكن أخرى.. فى برلين أوفيينا أومباينتس أوهايدلبرج أو حتى مانهايم .وكانت أكثر هذه المحاولات جدية ، محاولته مع البارون دالبرج فى إرفورت . ولكن دالبرج رد عليه فى منتصف شهر نوفمبر ١٧٨٩ يقول له إنه لن يكون فى إمكانه مساعدته طالما كان الأمير الناخب ، الأسقف الماينتسى ، على قيد الحياة .

وبقى شيللر فى يينا . وسرت بذلك الأختان كارولينه وشارلوته . وكذلك ارتاح له أبو شيللر ، الذى اعتبر تعيين ابنه أستاذاً فى الجامعة شيئاً رفيعاً ، جديراً بالفخار . وبدأ شيللر ولوته يفكران فى مصارحة الأم الحبيبة بالسر . واعدت لوته الجو بحديث إلى السيدة فون شتاين التى نقلته إلى الأمير ، وسمعت منه الترحيب . ثـم كتبت كارولينة إلى الأم الحبيبة بالخبر ، وكذلك فعلت شارلوته التى أبلغت شيللر بما فعلت فى خطاب جاء به : « لقد قلت لها كيف أن سعادة حياتى رهن بتفكيرى فى أننى فى هذه الدنيا من أجلك ، يا حبيبى ، وهذا كله من شأنه أن يؤثر عليها تأثيراً عميقاً » . ـ وتريثت الأم فى الرد . وأخيراً أبدت موافقتها . وكان على شيللر أن يبعث لها بخطاب « رسمى » يطلب فيه يد كريمتها . وفى ١٨ ديسمبر ١٧٨٩ انطلق الخطاب من يينا يحمل عبارات الحب والتوسل : « إننى أضع

سعادة حياتى كلها بين يديك . أنا أحب لوته ـ آه لطالما كان هذا الاعتراف على شفتى ولا يمكن إلا أن تكونى قد لاحظت على ذلك . فمنذ اليوم الأول الذى دخلت فيه بيتكم ، ثبتت صورة لوته الحبيبة فى مخيلتى ولم تفارقنى . ولقد رأيت ما فى قلبها الكريم الجميل ... وأصبح كل يوم يزيدنى يقيناً بأننى لن أجد السعادة إلا على يدى لوته ... » .

وفى ٢٣ ديسمبر سافر شيللر مع خطيبته وأختها إلى ڤايمار ، وسمع الأمير كارل أوجوست بوجوده فى حاضرته فاستدعاه إليه وتحدث إليه فى أنه يود أن يشجعه ولكنه لا يستطيع أن يقدم إليه سوى ٢٠٠ تالر فى العام . فأجاب شيللر بأن هذا هو كل ما يرجوه . وكذلك علم شيللر أنه حصل من أمير ماينينجن على لقب « مستشار بلاط » (وهو لقب يقربه نوعاً ما من أسرة لينجيفيلد النبيلة) . ـ وقد جاءت هذه المكافأة المالية من كارل أوجوست فى موعدها وجعلت الزواج قريب التحقيق . وكذلك وعدت الأم الحبيبة فون لينجيفيلد بأن تقدم للزوجين الناشئين ١٥٠ تالر سنوياً . وكان شيلر يحصل على شيء من المال من الكتب . وقد نشر فى نوفمبر ١٧٨٩ الجزء الأول من سلسلة المذكرات التاريخية[١] وبه بقلمه دراسة عن « الحروب الصليبية والعصر الوسيط » . والجزء الأول من رواية « الرجل الذى رأى الأرواح » جمعها فى كتاب ، هذا إلى طبعة خاصة من محاضرته الأولى والعدد الثامن من « طاليا » .

وفى ٢٢ فبراير ١٧٩٠ تزوج شيللر وشارلوته فى كنيسة صغيرة فى ضاحية ڤينيجنيينا[٢] ، بعيداً عن الأنظار ، فى احتفال هادىء اقتصر على أقرب المقربين . وبدأت الحياة الزوجية السعيدة فى البيت نفسه الذى كان به شيللر قبل الزواج ، مع تغيير طفيف يتمثل فى استئجار حجرة أخرى علاوة على الثلاث السابقة . واتخذت شارلوته خادمة لها وكذلك اتخذ شيللر خادماً . وكانت الآنستان شرام تقومان بإعدادالطعام لقاء أجر زهيد ، وكانت المائدة تحفل ببعض

(١) Allgemeine Sammlung Historischer Memoires.

(٢) Wenigenjena

النابهين من المعجبين بشيللر ، المهتمين بلقائه أو الاقتراب منه . ــ كانت خطابات شيللر فى هذا الوقت تفيض بالسعادة . وكانت من بينها خطابات كثيرة إلى أسرته ، إلى والده ووالدته وأخته كريستوفينه . فى خطاب إلى كورنر يقول شيللر : « ما أجمل الحياة التى أحياها الآن . إننى أنظر بنفس مبتهجة حولى ، فيجد قلبى فى خارجه راحة دائمة رقيقة ، ويجد قلبى الغذاء الجميل والاستجمام . لقد سارت حياتى إلى اتزان منسجم ، وأصبحت أيامى تنقضى هادئة وصافية ، بعد أن كانت متوترة مشحونة بالانفعالات » . ــ ويتكرر المعنى نفسه فى خطاب أرسله شيللر إلى أخته كريستوفينه : « بدلاً من أن أسترسل فى الرواية والكلام ، أكتب إليك باختصار إننى سعيد مع حبيبتى لوته ، وإن كل آمالى فى السعادة العائلية قد تحققت فى أجمل صورة . إننا نعيش معاً أسعد حياة ... » .

فلما أقبل الصيف سبقت شارلوته شيللر إلى رودلشتات لقضاء العطلة هناك . ولكنها لم تحتمل الفراق هذه الساعات القلائل وكتبت إليه : « كم أحس كل يوم ، وكم أحس اليوم بوضوح ، أن الحياة لا تمنحنى زهورها الحبيبة إلا وأنا معك ، تحت عينيك . إن قلبى بدونك مسكين فارغ . وأنا لا أحيا حياة أفضل إلا معك . آه ، إن الفراق ولو لساعات قليلة يؤلمنى » ــ فهل هناك دليل أصدق من هذا على سعادة الزوجين الشابين ؟

ولم تكن هذه السعادة بالشىء الذى يثلج صدر الأصدقاء والمعارف جميعاً . لقد فرح لها الأستاذ جريسباخ وزوجته ، والأستاذ شوتس صاحب المجلة الأدبية ، والأستاذ هوفيلاند أستاذ القانون ، والأديب المفكر هردر ، كذلك تغلب فيلاند بسرعة على إحساسه بخيبة الأمل وضياع شيللر من قبضته ــ واستمرت علاقته بشيللر عادية ، طبيعية . ــ أما شارلوته فون كالب فقد أوشك زواج شيللر أن يصيبها بالجنون . والحقيقة أن شيللر أخبر الأختين كارولينه ولوته بعلاقته بها ، وكذلك أخبرها بعلاقته بالأختين . ولكنها كانت تتمنى أن تمر علاقة شيللر الجديدة عابرة ، وأن تتمكن من الارتباط به نهائياً ، والحصول عليه لنفسها . وسرعان ما نقلت الشائعات أن الحب تحول إلى خطبة وأن الخطبة لن تلبث أن تتحول إلى زواج . وفى فبراير ١٧٩٠ صارح شيللر شارلوته فون كالب

بمشروع زواجه ، ويمكننا أن نتصور أن شارلوته عنفت شيللر وأغلظت له إغلاظاً شديداً ، وقد كتب هو إلى الأختين يقول : « .. كانت تريد أن تلف حبائلها حولى بالمهارة والخبث . وها هى ذى الآن قد تجردت من الكرم وتجردت من الأدب ولم تعد توحى إلى بالاحترام .» وطلبت شارلوته فون كالب من شيللر أن يعيد إليها رسائلها ، فأعادها إليها فى ١٨ فبراير ١٧٩٠ . وكانت قد سعت قبل ذلك بأيام قليلة – ١١ فبراير – إلى لقاء شارلوته فون لينجيفيلد فى بيت السيدة فون شتاين . وتحكى لوته عن هذا اللقاء فتقول : «كنا باردتين تماما الواحدة حيال الأخرى . وكانت تبدو كإنسان أصيب بالجنون . بل تجاوز ذروة الجنون ، فأصبح خائر القوى ، محطما لا يستطيع الكلام . ولاحظت العائلة كلها أنها لم تبد على هذه الحال من قبل قط . وأخذت تشكو من الصداع ، وجلست بيننا وكأنها من كوكب آخر أو كأنها ليست بيننا » .

وما دمنا قد وصلنا فى قصة شارلوته فون كالب إلى هذا الجزء ، فلا بأس من أن نسبق الأحداث ونتمها . وقد يهمنا أن نعرف ما حدث للخطابات التى كانت بينها وبين شيللر ، فقد احتفظت بها مدة فى صندوق كسته بالجلد الأسود . وذات يوم رأته فثارت عليه وطلبت إلى السيدة فون شارت أن تبعده عنها وقالت : « ابعدى هذا الصندوق عنى ، إنه يلوح لى شبيهاً بالنعشين اللذين دفنت فيهما ابنى اللذين قد خرجا إلى الدنيا ميتين » . – وكانت كلما مرت الأيام اشتد غيظها من الخطابات ، حتى قررت أن تحرقها وقالت : « إننى إذ أحرق هذه الأوراق أفعل شيئاً يشرفنا كلينا » .– وهكذا التهمت النار سر العلاقة بين شيللر وشارلوته فون كالب ، وأصبحنا نعتمد على وثائق من الدرجة الثانية والثالثة . – والذى نعرفه أن السيدة فون كالب فقدت فى عام ١٨٠٤ كل ممتلكاتها ، وأن زوجها انتحر بعد ذلك ،وكذلك انتحر ابنها . وظلت تنتقل من محنة إلى محنة حتى فقدت البصر فى عام ١٨٢٠ . وأشفقت عليها إحدى الأميرات البروسيات ومنحتها سكناً فى القصر الملكى ببرلين ظلت به حتى ماتت فى ١٢ مايو ١٨٤٣ .

كان شيللر يعيش مع لوته أياماً سعيدة هى أسعد أيامه فى البيت الحبيب ، بين زيارات للأصدقاء ، وجولات فى المناطق المجاورة ليينا ، وكانت الطبيعة تبدو

له ، والحبيبة إلى جواره ، فى صورة أخرى أكثر جمالاً وسحراً . إنه يكتب إلى كورنر : « لقد بدأت الآن أتمتع بالطبيعة الجميلة كل التمتع وأعيش فيها . » ومع هذه المتعة القلبية ، والاستمتاع بالطبيعة ، نما التفاؤل بالعودة إلى النشاط الحقيقى ، إلى الأدب والمسرح ، ولكن هذه العودة تأخرت ، لأن الأعمال التى ارتبط بكتابتها كانت كثيرة وكانت تأخذ من وقت الكثير . « إننى آمل أن يأتينى المستقبل بكل شىء . ولن تمر أعوام قلائل حتى أتمتع تمتعاً تاماً بفكرى ، إننى آمل أعود إلى شبابى ، فإن فى نفسى حياة شاعر كامنة قادرة على أن ترد إلى شبابى » .

كان على شيللر أن يعد للمحاضرات القادمة التى انتظمت فى حلقتين ، الأولى موضوعها تاريخ العالم حتى تأسيس دولة الفرنجة . والثانية موضوعها نظرية التراجيديا . ويمكننا أن نتوقع أن يهتم شيللر بالحلقة الثانية اهتماماً أكبر من الأولى . وهذا هو ما حدث بالفعل . وكانت مجموعة المحاضرات الدائرة حول التراجيديا تعتمد على قراءات عميقة متجددة لكبار الأدباء التراجيديين عند اليونان والفرنسيين والإنجليز ، ولأصحاب النظريات من أرسطو إلى ليسينج . وكانت زوجته ــ وأحياناً كارولينه اختها ــ تأتى إلى بيت جريسباخ ، وتنتظر فى حجرة مجاورة وتقدم له الشاى بين المحاضرتين . ــ ولم تكن قاعة المحاضرات تمتلىء بأعداد ضخمة كما حدث فى الأيام الأولى ، ولكن شيللر كان يجد شباباً مهتمين يحيطون به لا فى قاعة الدرس فحسب ، بل ويلاحقونه فى البيت . وكان من بينهم فريدريش فون هاردينبرج [1] الذى اشتهر فيما بعد أديباً باسم نوفاليس (١٧٧٢ ــ ١٨٠١) ، والشاعر الدنمركى الشاب يينس باجيسين [2] الذى حمل شهرة شيللر إلى الدنمرك وخلق له هناك جمهوراً كريماً واعياً ، وغيرهما كثيرون .

وإلى جانب هذا النشاط الأكاديمى فى الجامعة ، عكف شيللر على تأليف كتاب على غرار « تاريخ انفصال الأراضى الواطئة » هو تاريخ « حرب الثلاثين

(١) Friedrich von Hardenberg. Novalis

(٢) Jens Baggesen

عاماً »[1]. فقد عرض عليه الناشر جوشن فى ديسمبر ١٧٨٩ مبلغ ٤٠٠ تالر مكافأة على تأليف قصة للحرب الشهيرة ، تكون ميسرة للقراءة ، جذابة ، لتظهر فى سلسلة اسمها « التقويم التاريخى للسيدات »[2] كان يخرجها ڤيلاند ثم تولاها شيللر بعد ذلك . كان المبلغ مغرياً ، وكان شيللر فى حاجة إليه بعد زواجه ، فوصل الليل بالنهار حتى يفرغ من الجزء الأول فى الوقت المتفق عليه . يقول شيللر فى خطاب له : « حرب الثلاثين عاماً التى أنشر عنها فى تقويم جوشن والتى ينبغى أن تظهر فى أوائل شهر أغسطس ، تستنفد الآن كل ساعاتى ، ولا أكاد أجد فرصة للتنفس ... إننى أنهار هكذا تدريجياً انهياراً تاماً . أما أحوالى فيما عدا ذلك فطيبة ، وأنا أنعم بحياتى راضياً . وإننى لأدهش أنا نفسى من الشجاعة والمثابرة على هذا العمل المضنى ، وتلك نعمة أدين بها لحياتى العائلية الجميلة وحدها . إننى أقضى كل يوم أربع عشرة ساعة قارئاً كاتباً مجتهداً ، ومع ذلك فأحوالى أحسن من أى وقت مضى . » وهكذا تمكن شيللر من الفراغ من هذا العمل الكبير فى أربعة أشهر فقط ، فجاءت أجزاؤه المختلفة منسجمة ، متساوية الأسلوب . والكتاب فى مجموعه ينبض بالعبقرية الأدبية فى الوصف سواء وصف الشخصيات أو وصف الأحداث وخاصة المعارك . وهو عمل « شيللرى » ، فهو يقوم على أساس فكرة شيللر الأولى وهى الحرية ، ويلعب البروتستانتيون هنا دور المناضلين من أجل حرية الفكر وحرية العقيدة ، وشيللر يتحمس لهم ويرفع العصر ورجاله إلى درجات عالية من الأهمية ، ويعرف كيف يثير الحماس فى نفوس قرائه . ــ ونجح الكتاب تجارياً نجاحاً كبيراً وبيعت السبعة آلاف نسخة قبل نهاية العام ، وطالب القراء بطبعة ثانية . أما من الناحية العلمية فتعتور الكتاب بعض العيوب والأخطاء . منها مثلاً اتهام شيللر الملك جوستاف أدولف بالسعى إلى الحصول على تاج الامبراطور الألمانى ، وكذلك ظل شيللر فى أجزاء كثيرة ينسب إلى ڤالنشتاين التآمر والخيانة ، ثم غير رأيه فجأة وذكر أنه لم يتمرد إلا بعد أن سقط . هذان مثلان على الأخطاء التاريخية . أما من ناحية البناء فنلاحظ أيضاً

(١) Geschichte des Dreissigjährigen Krieges

(٢) Historischer Calender für Damen

أن شيللر استطرد فى مواضع وأوجز فى مواضع أخرى ، وليس أدل على ذلك من أنه عالج نصف الأحداث التاريخية - حتى موت ڤالنشتاين فى ١٦٣٤ - فى ثلاثة أرباع الكتاب . وعبر على نصفها الباقى فى الربع الأخير من الكتاب . ولعل السبب فى ذلك أن شيللر - الشاعر المسرحى - اهتم خاصة بشخصيتين الملك جوستاف أدولف من ناحية والقائد ڤالنشتاين من ناحية ثانية . فلما خرجا من مسرح الأحداث ، خبا اهتمام شيللر ، وفتر حماسه . - ويمكننا أن نرى فى هذه العيوب ما نشاء ، ولكن الحقيقة أن الكتاب أدى دوره فى عصره ، فجعل التاريخ مادة شعبية يهتم لها الكثيرون ، وأدى دوره فى حياة شيللر إذ أمده بمادة هائلة لإنتاج مسرحى ضخم .

ولم يكن هذا العمل هو العمل التاريخى الوحيد الذى اشتغل شيللر بتأليفه فى تلك الحقبة . فقد استمر شيللر فى الاهتمام بسلسلة المذكرات التاريخية فأخرج المجلد الثانى والمجلد الثالث منها . ونشر فى المجلد الثالث بحثاً عن الملك فريدريش الأول . - وبدأ يكتب مقالاً لمجلدات قادمة ، بعنوان « تاريخ القلاقل التى سبقت حكم هاينريش الرابع فى فرنسا » ، لم يتم . - كذلك كتب عدداً من المقالات التاريخية لمجلة « طاليا » العدد الحادى عشر ، تناول فيها أصول المجتمع والتشريع على عهد سولون ، وبعثة موسى . وهكذا امتلأت حياته فى هذا العام بالدراسات التاريخية على نحو يوشك أن يكون كاملاً . وإذا كان شيللر قد استغرق فى العمل فى ميدان التاريخ إلى هذا الحد ، فلا يمكننا أن نقول إنه أفاد التاريخ ، والأصح أن نقول إنه أفاد من التاريخ إفادة ستظهر فى مستقبل الأيام . فإذا التمسنا له ناحية يمكن أن يكون قد أفاد التاريخ فيها ، فلن تكون سوى نشر الاهتمام بالقراءات التاريخية فى أوساط عامة القراء . وشيللر نفسه يقر بعجزه عن النبوغ فى التاريخ كعلم على مستوى الجامعة ، يقول فى خطاب إلى كورنر فى ربيع هذا العام : « إننى لن أصل بطبيعة الحال أبداً إلى تأهيل نفسى لأكون أستاذاً بمعنى الكلمة والعناية الإلهية لم تخترنى لهذا » .

وقلت الأعمال الأدبية ، فلا نكاد نعثر إلا على جزء من مسرحية « عدو البشر » فى العدد الحادى عشر من طاليا ومقال نقدى بعنوان « قصائد بورجر »

لمجلة يينا الأدبية (ظهر فى يناير ١٧٩١ بدون توقيع وكانت تلك عادة المجلة) وقد تناول شيللر بالنقد الشاعر جوتفريد أوجوست بورجر [1] (١٧٤٧ ـ ١٧٩٤) وخاصة إنتاجه من الشعر الشعبى . ويهمنا هذا المقال لأن شيللر وهو ينقد شعر بورجر كان يقيسه بمعاييره هو ، ويقارنه بمثله الأعلى الذى كان يرجو أن يحققه . إنه يعيب على بورجر الجمع بين التعبير الرفيع والتعبير المبتذل ، ويطالب بالقصيدة المنسجمة الرفيعة فى فكرتها ، الرفيعة فى أسلوبها ، على الشاعر أن يسمو بموضوعه ـ وصفاً كان أو إحساساً أو حدثاً ـ إلى المثالية ، وأن ينقيه من الشوائب الغريبة الغليظة ، وأن يجمع الأشعة المبعثرة فى حزمة كاملة منسجمة يخضع لها العمل الفنى ككل ، وأن يرفع العناصر المحلية والفردية إلى مستوى العمومية .ـ فإذا لم يفعل ذلك « فلا يستحق أن يكون شاعراً » . وقد أثار هذا المقال موجة من المدح والقدح ، لأن شيللر كان عنيفاً أشد العنف ، إلى حد المبالغة فى « ظلم » الشاعر بورجر . والحقيقة أن النقد العنيف كان نقداً ذاتياً . كان شيللر فى هذه الفترة التى كرس جهده فيها على تدبير العيش أولاً ، والإعداد الفلسفى الإستطيقى لإنتاج المستقبل ثانياً ، لا يفتأ ينظر إلى ماضيه ، ويبحث فيه عن العيوب خاصة ، فينهال عليها باللوم أقسى اللوم . من ذلك ما كتبه فى نوفمبر ١٧٩٠ : « لن أكتب شيئاً للمسرح إلا بعد أن أتمكن من التراجيديا اليونانية وأحيل تصوراتى المبهمة عن ماهية القاعدة وماهية الفن إلى تصورات واضحة جلية » .

كان شيللر يبذل جهداً مضنياً ولا يوفر لنفسه ما ينبغى من الراحة والاستجمام . حقيقة أنه سافر فى ١١ أكتوبر ١٧٩٠ إلى رودلشتات طلباً للراحة ، ولكنه ما قضى إثنى عشر يوماً حتى قطع الإجازة ثائراً على حياة العطلة ، وعاد إلى العمل . يصف شيللر هذه الإجازة بقوله : « لقد أمضيت فى رودلشتات إثنى عشر يوماً آكل وأشرب وألعب الشطرنج و« الاستغماية » . وكنت أريد أن أخلد للراحة تماماً . وبالفعل أفدت من هذا الاستجمام ، على الرغم من أنه ثقل على فى النهاية حتى لم أعد أستطيع احتماله . فأنا لا أستطيع

(١) Gottfried August Bürger

احتمال البطالة طويلاً » . ــ عاد شيللر إذن إلى يينا وأكب على العمل . والتقى فى ٣١ أكتوبر بجوته الذى جاء إليه لزيارته فى بيته . ودار بين الاثنين حديث فى الأدب والفلسفة أحدث شيئاً من التقارب بين الأديبين . فى خطاب إلى كورنر يقول شيللر : «كان يزورنا بالأمس ، ودار الحديث حول كانط . وان الإنسان ليعجب لطريقة جوته فى صياغة الأشياء كلها على طريقته وأسلوبه ، وعلى مقدرته فى التعبير عما يقرأ ، ولكنى لا أحب أن أختلف معه فى أمور قريبة إلى نفسى . وهو يفتقر كل الافتقار إلى ذلك اللون من السلوك الذى يحمل المرء على الإيمان بشىء ما والتحمس له . الفلسفة كلها بالنسبة إليه شىء ذاتى ، وما دام الأمر كذلك فلا جدوى من الإقناع أو المجادلة . وأنا لا أحب فلسفته . إنها تغترف الكثير المفرط من عالم الحسيات ، حيث أغترف أنا من العقل . بل إن خياله كله حسى مفرط فى الحسية وهو لذلك ثقيل على نفسى كل الثقل . إلا أن فكره يعمل ويبحث فى جميع الاتجاهات ويسعى إلى إنشاء كل متكامل ــ وهذا فى نظرى شىء يجعل منه رجلاً عظيماً » .

كان البارون فون دالبرج قد وجه الدعوة إلى شيللر وزوجته لزيارته فى أعياد رأس السنة فى أرفورت ، وقبلا الدعوة ، وسافرا فى أواخر ديسمبر . وفى الثالث من يناير ١٧٩١ تعرض شيللر لحمى مفاجئة وآلام فى الصدر والجنب ، فحمل إلى البيت على نقالة . وبقى فى الحجرة أسبوعاً تحسنت فيه صحته ظاهرياً فأعد للعودة إلى يينا عن طريق فايمار . وكان البارون فون دالبرج يزوره ويتحدث معه ويحثه على العودة إلى الكتابة للمسرح . وفى فايمار بقى شيللر يومين أو ثلاثة أيام حيث اتصل بالبلاط الأميرى ، ثم سافر وحده إلى يينا وترك زوجته ضيفة على السيدة فون شتاين . ولكن المرض ما لبث أن عاوده فى اليوم التالى لوصوله ، على شكل أعنف . وبعد ثلاثة أيام بدأ يبصق دماً وصديداً . وعاده الطبيب ووصف له الأدوية المعروفة فى ذلك الوقت ، واستعمل فى علاجه ديدان العلق (التى تمص الدم) والفصد ، حتى ضعف ضعفاً شديداً ، ولم يعد يستطيع تناول الطعام مما زاد الحالة سوءاً . وكان كل ما استطاع أن يفعله هو أن يكتب سطرين إلى زوجته يدعوها إلى الحضور ، فأتت وقامت على رعايته ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . كان يلازم الفراش ولا يستطيع النهوض ، فإذا أنهض تملكه دوار .

ولكنه ظل قوى الإرادة يصارع الموت شجاعاً ، حتى بدأ التحسن . وكان التحسن بطيئاً ، بطيئاً جداً . ومرت أيام طويلة حتى استطاع أن ينهض من الفراش ويتحرك خطوات مستعيناً بعصا . وتعتبر هذه الأزمة الصحية بداية آلام تزيد تارة وتقل تارة أخرى ، وتعود فتشتد من جديد ، وهكذا إلى أن تقضى عليه فى النهاية .

كان شيللر (وطبيبه) يعتقد أن المرض حمى ، ولكن وصف أعراض المرض ينطبق على التهاب رئوى حاد مع مضاعفات مثل التهاب وتقيح الغشاء البللورى ، وكانت صحة شيللر المعتلة منذ صغره ، وكذلك إصابته بالملاريا فى مانهايم ، بالإضافة إلى الإجهاد من العوامل التى مكنت للمرض الجديد من الاستبداد بجسمه . وأصبح شيللر يعرف الآلام التى لا تنتهى ويعى أن الموت يتربص به ، وأصبح يعد نفسه روحياً لمغالبته ، فيبذل الجهود الجبارة فى سباق مع الزمن حتى يحقق فى الأدب شيئاً من أحلامه .

لم يكن شيللر حتى بعد مرور الأسابيع يستطيع أن يعود إلى إلقاء المحاضرات ، ولكنه تمكن بعد نحو شهرين من العودة إلى القراءة ثم الكتابة ، وسط السعال والإحساس بالاختناق والدوار فى أحيان ليست بالقليلة . وبدأ شيللر يهتم بقراءة كانط وخاصة كتابه « نقد ملكة الحكم » ، الذى يعرض فيه رأيه فى مفهوم الجميل والذوق والفن ، وكان شيللر منذ باورباخ كلفا بالتفكير فى أصول الفن وفلسفة الفن والإستطيقا ، وكان هذا الكلف يزداد دوماً حتى ظهر فى سلسلة محاضراته عن التراجيديا . وجاءه كتاب كانط فى موعده .

وكان من رأى الطبيب الدكتور شتارك أن على شيللر أن يغير الهواء ، فأعفاه الأمير كارل أوجوست من إلقاء المحاضرات ، وسافر شيللر إلى رودلشتات فى أوائل ابريل ١٧٩١ بعد أن فرغ من كتابة رد على الشاعر بورجر الذى وجه إلى شيللر نقداً شديداً على مقاله « شعر بورجر » وكان رد شيللر يحمل عنوان : دفاع عن الناقد .

كانت الأنسام الجميلة ، والطبيعة البهيجة ، والصحبة المرحة تخفف لواعج المرض ولكن الآلام ظلت تعاوده . فى خطاب إلى كورنر يقول : « إننى

لا أستطيع أن أقول لأحد هنا ما يجول بخاطرى عن حالتى ، ولكنى أحس كأننى سأظل أعانى من هذه الآلام دائماً . إننى لا أستطيع مطلقاً أن أقرأ بصوت عال ساعة كاملة » . ولكنه كان يستطيع الكتابة : « أما نفسى فهادئة ، مرحة ، ولست أفقد شيئاً من شجاعتى ، حتى إذا أصابتنى أسوأ الأمور » . — وفى ٨ مايو عاوده المرض على نحو أشد من المرتين السابقتين . وجاء إليه الطبيب كونرادى وظل بجوار فراشه . كان يعانى من حمى شديدة ، ورعشة ثم انخفض النبض ، واختفى ، وقام الطبيبان بتدليكه تدليكاً مستمراً حتى عاد النبض . وكان شيللر يحس باختناق ، ويتلوى بحثاً عن نسمة من الهواء ، وأعطاه الطبيبان شيئاً من الأفيون لتسكين الألم . فارتاح قليلاً . ولكن الآلام ما لبثت أن عاودته ، وحالت بينه وبين الكلام ، فكان يتناول القلم من حين لآخر ويكتب شيئاً فيكتب مثلاً : « احرصوا على الصحة ، فلا خير فى الإنسان بدونها » . وأرسلوا فى طلب الدكتور شتارك من يينا فجاء مسرعاً وشارك فى العلاج . ويحكى شيللر لكورنر آلامه فيقول : «كنت يوم الثلاثاء الماضى أعتقد أننى لن أظل على قيد الحياة ، وكنت فى كل لحظة أخشى أن أموت نتيجة للجهد الفظيع الذى كنت أبذله فى التنفس . وسكت صوتى ، ولم أكن أستطيع إلا الكتابة بيد مرتعشة ، لأعبر عما كنت أتمنى قوله » . — وتحسن قليلاً فكتب إلى كورنر يقول : « لقد رأيت الموت أكثر من مرة ، فزادت شجاعتى » . أو يقول : «كان الألم الذى أحسست به فى تلك اللحظة يرجع كله إلى نظرى إلى لوته وتفكيرى فيها وكيف أنها لن تحتمل الصدمة » .

وفى ٢٣ مايو كتبت لوته إلى كريستوفينه أخت شيللر تقول لها : « لقد جلس معنا فى الحديقة لأول مرة . » كان التحسن قد بدأ ولكنه كان تحسناً هزيلاً . والذى حدث هو أن التقيح نفذ من الحجاب الحاجز ، وهو شىء يؤدى عادة إلى تسمم عام ثم وفاة . ولكن التسمم توقف ، وانحصر فى الغشاء البطنى على هيئة التهاب مزمن ، يسبب الآلام ، ويعوق الجهاز الهضمى . ومع التحسن عادت القراءة فى كانط ، وفى قصص الرحلات الغريبة ، وملحمة توركواتوتاسو « أورشليم المحررة » ، والكتابة فى ترجمة كان قد بدأها منذ مدة لملحمة

« الانيادة » . واقترح عليه كورنر أن يقوم برحلة استشفاء إلى كارلسباد ، ولقى الاقتراح تعضيض الطبيب . وبالفعل سافر شيللر إلى كارلسباد بصحبة زوجته وكارولينه والطبيب حيث أمضى أربعة أسابيع . وعاد إلى يينا وڤايمار ، ومن هناك إلى إرفورت تلبية لدعوة البارون دالبرج . وبقى شيللر ومعه لوته فى ضيافة دالبرج حتى بداية شهر أكتوبر . وتحسنت صحة شيللر تحسناً واضحاً وأصبح قادراً على العمل قدرة ظلت تتزايد . وكانت الشائعات قد انتشرت أكثر من مرة بأن شيللر قد مات .

كان المرض قد كلف شيللر ١٤٠٠ تالر ، وأحس من جديد بمشكلة المال تهدده كالشبح المخيف . حقيقة أن كورنر كان دائماً مستعداً للمعاونة ، ولكن شيللر كان قد وصل إلى مرحلة لم يكن فيها يريد الاعتماد على معاونة الأصدقاء ، فإما الاعتماد على القلم ، أو على خزانة الأمير . وتقدم شيللر بطلب إلى الأمير كارل أوجوست بزيادة راتبه ، ولكن كارل أوجوست رفض الطلب ـ لسوء الحالة المالية فى الإمارة ، لا لضيق فى الفكر أو لتقاعس عن العون ـ واكتفى بمنحة قدرها ٢٥٠ تالر « لا تتكرر » . فلم يكن بد من العودة إلى الكتابة . وهكذا أخذ شيللر يؤلف الجزء الثانى من كتاب « تاريخ حرب الثلاثين عاماً » بحماس يرجع إلى نجاح الجزء الأول نجاحاً كبيراً فاق المتوقع . وتلقى من الناشر جوشن مبلغاً غير قليل كمقدم أتعابه . كذلك عمل فى مقالات لمجلة طاليا وفى ترجمة ملحمة « الانيادة » لفرجيل ، وخط الخطوط الأولى لعمل ملحمى يدور حول جوستاف أدولف وعمل تمثيلى حول ڤالنشتاين .

وهنا حدث شيء غير مجرى حياة شيللر .

كان شيللر كما أشرنا من قبل قد التقى بشاعر دنمركى شاب هو « يينس باجيسين » زوج حفيدة الشاعر العلامة الشهير البرشت فون هاللر ـ فى قاعة المحاضرات فى يينا ، وامتلأت نفس الشاعر الدنمركى بلون فريد من الإعجاب ، جعله يكون ندوة فى الدنمرك تضم جماعة من النجباء تهتم بشيللر وأعماله خاصة . وكان من بين المعجبين بشيللر فى هذه الندوة وزير المالية الدنمركية البارون ارنست

فون شيملمن [1] ـ وكان من أصل ألمانى ـ والأمير فريدريش كرستيان فون هولشتاين ـ أوجوستنبورج . وكانت الندوة قد استعدت لإقامة حفل شيللرى فى يونية ١٧٩١ فى قرية هيلليبك [2] المطلة على البحر فى مواجهة السويد ، وكان البرنامج يشمل أغنية إلى الفرحة ، وفصولاً من « دون كارلوس » ، حينما جاء خبر كاذب يفيد بأن شيللر قد مات . وأحدث الخبر فى المعجبين المتيمين أثراً أليماً ، ولكنهم لم يلغوا الحفل ، بل حولوه إلى حفل تأبين لشيللر . ويحكى أن الطبيعة فى ذلك كانت عجيبة فى أمرها معهم ، فقد قابلتهم بظلمة وغيام ومطر ثم مالبثت أن أضاءت بالأمل ، فظهرت الشمس وغمرت المكان بنورها ودفئها . واستمع الحضور إلى الشاعر باجيسين يلقى « أغنية الفرحة » ، ثم رددوا معه سطور الجوقة . وخرج صبية وبنات من بين الخمائل يلبسون الملابس الرعوية ، فرقصوا . وألقى الشاعر باجيسين قصيدة لتأبين شيللر قال فيها :

لا بد أن يعيش صديقنا الميت . فاهتفوا بهذا معى أيها الخلان جميعاً .

واستمر الحفل ثلاثة أيام . وكتب باجيسين إلى الأستاذ راينهولد فى يينا خطاباً تحدث فيه عن هذا الحفل ، وعبر فيه عن حزنه على موت شيللر . ورد راينهولد بطبيعة الحال مصححاً ، فأخبر الشاعر الدنمركى بأن شيللر ما يزال على قيد الحياة ، وإن كان يعانى الأمرين لضيق ذات يده ، ولكثرة ديونه التى لا يعرف سبيلاً لسدادها . وقد عرف راينهولد كيف يحرك قلوب المعجبين لمساعدة شيللر فقال فيما قال إن شيللر عندما مرض لم يكن يعرف هل يوجه مالديه من مال قليل إلى المطبخ أو إلى الاجزخانة ، وإن فقره يسبب له الحزن ، وإن هذا الحزن يحول بينه وبين الشفاء وبالتالى الإنتاج ، وفى الثالث عشر من ديسمبر تلقى شيللر خطاباً من البارون شيملمن ومن الأمير الدنمركى [3] ، جاء به :

(١) Graf Ernst von Schimmelmann

(٢) Hellebek

(٣) Herzog Friedrich Christian von Schleswig - Holstein - Augustenburg

« صديقان ، جمع بينهما إحساسهما بأنهما من مواطنى العالم ، يكتبان إليك ، أيها الرجل العظيم ، هذا الخطاب . أنت لا تعرفهما ، ولكنهما يجلانك ويحبالك . إنهما يعجبان بالانطلاقة العالية التى انطلقتها عبقريتك ، والتى رفعت باقة من أعمالك الأخيرة إلى أسمى الأعمال التى تملكها الإنسانية ... وكم كان حزنهما عظيماً عندما بلغهما خبر وفاتك ، ولم تنهمر من عيونهما من الدموع ما يقل عما انهمر من عيون الكثيرين من الأخيار الذين يعرفونك ويحبونك ... إن صحتك التى اهتزت نتيجة للجهد المتواصل والعمل المتعجل ، تحتاج ـ كما علمنا ـ إلى راحة طويلة لبعض الوقت ، حتى تتحسن ، ويبعد الخطر الذى يحيق بها ، ولكن ظروفك ... تحول بينك وبين الحصول على هذه الراحة . فهلا تكرمت ومنحتنا متعة تمكينك من الحصول على هذه الراحة ؟ إننا نعرض عليك لهذا الغرض منحة مالية لمدة ثلاث سنوات قدرها ١٠٠٠ تالر سنوياً .

فاقبل هذا العرض أيها الرجل العظيم . ولا ينبغى أن يدفعك اعتبار ألقابنا إلى الرفض ... فنحن لا نعرف لنا من الفخر ، إلا أن نكون بشراً ، مواطنين فى جمهورية كبيرة ، تتجاوز حدودها حياة الأجيال فرادى ، وحدود كرة أرضية واحدة . إننا إذ نتقدم إليك . نمثل أمامك بشراً ، إخوة لك ، ولسنا من الكبراء المغرورين ... ولك أن تقرر إختيار المكان الذى تحب أن تنعم فيه بالراحة . إذا أتيت إلينا هنا فلن ينقصك شىء تحتاج إليه لإرضاء فكرك ، فهنا عاصمة بها مقر الحكومة ، وبها نشاط تجارى كبير ، ومجموعات قيمة من الكتب ... فإذا رغبت ، بعد أن تكون قد استرددت صحتك ، أن تعمل فى خدمة دولتنا ، فلن يصعب علينا أن نحقق لك هذه الرغبة ... ولكننا لسنا من ضيق الأفق والأنانية بحيث نجعل منحتنا مشروطة بإقامتك هنا . إننا نترك هذا الأمر لاختيارك وتقديرك أنت وحدك .. » .

لا يمكن أن يتصور الإنسان فى المحنة عوناً أعظم من هذا . منحة مالية ضخمة تساوى دخل شيللر من الأستاذية ومن الكتابة والتأليف ومن معونة الأم لينجيفيلد . منحة مالية نقية الهدف ، غير مشروطة بشرط . منحة مالية تحمل فى طياتها تعبيراً عن تقدير نادر لعبقريته كأديب . إنها لن تمكنه من التغلب على محنة

المرض فحسب ، بل ستمكنه من العودة إلى طريقه الأول الأصيل : طريق الإنتاج الأدبي العبقري .

وفي ١٦ ديسمبر ١٧٩١ كتب شيللر خطاباً طويلاً إلى الشاعر الدنمركي باجيسين يشكره على مسارعته في الخير ، وتمكنه من تدبير هذه المعونة الممتازة . ويعتبر هذا الخطاب من أروع ماكتب شيللر لما فيه من صدق في الحديث عن نفسه ، وإخلاص في تقدير مامضى وفي انتظار ما سيكون . « نعم ياصديقي العزيز ، إنني أقبل عرض الأمير والجراف .. إن المعاونة الكريمة التي يقدمها إلى أصدقاؤك العظام تدفعني دفعة واحدة إلى الوضع الذي يمكنني فيه أن أخرج من نفسي ما يكمن فيها ، وأن أتحول إلى ما يمكنني أن أتحول إليه ... لقد ظللت منذ مهدي الفكري إلى الآن أكافح القدر ، ومنذ أصبحت قادراً على تقدير حرية الفكر ، تبينت أنني قد حكم على بالحرمان منها . لقد خطوت قبل عشر سنوات خطوة متعجلة جردتني إلى الأبد من إمكانية الحياة إلا عن طريق العمل الأدبي . ولقد اتخذت هذه الحرفة ، قبل أن أفحص متطلباتها ، وأتمثل صعوباتها . وتملكتني ضرورة ممارسة هذه المهنة ، قبل أن أكون قد بلغت من المعرفة والنضج الفكري ما ينبغي لها . أما أنني أحسست بهذا ، وأما أنني لم أضع لمثلي الأعلى في المسئولية الأدبية الحدود الضيقة التي كنت محبوساً فيها ، فشيء أعتبره نعمة من نعم السماء ، التي أبقت لى بهذا إمكانية التقدم إلى أعلى مفتوحة ، ولكن محنتي زادت وسط الظروف التي كنت أعيش فيها . ولقد نظرت الآن إلى ما أخرجته إلى الناس فإذا هو منخفض دون مستوى المثل الأعلى الذي كان يعيش في نفسي . لقد اضطررت ، وأنا أتصور إمكانية الكمال ، أن أعجل بثمرة لم تنضج بعد إلى الجمهور ، وكنت محتاجاً للتعليم ، ومع ذلك اضطررت برغمي إلى أن أقوم من الناس مقام المعلم . ولقد جعلني إنتاجي الأدبي الذي نجح نوعاً ما في وسط هذه الظروف المواتية ، أحس إحساساً أشد بالبذور الكثيرة التي يطبق القدر عليها في نفسي إطباقاً ... كم تمنيت لو أتيحت لى سنتان أو ثلاث سنوات أترك فيها إنشاء العمل الأدبي وأعكف فيها على الدرس وعلى تطوير مفاهيمي وبلورة مثلي العليا ! أما أن يوفي الإنسان بمتطلبات الفن القاسية ، ويسعى إلى كسب الشيء الضروري للإنفاق على العمل الأدبي ، فشيء تبينت أخيراً أنه لا يمكن تحقيقه في

دنيا الأدب فى ألمانيا عندنا . لقد بذلت الجهود طوال عشر سنوات للجمع بين الاثنين ، ولكنى لم أتمكن من ذلك إلا إلى حد ما ، ولقد كلفنى هذا صحتى... إننى أنظر إلى المستقبل متفائلاً ... وأود أن أجعل البذرة المبثوثة فى نفسى ... تتحول إلى زهرة جميلة من أجل الإنسانية ... » .

ثم كتب فى ١٩ ديسمبر رده على الأمير والجراف وفيه يقول : « لن أرد الدين إليكما ، بل إلى الإنسانية . إنها الهيكل الذى تضعون أمامه منحتكم ، وأضع أنا أمامه شكرى .... إن كل ما يستطيع الفيلسوف والفنان التشكيلى فعله هو أن يزود الحقيقة والفضيلة بالقوة المنتصرة التى تمكنهما من إخضاع القلوب ... » .

ولا ينبغى أن نتوقع أن تؤدى هذه المنحة المالية إلى نتيجة فورية ، وإن حق لنا أن نتوقع لها نتيجة أكيدة . كان المفروض أن تمكنه من الاستجمام من ناحية ، ومن الانصراف عن الأعمال « غير الأدبية » من ناحية ثانية ومن الاهتمام بالدرس والتأمل من ناحية ثالثة وأخيراً من التفرغ للعمل الأدبى . وهذا بالضبط ما سيحدث . ولكن شيللر سيحتاج إلى وقت لكى يصفى حسابه القديم ويفتح حساباً جديداً . إنه يعمل فى الجزء الثالث من « تاريخ حرب الثلاثين عاماً » ، وفى الوقت نفسه يدرس كانط ويمهد لكتابة مسرحية « ڤالنشتاين » .

كان شيللر قد قرأ الكتابات الصغيرة لكانط ، ودرس كتابه « نقد ملكة الحكم » ولكنه كان متردداً أمام الكتب الكبيرة الأساسية وعلى رأسها « نقد العقل المحض » . ولكنه وقد اطمأن مادياً ، اشترى نسخة من هذا الكتاب الهام وعكف على دراسته . وكتب إلى كورنر يقول له : « إننى أدرس بحماس كبير فلسفة كانط ... لقد قررت قراراً لا رجعة فيه ، وهو ألا أتركها قبل أن أسبر أغوارها ، حتى ولو اقتضى ذلك ثلاث سنوات من الجهد » . وشيللر يرى بوضوح هدفه من دراسته هذه الفلسفة ، ومن دراسة غيرها من الأشياء النظرية : إنه التمكين لقدرته الخلاقة من العمل على أساس أكثر قوة وبصيرة . يقول فى خطاب إلى كورنر : « الحقيقة أننى لا أشعر بقوتى إلا فى الفن نفسه . أما النظريات فإننى أتعذب دائماً فى معالجة مبادئها . أنا لست فى الأمور النظرية إلا

من الهواة . ولكني أحب أن أتفلسف فى النواحى النظرية خدمة للناحية التنفيذية الإبداعية ... » .

وأتم شيللر فى وقت فراغه ـ فلم يشتغل بإلقاء محاضرات فى أثناء الفصل الدراسى الصيفى ـ الجزء الثالث من « حرب الثلاثين عاماً » ، وفرح بالفراغ منه ، فرح الإنسان الذى يحمل وزراً ينقض الظهر عندما يتحرر منه ، وآلى على نفسه ألا يقوم بمثل هذه الأعمال فى المستقبل أبداً . فى خطاب إلى كورنر يقول : « لقد أصبحت الآن حراً ، وأريد أن أظل إلى الأبد حراً . لن أقبل بعد الآن عملاً يكلفنى به آخر ، أو يكون الدافع إلى تأليفه شىء آخر غير الميل والهواية » .

وشهد عام ١٧٩٢ لقاء بين شيللر وكورنر . فى أوائل ابريل سافر شيللر ولوته يرافقهما صديق دنمركى هو هورنيمن [١] ، كان يؤهل نفسه للأستاذية فى جامعة كوبنهاجن . ومر الراكب أولاً بلايبتسج حيث قضى شيللر عدة أيام للراحة وللاتصال ببعض الناشرين . وفى دريسدن فتح الصديق كورنر للضيوف بيته وأكرمهم غاية الكرم . وكان اللقاء مؤثراً فقد رأى كورنر كيف ساءت صحة صديقه ، وبدا شاحباً غائر الخدين ، واهن العينين ، لا يقدر على كثير مما كان يستطيعه قبل وقت ليس بالطويل ، وسمعه تارة يسر إليه يقينه بأن المرض الذى استبد بجسمه لا سبيل إلى التخلص منه ، وأن عليه أن يتحمله ويرضى به ، ثم سمعه وهو يتحدث عن مشروعات المستقبل بين استكمال للثقافة الضرورية للأديب والتفرغ للإنتاج الأدبى الرفيع الذى يرضى تلك الصورة المثالية التى ظل يحملها فى ضميره سنوات وسنوات . وكانت الأحاديث بين الصديقين تدور أكثر ما تدور حول اهتمام شيللر الجديد الجاد بالتعمق فى فلسفة كانط ، وكان كورنر منذ وقت طويل يعتقد أن شيللر بحاجة إلى هذه الفلسفة ، وأن عمله الأدبى العظيم لا يمكن أن يكتمل إلا بدراستها . وسواء أدى اشتغال شيللر بهذه الفلسفة إلى نتيجة إيجابية أو سلبية ، فقد كان كورنر على حق فى حثه شيللر على دراسة كانط . لأن شيللر كان شاعر الفكرة ، وما كان يصح أن يعيش شاعر الفكرة فى عصر واحد مع أكبر فلاسفة ألمانيا دون أن يعلم فلسفته علم اليقين .

(١) Christian Hornemann

وعاد شيللر ولوته إلى يينا قبل منتصف شهر مايو . وبدأ تفكيرهما فى رحلة أخرى تقودهما فى هذه المرة إلى الأهل ، أهل شيللر ، وإلى الأرض التى ولد فيها وعاش عليها . كانت العلاقة بين شيللر وأبيه قد تحسنت تحسناً لا مراء فيه . ذلك أن والد شيللر وقد رأى أن ابنه وصل إلى كرسى الأستاذية فى جامعة يينا ، وحصل على لقب المستشار من أميرين ، وتزوج من ابنة عائلة عريقة فى الارستقراطية ، وحقق فى عالم الأدب شهرة كبيرة .. اضطر إلى أن يغير فكره ، وينظر إلى ما كان فيما مضى يعتقد أنه جنون ، على أنه اندفاع العبقرية . وهناك خطابات بقلم الأب إلى ابنه يعبر فيها عن أسفه لوقوفه منه موقف الرافض المناهض ويحاول أن يصلح ما يمكن أن يكون قد فسد بينهما من علاقة : « لكم اضطر حبيبنا فريتس — اسم التدليل من فريدريش — إلى المعاناة ، وتعرض إلى كثير من أقسى المحن ، ووقف غريباً فى أرض غريبة بمفرده ، دون ما عون من أهله وقد تملكه الشك فيما إذا كان ينبغى عليه أن يستمر فى الدور الذى بدأه فى هذه الدنيا الواسعة . ولقد منحه الله من القوة ما مكنه من أن يخرج نفسه من مكمنها . وما أكثر الأمثلة التى نعرفها عن العباقرة الذين يتعرضون طويلاً للإنكار ويتراجعون إما لحظ عاثر أو على الأقل لحسد ودس الآخرين ! وإن تفكيرى فى هذا ليسبب لى الحزن بنوع خاص فلقد ترددت خائفاً مفزوعاً ، على الرغم من الجهد الذى بذلته لأتصرف تصرف الرجل المستقيم العادل ، وينبغى على أن أعترف ذليلاً ، بأن خوفى على ابنى كان أكثر من أملى فيه ، لأننى لم أكن أستطيع على الإطلاق أن أعينه على بلوغ أهدافه التى كانت أعلى من أفقى . » كان الأب فى شوق إلى لقاء ابنه ، وزاد الشوق عندما جاءت أخبار مرضه . وإذا كان هذا هو إحساس الأب ، فلا شك أن شوق الأم كان أعظم ، ولم يكن شيللر يرى إمكانية قريبة لتحقيق هذا اللقاء لضيق ذات يده فلما جاءت المعونة الدنمركية تغير الوضع . على أن الأم لم تستطع أن تصبر على أخبار مرض ابنها طويلاً ، فجاءت إلى يينا فى منتصف سبتمبر ١٧٩٢ بعد أن قدم إليها جزءً من تكاليف السفر الباهظة بالنسبة لميزانيتها . واصطحبت الأم معها أخت شيللر الصغيرة « نانيته » [١] فتاة فى أزهى سنى الشباب ، دهش شيللر عندما رآها لأنها ظلت فى

(١) Nanette

ذهنه على آخر صورة رآها عليها ، بنت الخامسة . كانت نانيته تسمع عن أخيها ، وترسم له فى ذهنها صورة ملائكية ، وتحفظ أشعاره ومسرحياته ، وتتمنى أن تتاح لها الفرصة لمقابلته والحياة قريباً منه ، فى دائرة الفن (ولكن الموت عاجلها فماتت عام ١٧٩٦ نتيجة لإلتهاب رئوى على الأرجح) وقضت الأم والأخت أياماً فى يينا ثم فى رودلشتات واتجهتا فى طريق العودة قبيل منتصف أكتوبر إلى ماينينجن لزيارة كريستوفينه وكانت تعانى الأمرين مع زوجها المستشار راينفالد الذى ساءت صحته وتغيرت أخلاقه وأصبح بخيلاً شحيحاً صعب المعاملة .

ولا شك أن الأيام التى قضتها الأم مع ابنها امتلأت بكثير من الأحاديث عن أيام طفولته وصباه المبكر ، وزادت من حنينه إلى العودة ذات مرة إلى الأماكن التى ترتبط بها ذكريات هذه الفترة .

فلما تكررت أزمات المرض نصحه الأطباء بأن يترك يينا ويذهب إلى مكان آخر تطيب له نفسه طلباً للراحة والاستجمام . والتمس شيللر من الأمير كارل أوجوست إجازة فوافق وتمنى له صحة طيبة . وفى أوائل أغسطس عام ١٧٩٣ ترك شيللر ولوته يينا ووصلا فى الثامن من الشهر نفسه إلى « المدينة الإمبراطورية » هايلبرون ، على مقربة من وطنه الشفابى . ولم يكن شيللر يريد أن يتجاوز حدود الإمارة ويدخل أرضاً يحكمها كارل أويجين إلا بعد أن يتأكد من أن الخطر قد زال ، وأن الأمير لا ينوى اعتباره هارباً من الجندية حيث كان طبيباً ؟ وينفذ فيه ما تراه إرادته ، والتقى شيللر بأسرته بعد أيام قلائل ، فرأى أباه بعد سنوات طويلة من الفراق ، ورأى أمه وأختيه لويزه ونانيته . وعادت معه أخته لويزه إلى هايلبرون لتساعد فى البيت ، لأن لوته كانت تنتظر مولدهما الأول . وعلم شيللر من أبيه أن الأمير كارل أويجين سمح له بمقابلة ابنه ولعل الأب قد حثه على أن يكتب للأمير طالباً السماح له بالإقامة فى الأراضى الشفابية غير بعيد عن والديه . وبالفعل كتب شيللر إلى كارل أويجين . ولكن كارل أويجين لم يرد . على أنه أعلن أنه لا ينوى أن يتخذ إجراءات ضد شيللر ، وأنه سيتجاهله إن هو أقام فى إمارته . وكان هذا الإعلان كافياً . وفى الثامن من سبتمبر انتقل شيللر إلى الإقامة فى لودفجسبورج . وهكذا أصبح قريباً من والديه ، وأصبح يقيم فى

الأرض التى اضطر للهرب منها قبل عشر سنوات ، الأرض التى ارتبطت بها طائفة من أعمق ذكرياته . وتجددت الصداقة بينه وبين زميله القديم فريدريش ڤيلهلم ڤون هوفن الذى كان يعمل طبيباً فى لودڤيجسبورج ، وعرف ڤون هوفن كيف يبرهن على صداقته الأصيلة بالعمل المخلص ، فلزم شيللر واعتنى بزوجته . كذلك ساعدها يوم ١٤ سبتمبر فى الوضع . فى ذلك اليوم وضعت لوته الابن الأول كارل . ففرح به أبوه فرحاً شديداً ، وكان يأمل أن يصبح أديباً مثله ، ليكمل ما بدأه ، ويحمل المشعل بعده . (لم يصبح هذا الابن أديباً بل تخصص فى العناية بالغابات) .

والتقى شيللر بعدد من الأصدقاء القدامى منهم بيترسن أمين المكتبة ، ودانيكر النحات والأستاذ يان ، مدرسه القديم ، وغيرهم . ولكن لقاءاته بهوفن ودانيكر كانت أهم اللقاءات . كتب هوفن يصف شيللر فى ذلك الوقت : «كانت نار أيام صباه قد خفت حدتها ، وكان سلوكه يتسم بقدر كبير من الوقار ، وكان مظهره قد اتخذ أناقة وقورة حلت محل إهماله القديم ، وكان جسمه النحيف ووجهه الشاحب المريض يكملان ما تتصف به هيئته من جاذبية . ولكن تمتعنا بمخالطته كان للأسف كثيراً ما تعكره أزمات مرضه التى كانت تنتابه كل يوم تقريباً ، أما فى ساعات تحسنه ، فما أعظم انسياب ثروته الفكرية ، وما أجمل تعبير قلبه الرقيق الحساس ، وما أوضح ظهور كرم خلقه فى كلماته وتصرفاته ! ما أجمل وقار مرحه الآن ، بعد أن كان مرحه فيما مضى يخرج إلى شىء من الابتذال ، وما أعظم ثوب الجلال الذى اكتسته نكاته . كان ، باختصار ، قد أصبح رجلاً كاملاً » .

ولم يفلح هواء المنطقة الحبيبة فى إصلاح ما فسد من صحته . بل كانت الأزمات تعاوده باستمرار ، وكان يفقد فى أثنائها القدرة على الكلام ويفقد الوعى ، ويبدو أقرب إلى الميت منه إلى الحى . ولم يفلح الدواء وكان على حد قوله فى بعض خطاباته ، يتعرض لحصار محكم من زجاجات الدواء .

ويشاء القدر أن يشهد شيللر فى أثناء زيارته لوطنه نهاية الطاغية كارل أويجين . فقد مات فى ٢٤ أكتوبر وشهد شيللر جنازته من نافذة سكنه فى

لودفيجسبورج . ولكنه لم يفرح ، فقد كان أكرم من أن يفرح فى ساعة الحزن ، بل حاول أن يوفى الرجل حقه . فلم تكن أعماله شريرة كلها ، ولعل من أعماله الشريرة ، ما كان يأتى عن نية خالصة ، واقتناع بأنه الصالح . وبموت كارل أويجين ، رفعت كل القيود التى فرضت على حركة شيللر . فذهب إلى شتوتجارت فى نهاية أكتوبر وأوائل نوفمبر فى زيارة سريعة ، لم ينس خلالها أن يمر على الأكاديمية وأن يدخل إلى قاعة الطعام وفى رفقته المدير ، ليسمع أربعمائة من الطلاب يهتفون باسمه .

وفى منتصف مارس ١٧٩٤ انتقل شيللر إلى السكن فى شتوتجارت . وشهدت تلك الفترة اهتماماً كبيراً منه بالفنون التشكيلية . ولعلنا نذكر أن شيللر أحس بعد احتكاكه بجوته ، إنه يفتقد إلى الكثير من المعرفة ، وخاصة فى الفنون التشكيلية . وليس من شك فى أن شيللر انتهز أول فرصة ليكمل النقص . كان دانيكر قد عاد من روما بعد دراسة للفنون القديمة ، خرج منها بمفهوم فى النحت يجمع بين الجمال والرقة والعظمة ، وأقام فى مرسم ـ ومعه نحاتان آخران هما هيتش وشيفاور [(١)] ـ يحقق ما يطوف بخياله . وبدأ شيللر ينظر إلى محاولة أخ فى الفن يحقق بالإزميل ما يحاول هو أن يحققه بالقلم . وكان من ثمرات هذه الصلة بين دانيكر وشيللر تمثال شيللر النصفى المشهور . ودانيكر هو الذى نحت أعظم تمثال لشيللر وصل إلينا وهو التمثال النصفى الذى صنعه ، ووضع فيه كل ما لديه من قدرة ووجدان وفكر ، ثم نظر إليه وبكى قائلاً : « آه ، إنه ليس بالضبط ما كنت أريد » . ـ وكذلك اتصل شيللر بالفن التصويرى عندما تعرف بالرسامة لودوفيكه سيمانوفيتس [(٢)] ، وهى أخت صديقه القديم رايشنباخ . وقد رسمت لشيللر وزوجته وكذلك لوالديه وأختيه فى أوقات مختلفة لوحات حفظت لنا ملامحهم . ومهما يكن تقديرنا لفن لودوفيكه سيمانوفيتس ، وما من شك فى أنها كانت متوسطة القدر ، فقد أتاحت لشيللر فرصة النظر إلى أعمال فنية من نوع آخر ، اللوحات المصورة بالألوان ، وهى تنشأ وتكتمل تحت ضربات الفرشاة

(١) Hetsch. Jakob Scheffauer

(٢) Ludovica Simanowitz

ولمساتها . وشمل اهتمام شيللر بالفنون الأخرى الموسيقى ، فى لقاءات مع الموسيقى تسومشتيج[1] ، الذى ضاع اسمه الآن بعد أن طغى عليه العمالقة ، والحق أن شيللر كان منذ شهور عاكفاً على دراسة فى الاستطيقا ، ما كان يمكن أن تكتمل إلا بمعرفة لأصول الفلسفة ـ كانط ـ وللفنون المختلفة التى حرص على الإلمام بها .

وبينما كان شيللر فى رحلة إلى توبينجن لزيارة الأستاذ آبل الذى كان يشغل وظيفة أستاذ فى الجامعة هناك ، بدأ اللقاء الأول بين شيللر والناشر كوتا . وكان كوتا (الكونت يوهان فريدريش فون كوتا) [2] فى ذلك الوقت فى التاسعة والعشرين من عمره ، وكان يبذل الجهود ليصنع له اسماً لامعاً فى عالم الصحافة والنشر ، ويجتهد فى اجتذاب الأسماء المرموقة إليه . ولقد نجح هذا الناشر فى ذلك بمضى الزمن ، حتى أننا لا نستطيع اليوم أن نتصور الحياة الفكرية فى ألمانيا على الأقل فى الفترة من نهاية القرن الثامن عشر إلى قلب القرن التاسع عشر بدون هذا الاسم : كوتا ، الذى تحمله طبعات أعمال جوته وشيللر وفيلاند وغيرهم . وتكررت اللقاءات بين شيللر وكوتا وجرت مناقشات حول مشروعات متعددة ، منها ما تم ، ومنها ما لم يتحقق . كان كوتا يحلم بإصدار جريدة كبيرة سياسية على غرار الجرائد التى شهدتها فرنسا فى مطلع ثورتها ، وكان يبحث لها عن اسم كبير يتصدر رئاسة تحريرها ، فوجد فى شيللر ـ صاحب دون كارلوس وأستاذ التاريخ ضالته . وكان العرض سخياً يشمل مكافأة سنوية مبدئية قدرها ٢٠٠٠ جولدن تزيد بزيادة توزيع الجريدة ، وتعويضاً فى حالة فشل الجريدة ، ومعاشاً للأرملة إذا أدركته المنية فى أثناء العمل ... إلى آخر ذلك ولكن شيللر رفض هذا العرض لأنه رأى انه سيخرج به عن طريقه . وعرض على كوتا مشروعاً آخر هو إخراج مجلة أدبية جديدة باسم «دى هورين» [3] تجمع الكتاب والقراء على الاهتمامات الأدبية وتعتمد على المشاهير خاصة حتى تحقق الغرض المنشود . والحقيقة أن شيللر كان قد فاتح صديقه جوشن فى أمر هذا المشروع ، فى ربيع عام ١٧٩٢ ،

(١) Zumsteeg

(٢) Johann Friedrich von Cotta

(٣) Die Horen

ليكون تجديداً لمجلة « طاليا » التى قدمت وضعف إقبال القراء عليها ، لأنهم يهتمون بالجديد ، وينصرفون تدريجياً عن القديم . ولكن جوشن لم يتحمس للمشروع الجديدة ، وأصبح شيللر فى حل من الأمر وكان له أن يعرضه على آخرين . ووعد كوتا بدراسة المشروع ، ووافق عليه وسافر إلى يينا ووقع مع شيللر العقد فى ٢٨ مايو ١٧٩٤ .

اضطر كوتا للسفر إلى يينا للحاق بشيللر ، لأن شيللر سافر « فجأة » أو « على غير انتظار » فى وقت كان أصدقاؤه وأهل بلده يرجون أن تتاح فرصة لبقاء شيللر بينهم ، أستاذاً فى جامعة توبينجن مثلاً . وكان شيللر نتيجة لمرضه حساساً يتأثر بكل ما من شأنه إثارة مخاوفه ، أو تذكيره بأوقات الأزمات الكبرى . ففى شهر يناير تملكه شىء من الخوف أن تعاوده أزمة كبيرة . ومر يناير بسلام . وفى مايو جاءت أخبار باحتمال إقامة معسكر للمرضى قرب شتوتجارت فخاف من أن تصيبه عدوى مرض آخر ، أو ترتد عليه أزمات مرضه ، فسافر فى ٦ مايو . ومر فى الطريق بنورنبرج حيث زار صديقاً هو الدكتور إرهارد (١) ، ثم بمايننجن حيث زار أخته كريستوفينه وزوجها المستشار راينفالد . ووصل فى ١٥ مايو إلى يينا ، حيث اتخذ بيتاً كبيراً ليتسع للأسرة التى كبرت بمولد كارل . وكان المسكن الجديد قريباً من مسكن ڤيلهلم فون هومبولت (٢) فأتاح لهما لقاءات كثيرة .

ولعلنا نتوقف الآن لحظة ونصور علاقة شيللر شاعر الحرية بالثورة الأوروبية الكبرى ، ثورة الحرية فى فرنسا فى ١٧٨٩ . وأول ما يلفت نظرنا فى هذه العلاقة أن مسرحية شيللر الأولى « قطاع الطرق » قد ظهرت فى فرنسا فى عام ١٧٨٧ بتشجيع بومارشيه باسم « روبير ، رئيس قطاع الطرق » مقتبسة عن الألمانية بقلم المواطن لامارتيليير (٣) . ومن هنا أصبح اسم شيللر معروفاً فى فرنسا . وفى عام ١٧٩٢ منح البرلمان الفرنسى شيللر لقب مواطن فرنسى . وكان البرلمان قد أصدر

(١) Dr. Erhard

(٢) Wilhelm von Humboldt

(٣) Robert, Chef des Brigands, imité de l' Allemand

فى ٢٧ أغسطس من العام نفسه قانوناً بمنح هذا اللقب للأجانب الذين يكرسون أقلامهم أو جهودهم للدفاع عن الشعب ضد الطغيان . والطريف أن القائمة المقترحة ـ وكانت تضم أسماء منها جورج واشنطن وبستالوتزى وكلوپشتوك ـ كانت قد أقفلت ، ونهض أحد الأعضاء وطالب بضم شيللر إليها فوافق المجلس . وهناك وثيقتان إحداهما بتوقيع دانتون ، والأخرى بتوقيع الوزير رولان بشأن هذا اللقب . على أن شيللر لم يعلم بالخبر إلا من الصحف أو صحيفة « المونيتير » (١) على وجه التحديد ، ولم يتسلم الوثيقة الرسمية إلا بعد ست سنوات ربما لأن اسمه كان مكتوبا خطأ « جيل » (٢) بدلاً من شيللر ! وربما لأن عنوانه لم يكن معروفاً للحكومة الفرنسية ، فكلفت من كلفت البحث عنه وتسليمه الوثيقة .

والحقيقة أن شيللر كان مهتماً بالثورة الفرنسية منذ اندلاعها ، وأنه كان يفكر فى السفر إلى باريس وأن فكرة هذه الرحلة ظلت تراوده زمناً طويلاً . فلما بدأت الثورة تسير فى طريق العنف ، وبدأت قضية الملك ، غلبت شيللر عاطفته ، وأصبح عطفه على الملك « المسكين » أكثر من تأييده للثورة ، وبدأ شيللر يفكر فى كتابة مذكرة ـ بصفته مواطن فرنسى ـ لرفعها للجهات المختصة فى باريس لتصرف النظر عن محاكمة الملك . وكان شيللر يعتقد أن هذا واجب يفرضه عليه تعلقه بالحرية ، الحرية الفكرية . وهناك خطاب كتبه إلى كورنر فى ديسمبر ١٧٩٢ يسأله فيه عن مترجم جيد لينقل المذكرة إلى اللغة الفرنسية عندما يفرغ منها . بدأ شيللر فعلاً فى كتابة المذكرة . ولكنه اضطر إلى الانصراف عنها بعد تنفيذ حكم الإعدام فى الملك فعلاً . وأشاح بوجهه عن الفرنسيين ، الشعب الذى لا يمكن أن يفكر تفكيراً جمهورياً بمعنى الكلمة ، أو العبيد الأنذال كما كان يقول . وكان أكثر ما يثير نفوره فى الثورة الفرنسية ، هو الاضطراب الذى صاحبها ، والذى أضر ـ فى تقديره ـ بالمواطنين . ويمكننا أن نصدق رواية كارولينه فون بويلفيتس عن رأى شيللر فى التطورات التى كانت جارية فى فرنسا وتلك التى كان يتوقعها ، تقول : «كان يعتبر الثورة عملاً جاء نتيجة للعاطفة ،

(١) Le Moniteur

(٢) M. Gille, Publiciste allemand

لا ثمرة للحكمة التي كان يعتبرها وحدها الأم الحقيقة للحرية . ولكنه كان يعترف بأن الثورة أتاحت لكثير من الأفكار الهامة أن تصبح موضوعاً لحديث الناس ، بعد أن كانت من قبل كامنة في بطون الكتب أو في عقول المستنيرين . وكان يقول إن المبادىء الأصيلة التي ينبغي أن تكون أساساً لدستور شعبي يسعد الناس حقاً ، مبادىء لم تنشر بعد بين الناس ، إنها مبادىء ما زالت هنا (وأشار إلى كتاب كانط « نقد العقل المحض ») . ثم يقول إن الثورة الفرنسية لن تلبث أن تخبو كما اشتعلت ، وسينتهي الدستور الجمهوري إلى حالة من الفوضى ، إلى أن يظهر آجلاً أو عاجلاً ، رجل قوي راجح العقل ، يأتي من هذه الناحية أو تلك ، ثم يسيطر لا على فرنسا وحدها ، بل ربما على أجزاء كبيرة من أوروبا » . وربما فكر البعض في أن كارولينة تعظم شيللر تعظيماً مختلقاً ، وتنسب إليه نبوءة لا يمكن أن يكون قد تنبأها بهذا الشكل . ولكن خطاباته الباقية توحي بأنه فعلاً كان يعبر عن هذه الآراء . في يولية ١٧٩٣ مثلاً كتب إلى الأمير أوجوستنبورج يقول :

« إن محاولة الشعب الفرنسي الحصول على حقوقه الإنسانية المقدسة وعلى حريته السياسية ، لم تصل إلا إلى إثبات عجزه وعدم أهليته، وإلى الزج بهذا الشعب ، بل وبجزء كبير من شعب أوروبا وبقرن كامل من الزمان إلى الهمجية والعبودية . لقد كانت اللحظة هي أنسب اللحظات ، ولكنها وجدت جيلاً فاسداً لا هو جدير بها ، ولا هو يعرف كيف يمجدها ويفيد بها . وأن الطريقة التي يستخدم بها ، والتي استخدم بها ــ وما هي إلا محنة وليدة المصادفة ــ لتبرهن برهاناً قاطعاً ، على أن الجنس البشري لم يتجاوز بعد مرحلة الحياة في ظل سلطة تكون وصية عليه ، وأن جيش التحرير الذي يرسله العقل يأتي مبكراً على نحو مفرط ، في وقت لم يكد فيه الإنسان أن يدفع عن نفسه القوة الغاشمة لبهيمته . إن الإنسان الذي يفتقر إلى كثير من الحرية البشرية إنسان لم ينضج بعد للحرية الدستورية » . وفي موضع آخر يقول : « ينبغي أن يبدأ الإنسان بتنشئة مواطنين خليقين بالدستور ، قبل أن يمنحهم الدستور » .

وليس من شك في أن موقف شيللر من الثورة معيب . وليس هذا النقد الذي يوجهه إلى الثوار الفرنسيين ، بمختلف كثيراً عن النقد الذي وجهه إليهم

أنصار الملكية المستبدة . كان أعداء الثورة يرددون دائماً أنها أتت قبل أوانها ، وأن الناس لم ينضجوا بعد لتحمل تبعاتها ، وأن الواجب يفرض على من يريد الثورة أن ينشيء الناس على المبادىء أولاً ، ثم يمنحهم هذه المبادىء بعد ذلك . ومن الصعب أن نجد تفسيراً لموقف شيللر . فهو لم يغير من الخط الذى رسمه لنفسه من أول يوم ، خط الدفاع عن الحرية ، والوقوف أمام الطغيان ، وأعماله التاليه تشهد بذلك . فليس من الممكن أن نقول إنه وقد ارتبط بالأمراء وحياة البلاط وتزوج من ابنة عائلة إرستقراطية ، ابتعد عن الشعب . ولعلنا نلتمس له العذر ، فى عدم فهمه الثورة الفرنسية ، فنقول إنها كانت جديدة كل الجدة فى أسلوبها ، وأنها لجأت إلى كثير من العنف لا مع أعدائها فحسب ، بل مع أهلها أيضاً ، وأنها لم تتمكن من إنشاء ذلك المجتمع المثالى الذى صوره المنادون بها . وشيللر على أيه حال أديب شاعر مفكر ، يتكون عالمه من الخيال والعاطفة والصورة والنغمة والفكرة ، وهو لهذا بعيد عن الثورة من حيث هى حقيقة واقعة وممارسة . إنه يرسم ، وينادى ، ويعلم .. ولكنه لا يعرف كيف يحقق .

وقد شغلته أنباء الثورة الفرنسية فى وقت كان فيه يعيش مع الفن ، ويحاول أن يفلسفه أو يقننه . وقد سبقت له محاولات كثيرة فى هذا السبيل ، ولكن دراسة فلسفة كانط هى التى أعطته الدفعة القوية ، ومكنته من بناء نظريته الإستطيقية . وينبغى علينا ، إذا أردنا أن نفهم أهمية كانط فى عصره ، أن ننظر نظرة ولو سريعة إلى الأفكار الفلسفية التى كانت سائدة قبل كانط . كان من المفكرين من يقبلون وجود العالم المحيط بهم وينظرون إلى هذا العالم على اعتبار أنه حقيقة واقعة ، وكانت نتيجه هذه النظرة الاسترسال فى تفسير مايعرض للإنسان المفكر بحسب قانون العلة والمعلول . وكان من المفكرين من يتطرفون إلى المثالية أو لى الشكية ، وينظرون إلى العالم المحيط بهم على اعتبار أنه طيف أو صورة لاهرية ، لا حقيقة واقعة ، فمن تطرف إلى المثالية أضاف إلى هذه النظرة اعتقاده ، أن هذا العالم يحقق هدفاً نهائياً ، وبالتالى يمكن تفسيره بحسب هذه الأهداف نهائية ، ومن تطرف إلى الشكية ، رفض كل التفسيرات واعتبرها وهماً . وجاء انط فوضع نظرية رد بها على هذه الاتجاهات كلها ، وفسر بها العالم تفسيراً

مقبولاً من عصره . (نقد العمل المحض ١٧٨١ ـ نقد العقل العملى ١٧٨٨ ـ نقد ملكة الحكم ١٧٩٠ ـ الدين فى حدود العقل المجرد ١٧٩٣). وكانط لا ينكر وجود العالم المادى ، ولكنه يرى أننا لا نستطيع أن نعرف طبيعته وكنهه ، لأننا إذ نعرف العالم ، نفرض عليه ـ أثناء عملية المعرفه هذه ـ صورة معينة من فكرنا نحن . وبعبارة أخرى ، يرى كانط أن عالم الأشياء خليط من هذه الأشياء ذاتها ومن أفكارنا نحن ، إنه عالم موضوعى تمتزج به ذاتية لا سبيل إلى تجريده منها . ونحن عندما نفسر عالم الأشياء طبقاً لقانون العلة والمعلول لا نخطىء ، ولكننا نحن الذين وضعنا هذا القانون فى داخل عالم الأشياء ، وما هذا القانون إلا وليد تفكيرنا . إذن فعالم الأشياء موجود ، وعالم الأشياء له حقيقة ، ولكن حواسنا لا تمكنا من الإلمام بهذه الحقيقة . هناك الأشياء كظواهر (فينومينا) وهناك الحقيقة الخالصة لهذه الأشياء (نومينا) . أما فيما يتعلق بالأخلاق فكانط يرى أن تصرفنا من الخير والشر لا يقع فى مجال الفينومينا ، بل فى مجال النومينا ، وأننا نصل إلى الحقيقة الحقة (النومينا) عن طريق الإرادة ، ولابد أن تكون الإرادة حرة تماماً ، أى مجردة من الشهوات والرغبات والميول والعواطف . فالفضيلة ثمرة الإرادة وحدها . الإرادة الساعية إلى الواجب ، ولا مكان فى الفضيله للشهوة أو اللذة أو للعاطفة . والجمال شأنه شأن الأخلاق ، إنه من مستوى النومينا . وكانط يجرد الجمال من كل الاعتبارات النفعية ، ويعتبره رمزاً للنومينا . هذا قوله عن الجمال . أما الحكم على الجمال فشىء آخر ، إنه فى نظر كانط شىء ذاتى .

ليست دراسة فلسفة كانط بالعمل اليسير ، فكتابات كانط تتميز بصعوبة ووعورة شديدة ، ولا ينبغى أن ندهش عندما نعلم أن هناك من ترجم هذه الكتابات من الألمانية إلى الألمانية ، من ألمانية كانط إلى ألمانية أكثر يسراً . ولكن شيللر ، وقد حصل على المنحة الدنمركية ، أصبح حراً فى وقته يصرفه فيما يروق له . واختلف شيللر مع كانط فى أمرين ، أولها أن العاطفة إذا دخلت فى عمل جردته من الفضيلة وثانيها أن الحكم على الجمال شىء ذاتى فحسب . كان شيللر يرى أن للموضوعية مكانًا كبيرًا فى الجمال ، وكان يفكر فى صيغة للتعبير عن مفهومه الجديد . نجده فى خطاب إلى كورنر فى ديسمبر ١٧٩٢ يكتب : « لقد ازدادت فكرتى عن كنه الجمال وضوحاً... وأعتقد أننى توصلت إلى مفهوم

موضوعى للجمال ، ينبنى عليه تلقائياً مبدأ التذوق الموضوعى الذى يئس كانط من الوصول إليه . وأنا أنوى أن أنظم أفكارى وأن أنشرها فى الربيع القادم على شكل حوار : كالياس أو « فى الجمال ... » .

ولم يتمكن شيللر ، لسبب أو لآخر ، من كتابة هذا الحوار الاستطيقى ، ولكنه عرض الأفكار التى كان ينوى أن يدخلها فى هذا الحوار ، فى أربعة خطابات أرسلها إلى كورنر فى فبراير ١٧٩٣ (٨ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٨ فبراير) ، هى الرسائل المسماة « رسائل كالياس »[١] . هنا يحاول شيللر تعريف الجمال ، مبتدئاً من فلسفة كانط : مادام عالم الظواهر يقوم على قانون العلة والمعلول فإن الحرية الحقة ليست من عالم الظواهر . ولكن عالم الظواهر يعرف لوناً من الحرية (ليس نومينيا) يمكن أن نطلق عليه اسم الحرية فى الظاهر أو الحرية الظاهرية . « والجمال هو تشابه ظاهرى مع شكل الإرادة الحرة أو الحرية (بأوسع معنى) » . أما الحكم على الجمال فهو فى نظره حكم لا يخضع للذاتية ولا للأخلاق ، إنه مجرد تقدير وجود الحرية الظاهرية فى العمل الفنى . والذوق من شأنه تبين الانسجام فى الفن ، والانسجام فى الفن هو انسجام الجوهر أو المضمون مع الشكل انسجاماً تاماً متصلاً لا انفصال فيه ولا ثغرة بينه . ومثل هذا الانسجام فى الفن بيت الشعر « الجميل » الذى نتبين أن طوله أو قصره شىء ما كان يمكن أن يكون إلا هكذا ، فكل كلمة فيه لها وزنها ولها حركتها ولها سكنتها التى تدخل فى الكل ، ولا يقوم الكل إلا بها . وخلاصة القول أن العمل الفنى فى نظر شيللر عمل موضوعى ، على الرغم من أنه يجمع بين المادة التشكيلية وبين شخصية الفنان ، والفنان العظيم هو الذى يجسم الموضوع ، يجسمه على نحو موضوعى تماماً ، والفنان المتوسط هو الذى يجسم شخصيته هو على نحو ذاتى ، والفنان الردىء هو الذى يعالج الموضوع بطريقة تخضع لطبيعة وسيلته الفنية ولحدوده الفنية . والعمل الفنى يكون جميلاً عندما يبدو حراً ، غير مغلول بسبب ، غير مطبوع بيد ، حتى ولا بيد الفنان الذى أنتجه .

(١) Kallias oder über die Schönheit

وإذا كان شيللر قد صرف النظر عن كتابة حوار كالياس فهو لم ينصرف عن الكتابة فى فلسفة الجمال . فى مايو ١٧٩٣ كتب مقالاً بعنوان « فى الطلاوة والجلال » [1] نشره فى مجلة « طاليا الجديدة » وعبر فيه عن رأيه المخالف لكانط ، لا فى الجمال فحسب بل وفى الأخلاق كذلك . الطلاوة فى تقديره هى الجمال وقد اكتسى بمسحة روحيه . فالطبيعة تمنح جمال التكوين ، ولكن الروح هى التى تمنح جمال الحركة (حرفياً ، جمال اللعب) ، وجمال الحركة هو الانسجام بين العقل والحس ، وهو الانسجام بين الواجب والعاطفة . والفضيلة الوحيدة التى على الإنسان مراعاتها هى « عاطفة الواجب » أو « الميل إلى الواجب » وليست هناك فضيلة فيما عدا ذلك ، والإنسان الذى تتحقق فيه هذه الفضيلة ، الإنسان المثالى ، اسمه فى لغة شيللر « الروح الجميلة » ، وهو الإنسان الذى يحسن التصرف عن فطرة وغريزة ، والذى تسوقه عواطفه إلى طريق الواجب ، ولا تقف أمامه كعائق يحجب عنه طريق الواجب .

هذه الحالة التى تنسجم فيها العواطف مع الواجب ، حالة الطلاوة ، هى حالة مثالية ولا يمكن الإبقاء عليها دائماً من الناحية العملية ، لأن الإرادة تتعرض كثيراً لشد وجذب من جانب الرغبة والعاطفة . والحالة التى تسيطر فيها الإرادة على الرغبة والعاطفه هى « الجلال » والجلال هو الصورة الظاهرية للحرية العقلية . الجلال يظهر فى التحمل والمعاناة ، والطلاوة تظهر فى الحركة والفعل ، والإنسان الذى يتمكن من الجمع بينهما ــ بين الجلال والطلاوة ــ هو الإنسان الكامل .

وقد نجح هذا المقال نجاحاً كبيراً ، وكثرت التعليقات حوله . وكتب كانط نفسه إلى شيللر رداً لطيفاً ، مدح فيه قدرته الممتازة ، وقال إنه يتفق معه فى كثير من المبادىء التى عرضها ، وإنه يأمل أن يتوصل إلى اتفاق معه فى موضوع الجمال الأخلاقى .

(1) Über Anmut und Würde

ولشيللر مقال آخر فى فلسفة الفن بعنوان « فى التأثر »[1] (فيما هو مؤثر) ظهر فى مجلة طاليا كذلك فى عام ١٧٩٣ . وهو مقال يختص بالتراجيديا ، وقد علمنا أن شيللر حاضر فيها فى الجامعة ، وكتب عنها مقالتين فى مجلة طاليا نفسها (فى سبب التمتع بالموضوعات التراجيدية [2] ــ فى الفن التراجيدى) [3] . وموضوع التأثر هو العنصر الأساسى فى التراجيديا ، عنصر المعاناة أو التأثر أو التحمل أو مقاومة الصراع التراجيدى . والتراجيديا تكشف عن مبدأ الحرية فى الإنسان عندما يسمو ، فنياً ، على الصراع التراجيدى . هذا السمو قيمة من القيم الاستطيقية التى يفرد لها شيللر دراسة خاصة ــ بعد أن يتناولها هنا على نحو عام ، وبعد أن يمسها فى مقاله عن « الطلاوة والجلال » . والمقال يحمل عنوان « السمو »[4] (فيما هو سام) . وقيمة السمو تتحقق للإنسان عندما يشعر بأنه خاضع مستقل فى وقت واحد ، خاضع باعتبار أنه كائن فى الطبيعة ، ومستقل باعتبار أنه طاقة روحية . ولهذا فإن هذه القيمة لا تتحقق إلا فى المحنة وفى المعاناة . ويفرق شيللر بين قيمة « العظمة » وقيمة « السمو » فيرى أن العظمة هى ما يتحقق للإنسان الذى يتغلب على المصيبة ، أما السمو فيتحقق للإنسان الذى لا يخشى هذه المصيبة ولا يرهبها حتى عندما يستحيل عليه التغلب عليها . وهكذا فلا يمكن أن تتحقق قيمة السمو للإنسان إلا فى المحنة ، بينما تتحقق قيمة العظمة فى السعادة أحياناً . وفى دراسة أخرى عن قيمه السمو (كتبها شيللر فى هذا العام نفسه ، ولم ينشرها إلا فى عام ١٨٠١) يوضح شيللر دور الإرادة ، فالإرادة لا تظهر إلا إذا كان هناك مجال لإبرازها ، وهذا المجال هو على الأخص مجال التصادم والتعارض . وكلما زاد التحدى الذى يتعرض له الإنسان فى مجال التصادم والتعارض ، كلما سما بالإرادة التى يواجهه بها . حتى إذا كان عنصر التحدى هو الموت ، فالإنسان قادر على أن يضع أمامه ما يناسبه ويوازنه من

(١) Über des Pathetische

(٢) Über den Grund des Vergnügens an tragischen Gegenständen

(٣) Über die Tragische Kunst

(٤) Über das Erhabene

الإرادة ، والإرادة فى هذه الحالة تتخذ صورة السير إلى القدر المحتوم سيراً حراً . فالإنسان الحر بين أمرين متساويين ، إما أن يسمو على الطبيعة كقوة أعظم ، وأما أن يكون منسجماً معها انسجاماً تاماً ؛ هذا الإنسان الحر ، أو بلغة التراجيديا البطل ، يبرهن على حريته عندما يقرر ، بإرادة حرة ، أنه يريد ذلك الشيء الذى يستحيل عليه قهره .

ويستكمل شيللر عرض فلسفته فى الجمال فى مجموعة الرسائل المعروفة باسم « التربية الجمالية للإنسان ، فى سلسلة من الرسائل »[1] . والحقيقة أن هذه الرسائل كانت فى أصلها رسائل خاصة ، بعث بها شيللر إلى الأمير الدنمركى صاحب المنحة الكريمة ، وتحدث فيها عن الثورة الفرنسية ، وعن رأيه فى الأحداث الدامية التى صاحبتها ، والدكتاتورية التى انبثقت منها بدلاً من الديمقراطية الحقيقية ، والشعب الذى لم يستعد لتحمل المسئوليات الجديدة . وتناول شيللر هذه الرسائل بالصقل ، والتعديل والتطوير حتى اكتملت مؤلفاً فلسفيًا يكمل المقالات الاستطيقية السابقة . ونقطة البداية فى هذه الرسائل هى أن الثورة الفرنسية قد أثبتت أن الناس لم يصلوا بعد إلى درجة من الثقافة تمكنهم من بناء الدولة الجديدة ، إنهم يفتقرون على وجه التحديد إلى القدرة المعنوية . والناس ، كما يراهم شيللر ، يميلون إلى جانب دون آخر ، ويضعون همهم وطاقتهم فى أمر واحد من الأمور ويتركون ما عداه ، وهذا يعنى أن شخصيتهم معتلة ، غير منسجمة . فما هو السبيل إلى الوصول إلى القدرة المعنوية ، وما هو السبيل إلى إصلاح الشخصية وإنقاذها من الوهن الذى اعتراها نتيجة الانحياز والتحزب والميل إلى جانب واحد ؟ ليس هناك سبيل إلى الإصلاح سوى الفن . فالناس ينفرون من الجهود الصارمة التى تبذل لتربيتهم ، ولكنهم يخضعون للتربية التى تسلك إليهم سبيل اللعب . الوسيلة هى العمل الفنى الذى يتسم فى ظاهره بالتجرد من الغرض والفائدة ، والذى يضم فى طياته أسمى مفهوم أخلاقى . والإنسان فى نظر شيللر ـ أو على الأصح فى نظر كانط ـ ينشط مدفوعاً بغريزتين أو دافعين : الدافع المادى والدافع الشكلى أى الأخلاق . هذان الدافعان

(١) Über die ästhetische Erziehung des Menschen

يعملان فى اتجاهين متضادين ، ولا ينسجمان فى رأى شيللر إلا فى النشاط الفنى ، الذى يستجيب لدافع ثالث أو غريزة ثالثة هى دافع اللعب . ودافع اللعب موضوعه الجمال . وهنا يعطى شيللر للجمال تعريفاً جديداً يقيمه على المستوى النفسى ، وهو أن الجمال شىء نقيسه بما نحسه فى نفوسنا نحوه . الجمال يحدث فى نفوسنا « حالة من السكون إسمى السكون ، والحركة إسمى الحركه ، ويثير فى أنفسنا تلك الخلجة الرائعة التى لا يعرف لها العقل مفهوماً ولا تعرف لها اللغة اسماً » . هذه الحالة هى حالة التوازن والانسجام ، التوازن بين الواقع والشكل . والجمال له مستوياته ، فهناك الجمال المذيب والجمال النشيط . أما الجمال المذيب فهو المستوى الذى كان يناسب الإنسان البدائى ، الإنسان الذى كان فى حالة الهمجية . وأما الجمال النشيط ، أو « السمو » ، فهو المستوى الذى يناسب الإنسان المتحضر ، هذا المستوى من الجمال هو أعلى مستوى ، وهو الذى يناسب أعلى درجة فى التحضر الإنسانى . وليس هذا المستوى الرفيع من الجمال شيئاً استطيقيا فحسب ، بل هو شىء معنوى أخلاقى أيضاً ، وهو الذى يجعل الإنسان الحسى إنساناً عاقلاً ، ويمكنه من تحمل مسئولياته (التى عجز عن تحملها الشعب الفرنسى إبان ثورته) ومن إنشاء « دولة العقل » . إننا نتمتع بالجمال الحق عندما نحس بأننا مسيطرون على قوانا المؤثرة وقوانا المتأثرة فى وقت واحد ، ونتجه بسهولة إلى الجد واللعب ، إلى السكون والحركة ، إلى الانضواء والمقاومة ، إلى التفكير المجرد والتأمل بسهوله لا تفاوت فيها . هذا هو الانسجام وهذا هو التوازن الكامل .

هذه الدراسة العميقة ، التى ربط فيها شيللر بين أفكاره وفلسفة كانط ، وربط فيها بعد ذلك بين ميادين الحياة المختلفة ، وجعل الفن فيها يقود الإنسان إلى دولة العقل ، هذه الدراسة تبين لنا الجهود الجبارة التى كان شيللر فى ذلك الوقت يبذلها لا ليقيم للناس فلسفة للفن فحسب ، ولكن ليرسى لنشاطه الفنى المقبل أساساً يتسم بالوضوح أعظم الوضوح والعمق أشد العمق .

وما دمنا فى معرض الحديث عن الدراسات الاستطيقية لشيللر ، فلا بأس من أن نقفز إلى المستقبل ، ونتناول خاتمتها ، وقمتها : « الشعر الفطرى والشعر

العاطفى »[1] . وقد بدأ شيللر يكتب هذه الدراسة فى خريف عام ١٧٩٤ وظل يعمل فيها طوال عام ١٧٩٥ وخاصة فى النصف الأخير من العام . وظهرت مطبوعة فى المجلة الجديدة « دى هورين » فى نوفمبر ثم ديسمبر ١٧٩٥ ثم يناير ١٧٩٦ . وكان الأصل فى هذه الدراسة هو المقارنة بين الإنتاج الفنى عند الإغريق والنتاج الفنى المعاصر لشيللر . ثم كانت النتيجة هى صياغة المفهومين : « الفطرية » و « العاطفية » . الفطرة تتحقق عندما تنتصر الطبيعة على الفن ، والفطرة هى سمة العبقرية سواء كانت تلك العبقرية عبقرية فرد أو أمة أو عصر ، وأبرز مثل على أصحاب الفطرة هم الإغريق . وليست الطبيعة سوى الوجود الحر ، وجود الأشياء بذاتها ، وجودها بحسب قوانينها الخاصة بها التى لا تتأثر بشىء ولا تتغير نتيجة لشىء . وحالة الفطرة ، أى الاندماج التام غير المتكلف بين الطبيعة والفن ، قليلة فى العصور الحديثة ، ولكنها ممكنة ، والمثل عليها شيكسبير الذى تحققت فطريته فى اندماجه فى العالم المحيط اندماجاً لا مكان فيه لتعارض بين الطبيعة والفن . الشاعر الفطرى هو الشاعر الذى يكون والطبيعة شيئاً واحداً ، الذى يعيش الطبيعة . أما العاطفية ، وهذا اصطلاح شيللرى خاص ، فهى انعطاف الشاعر للبحث عن الطبيعة التى فقدها . والشاعر إنما يفقد الطبيعة نتيجة للحضارة التى تحول بينه وبين أن يكون هو والطبيعة شيئًا واحدًا ، ولكنه يظل على وعى بذلك المثل الأعلى الذى ضاع منه ، وهو ينعطف إليه ، ويبحث عنه ، ويسعى إلى إعادة الوحدة . وبينما الشاعر الفطرى يخلق فناً هو تقليد للواقع إلى أقصى إمكانات التقليد ، فإن الشاعر العاطفى يخلق فناً هو تصوير للفكرة أو للمثل الأعلى .

وشيللر يقسم الشعراء والأدباء جميعاً ـ فى كل زمان ومكان ـ إلى مجموعتين : فطريين وعاطفيين . وهو لا يفرق فى القيمة بين المجموعتين ، بل يعزو كون الشاعر فطرياً أو عاطفياً إلى ظروف العصر والثقافة والمصادفات أو الحالة النفسية . والشاعر الفطرى يتملكه موضوعه تملكاً تاماً ، فتنحسر ذاتيته ،

(١) Uber naive und sentimentalische Dichtung

ويصبح كله طبيعة ، إنه كالإله الذى خلق الكون والذى لا يظهر إلا فى الكون . أما الشاعر العاطفى فيبحث عن الطبيعة ، ويسعى إليها فهى أيضاً النسبة إليه الهدف والمرام ، ولكنها أصبحت مثلاً أعلى خلقه هو فى فكره ، واندفع إليه وأنى له أن يصل إليه إلا بالجهد أشد الجهد . ولكل شاعر قدره ، فقيمة الشاعر الفطرى تكمن فى الوصول المطلق لعظمة نهائية ، وقيمة الشاعر العاطفى تكمن فى الاقتراب من عظمة لا نهائية .

ويطبق شيللر معاييره على الأدباء الألمان مثل هاللر وكلوپشتوك وكلايست (1) فيجد أنهم كلهم من النوع العاطفى . بل إنه يطبق هذه المعايير على أدبه هو وعلى أدب جوته ويقرر أنه عاطفى ، وأن جوته فطرى . وقد سبق أن عبر شيللر عن هذا الحكم فى الخطاب الذى أرسله إلى جوته فى عام ١٧٩٤ فى عيد ميلاده ، بلفظين آخرين هما « الملهم » و« المتأمل » ، فجوته هو شاعر الإلهام ، بينما هو شاعر التأمل .

والحقيقة أن هذه الدراسة الفلسفية الجمالية ما كان يمكن أن تتبلور فى هذه الصورة لو لم يحدث بين شيللر وجوته تقارب مفاجىء ، أخذ يزداد مع الأيام وثوقاً ، حتى أصبح رباطاً فريداً ، جنت منه الآداب الألمانية أعظم الثمار .

(1) Haller . Klopstock . Kleist

الباب الحادى عشر

شيللر وجوته

عاد شيللر إلى يينا فى ١٤ مايو ١٧٩٤ ومعه زوجته وابنه ، من رحلته الطويلة إلى وطنه شفابن . وإذا لم تكن صحته قد تحسنت تحسناً كبيراً ، فقد تحسنت نسبياً على أية حال ، وارتفعت روحه المعنوية ، وأصبح يضع للمستقبل القريب والبعيد الخطط الكبيرة ، وأصبح يعرف كيف يقرأ ويكتب رغم مرضه أو الأصح دون عابىء بمرضه حتى أننا لنبحث فيما أنتج فى تلك الفترة عن آثار مرضية من أى نوع فلا نجد . ولعل السبب فى ذلك هو اتباعه لمذهبه الاستطيقى الذى عرضنا له ، والذى يمتدح للفنان الخلاق البعد بشخصيته وذاتيته عن الظهور والبروز فى العمل الفنى . وكان إخراج مجلة دى هورين التى تحدث عنها مع كوتّا ، هو أهم ما يشغل باله . ولقد حضر كوتّا إليه بعد قليل وأمضى معه العقد ، وعاد يتحدث إليه عن الجريدة السياسية التى سبق أن حادثه بشأنها فى توبنجن . ولكن شيللر كان يؤمن إيماناً قاطعاً ، بأن دور السياسة إنما يأتى بعد أن يكون الفن قد طور الناس وانتقل بهم من الهمجية إلى السمو الذى لا يتم تكوين دولة العقل العصرية إلا به .

وبدأت الإعلانات تخرج فى يولية عن مجلة دى هورين الشهرية ، التى لا تتنزل إلى مستوى الجماهير ، بل تحافظ على مستوى رفيع فى الذوق والعمق .

وصمم شيللر على أن يحفظ لمجلته هذا المستوى ، ووجه الدعوة إلى كبار الأدباء والمفكرين فى زمانه للاشتراك فى المجلة بأقلامهم ، فوجد ترحيباً كبيراً . ومن هؤلاء هردر ، وفيشته ، وياكوبى ، وكورنر ، وڤيلهلم فون هومبولت ، وكان أعظم انتصار حققه شيللر للمجله هو الحصول على موافقة جوته على الاشتراك فيها ، وكان شيللر قد أرسل إليه فى يونيه إعلاناً من إعلانات المجلة وأرفقه بخطاب رقيق يدعو الكاتب الكبير للاسهام فى المشروع ، فرد جوته بعد عشرة أيام بالموافقة : «إننى أوافق مسروراً ومن كل قلبى بأن أكون واحداً من الهيئة» (هيئة التحرير) .

كان فيشته ، يوهان جوتليب فيشته [1] ، قد انتقل إلى ينا ليشغل فيها كرسى الفلسفة الذى كان راينهولد يشغله بعد انتقال راينهولد إلى كيل . وكان فيشته كخلفه تلميذاً لكانط ، يحظى بتشجيعه وتأييده . ولكنه كان مندفعاً عنيفاً ، وكان يرجو أن يضيف إلى فلسفة كانط شيئاً جديداً ، أو أن ينشىء فلسفة جديدة تجمع ما أفاده من كانط وما تفتقت عنه قريحته هو . وتوثقت الصلة بين شيللر ، تلميذ كانط الجديد ، وفيشته تلميذ كانط القديم ــ الذى كان فى مثل سن شيللر تقريباً فهو من مواليد عام ١٧٦٢ ــ وكان فيشته يعتقد أن شيللر ، لو عكف على الفلسفة ، ونظم آراءه وأفكاره ودونها ، لخلق فيها مذهباً جديداً يتفوق به على مذاهب عصره الفلسفية كلها ، ولأصبح أكبر فلاسفة زمانه . كانت الفلسفة تقرب بين الرجلين ، ولكن المقدرة الفنية كانت تباعد بينهما . ففى حين كان شيللر يعالج الأسلوب بمهارة الأديب العبقرى ، كان فيشته يلقى الكلمات على الورق ، ولا يهتم إلا بأن تكون حاملة لأفكاره . حتى اضطر شيللر ، باعتباره رئيساً لتحرير مجلة «دى هورين» إلى رد مقال بقلم فيشته إليه ليحسن من أسلوبه . ويمكننا أن نتصور غضب فيشته لذلك . ولكن الغضب لم يتجاوز حدوده على ما يبدو ، وظل شيللر على تقديره للفيلسوف ، وعرف كيف يعاونه فى وقت المحنة .

(١) Johann Gottlieb Fichte

كذلك أتاحت مجلة دى هورين لشيللر فرصة توثيق علاقته بڤيلهلم فون هومبولت . وكان شيللر قد تعرف به من قبل ، قبل زواجه ، عندما كان ڤيلهلم فون هومبولت متيماً بكارولينه داخرؤدن صديقة شارلوته وكارولينه . وبينما تزوج شيللر بشارلوته ، تزوج هومبولت هو الآخر بصديقتها كارولينه ، وانتقل إلى يينا على مقربة من شيللر وأسرته . وكان البيتان اللذان سكنهما الأسرتان الصديقتان متواجهين لا يفصل بينهما سوى الشارع . ولم يكن يمر يوم دون أن يتلاقى الأصدقاء . كان اللقاء بين هومبولت وشيللر يحفز الاثنين على التفكير ، ويتيح لهما فرصة لتبادل الأفكار ، وكان هومبولت بالنسبة لشيللر مشابهاً فى دوره لكورنر . وقد كتب شيللر إلى كورنر يحدثه عن صداقته لهومبولت فقال : «إن صداقة هومبولت لا تقف فى لطفها وفى فائدتها عند حد» . ويرجع الفضل إلى هومبولت فى تركيز شيللر نشاطه تدريجياً حول التراجيديا . كان هومبولت فى حديثه إلى شيللر يملأ قلبه بالثقة ، فهو معجب بانتاجه ، وهو معجب على مستوى رفيع فى الفكر والذوق ، ولهذا كان شيللر يعلق على حكمه ونصحه ونقده أهمية كبيرة . وقد أقام هومبولت فى يينا مرتين مرة من عام ١٧٩٤ إلى ١٧٩٥ ، والمرة الثانية من عام ١٧٩٦ إلى ١٧٩٧ ، وكان الاتصال يجرى كتابة ، إذا باعد بين الصديقين المكان . وتكونت بمضى الوقت مجموعة هامة من الخطابات . كذلك ألف هومبولت عن شيللر بعد وفاته دراسة ممتازة «شيللر وطريق نموه الفكرى»[1] ، صور فيها على نحو رائع طريقة شيللر فى التفكير وفى العمل فى تلك الفترة . كان شيللر قد بدأ يقلل من نشاطه فى الجامعة تدريجياً ، حتى حصره فى حلقة دراسية صغيرة فى بيته ، ثم انصرف عنه تماماً لأن حالته الصحية منعته كلية من بذل جهود من هذا النوع . وأصبح مكانه المختار هو البيت ، يسهر فيه على العمل . وكان العمل والتفكير يفرضان نفسيهما عليه لأنه كان يعانى من الأرق ، ولم يكن يعرف له من وسيلة للتغلب على الأرق إلا الاستسلام للعمل والتفكير . فإذا كل جسمه أو ثار عليه ، انهال عليه بالمنبهات . وكان شيللر قد عود نفسه على التفكير

(١) Vorerinnerung über Schiller und den Gang seiner Geistesentwicklung

الحوارى ، أو كان هذا النمط من التفكير هو النمط المناسب له ، كانت الأفكار تنمو فى وجدانه بسرعة وسهولة عندما يتحدث مع آخر أو آخرين ، وكان بطبيعته يجيد الحديث والحوار ويعرف كيف يجذب اهتمام وإعجاب محدثه أو محدثيه . وكان هومبولت كلفا بحديث شيللر وحواره ، يسعى إليه ، ويظل معه حتى ينتصف الليل وربما حتى يطلع فجر اليوم التالى . يقول هومبولت عن شيللر : «كان الشيء الذى يلفت نظر من يراقب شيللر أن الفكرة تكوّن جوهر حياته على نحو عظيم مؤثر لا يكاد يجاريه فيه أحد . كان النشاط الفكرى المستمر التلقائى لا يتركه أو يكاد ألا يتركه بحال من الأحوال ، ولم يكن ينحسر إلا أمام الهجمات العنيفة التى يصيبه بها مرضه الجسمانى . كان النشاط الفكرى يلوح كأنه بالنسبة إليه راحة لا جهد . وكان هذا يتضح على الأغلب فى الحوار ، الذى كان شيللر يبدو كأنما ولد له خاصة ، لم يكن شيللر يبحث عن موضوع للحوار يتسم بأهمية أكثر مما عداه ، بل كان يترك للمصادفة مهمة اختيار الموضوع ، وكان يسوق الحوار حول الموضوع إلى وجهة نظر أكثر عمومية ، فما يلبث الإنسان أن يجد نفسه بعد قليل من الردود فى وسط مناقشة تحفز العقل . كان شيللر يعالج الفكرة دائماً على اعتبار أنها نتيجة جهد مشترك ، وكان يبدو دائماً فى حاجة إلى شريك فى الحوار ، حتى وإن ظل هذا الشريك شاعراً بأنه إنما يتلقى الفكرة من شيللر وحده ، دون أن يدعه بحال من الأحوال بعيداً عن الاشتراك فى الحوار . ولم يكن شيللر يتكلم كلاماً جميلا فى ذاته . ولكن فكره كان يسعى دائماً بوضوح وتصميم إلى الثمرة الفكرية الجديدة ، وكان هو يسيطر على هذا المسعى ، ويهيم بحرية تامة فوق الموضوع الذى يشتغل به . ولهذا فإنه كان ينتهز فى مرح لطيف كل استطراد جانبى فيسلك السبيل إليه ،وكان حديثه غنياً بالكلمات التى تحمل طابع الخواطر بنت لحظتها . . » . وقد عبر شيللر من جانبه عن المعنى نفسه تقريباً عندما قال : «كل أفكارى تتكون على نحو سريع عندما أتحدث معه » .

ولعلنا ، قبل أن نتعرض لعلاقة جوته وشيللر فى هذه الفترة ، نرجع بالذاكرة قليلا إلى الوراء ، ونستعرض فى إيجاز المراحل السابقة لهذه العلاقة . كان شيللر قد قرأ من أعمال جوته ، وهو فى الأكاديمية ، رواية «آلام ﭭرتر »

ومسرحية «جوتس فون برليشينجن »[1] وتحمس لها تحمساً شديداً ، بل ولعب دوراً فى مسرحية «كلافيجو » لجوته عندما مثلت فى الأكاديمية ، ثم رأى شيللر جوته عن كثب عام١٧٧٩٠ عندما زار الأكاديمية مرافقاً للأمير كارل أوجست . ومرت الأعوام وأصبح شيللر شاعراً لامعاً . وتاق للقاء جوته ، ولم يتحقق هذا اللقاء إلا فى سبتمبر ١٧٨٨ فى رودلشتات . ولكن الفارق بين جوته وشيللر كان فى ذلك الوقت عظيماً ، وظهر فى حكم شيللر على هيئة إعجاب بجوته أو غيظ منه ، ولكنه حفزه على أن ينمى شخصيته ويكمل الناقص من تعليمه وثقافته ، حتى يصبح نداً لجوته . والحقيقة أن الشاعرين كانا يسيران فى اتجاهين متضادين . كان جوته قد سافر إلى إيطاليا وتعمق فى دراسة الثقافة القديمة ، وبدأ الكلاسيكية ، فلما عاد إلى المانيا وجدها غارقة فى الإعجاب بإنتاج حركة العاصفة فأنكر عليها هذا «التأخر » ، وكذلك أنكر عليها برودها حيال انتاجه الكلاسيكى ببساطته الكريمة . وأما شيللر فكان فى مرحلة العاصفة ، لا يزال ، وإنْ سعى فى « دون كارلوس » إلى تجاوزها . كان ضمير كل من الشاعرين يختلج حيال الآخر بشعور لا يجد فى الآخر تقبلا . كان شيللر يسعى إلى التقرب إلى جوته ، وكان جوته يسعى إلى الابتعاد عن شيللر «صاحب قطاع الطرق » . وقد حاولت السيدة فون شتاين التقريب بين الاثنين ففشلت ، لأن جوته كان مصراً على رفضه مقابلة شيللر . ثم حدث شيء من التقارب عندما جرى تعيين شيللر أستاذاً للتاريخ فى جامعة يينا ، بناء على اقتراح مكتوب بقلم جوته ، وان لم يكن الاقتراح اقتراحه هو . ثم جاءت زيارة جوته لشيللر فى يينا بعد زواجه .

كانت الأيام قد صقلت شيللر ، وقهرت عنف العاصفة فيه ، الأيام بما امتلأت به من خبرة ومن دراسة بخاصة دراسة فلسفة كانط . وإذا كان جوته قد ظل يعتقد أن دراسة شيللر لفلسفة كانط قد أضرته أكثر مما أفادته ، فإننا اليوم نعتقد أن الصواب جانبه إلى حد كبير ، وأن دراسة شيللر لكانط قد أحدثت به تغيراً مماثلاً للتغيير الذى أحدثته الرحلة الإيطالية بجوته ، هذه المرحلة من النضج

(١) انظر الترجمة العربية : يوهان ڤولفجنج فون جوته ، أورفاوست وجوتس فون برليشنجن ، ترجمة دكتور مصطفى ماهر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

التى وصل إليها شيللر ، هى التى مهدت لتقارب وثيق بين الاثنين . وربما كان من الخير أن التقارب لم يحدث قبل أوانه فقد كان شيللر بالفعل فى حاجة إلى وقت تتبلور فيه أفكاره ، والمؤكد أن تباعد الاثنين خفف من إحساس العداوة الساذجة والتباغض الفج الذى نشأ بينهما ، وأتاح الفرصة لكل منهما ليبحث لدى الآخر عن شىء يثير الإعجاب والتقدير .

وتدل دعوة شيللر جوته للاشتراك فى تحرير مجلة «دى هورين» وموافقة جوته بسرعة عليها ، على تغير موقف كل منهما من الآخر ، تغيراً إيجابياً . وفى ٢٠ يوليو ١٧٩٤ حدثت المصادفة العظيمة . كان جوته فى يينا يحضر كعادته اجتماعاً لجمعية أنشأها الأستاذ باتش للبحوث الطبيعية . وكان شيللر كذلك بين الحاضرين . فلما انتهى الاجتماع ، أو بالأحرى عندما انتهت المحاضرة ، التقى شيللر وجوته بالمصادفة ، وتحادثا وهما سائران فى الطريق معلقين على المحاضرة . كان شيللر غير راض عن تفتيت الطبيعة والتأمل فيها مفتتة بقصد الوصول إلى سرها ، وكان جوته يرى أن هناك منهجًا آخر لدراستها هو التأمل فيها كاملة حية نشيطة ، وفى كيفية سعيها من الكل إلى الجزء . وبلغا بيت شيللر فدخلا معاً لإكمال المناقشة . وقد وصف جوته فيما بعد هذه الواقعة فقال : «خرجنا (من الجمعية) بالمصادفة معاً فى وقت واحد ، فدار بيننا حوار ، عبر فيه شيللر عن اهتمامه بموضوع المحاضرة ، لكنه قال قولاً ينم عن الفهم الواسع والتبصر بحقائق الأمور ، قولاً أعجبنى جداً ، خلاصته أن هذه الطريقة التفتيتية فى معالجة الطبيعة لا تستهويه بحال من الأحوال ، وهو الذى يرحب بأن يعتبر نفسه فى هذا الميدان من غير العارفين . وأجبت عليه بأن هذه الطريقة ربما تنفر العليم ذاته ، وان هناك طريقة أخرى لمعالجة الطبيعة فى غير تفتيت وتقسيم وإفراد ، طريقة تتمثلها نشيطة حية تسعى من الكل إلى الأجزاء . ورجانى أن أوضح له هذا المنهج ، وإن لم يخف شكه . فلم يكن يستطيع أن يوافق معى على هذا الذى كنت أؤكد أنه ثمرة الخبرة . ووصلنا إلى بيته ، وجذبنى الحوار إلى الدخول . وعرضت موضوع تحور النباتات بحماس ، ورسمت خطوطاً مميزة بالريشة ، كونت أمام أعين شيللر نباتاً رمزياً . وقد سمع ورأى هذا كله باهتمام كبير ، وبوعى أكيد . فلما فرغت هز رأسه وقال لى : «ولكن هذه ليست خبرة ، إنها فكرة» . وتلعثمت

غاضباً بعض الشيء ، لأن النقطة التى اختلفنا عليها اتضحت هنا أشد وضوح . وتذكرت رأيه فى «الطلاوة والجلال» وأوشك حنقى القديم على أن يتحرك فىّ ، ولكنى تمالكت نفسى ، وأجبت : ربما أعجبنى إعجاباً شديداً ، أن تكون لى أفكار ، دون أن أعلم ، بل وأن أراها بعينى . وهنا أجاب شيللر ، الذى كانت له من المهارة فى الحياة ومن حسن التصرف أكثر مما أوتيت ، والذى كان يريد أن يجتذبنى لمجلة «دى هورين» ولا ينفرنى ، إجابة خليقة بتلميذ علم لكانط . فلما أثارت واقعيتى العنيدة فرصة لاختلاف شديد ، اتصل الصراع بيننا . وعقدنا هدنة : ولم يكن أحد منا يعتبر نفسه منتصراً ، بل كنا كلانا نذهب إلى أننا لا نهزم . ولكننا كنا قد خطونا الخطوة الأولى . كانت جاذبية شيللر كبيرة ، وكان كل من يقترب منه يتعلق به . واهتممت بمشروعاته ، ووعدت بأن أقدم لمجلة «دى هورين» شيئا من المخزون لدى . وقد أسهمت زوجته ، التى اعتدت منذ طفولتها على حبها وتقديرها ، فى استمرار التفاهم بيننا . وقد سر أصدقاء الجانبين (لعلاقتنا) . وهكذا عقدنا بهذا الصراع العنيف الذى قد لا يسوى بين الموضوعية والذاتية رباطاً قائماً لا ينفصل ، أثر علينا وعلى آخرين بالخير» .

ولم يكن هذا الموضوع هو الموضوع الوحيد الذى دارت حوله المناقشة ، بل هناك من الدلائل ما يجعلنا نعتقد أن الحديث دار حول الفن والأدب ، وأن الرجلين تبينا أن ما يمكن أن يكون بينهما من الاتفاق أكثر بكثير مما يكن أن ينشأ بينهما من خلاف . ومضت الأيام وحانت أمام شيللر فرصة للكتابة إلى جوته هى فرصة عيد ميلاده الخامس والأربعين ، فكتب رسالة تعتبر من أروع الرسائل التى تضمها كنوز الآداب الألمانية . فى هذه الرسالة يقول شيللر : «لقد بعثت المناقشات التى جرت بيننا مؤخراً الحركة فى كتلة أفكارى كلها ، لأنها مست موضوعاً كان يشغلنى ويملك على نفسى منذ سنوات عديدة وبثت رؤيا فكرك (وهذا هو التعبير الذى ينبغى على أن أستعمله لوصف التأثير الشامل لأفكارك على) التى أتيحت لى ، نوراً مفاجئاً فى نفسى أضاء بعض الأمور التى لم أكن أستطيع أن أوائم بينها وبين نفسى . كنت أفتقر إلى الموضوع ، إلى الجسم اللازم لكثير من الأفكار التأملية ، ولقد هديتنى السبيل إليها . إن نظرتك المتطلعة التى تسكن هادئة صافية فوق الأشياء ، لا توردك أبداً خطر الانحراف عن الطريق ،

هذا الخطر الذى يتردى إليه بسهولة لا التأمل فحسب ، بل الخيال المتبع لإرادته والمطيع لذاته وحده . فى إلهامك الصائب يكمن كل شىء ، ويكمن على نحو أكثر اكتمالاً مما يسعى إليه التحليل جاهداً ، ولما كان كل شىء يكمن فيك ككل فإن ثروتك أنت خافية عليك .. » .

فى هذا الخطاب يحدد شيللر لجوته نوع عبقريته ، إنها عبقرية الإلهام ، أو كما سيقول فيما بعد ، عبقرية الفطرة ويصف عبقريته هو بأنها عبقرية التأمل ، أو عبقرية العاطفة والسعى ، إذا استعملنا مصطلح «الشعر الفطرى والشعر العاطفى » . وعجل جوته بارسال الرد ، فقد فرح بهذا التحديد الذى قدمه إليه شيللر فى يوم عيد ميلاده : «لا يمكن أن أحصل فى عيد ميلادى الذى يحل هذا الأسبوع على هدية أعظم من خطابك ، الذى وصفت فيه بيد الود والصداقة جوهر حياتى ، وشجعتنى فيه باهتمامك على أن استخدم قواى على نحو أكثر نشاطاً وحيوية ... ونحن عندما نوضح أحدنا للآخر النقط التى وصلنا إليها حالياً ، سنتمكن من العمل المشترك المتصل الذى لا ينقطع .. » . إنها دعوة من جوته إلى أن يفتح كل منهما قلبه وعقله للآخر ، وإنها دعوة من جوته للعمل المشترك . ولقد كان شيللر يسعى دائماً وفى كل مراحل حياته إلى الحصول على شريك فى الحوار ، وسعد بكورنر وبهومبولت ، ولكنهما كانا يفتقران إلى عنصر هام وهو القدرة الفنية الخلاقة . ولعله كان يحلم فى أن يلتقى بجوته ذات يوم ، فيتصل بينهما الحوار على أعظم مستوياته ، حوار قطبين متناظرين ، وإن اختلفا فى نوع العبقرية . ولهذا أسرع شيللر يرد على الدعوة التاريخية بالقبول ، أو على الأصح بالقبول المتواضع : «لقد كانت حاجتى واشتياقى إلى الاتصال بك اتصالاً وثيقاً شديدة دائماً ، ولكنى أفهم الآن كل الفهم ، أن الطريقين المختلفين أشد الاختلاف ، اللذين سرنا عليهما أنت وأنا ، لم يكونا ليبلغا بنا التلاقى المفيد إلا الآن وليس قبل الآن . وإننى لأتمنى أن نسير بالمشاركة ما بقى لنا من الطريق طال أو قصر ، وأن نحقق الفائدة أكبر الفائدة ، فإن آخر رفاق السفر هم الذين يكون لديهم أكثر ما يتحاكونه بعد رحلة طويلة . ولا تتوقعن لدى ثروة مادية كبيرة من الأفكار ، هذه الثروة هى الشىء الذى أجده لديك . إنما تحملنى حاجتى ومسعاى إلى أن أصنع الكثير من القليل ، وأنت إذا أتيحت لك معرفة أقرب بفقرى خاصة فيما

يسمى بالمعرفة المكتسبة ، فربما تبينت أنني – على الرغم من ذلك – قد أحرزت في بعض النواحي شيئاً من النجاح . إن دائرة أفكارى ضيقة نسبياً ، لهذا فإنني أقطعها من أولها إلى آخرها مسرعاً ومكرراً ، وأتمكن من الإفادة مما لدى من ثروة قليلة حاضرة على نحو أفضل ، وتعويض التنوع الذى يفتقر إليه المضمون بما أصنعه فى الشكل . إنك تسعى إلى تبسيط عالم أفكارك الكبير وأنا ألتمس التنويع فيما لدى من ممتلكات صغيرة . إن لديك أمة تتربع على عرشها أما أنا فليس لدى إلا أسرة كثيرة الأفراد نسبياً ، أتمنى من كل قلبى أن أوسعها حتى تصبح عالماً صغيراً . إن فكرك يعمل إلهامياً حدسياً بدرجة خارقة للمألوف ، وان قواك المفكرة لتبدو معتمدة على خيالك ، وكأنه ممثلها المشترك . والحقيقه أن هذا هو أقصى ما يستطيع الإنسان أن يصنعه بنفسه ، عندما يوفق فى تعميم رؤياه وتحكيم إحساسه . إنك تسعى إلى هذا الهدف ، وإنك قد حققته الهدف بدرجة ما أعظمها ! أما عقلى أنا فيعمل على نحو يغلب عليه الرمز ، ولهذا فأنا أهيم ، كالكائنات المذكرة المؤنثة معاً ، بين المفهوم والرؤيا ، بين القاعدة والإحساس ، بين المخ الصانع والعبقرية . وهذا هو الشيء الذى أضنى على ، خاصة فى السنوات المبكرة ، سواء فى ميدان التأمل أو فى ميدان الشعر ، مسحة يغلب عليها الحيرة . كان الشعر يغلب على ، حينما كان ينبغى على أن أتفلسف ، وكانت الروح الفلسفية تغلب على عندما يكون على أن أقرض الشعر . وما زلت للآن أتعرض فى مرات غير قليلة ، لحالات يعطل فيها خيالى تجرداتى ، ويعطل فيها عقلى الجامد شعرى . فإذا استطعت أن أسيطر على الملكتين بحيث أضع لكل ملكة منهما بحريتى حدودها ، فإن مستقبلاً جميلاً ينفتح أمامى . ولكنى فى الوقت الذى بدأت فيه أعرف ملكاتى المعنوية جيداً وأعرف كيف أستخدمها أعانى لـلأسف من مرض يهددنى بالقضاء على قواى الجسمانية . ومن الصعب أن أجد الوقت الذى أنجز فيه فى نفسى ثورة فكرية كبيرة شاملة ، ولكنى سأفعل ما أستطيع ، فإذا تهدم البنيان فى النهاية ، فربما أكون قد أنقذت من الحريق ما يستحق البقاء » .

فماذا فعل جوته عندما تسلم هذا الخطاب ، بل هذا المصباح المنير ، الذى يشعل بنوره الصافى عبقرية المرسل والمرسل إليه ؟ لقد بعث إلى شيللر يرجوه أن

يأتى إلى ڤايمار وينزل ضيفاً عليه فى بيته أسبوعين . وقبل شيللر الدعوة ، ولكنه كتب إلى الصديق يرجوه ألا يرتب شيئاً من أمور البيت على أساس وجوده ، لأن الأزمات المرضية ، والتقلصات تعاوده باستمرار ، فلا يعرف متى يستطيع أن يبارح الفراش ، ومتى يمكن أن يشترك فى شىء مما ينبغى أن يشترك فيه الضيف والمضيف . «فاسمح لى بأن أعتبر نفسى فى بيتك إنساناً غريباً كل الغربة ، لا يعمل له أحد حساباً ، حتى اعتزل كل الاعتزال ، وأتجنب الإحساس بالخجل نتيجة لتحكم مرضى فى إنسان آخر . إن النظام الذى يرتاح له كل إنسان ، هو عدوى اللدود ، لأننى مضطر لأن أجعل قيامى بعمل معين فى وقت معين لا سبيل الى تجاوزه ... إننى ألتمس شيئاً واحداً وهو أن تكون لى الحرية فى أن أعيش فى بيتك مريضاً » .

هكذا راحت الخطابات وجاءت بين الصديقين ، جميله ، مؤثرة ، صافية عميقة ، شيقه لا يكاد الإنسان يبدأ الاطلاع عليها ، حتى يحس بقوة فريدة تتملكه ، وتدفعه إلى تتبعها من أولها إلى آخرها ، وإلى الاندماج فى كل سطر ، بل فى كل كلمة من كلماتها . ولعلنا نكتفى بما قدمناه من نماذج عليها ، ونسترسل فى دراستنا . قبل شيللر الدعوة رغم مرضه ، وانتقل إلى ڤايمار فى ١٤ سبتمبر وأقام فى ثلاث غرف فى بيت جوته ، يجد كل وسائل الراحة ويجد الحرية التى تمناها . والغريب أن شيللر أحس فى صحبة جوته بالقوة ، وتغلب على أزمات التقلصات التى كانت تعتريه ، وقضى أغلب الوقت فى حديث مفيد . كان الحديث يستمر أحياناً طوال النهار ، ولا ينتهى إلا عند منتصف الليل . فتح جوته قلبه وعقله ، وصارح الصديق الشاعر الناقد بخلجاته وآماله وعثراته ، وفتح أدراجه وأخرج الكامن من الأعمال الناقصة ، والمسودات ، والمخططات . فوجد جوته التشجيع أعظم التشجيع . وتحدث شيللر كذلك . ولم يكن هناك شىء يشغل بال شيللر إلا العودة إلى الكتابة بعد وقفة طالت إلى سنوات . وإذا قلنا الكتابة ، فإننا نعنى الكتابة للمسرح فى المقام الأول . وكانت وقفة شيللر وقفة تحفز واستعداد ، بكل ما فى الكلمتين من معنى . والفنان العبقرى إنسان حساس لا يستطيع إذا سكن لفترة طويلة أن يعود إلى الحركة بسهولة . إنه يحتاج من الطاقة الخلاقة إلى شحنة دافعة حتى ينطلق من جديد . وكانت الأيام التى قضاها

فى محراب الشاعر الصديق فى ڤايمار كفيلة بمده بهذه الشحنة الدافعة . وبدأ شيللر يتغلب تدريجياً وبسرعة على الانهماك المسرف فى التأملات الفلسفية ، وبدأ يكتمل تدريجياً وبسرعة شاعراً . يقول جوته (فى حديث إلى إكرمان عام ١٨٢٥) : «كان شيللر يصبح كل ثمانية أيام شخصاً آخر ، أكثر اكتمالاً . كنت فى كل مرة أراه فيها أجده قد تقدم فى سعة الاطلاع ، والعلم وسلامة الحكم » .

كان شيللر يحمل فى وجدانه مشروع مسرحية «ڤالنشتاين » ، ولكن انهماكه فى مشروع مجلة «دى هورين » شغله إلى حين عن المسرحية ، ثم كان التحول إلى الشعر قد أصبح حقيقة واقعة ، حقيقة قوية لا سبيل إلى التغلب عليها . ولم يكن اهتمام شيللر بالمجلة الجديدة يرجع إلى أسباب أدبية وفلسفية فحسب ، بل كان يرجع كذلك إلى أمله فى أن تكون مصدراً للرزق عندما تنتهى المنحة الدنمركية فى ١٧٩٥ . وكان الناشر كوتا ــ الذى أصبح بفضل شيللر معروفاً فى الأوساط الأدبية الهامة ونشر أعمال كبار كتاب العصر ــ قد وعد شيللر بمرتب كبير عند نجاح المجلة . ووجد شيللر صعوبة غير قليلة فى إخراج العدد الأول على النحو الذى كان يرجوه من ناحية الموضوعات ، وان وجد من جانب الناشر كل التسهيلات فيما يختص بالطبع والشكل ونوع الورق والرسوم وما إلى ذلك من المتطلبات الفنية . كان الكثيرون قد وافقوا على الاشتراك فى المجلة ، ولكنهم لم يقدموا أعمالهم فى الوقت المناسب لتظهر مع مطلع العام الجديد . حتى جوته لم يشأ أن ينشر شيئاً فى العدد الأول ، وقدم القصائد الإيليجية الرومية لتظهر فى الأعداد التالية . ومهما يكن من أمر فقد ظهر العدد الأول فى يناير ١٧٩٥ وكان يضم الجزء الأول من «التربية الجمالية للإنسان » لشيللر شاهداً على هدف المجلة . ونجح العدد الأول نجاحاً كبيراً . ولكن الأعداد التالية لم تتمكن من ترسيخ أقدام المجلة ، إما لأن المقالات كانت فى حالات غير قليلة أعلى من مستوى القراء ، وإما لأن الأعداد كانت متفاوتة فى القوة . ومع هذا فقد استمرت المجلة تؤدى نشاطها . ويحتوى فهرس المواد التى نشرتها طوال مدة ظهورها من عام ١٧٩٥ إلى عام ١٧٩٧ على عدد من الأعمال العظيمة لشيللر وغيره . من أعمال شيللر نذكر إلى جانب «التربية الجمالية» دراسة تاريخية بعنوان : «حصار الأمير پارما لمدينة أنتڤرين فى عامى

١٥٨٤ ، ١٥٨٥ »[1] ، والدراسة الاستطيقية الشهيرة « الشعر الفطرى والشعر العاطفى » وقصائد مثل « المثل الأعلى والحياة » ، « صورة سايس المستترة »[2] و« النزهة » و« تقسيم الأرض » – ومن أعمال جوته نذكر « القصائد الإيليجية الرومية ».و« تسالى مهاجرين ألمان » ومن أعمال هردر نذكر المقال « المقدر لنا » – ومن أعمال ڤيلهلم فون هومبولت « الفرق العنصرى وأثره على الطبيعة العضوية »[3] ، ويقال إن غالبية القراء لم تفهم هذا المقال ، وإن الفيلسوف كانط عندما قرأه هز رأسه عجباً واستنكاراً .

وإذا كان شيللر قد بدأ يمل من العمل فى مجلة « دى هورين » ولا يقوم به إلا إرضاء للناشر كوتا ، الذى كان يلح عليه أن يستمر فى إخراج المجلة ، فقد كان متحمساً للعمل فى مجلة سنوية هى « موزنألماناخ »[4] (تقويم ربات الشعر) لعام ١٧٩٦ . وكان الشاعر بورجر هو الذى يخرج هذه المجلة الشعرية ، فلما مات بحث الناشر ميشائيليس[5] عن شاعر آخر يتولى المجلة ، وفاتح شيللر فى الموضوع فوافق . وبهذا انفتح أمام شيللر مجال آخر من العمل الفنى ، هو مجال كتابة القصائد الشعرية – فما كانت الموزنألماناخ إلا مجموعة من القصائد الشعرية – كان قد تركه منذ سنوات طويلة . وبهذا يمكننا أن نعتبر عام ١٧٩٥ عام العودة إلى كتابة الشعر . وإذا أردنا التحديد فقد بدأ شيللر عودته إلى قرض الشعر فى يونيو ١٧٩٥ .

وكانت عودة شيللر إلى الشعر صعبة ، وعظيمة رائعة فى الوقت نفسه . لقد أحاطها شيللر بهالة من التعظيم ليست غريبة عليه ، إنه يكتب إلى جوته قائلا : « .. هناك شيء مؤكد وهو أن الشاعر هو الانسان الحق .. » ويتحدث إلى جوته عن الصعوبات التى يلاقيها فى كتابة الشعر – وكان جوته يصطاف فى

(١) Die Belagerung Antwerpens

(٢) Das verschleierte Bild zu Sais

(٣) Über den Geschlechtsunterschied und dessen Einfluss auf die organische Natur

(٤) Michaelis

(٥) Musenalmanach

كارلسباد - : «لقد كان الانتقال من عمل إلى آخر أمراً صعباً على دائماً ، وهذه هى حالى الآن ، حيث أريد أن أنتقل من الميتافيزيقا إلى الشعر . ولقد ابتنيت لنفسى فى هذه الأثناء جسراً (انتقل عليه) فجعلت البداية رسالة منظومة تحمل عنوان «شعر الحياة» وهى ، كما ترى ، تتصل بحدود المادة التى تركتها (الفلسفة) . ليتك تستطيع أن تأتى وتبث فى روحك ستة أسابيع ، فإنك إن فعلت تقدم إلى العون كل العون» . وبقى شيللر وحده يكتب القصيدة ، ويظن تارة أنه لا يصل إلى شئ ، ويعتقد تارة أخرى أنه يخلق شيئاً جديداً يفيد من الوضوح الذى جناه من اشتغاله بفلسفة الفن . والحقيقة أن القصيدة الجديدة تعتبر بداية عصر جديد فى انتاج شيللر ، يمتاز بقدرة فنية فائقة ، وتمكن من الشكل ، واتقان فى معالجة العبارة . وهى فى الوقت نفسه تعبير عن اللون الذى سيظل اسم شيللر ملتصقاً به : الغنائية الفكرية أو الشعر الفلسفى .

تحمل هذه القصيدة عنوان «المثل الأعلى والحياة»[1] وتدور حول الفن وعظمته . الدنيا مليئة بالصراع والنضال والتناحر والألم ، وعالم المثل الأعلى ، عالم الفن السامى لا يعرف إلا الاعتدال والسكون والسلام . والإنسان الذى يرتفع إلى عالم المثل الأعلى يشبه هرقل ، وطريق ارتفاعه إلى عالم المثل الأعلى ، هى طريق هرقل . إن الانسان الذى يعرف كيف يصل إلى المثل الأعلى ، انسان يدخل فى عالم الآلهة . والقصيدة محبوكة ، تفيض بالقوة .. لقد اعتصرت قوى الشاعر ، الذى كان يعانى الآلام أشد الآلام . إنه يكتب إلى جوته قائلاً : «إننى أخشى أن أدفع ثمن الانفعالات الشديدة التى ينقلنى إليها قرض الشعر غالياً ... ان ربات الشعر يعتصرن قواى عن آخرها ..» فى هذه القصيدة (١٥٠ بيتاً) يقول شيللر مثلا :

«إن أردتم وأنتم على الأرض أن تساووا الآلهة ،
وأن تكونوا أحراراً وأنتم فى عوالم الموت ،
فلا تقطفوا من ثمار جنته

(١) Das Ideal und das Leben

إذا أردتم أن تهيموا على أجنحة (الفن) عالياً
فانبذوا عنكم الخوف الدنيوى
وفروا من حياتكم الضيقة السخيفة
إلى عالم المثل الأعلى .

*

شابة فتية . من كل الصفات الأرضية
مجردة . تهيم فى أشعة الكمال
هى الصورة الربانية للإنسانية ...
فروا من حدود الحواس
إلى حرية الأفكار
هنالك يتبدد شبح الخوف
وتنسد الهوة الأبدية .

*

وتدفقت القصائد ــ الفكرية فى أغلبها ــ لتنشر فى مجلة دى هورين أو فى «الموزنألماناخ» لعام ١٧٩٦ ، ولتكون شواهد على الشعر الألمانى الذى ينبض بالروح اليونانية ويدخل فى عداد الأعمال الكلاسيكية . من القصائد التى ظهرت فى الموزنألماناخ لعام ١٧٩٦ نذكر «بيجاسوس (حصان طيار أسطورى عند اليونان) تحت النير»(١) «المثل العليا» و«كرامة النساء» والقصيدة الأخيرة تبدأ هكذا :

كرموا النساء ، إنهن يضفرن وينسجن
وروداً سماوية فى الحياة الدنيوية ،
ويضفرن رباط الحب السعيد
وتحت ستار الطلاوة الوقور

(١) Würde der Frauen. Die Ideale. Pegasus im Joche

يذكين عن وعى
نار المشاعر الجميلة الأبدية ، بأيديهن .

وتعرض جوته وشيللر لما يشبه موجة النقد فى مجلات ونشريات ألمانية كثيرة ، تناولت الأعمال التى نشراها فى مجلة دى هورين خاصة . فى بعض هذه المقالات جاء مثلاً - عن « التربية الجمالية » - « انها أشياء عادية جدا ، قالها وفرغ من قولها الناس منذ زمن ، وما هى لتسمو بالروح ، ولا لتنير العقل » . واغتاظ جوته وشيللر لهذا النقد بدرجة كبيرة ، واعتقدا أنهما يتعرضان لحملة منظمة يقودها الجهلاء والأغبياء والأدعياء والسفهاء . وأشارا إلى رأيهما هذا فى بعض مقالات المجلة . وفى أواخر عام ١٧٩٥ فكر جوته فى أن يقوم بالاشتراك مع شيللر فى تأليف قصائد شعرية صغيرة جداً (تتكون الواحدة من بيتين فقط) من نوع قصائد الشاعر اللاتينى مارتسيال[١] (٤٠ - ١٠٤ ب . م .) لهجاء من تقولوا عليهما . واقترح تسميتها «كسينيين »[٢] أى « نفحات الحكمة » . وأعجب شيللر بالفكرة . واشترك فيها . وما لبث الشاعران أن وسعا الدائرة من مجرد الهجاء إلى النقد الاجتماعى .. وكان يعملان معاً فى هذا المشروع بهمة كبيرة ، إما عن طريق التراسل أو فى لقاءات طويلة . وكان جوته يأتى من ڤايمار إلى يينا خصيصاً لأجلها . وكان العمل فى « نفحات الحكمة » يسير فى طى الكتمان ، لا يعلم به إلا اثنان : كورنر وهومبولت . كتب شيللر إلى هومبولت يقول : « .. وقد عمدنا ، جوته وأنا ، إلى الاندماج ، أحدنا فى طريقة الآخر ، حتى يصعب على الناس التفريق بين ما هو لى وما هو له تفريقاً تاماً ... ويتصف العمل بجرأة لطيفة عبقرية إلى حد ما ، لا تقف عند حدود الحياء والمرعيات ، وبهجاء لا يتورع عن شئ وإنْ احتفظ بسعى أكيد واضح إلى إبراز أمر بعينه له أهميته . وعلى الرغم من الفارق الهائل بين جوته وبينى ، فسيكون من الصعب ، حتى عليك ، فى كثير من الأحوال ، وسيكون من المحال تماماً فى بعض الأحوال ، أن تفصل نصيبه

(١) Martial

(٢) Xenien

عن نصيبى فى العمل .. ولقد اتفقنا ، جوته وأنا ، اتفاقاً كاملاً على ألا تكون حقوق ملكيتنا للقصائد الصغيرة فرادى موضع مناقشة ، وأن نترك هذا الموضوع وشأنه إلى الأبد .. » .

وقد حفظ لنا بعض أصدقاء شيللر صورة لهذا العمل المشترك الذى كان الشاعران الكبيران يسترسلان فيه ، يقول (والنص من خطاب إلى كورنر) :
« وجوته هو الوحيد الذى يقضى وقتاً كثيراً مع شيللر ، عندما يكون فى يينا ، فهو يأتى إليه عصر كل يوم فى الساعة الرابعة ويبقى معه إلى ما بعد تناول العشاء . وهو يدخل عادة وقد استغرق فى الصمت ، فيجلس مسنداً رأسه على يده ، ويتناول كتاباً أو قلماً أو علبة الألوان ويرسم . وربما قطع هذا المشهد الساكن الصبى الصغير الشقى (كارل ابن شيللر) الذى يضرب جوته بالسوط على وجهه ، فيهب جوته واقفاً ، ويشد الولد ويجذبه ويهزه ، ويتوعده بأنه سيعاقبه عقاباً شديداً ، ويدب فيه النشاط فى هذه الأثناء ، دون أن يعلم كيف . ويتبع هذا فى المعتاد حوار مهم كثيراً ما يستمر إلى وقت متأخر من الليل . وهو على أية حال يتغلب على سكونه عندما يتناول كوباً من الشاى يصب فيه شيئاً من عصير الليمون ويمزجه بشىء من العرق ـ أما شيللر فيقطع الحجرة جيئة وذهاباً ، بل إن الإنسان يميل إلى القول بأنه يجرى فى الحجرة بلا انقطاع ... وكثيراً ما يبدو عليه الألم الجسمانى ، وخاصة عندما تصيبه أزمات الاختناق ، فإذا اشتدت الآلام ، خرج من الحجرة وتناول جرعة من الأدوية المسكنة . فإذا تمكن الإنسان فى مثل هذه اللحظات من جره إلى حديث يروق له ، فإن الألم ينصرف ، ليعود من جديد ، إذا لم يعد هناك شىء للمناقشة . ويمكن القول بصفة عامة إن الأعمال المجهدة هى أنجح علاج مؤقت يفرج عنه الأزمات . إن الإنسان ليرى التوتر الدائم الذى يعيش فيه ، ويرى كيف يطغى عقله على جسمه ويتحكم فيه ... » .

والمعروف أن جوته أمضى أسبوعين فى يينا فى يناير ١٧٩٦ ، وأن شيللر أمضى فترة كذلك فى فايمار بين مارس وابريل من العام نفسه . وانتهى العمل فى « نفحات الحكمة » فى منتصف العام ، وظهرت فى المجلة السنوية « موزنألماناخ

لعام ١٧٩٧ ».(١) (فى ٢٩ سبتمبر ١٧٩٦) ، شاملة بالنقد والهجاء ميدان الأدب المعاصر كله تقريباً . وإذا كانت كلمة «اكسينيين» تعنى فى الأصل نفحات أو عطايا يرسلها الكرام إلى الضيوف الذين لم يتمكنوا من تشريف الوليمة ، فإنها تحولت على يدى الشاعرين الساخرين إلى صورة كاريكاتورية ، هى نفحات أيضاً ، ولكن نفحات قارصة حادة بما فيها من حكمة اكتسبت أسلوب الهجاء . ومن «نفحات الحكمة» نذكر الأمثلة التالية :

ألماناخ شيللر لعام ١٧٩٦ :

«انك ترفعنا أولاً إلى مثل عليا ، ثم تهوى بنا من فورك إلى الطبيعة . أتظن أننا نشكرك على هذا ؟ » .

فى أصل الكلمات :

«اسمك عظيم ، وفيه تعبير عن كل ما لديك من قيمة .

انك لتود ، إن استطعت ، أن تحقق للعامة النصر .

(هذه النفحة المقصود بها فريدريش نيكولاى ، وقد رد شيللر وجوته كلمة نيكولاى إلى اليونانية فإذا هى كلمتان : الصعب والنصر ، ـ وهكذا جاءت هذه النفحة هجاء عنيفاً لنيكولاى الذى لم يكن يريد بنقده شيللر وجوته إلا نجاحاً صحفياً سريعاً) .

شعـــارات :

«استمر دائماً أبداً فى وضع الشعارات على جرائدك ،

فهى هكذا تبين كل الفضائل التى لا يلاحظها أحد عليك » .

المقصود بهذه النفحة رايشارت الذى انقلب على الشاعرين ، بعد تظاهر بالاخلاص لهما) .

(١) Musenalmanach für das Jahr 1797

وتضمنت الأكاناخ علاوة على « النفحات » مجموعة من القصائد المشتركة . من نوع نفحات كذلك . هي « النذور » (لوحات الوفاء بالنذور)[1] . وقصائد لجوته وشيللر . منها قصيدة شيللر « بنت الغربة »[2] . ونجحت الأكاناخ نجاحاً هائلاً . لما أثارته من موجة مضادة – لا لقيمتها الأدبية . إن أردنا الحقيقة – واضطر الناشر إلى التعجيل بطبعات أخرى لسد حاجة الجمهور المتزايدة . وكان هذا النجاح مؤذنا بمعركة كبيرة يقف فيها جوته وشيللر في جانب ويقف فيها الثائرون على هجاء النفحات في الجانب المقابل . نشر رايشارت مثلا في جريدته « دويتشلاند » (ألمانيا) مقالاً كبيراً شتم فيه شيللر خاصه . وقال فيه بصريح العبارة إنه يحتقره . ويعتبر تصرفه في النفحات تصرفاً دنيئاً حقيراً . وإنه لا يعترف به أديبًا . وما إلى ذلك . ولم يكن الرد على النفحات دائماً بمقالات ؛ بل كثيراً ما كان يأخذ شكل « نفحات » أو « نفحات مضادة » منها مثلا :

قرد كانط الذى يعيش فى يينا :

« ما هو أحقر الأشياء الحقيرة كلها ؟
إنه تصرف القرد الذى يحاول أن يكون ذا قدر وأهمية » .

وكانت بعض النفحات المضادة أليمة فى أسلوبها ، فقد كتب أحدهم تحت عنوان « عظمة النساء » يشير إلى قصيدة شيللر التى تحمل هذا العنوان ، ويقول ما معناه : دع النساء فى حالهن ، وانظر إلى امرأتك أنت ، يا صديقى ! ! – ومن الطريف أن معركة النفحات المضادة ، التى قامت فى وجه جوته وشيللر ، اشترك فيها كثيرون ممن لم يتعرض لهم الشاعران من قريب أو بعيد . من هؤلاء مدرس اسمه كريستيان فورشتيجوت فولدا[3] نشر كتاباً مصوراً للنيل من جوته وشيللر . وقد صور شيللر يمسك بزجاجة خمر بيد ويمسك باليد الأخرى بسوط يثير به

(١) Votivtafeln, (Tabulae Votivae)

(٢) Das Mädchen aus der Fremde

(٣) Cheristian Furchtegott Fulda

الغوغاء ، ثم علاوة على ذلك يمسك بذيل جوته الذى يظهر على شكل حيوان له وجه انسان .

وتجاوز الصديقان المحنة هادئين . وهناك خطاب أرسله جوته إلى شيللر فى ديسمبر ١٧٩٦ يقول له فيه إن هذه المعركة كانت فرصة طيبة لكى يظهر كل انسان على حقيقته ، فمن كانت لديه سموم خفية برزت واضحة أمام الأعين . وفى خطابات أخرى يقول : «علينا الآن أن نستأنف أعمالنا الايجابية » .. «أو علينا ، بعد مغامرة النفحات الجريئة ، أن نعكف على أعمال فنية كبيرة مجيدة ... » .

كان عام ١٧٩٦ يمتلئ من ناحية الانتاج الأدبى بالنفحات والنفحات المضادة ، وكان يعج من نواح أخرى بكل مثير . فقد تلقى شيللر من الوطن أخباراً سيئة عن الحرب وويلاتها ، وعن الأمراض التى بدأت تنتشر فى أعقابها . وكان الأب قد بلغ به الكبر حدًا ألزمه الفراش ، وأصبح يعانى من مختلف الآلام . وفى مارس ١٧٩٦ أصيبت نانيته ، أخت شيللر ، بحمى كانت منتشرة بين الجرحى النمساويين واستبد القلق بشيللر ، خاصة وأنه لم يكن يستطيع أن ينتقل لمسافات بعيدة ، ولم يكن يستطيع أن يرسل زوجته لتنوب عنها لأنها كانت توشك على الوضع . وسرعان ما اختطف الموت الصغيرة نانيته فى ٢٣ مارس ١٧٩٦ . وأصيبت الأخت الأخرى لويزة بالتهاب رئوى كاد أن يفتك بها ، وتصور شيللر الوضع الأليم فى البيت ، وتصور أمه وقد عجزت عن تمريض زوجها وابنتها ، فى وقت يقطع الحزن على نانيته نياط قلبها . فكتب إلى كريستوفينه لتهرع لنجدة الأسرة المنكوبة ، وأرسل إليها ثمانية جنيهات ذهبية لتصرف منها على الرحلة . ومضت الأيام ، وبدأت كريستوفينه تبعث بالأخبار . فمرة تكتب أن لويزة تحسنت ، ومرة تكتب أن الجيوش الفرنسية احتلت البلاد وأن الرعب يسود المنطقة ، فقد عمد الجنود الفرنسيون إلى السلب والنهب ، ودخلوا بيتهم وأخذوا كل ما وصلت إليه يدهم حتى ملابس الأب المريض ، واضطرت كريستوفينه ولويزة إلى الهرب إلى الغابة والالتجاء مع كثير من النساء إلى الكهوف خوفاً من أعمال الجنود . ثم هدأت نار الحرب ، ولكن الهدوء لم يعد إلى البيت ، فقد اشتد

المرض بالأب . وفى ٧ سبتمبر ١٧٩٦ لفظ أنفاسه الأخيرة (فى الثالثة والسبعين من عمره) . وكتب شيللر إلى أمه خطاباً مؤثراً يواسيها فيه ، ويعرض عليها أن تعيش معه ، أو تذهب لتعيش مع كريستوفينه . ولكنها فضلت البقاء فى الوطن حيث حصلت على معاش ومسكن مناسبين . وتزوجت لويزة من القسيس فرانك ، قسيس كليفرزولتسباخ [١] غير بعيد . فكانت كثيرة الاتصال بأمها وكان لأمها فى ذلك عزاء .

وفى وسط هذه الأخبار الحزينة المثيرة ، ولد إرنست [٢] ، الابن الثانى فى ١١ يولية ١٧٩٦ ففرح به والداه ، كما فرحا من قبل بكارل الذى أوشك الآن على أن يتم الثالثة من عمره . وكان شيللر فى تلك الفترة سواء فرح أو حزن حبيس الحجرة ، لا يكاد يغادرها ، ولا يجد من سلوان إلا الأصدقاء وخاصة جوته وهومبولت ، حيث يندمج فى حوار نادراً ما يكون قصيراً . وبدأ شيللر يفكر فى الانتقال إلى ڤايمار ليكون قريباً من جوته ، بل لقد سأل جوته أن يؤجره بيتاً صغيراً بسيطاً كان يقوم فى حديقته فى ڤايمار ، ولكن الانتقال إلى ڤايمار لم يتحقق . لماذا ! ربما ليظل شيللر فى مدينة الجامعة التى يعمل بها – على الرغم من أنه لم يكن يعمل بها من الناحية الفعلية مطلقاً . ولم يكن البيت الصغير فى حديقة جوته يصلح للسكنى إلا فى الصيف فقط . ومادام البقاء فى ينا سيطول ، فلابد من البحث عن مسكن دائم . وسنحت فرصة لشراء بيت ، توفى صاحبه وعرضه الورثة للبيع . وكان هذا البيت هو بيت الأستاذ شميت [٣] من أساتذة الجامعة ، وكان جميل الموقع ، تحيط به حديقة كبيرة . فاشتراه شيللر لقاء (١١٥٠ تالر) وهكذا انتقل فى ٢ مايو ١٧٩٧ إلى السكنى فى أحضان الطبيعة ، قريباً من الهواء الجيد ، عله ينعم بشىء من الصحة يمكنه من تحقيق أحلامه . كتب إلى جوته يقول : «أبعث إليك بالتحية من حديقتى التى انتقلت اليوم إليها . منظر طبيعى جميل يحيط بى ، الشمس تغرب على نحو لطيف ، والبلابل تغرد . كل شىء

(١) Cleversulzbach

(٢) Ernst

(٣) Johann Ludwig Schmidt

حولى يشرح صدرى ، والأمسية الأولى التى أقضيها فى أملاكى تتسم بأبهج فأل » .

فى هذا الجو الجديد بدأ شيللر بالاشتراك مع جوته فى الاعداد للعدد الثالث من الموزنألماناخ وكانت غالبية القصائد من نوع البلـلادة . وليس من الغريب أن يتخذ الانتاج الشعر الشيللرى فى هذه الفترة هذا القالب بالذات ـ وهو القالب التمثيلى القصصى ـ فقد كان جوته مشغولاً بكتابة ملحمة « هرمن ودوروتيا » وكان شيللر نفسه مشغولا « بفالنشتاين » أى بالفن المسرحى . وربما كان قالب البلـلادة جديداً على شيللر ، ولكنه لم يكن جديداً على جوته ، فقد سبق أن كتب جوته من هذا النوع : « الصبى الخائن » و « ملك توله » و « ملك الارل » و « الصيادة » . ولكن الانتاج الجديد من البلـلادة ، سواء كان إنتاج شيللر أو إنتاج جوته ، يتميز بمستوى آخر من النضج ، فكل بلـلادة تدور حول فكرة أخلاقية ، وكل بلـلادة تجسم شيئاً إنسانياً . ولقد بلغ تقدير شيللر لما كتب هو وصديقه من بلـلادات درجة فائقة فريدة ، يدل عليها اطلاق شيللر على عام ١٧٩٧ « عام البلـلادات » ويمكن القول بأن ما أنتجه الشاعران من هذا النوع ، هو أعظم ما أنتجه الأدب الألمانى على الإطلاق ، وقد فتح هذا الانتاج الباب أمام المعاصرين والمتأخرين إلى التبارى ، حتى اكتمل لنا اليوم كنز كبير من القصائد التمثيلية يزداد مع الأيام ثراء .

وكلمة بلـلادة مشتقة من أصل إيطالى معناه الرقص ، فهى القصيدة الراقصة ، أو قصيدة الرقص ، القصيدة التى كانت أصلاً تغنى مصاحبة للرقص . وتطورت واتخذت ميزاتها بمرور الزمن ، وأصبحت تقوم على حوار سريع خاطف ، وعلى حركة تمثيلية ، وأصبحت تتميز بإطار رهيب أو مخيف أو غامض . والبلـلادات التى ألفها شيللر فى هذا العام هى :

خاتم بوليقراط	Der Ring des Polykrates
الغطاس	Der Taucher
كراكى إيبكوس	Die Kraniche des Ibikus
الذهاب إلى مسبك الحديد	Der Gang nach dem Eisenhammer

القفاز	Der Handschuh
الفارس توجنبورج	Ritter Toggenburg

ولشيللر قطعتان أخريان كتبهما فى العام التالى هما «صراع مع التنين»[1] و«الضمان»[2]، وهناك احتمال أن تكون بلادة «الضمان» مستقاة من أصل عربى .

ونقدم ترجمة لبلادة «الغطاس»[3] نموذجاً على هذا النوع الشعرى :

«الغطاس»

«هل من فارس كبير أو صغير يجرؤ
على الغوص فى هذه الهوة ؟
سألقى بكأس من ذهب فيها ،
فيبتلعه فم البحر الأسود .
من استطاع أن يرينى الكأس مرة ثانية
فله أن يحتفظ بها ، فهى له» .

*

هكذا تكلم الملك وألقى من أعلى
الصخرة الممتدة عنيفة منحدرة وعرة
إلى البحر الذى لا ينتهى إلى نهاية
بالكأس فى عويل الدوامة .
«إننى أسأل من جديد ، أين صاحب القلب الجرىء
الذى يستطيع أن يغوص فى هذه الأعماق ؟

(١) Der Kampf mit dem Drachen

(٢) Die Burgschaft

(٣) Der Taucher

ووقف حوله الفرسان الكبار والفرسان الصغار ،
وينظرون إلى أسفل ، إلى جوف البحر العارم ،
يسمعون ويلوذون بالصمت ،
ولا يقرر منهم أحد أن يسعى لكسب الكأس .
ويسأل الملك للمرة الثالثة :
«أليس بينكم من يجرؤ على الغوص ؟ » .

*

وظل الجميع يلوذون بالصمت الذى كانوا عليه .
وإذا بشاب نبيل رقيق جرىء معاً ،
يخرج من صفوف الفرسان الصغار المترددين ،
ويلقى بالحزام والمعطف .
وتتجه أنظار الرجال جميعاً والنساء
بالدهشة إلى هذا الشاب الرائع ،

*

كيف يتقدم إلى مسقط الصخرة
وينظر إلى الهوة السحيقة
وإلى المياه التى تبتلعها
الدوامة ثم تنفثها فى صراخ كالزئير
وكيف تهوى بصوت كقصف الرعد فى الأفق البعيد
إلى العمق الحالك وقد فارت رعلاها الزبد .

*

المياه تندفع وتغلى وتفور وتقرقع ،
كأنما اختلط ماء بنار ،
ويندفع الزبد فواراً بالبخار إلى عنان السماء
ويتلاطم الموج بلا نهاية ، الموجة تلو الموجة ،
انه لا يريد أن يفرغ أبداً ولا يريد أن يخلو

وكأنما أراد البحر أن يلد بحراً آخر .

*

وأخيراً تسكن القوة العاتية ،
وينفرج بين الزبد الأبيض شق
أسود إلى أسفل كأنه فم المتثائب ،
عميق لا يظهر له قاع ، كأنما كان يؤدى إلى مكان الجحيم ،
وترى الأعين الأمواج المتكسرة المندفعة
تندفع مجرورة إلى الجوف الفوار .

*

وقبل أن تعود الأمواج المتلاطمة من جديد
استودع الشاب ذاته الله بسرعة ،
وتعالت صيحة من الفزع حواليه ـ
لقد جرفته الدوامة
وانطبق على العوام الجرئ الفم الرهيب
على نحو غامض عجيب ، فلم يظهر قط بعد ذلك .

*

وساد السكون فوق الدوامة
إلا فى أعماقها حيث اضطرب فوران أجوف .
وتناهت إلى الآذان من كل فم عبارة مضطربة :
« صحبتك السلامة . أيها الشاب الجرئ ! »
وتناهى إلى الأسماع صوت عويل الدوامة أجوف أجوف
واستمر فظيعاً مفزعاً .

*

حتى لو ألقيت التاج نفسه فى الدوامة
وقلت : من يأتينى بالتاج .
له أن يلبسه وأن يكون ملكاً ـ

فلن أتوق للحصول على هذا الجزاء العظيم .
إن ما تخفيه الأعماق ذات العويل
شيء لم يحكه إنسان حي سعيد .

*

كم من سفينة تلقفتها الدوامة
فاندفعت إلى الأعماق هاوية
وظل الحيزوم والصارى ، وقد تحطما ،
يجاهدان ليبرزا من القبر الذى التهم كل شيء
وتناهى إلى السمع صوت يزداد وضوحاً . كأنه حفيف العاصفة .
ظل يقترب ويقترب صاخباً .

*

والمياه تندفع وتغلى وتفور وتقرقع .
كأنما اختلط ماء بنار
ويندفع الزبد فواراً بالبخار إلى عنان السماء
ويتلاطم الموج بلا نهاية . الموجة تلو الموجة .
ويهوى بصوت كقصف الرعد فى الأفق البعيد
إلى العمق الحالك مدوياً بعويل وزئير .

*

يا للعجب ! من الجب الحالك الفوار
يظهر شيء أبيض بلون ريش البجع
ويتكشف ذراع ثم عاتق براق
وهناك من يجدف بقوة وجهد جهيد
إنه هو . وإنه يحمل فى يسراه
الكأس يهزها ويلوح بها مسروراً .

وتنفس نفساً طويلاً ، وتنفس نفساً عميقاً ،
وأزجى التحية إلى نور السماء .
وصاح الناس فرحين بعضهم فى بعض :
«إنه حى ! إنه هناك ! لم تطبق عليه الدوامة .
من القبر ، من الكهف المائى الفوار ،
أنقذ الشجاع روحه » .

*

ويأتى ، ويحيط به الجمع مهللين ،
ويخر راكعاً أمام قدمى الملك ،
ويقدم إليه الكأس راكعاً ،
ويلوح الملك إلى ابنته الحبيبة .
فتصب له فى الكأس إلى حافته خمراً براقة ،
ويلتفت الشاب إلى الملك ويقول :

*

«طال بقاء الملك . إن الانسان ليفرح
عندما يتنفس فى النور الوردى .
إن ما فى الأعماق السحيقة لفظيع
وما ينبغى على الانسان أن يبتلى الآلهة
وما ينبغى عليه أن يطلع أبداً
على ما تواريه رحيمة وتخفيه وراء الليل والرهبة .

*

لقد جرفنى جارف بسرعة البرق إلى أسفل -
واندفع فى وجهى من الجب الصخرى
نبع جارف ضار منهمر :
وتسلطت على القوة العاتية لتيار مزدوج .

ولفتني كالنحلة فأذهلتني
ولم أستطع المقاومة .

*

وأظهر لى الرب الذى دعوته
فى المحنة الفظيعة الهائلة
ثمة صخرية برزت من الأعماق
فأمسكت بها بمهارة وأفلت من الموت ـ
وكانت الكأس كذلك قد تعلقت بالشعب المرجانية المدببة ؛
وإلا لكانت قد هوت إلى أعماق سحيقة .

*

وكانت الأعماق تمتد تحتى إلى بعد دونه بعد الجبال
ملتفة بحلكة حمراء قانية ،
وعلى الرغم من أن كل شىء كان نائماً ساكناً لا تسمعه الأذن
فقد مدت العين البصر مرتاعةً إلى أسفل
ورأت السمندرات والأبراص والتنانين
تتحرك فى الفم الجهنمى الفظيع .

*

كانت تختلج هناك سوداء فى خليط فظيع
وقد تكورت فى كتلة بشعة مريعة ،
الترسة ذات الأشواك ، وسمك الصخور ،
وجاء سمك القرش المرعب الفظيع ،
وكشف لى عن أنيابه المخيفة مهدداً ،
سمك القرش البشع ، كاسر البحر الهائل .

*

أننى بعيد كل البعد عن عون البشر ،

وتعلقت ، وأنا أعرف مرتاعاً
وأنى الصدر الحساس الوحيد . وسط الأشباح الهائلة
وحيد فى عزلة قبيحة مقيتة .
فى أعماق دون رنين صوت البشر .
مع الكائنات الهائلة التى تعمر القفر الموحش .

*

وتمثلته مرتعداً . فزحف قريباً منى .
وحرك مائة من الأطراف فى وقت واحد .
وحاول أن يندفع نحوى ـ وفى سورة الرعب
تركت عشب المرجان الذى كنت متشبثاً به .
فتلقفتنى الدوامة بفورانها الجنونى ،
ولكنه كان معى لا على ، فدفعنى إلى أعلا » .

*

واندهش الملك لذلك أعظم الدهشة ،
وقال : « الكأس لك ،
ولك أيضاً هذا الخاتم ،
المرصع بالجواهر الفريدة ،
إن حاولت مرةً ثانية وأتيتنى بخبر
ما سترى فى أعمق أعماق البحر .

*

وسمعت البنت الكلام فتأثرت
وتوسلت بفم الدلال :
«كفاك يا أبى ، دع هذه اللعبة الفظيعة .
لقد أصاب لك ، ما لم يصبه إنسان ،
وإن لم تستطع أن تكبح جماح شهوات قلبك ،

فدع الفرسان الكبار يفعلون ما يخجلون به الشاب »

*

فأمسك الملك بالكأس مسرعاً ،
وألقى بها فى الدوامة :
« فإن أتيتنى بالكأس مرةً ثانية على التو ،
فأنت أعظم الفرسان فى نظرى
ولك أن تعانق اليوم زوجاً
تلك التى تتوسل إلى من أجلك بشفقة رقيقة »

*

وتسلطت عليه روحه بقوة سماوية ،
وبرقت عيناه ببريق الجرأة
ورأى الفتاة الجميلة تعلوها الحمرة
ورآها يعلوها الشحوب وتخر مغشياً عليها ـ
فاندفع لينال الجائزة العظيمة ،
وهوى إلى الأعماق بين الحياة والممات .

*

وسمع الناس الأمواج تتلاطم ، وسمعوها تعود ،
وسمعوا الصوت الراعد ينبئ بها ،
وانحنوا إلى أسفل بنظرة حبيبة ،
وأتت ، أتت اللجج جميعها ،
واندفعت بالحفيف إلى أعلى ، وهوت بالحفيف إلى أسفل ،
ولم تنشق أى منها عن الفارس الشاب .

الباب الثانى عشر

فالنشتاين

لم يشتغل شيللر بعمل من أعماله المسرحية مدة تقارب المدة التى قضاها يكتب « ڤالنشتاين » . فمن يناير ١٧٩١ إلى مارس ١٧٩٩ ، من يوم خطرت له فكرتها الأولى إلى يوم وضع لمساته الأخيرة فى المسرحية كاملة ، انقضت أعوام تناهز الثمانية . وليست المدة الطويلة التى يقضيها الأديب المبدع فى كتابة عمل من أعماله بالضرورة مقياساً لعظمة هذا العمل . فهناك أعمال طيعة تختمر فى ذهن الفنان بسرعة ، وتتخذ ثوبها الأسلوبى دون مشقة ، وهناك أعمال تفرض نفسها على ذهن الفنان ، وتتقلب على أوجه كثيرة ، تارة على هذا الوجه ، وتارة على الآخر ، تعرض له سهلة مرة ، وعسيرة مرة ثانية ، وتسوقه إلى المراجع يستجلى الأصول والخلفيات ، وتدفعه إلى أعمال خالدة يستوحى منها القوالب والمعايير . من النوع الأول قصة جوته الخالدة « ڤرتر » التى كتبها فى أيام أو أسابيع ، ومن النوع الثانى ـ إن أردنا مثلاً من أعمال جوته « فاوست » ، تلك المسرحية التى شغلته زهاء ستين عاماً ! ومن النوع الثانى أيضاً « ڤالنشتاين » .

ونحن إذا عدنا خمسة أعوام أخرى إلى الوراء ، إلى عام ١٧٨٦ ، نجد أن شيللر قد اهتم فى معرض اشتغاله بحرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ـ ١٦٤٨)

بشخصية الملك جوستاف أدولف وشخصيه القائد ڤالنشتاين ، ثم تركزاهتمامه تدريجياً على ڤالنشتاين . والصورة التاريخية لڤالنشتاين (ولد عام ١٥٨٣ ومات مقتولاً عام ١٦٣٤) تتلخص فى أنه قائد مغوار حارب فى جانب الكاثوليكية ، ضد الجيوش البروتستانتية ، وأصاب نجاحاً كبيراً جعل الامبراطور فرديناند الثانى يرفعه إلى درجه النبلاء . وسرعان ما سعى الوشاة وتحرك صناع الدسائس ، وقلبوا الامبراطور عليه وأوهموه بأن ڤالنشتاين يعمل لحسابه الخاص ، فخلعه من قيادة الجيوش الكاثوليكية . فلما تقدم البروتستانتيون بقيادة الملك السويدى جوستاف أدولف ، وأحرزوا النصر تلو النصر وخاصة فى معركة لوتسن [١] ، اضطر الامبراطور إلى الاستنجاد بڤالنشتاين . فعاد لقيادة الجيوش الكاثوليكية من جديد . ولكنه دخل بعد موت الملك السويدى وتحول الجيوش السويدية إلى النهب والسلب،فى مفاوضات مع البروتستانتيين كانت سبباً فى عزله عن القيادة . وفى ١٦٣٤ مات مقتولاً . هذه الشخصية،إذا أخذت برمتها ، لا تصلح نواة لتراجيديا ، ولكنها تحتوى على عناصر كثيرة تجعلها جديرة بالاهتمام من الناحية المسرحية ، فهى أبرز الشخصيات فى عصر من أهم عصور الغليان فى أوروبا ، وهى شخصية تتمتع بقوة أعلى من مستوى الأحداث ، قوة تتطلع إليها الأنظار عندما تتوالى الهزائم ، فكأنها النور الذى يرتجى عله أن يبدد الظلام ، فأين وزن الإرادة فى هذه الشخصية ؟ هذا هو السؤال الذى فكر شيللر فى البحث عن جواب له فى عمله الجديد .

عندما كان شيللر فى صيف عام ١٧٩١ يستجم فى كارلسباد ، كان يفكر فى إمكانية كتابة مسرحية عن ڤالنشتاين . وأخذ بالفعل يجمع معلومات « على الطبيعة » فسجل وصفاً للجنود النمساويين ، وذهب إلى مدينة إيجر [٢] التى قتل فيها ڤالنشتاين ، ليعيش فى الجو الذى عاش فيه فالنشتاين . ـ ولم يتقدم العمل إلى أكثر من جمع شىء من المعلومات والانطباعات . ولكن شيللر ، حتى بعد انصرافه إلى الدراسات التاريخية ثم الفلسفية ظل وفياً لمشروع ڤالنشتاين ، يقلب

(١) Eger

(٢) Lutzen

عناصره فى فكره كلما خلا إلى نفسه ، فلما ذهب فى عامى ١٧٩٣ و ١٧٩٤ إلى وطنه شڤابن ، ووجد شيئاً من فراغ البال ، بين أزمات المرض ، عاود التفكير فى ڤالنشتاين ، وفى عام ١٧٩٤ أمسك القلم فعلاً وكتب بعض مشاهد المسرحية نثراً ، ثم انشغل بأعمال أخرى . وفكر فى مسرحية أخرى تدور حول فرسان مالطه ، يتحدث عنها فى خطاباته فى هذه الفترة ، ويسميها « المالطيون » (١) .

وفى عام ١٧٩٦ قرر أن ينفذ المشروع ، مشروع ڤالنشتاين ، ويمكن القول أنه بانتهاء عام ١٧٩٦ ، كان قد كون صورة كاملة فى ذهنه ، يمكن أن تتناولها الصياغة .

وكتابات شيللر فى فترة تبلور « ڤالنشتاين » تشهد على صراع بينه وبين المادة ، وعلى فترات من اليأس ، أو مما يوشك أن يكون يأساً من صلاحية المادة للقالب المسرحى . ولا بد أن الحديث بين جوته وشيلر تناول هذا المشروع ، وتناول حماس شيللر ويأسه ، فقد كتب جوته إلى شيللر – عندما علم بخبر إقدامه على الكتابة – يقول : « إن أحسن خبر يمكنك أن تبعث به إلى هو تمسكك بڤالنشتاين واعتقادك فى إمكانية إنجازه » . – وفى مارس ١٧٩٦ كتب شيللر إلى هومبولت يحدثه عن المسرحية الجديدة وعن طريقة عمله فيها : « أما انك تنظر إلى نظرة القلق وأنا أسلك هذه الطريق الجديدة ، الغريبة على ، برغم الخبرات السابقة الكثيرة ، فشىء أود تصديقه ... وليس لك أن تسترسل فى الخوف . وإن الإنسان ليدهش ، كم أتتنى الأعوام فى تقدمها بالواقعية ، وكم تطور بى اتصالى المستمر بجوته ، ودراسة القدماء ، الذين تعرفت بهم بعد « دون كارلوس » . أما أننى إذ أسير فى هذه الطريق التى أسلكها الآن ، أقع فى دائرة جوته ، ويصبح من المحتم على أن أقيس نفسى بالنسبة إليه ، فكلام هو الصدق بعينه ، وكذلك من المتوقع أننى سأفقد إذ أقاس به . ولكن تفوقه على لن يضرنى ولن يضر العمل الذى أنتجه ، لأننى أحتفظ فى ذاتى بميزتى الفردية الخاصة التى لا يمكن لجوته أن يبلغها أبداً ، وبهذا تنتهى المقارنة بيننا إلى نتيجة متكافئة إلى حد كبير » .

وتأخر العمل عدة شهور ، فقد كان شيللر مشغولاً مع جوته « بالنفحات » وبإعداد مسرحية « إجمونت » (لجوته) للمسرح ، وبنقد الكتب الثمانية الأولى

(١) Die Malteser

من « ڤيلهلم مايستر » عند نشأتها ، وكان شيللر يعلق على هذا النقد أهمية كبيرة ، وكان جوته حفياً به إلى أقصى درجة .كانت العلاقة بين شيللر وجوته قد وصلت صداقة من نوع فريد ، إلى « دين » على حد تعبير شيللر فى خطاب إلى جوته . انه يقول : « ان العلاقة الجميلة المتصلة بيننا كأنها دين ما يجعلنى أنظر إلى الأشياء التى لك كأنما هى أشيائى ، وأن أتناول كل ما يتخذ فى ذاتى شكل الواقع ، فأحوله إلى أصفى مرآة للفكر الذى يعيش فى هذا الجسم ، حتى أكون بهذا ، جديراً بحمل اسم الصديق بكل ما فى الاسم من معنى رفيع » . ولم يكن جوته وحده الذى أفاد من نشاط شيللر ناقداً ، وصائغاً مسرحياً ، لقد أفاد شيللر نفسه ، خاصة من معالجة إجمونت ، وهى مسرحيه من عصر الحروب الكاثوليكية البروتستانتية أيضاً . فالشاعر يحتاج ، إذا تعذر عليه الإنتاج ، إلى ما يحرك حنينه إلى الكتابة ، وأفضل ما يحرك هذا الحنين ، هو الاندماج فى عمل فنى مشابه . وشيللر الآن ، غير شيللر فيما مضى ، إنه فنان وناقد وفيلسوف ومؤرخ فى وقت معاً ، إنه ينشىء ويتذوق وينقد فى وقت معاً . فى خطاب إلى كورنر يقول شيللر : « .. لا ينبغى أن تظن أن عهدى بالقدرة على الإبداع المسرحى ، التى ربما كانت لدى بقدر ما ، قد ولى وانتهى . لا ، إن السبب فى عدم رضائى ، هو أن مفاهيمى عن الشىء ، ومتطلباتى تجاه نفسى أنا قد أصبحت أكثر تحدداً ووضوحاً الآن ، وأن متطلباتى هذه أصبحت أكثر قسوة . ليس من بين مسرحياتى القديمة ، واحدة اتخذت من الهدف والشكل ما اتخذت مسرحية ڤالنشتاين الآن ، واننى الآن أعرف بدقة تامة ماذا أريد وماذا ينبغى على ، معرفة لا يمكننى معها أن أهون على نفسى المهمة تهوينا مسرفاً . إن المادة ـ ولعل لى أن أقول هذا ـ عصية إلى أقصى حد على التشكل حسب هدف كهذا الهدف ... وليس هناك شىء يرتجى من ناحية المضمون ، وينبغى أن يصطنع كل شىء عن طريق شكل ناجح (فنياً) ، ولست أستطيع أن أنشىء من هذه المادة تراجيديا جميلة ، إلا معتمداً على صياغة فنية للأحداث ، غنية بالفن ، وربما خشى المرء ، بعد الاطلاع على كلامى الذى أصف به العمل فى المسرحية ، أن أفقد الرغبة فى إنجاز هذه المهمة ، أو أن أضيع وقتى فيما لا يجدى . والحق أن رغبتى لم تضعف بحال من الأحوال ، وكذلك أملى فى بلوغ نجاح ممتاز ، فهذه المادة هى

بالضبط النوع الذى يصلح لأفتتح به حياتى المسرحية الجديدة . لأنها ستحسم أزمة شخصيتى الشعرية ، حيث أسير فى سكة عرضها كحد السكين ، لو حدت عنها خطوة ضاع كل شىء ضياعاً تاماً . ثم إنها تتقدم تقدما قوياً ، لأننى أعمل على نحو مختلف تماماً عن النحو الذى كنت أتبعه فيما مضى . إن المادة والموضوع خارج ذاتى ، على نحو أوشك معه ألا أستطيع أن أنعطف نحوها ، إنها تدعنى فى حالة توشك أن تكون البرود أو عدم الاهتمام ، ولكنى مع ذلك متحمس للعمل . إننى – باستثناء شخصيتين تتملكان نفسى وتستحوذان على وجدانى (ماكس پيكولومينى وتيكلا) – أعالج جميع الشخصيات الرئيسية ، بحب الفنان الخالص ليس إلا ، وأنا أرجو ألا يعتورها السوء نتيجة لهذا ... من الممكن جداً أن يؤدى الطريق الذى أسلكه الآن إلى أن تختلف مسرحية فالنشتاين عن مسرحياتى السابقة اختلافاً عجيباً بما فى أسلوبها من شىء من الجفاف . ولكنى على الأقل أخشى التطرف إلى الجفاف ، خشية لم أكن أعرفها فيما مضى تجاه التطرف إلى عكسه ... » .

وبدأ شيللر الكتابة ناثراً ، مستمعاً فى ذلك إلى نصيحه هومبولت ، خوفاً من أن يستعصى على الممثلين إلقاء النصوص المنظومة . ثم ترك النثر إلى الشعر الخفيف . واتخذ شيللر فى حديقة بيته الجديد ، الذى اشتراه فى الضاحية ، ركناً أعده كالكشك أو الصومعة أو البرج الصغير كتب فيه أكبر جزء من المسرحية . وفى نوفمبر ۱۷۹۷ قرر شيللر أن يكتب المسرحية – ويعيد كتابة ما تم منها – شعراً محكماً من البحر اليامبى . كتب إلى كورنر يقول : « لقد حسمت الأمر ، وقررت نهائياً أن أكتب مسرحية فالنشتاين على الوزن اليامبى . وأنا لا أكاد أتصور كيف أمكننى أن أتصور أنه يمكن أن تكتب المسرحية على نحو آخر ، فمن المحال أن يكتب الإنسان قصيدة بالنثر . ولا بد أن يتخذ ما تم بالفعل صورة أخرى ، وقد فرغت من إعادة صياغته جزئياً . ولقد اتخذ العمل فى قالبه الجديد منظراً آخر تماماً ، وأصبح من الممكن الآن ، والآن فقط ، أن نسميه تراجيديا . » وما أن أشرقت فى ذهن شيللر فكرة صب العمل المسرحى فى القالب الشعرى ، حتى اعتبرها ضرورة ، وآمن بها إيمانه بالمذهب . الشعر هو عنصر الوحدة فى العمل المسرحى : « الإيقاع يضفى على الإنتاج المسرحى العظمة والأهمية . بأنه يعالج

الشخصيات والمواقف كلها بحسب قانون واحد ، ويضعها كلها رغم ما فى داخلها من خلاف فى قالب واحد ، ويضطر الشاعر والقارئ إلى المطالبة باستخراج شىء عام ، شىء إنسانى خالص خال من كل ما يتصف بالاختلاف والتباين فى ذاته . ينبغى أن تجتمع العناصر كلها فى المفهوم النوعى للشعر ، وهو قانون ينهض فيه الإيقاع بمهمة الغرض والوسيلة معاً ، لأنه يشمل كل شىء ضمن قانونه . إنه يكون على هذا النحو جو الخلق الشعرى ، أما الجزء الغث فينحسر ، وأما الجزء الفكرى الروحى فهو الوحيد الذى يمكنه أن ينتقل محمولا على هذا العنصر الرقيق » .

هنالك سعى إلى الوحدة ، وإلى الانسجام ، وإلى الاعتدال ، وإلى الإنسانية ، أعنى إلى العنصر الإنسانى العام الشامل ، الذى لا يختلف فيه اثنان . وقد نظر شيللر نفسه بعين ناقدة إلى ما أسم من ڤالنشتاين ، فوجد أن ما جادت به قريحته ، يختلف عن مفهومه ، فكتب يقول : « .. والموضوع فى حد ذاته فيه شىء من الجفاف ، ويتطلب أكثر من غيره تحرراً شعرياً ، ولهذا فإنه من الضرورى هنا ، أكثر من أى موضع آخر ، أن أتحاشى الانحرافين : الإسراف فى النثرية ، والإسراف فى البلاغة تحاشياً دقيقاً ، حتى يتحقق جو شعرى خالص تماماً » . ــ ولكن الصياغة كانت صعبة ، وكان شيللر كثير الشكوى مما يعانيه فى كتابة فالنشتاين . فى خطاب إلى كورنر يقول : «كأنما أردت أن أشرب البحر ، فما أرى له نهاية . لو أتيت صحة عشرة أسابيع متتالية ، لفرغت من المسرحية .. » .

ولم يكن المرض وحده هو الذى يبعده عن المسرحية ، بل كانت الأعمال الأخرى تلعب دورها فى هذه الناحية . وأبرز هذه الأعمال فى ذلك الوقت الكتاب السنوى الشعرى ، الموزنألماناخ ، وقد اشتغل فى إخراج العدد الجديد منه ، عدد ١٧٩٩ ، الذى ظهر مطبوعاً فى ١٧ أكتوبر ١٧٩٨ ، وفيه من قصائد شيللر « السعادة » و « مصارعة التنين » وغيرها ، وأجزاء من ڤالنشتاين .

وكانت المسرحية ، تتسع كلما تناولها شيللر بالكتابة ، ولم يكن يستطيع أن يحصرها . يقول شيللر فى خطاب إلى كورنر : « ... وما يزال العمل يلوح لى

ضاربا فى الاتساع : فكلما تقدمت فى التنفيذ ، كلما اتضحت المتطلبات التى يفرضها الموضوع ، واتضحت الثغرات التى لم يكن الإنسان يستطيع من قبل أن يتوقعها.. ». وتضخم العمل تضخماً مخيفاً :كان شيللر قد استطرد فى مقدمة طويلة ، ثم كتب فصلين يمكن أن يكونا معاً وحدهما مسرحية ، ثم خطط لفصول ثلاثة أخرى . فى سبتمبر ١٧٩٨ كتب شيللر إلى كورنر : « أما المسرحية نفسها ، فقد قررت بعد تفكير طويل واجتماعات كثيرة مع جوته أن أقسمها إلى قطعتين (إلى مسرحيتين) . لأنها أن لم تقسم على هذا النحو ، تكون شيئاً هائلاً طولاً وعرضاً . إن المسرحية الآن إذا أضفنا إليها الافتتاحية تعتبر ثلاث مسرحيات مهمة ، تقوم كل واحدة منها بذاتها وتكون إلى حد ما كلاً متكاملاً ، والجزء الأخير هو التراجيديا بمعنى الكلمة ... وهكذا زادت أعمالى بمسرحية كبيرة ذات خمسة فصول ، وأصبح فى مقدورى أن أنزل إلى السوق ثلاث مسرحيات دفعة واحدة . على أن هذا التعبير كلفنى جهداً جديداً فقد احتجت إلى مشاهد جديدة وعناصر عديدة جديدة لكى يكون للمسرحيتين الأوليين مزيد من الاستقلال » .

وصاحب اقتراح التقسيم هو جوته . وزمن الاقتراح ومكانه هو سبتمبر ١٧٩٨ وڤايمار . كان شيللر فى ڤايمار يحضر بروفات « افتتاحية ڤالنشتاين » وهى المقدمة التى تبلورت من تلقاء ذاتها فى مسرحية منفصلة ، فاقترح عليه جوته أن يشطر المسرحية الضخمة إلى شطرين حتى لا يؤدى إعدادها إلى تقطيعها وتضييع أجزاء منها . وفى ١٢ أكتوبر ١٧٩٨ احتفلت مدينة ڤايمار بافتتاح مسرحها الجدد ، وعرضت بهذه المناسبة « افتتاحية ڤالنشتاين » التى أطلق عليها اسم « معسكر ڤالنشتاين » . ونجحت الحفلة النجاح اللائق ، وكان شيللر حاضراً ومعه زوجته .

وعاد شيللر إلى يينا ليكمل المسرحيتين الباقيتين . كان جوته يريد المسرحية الڤالنشتاينية الثانية المسماة «پيكولوميني» لتمثل فى ٣٠ يناير ١٧٩٩ على مسرح ڤايمار بمناسبة عيد ميلاد الأميرة لويزة ، فأخذ يحث شيللر على الإسراع . وكان شيللر يجد فى هذا الضغط الخارجى حافزاً على الإنتاج ووسيلة للتغلب على المرض . ولم يكن جوته هو المطالب الوحيد بالمسرحية . بل كان له منافس

لا يستهان به . هو إيفلاند [1] ، الذى كانت الأيام قد أصلحت ما بينه وبين شيللر ، خاصة بعد أن أصبح مدير مسرح برلين . كان إيفلاند يلح إلحاحاً لا يقل عن إلحاح جوته ليحصل على العمل الجديد ، الذى يجمع على حد قول شيللر فى خطاب إلى الناشر كوتا : « بين قوة الشباب ولهيبه وبين هدوء سنوات النضوج وصفائها » . ولم يكن شيللر يخفى سعى إيفلاند على جوته . وهناك خطاب من شيللر إلى جوته فى ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ يقول فيه : « لقد ألح إيفلاند على وعذبنى بإلحاحه أن أسرع ، حتى استجمعت اليوم قوة إرادتى وأتممت العمل فعلاً ... » والظاهر أن جوته ، التزم الحرص تجاه شيللر حتى يتم المسرحية ثم يطالب بها . فقد توالت خطابات جوته إلى شيللر تطالب بالمخطوط وتلح فى المطالبة ، حتى استقر رأى شيللر على تفضيل جوته وڤايمار . وتلقى جوته المخطوط فى مطلع العام الجديد ، ثم تلقى زيارة شيللر نفسه ، الذى انتقل إلى ڤايمار لمدة شهر ليشترك مع جوته فى الإعداد لتمثيل العمل الجديد . وقد طاب له هذا العمل ، وأثلج صدره حتى إن الأزمات لم تعاوده قط ، وظل ينظر ويصحح ويراقب ويتمتع بصفاء ذهنى ورضاء نفسى فريدين .

أما المسرحية الڤالنشتاينية الثالثة « موت ڤالنشتاين » فقد أكملها شيللر ففرغ منه فى ١٧ مارس ١٧٩٩ وأرسلها إلى جوته . ثم سافر فى ١٠ أبريل ١٧٩٩ إلى ڤايمار وبقى عدة أيام حيث شهد البروفات وعروض الثلاثية الڤالنشتاينية التى لقيت نجاحاً هائلاً :

الجزء الأول فى ١٥ ابريل ، ثم الجزء الثانى فى ١٧ ابريل ثم الجزء الثالث فى ٢٠ ابريل .

كان شيللر فى بحثه عن قالب للتراجيديا ، قد لاحظ أن الإغريق يبنون التراجيديا على القدر الذى تنطق به العرافة ولا يستطيع كائن من كان أن يفلت منه ، ويجعلون الشخصية فى تحركها وهيئتها خاضعة لتدبير قوى عالية بعيدة . وذهب شيللر إلى أن هذا القالب التراجيدى لا يمكن نقله برمته إلى التراجيديا فى

(١) Iffland

العصر الحديث الذى لا يعترف بهذا الترابط الأسطورى ، والتحكم القدرى . كان شيللر يرى أن التراجيديا الحديثة ينبغى أن تنبنى على التأثيرات الخارجية ، وعلى الردود التى تنطلق من داخل الإنسان فى مواجهتها . هناك فعل من الخارج ، ورد فعل من الداخل ، وهناك حتمية فى التقاء الفعل ورد فعله ، هذه الحتمية يدخل فيها عنصر الإرادة وعنصر القدر . فإذا طبقنا الفكرة على ڤالنشتاين ، وجدنا أن الجيش هو المصدر الأساسى للمؤثرات التى ستنصب على ڤالنشتاين ، والتى سيكون عليه أن يرد عليها بردود فعل صادرة عن ذاته . ولهذا استطرد شيللر فى وصف الجيش منذ البداية حتى اكتملت بوصفه المقدمة التى تحولت لطولها إلى مسرحية قائمة بذاتها ، من نوع فريد هى « معسكر ڤالنشتاين » . هذا الجيش صنعه ڤالنشتاين بإرادته ، وهذا الجيش هو القوة المحركة لڤالنشتاين ، القوة التى لا يمكن فهم أى شيء من تصرفاته إلا بالنسبة إليها . وسواء تمسك شيللر بهذا المفهوم إلى النهاية ، أو لم يتمسك ، فهو على أية حال مصدر الاهتمام الهائل بالمعسكر ، والعلة التى تفسر تأليف « معسكر ڤالنشتاين » .

« معسكر ڤالنشتاين »(١) مجموعة من الصور فى المعسكر ، لا تتصل بحدث مسرحى بمعنى الكلمة . وأهم المناظر هى مناظر الجنود الذين يتحدثون ويغنون ويعبرون هكذا عن عقلياتهم . والجنود يشكلون دنيا مصغرة ، فهم مرتزقة ينحدرون من بلاد مختلفة ، منهم الألمانى ومنهم الإيطالى ومنهم الإيرلندى ، ولا تجمعهم إلا رابطة الانتماء إلى جيش الإمبراطور ، جيش الكاثوليكية . وهم يجتمعون فى معسكر تحت قيادة قائد واحد هو ڤالنشتاين ، ويجدون فى قيادته قوة تجمع شملهم وتصون حياتهم . وهم يرفضون أن يتفرقوا اتباعاً للخطة الجديدة التى ارتآها البلاط فى ڤيينا ، ويقررون أن تقدم كل كتيبة طلباً تعلن فيه تصميمها على ألا تتفرق وعلى ألا تتبع سوى ڤالنشتاين . وبينما الأصوات تتعالى معبرة عن هذا التصميم ، يعبر أحدهم عن رأى متطرف ، وهو

(١) Wallensteins Lager

أن ڤالنشتاين ملزم بطاعة الحكومة ، وملزم بالإخلاص لها ولمقرراتها . ولعل المشاهد يحس وهو ينظر إلى هذين الحزبين ، وهو يستمع إلى هذين الرأيين ، أن هناك مشكلة ، وأن هذه المشكلة هى على ما يبدو مشكلة إخلاص القائد ڤالنشتاين للإمبراطور . ولعله يحس بعوامل القوة فى الموقف ، عندما يتابع الأحاديث التى تسعى إلى رفع ڤالنشتاين إلى مستوى فوق مستوى البشر ، وتشير إلى حلف له مع الشيطان تارة ، وإلى اعتماده على التنجيم تارة أخرى . والمؤكد أن أحاسيسه ستضطرب عندما يرى مناظر تنطق ببعد الجنود الڤالنشتاينيين عن الأخلاق ، ويرى كيف يطرد هؤلاء أحد الرهبان أتى إليهم بالعظة والتبصير ، وسب الكبر والتجبر ونقد الفساد والمفسدين .

هذه المسرحية الفريدة « معسكر ڤالنشتاين » عمل أدبى شعرى قريب من الأعمال الموسيقية ومن الأعمال التصويرية . إنه كافتتاحية الأوبرا التى يلخص فيها المؤلف الموسيقى عادة بغير تحديد ، جو العمل التالى ، إنه كشريط من اللوحات قصد به الفنان إلى حمل المشاهد إلى عالم آخر يباعد الزمان والمكان بينه وبينه .

أما الجزء الأول من مجموعة مسرحيات ڤالنشتاين والذى يحمل اسم « آل پيكولوميني » [1] فتدور أحداثه فى عام ١٦٣٤ بمدينة پيلسن [2] فى منطقة بوهيميا (حالياً فى تشيكوسلوفاكيا) الجيش يقف متجمعاً متأهباً ينتظر أن يصدر إليه ڤالنشتاين ، القائد وهو أصلاً أمير فريدلاند ، الأمر لينفذه ، فقد اشتد حماسه ، وتأججت نار الثورة فى دمائه . ويجتمع القواد العسكريون فى مبنى البلدية فى پيلسن ويحضر الاجتماع المستشار العسكرى فون كويستنبرج [3] الذى أرسله القيصر للتفتيش على الجيش . ويعبر المستشار العسكرى فون كويستنبرج عن دهشته لما رآه من أحوال الجنود ، ولما اعتقد أنه فهمه من أمور عجيبة . ويتلخص رأيه فى أن الجيش يغلى بثورة لا يعلم عنها أحد فى بلاط القيصر شيئاً ، وأن الإخلاص لڤالنشتاين حل محل الإخلاص للقيصر ، فلم يعد يخلص للقيصر

(١) Die Piccolomini

(٢) Pilsen

(٣) Questenberg

من القواد إلا القلة القليلة وعلى رأس المخلصين للقيصر القائد أوكتاڤيو پيكولوميني [1] . والحقيقة أن القائد أوكتاڤيو پيكولوميني يحظى بثقة ڤالنشتاين وبثقة القيصر معاً وبالدرجة نفسها . أما ڤالنشتاين فيثق فيه ثقة عمياء لأنه قدم إليه جواده فى أثناء المعركة ، عندما نفق جواده ، فأثبت بذلك فى وقت الشدة الحاسمة نبل معدنه وجدراته بكل تقدير . ولكن أوكتاڤيو هو رجل القيصر ، وهو فى إخلاصه للقيصر لا يعرف مساومة ولامبادلة . غير أن ابنه ، ماكس پيكولوميني [2] ، يختلف عنه فى التفكير ، فقد نشأ فى معسكر ڤالنشتاين ، وتعلم الإعجاب به ، والتحمس له ، والنظر إليه على أنه هو الحاكم الأول والزعيم الذى يعده القدر للمستقبل . ويوم أراد ڤالنشتاين أن تأتى زوجته ، أميرة فريدلاند ، وابنته تيكلا [3] إلى المعسكر – وهو أمر دفع الكثيرين إلى التساؤل عن معناه ومرماه – وكل إلى الضابط الهمام والفارس المخلص له ماكس پيكولوميني مهمة مرافقتهما . ولقد أدت هذه الرحلة إلى تقارب بين تيكلا وماكس ، ظن أوكتاڤيو أن ڤالنشتاين قصد إليه عمداً ، وأراده عن تدبير . ثم تبلور الأمر . واتضح أن أوكتاڤيو يتربص بڤالنشتاين الدوائر ، وأن حزب ڤالنشتاين أخذ يسعى إلى تبصير ڤالنشتاين بما يدبره أوكتاڤيو فى الخفاء ، وأخذ يسعى إلى تشجيع ڤالنشتاين على انتهاز أول فرصة مناسبة لإسقاط القيصر . ويتصدر حزب ڤالنشتاين رجلان هما الجراف (البارون) تيرتسكى [4] الذى يقود عدداً من كتائب الجيش ويتصل بڤالنشتاين بصلة النسب ، وإيللو [5] صفى ڤالنشتاين وهو أيضاً من القواد الكبار . ولكن ڤالنشتاين لا يعجل باتخاذ قرار فيما سعى به إليه القائدان المتحمسان له ، إنه يفضل الانتظار حتى تحكم النجوم . ذلك أن ڤالنشتاين يعتقد أن كل ما يجرى فى الدنيا يتبع قدراً مقدوراً ، وتدبيراً سابقاً ، يعرفه المنجمون الذين أوتوا موهبة النظر إلى أبعد مما يصل إليه الناس

(١) Octavio Piccolomini

(٢) Max Piccolomini

(٣) Thekla

(٤) Terzky

(٥) Illo

عادة . ويكشف المستشار العسكرى القيصرى عن قرارات حملها من القيصر إلى الجيش ، تتلخص فى تقسيم الجيش . ولا يصعب على ڤالنشتاين وحزبه فهم المقصود من هذه القرارات ، إنها ترمى أولاً وأخيراً إلى تفتيت قوى الجيش ، حتى يستحيل عليه التآمر . ويتظاهر ڤالنشتاين بأنه فى حالة تصميم القيصر على تقسيم الجيش ، سيعتزل القيادة ، فهذا أشرف له من أن يظل قائداً على رأس جيش مشطور . ولكن ضباط ڤالنشتاين يثورون عندما يسمعون هذا العزم ، ويعلنون تمسكهم بقيادة ڤالنشتاين . ويقيم القائدان الكبيران الوفيان لڤالنشتاين تيرتسكى وإيللو وليمة للحصول على وعد كتابى من الضباط بالإخلاص لڤالنشتاين والوقوف فى صفه ، باعتباره القائد الأوحد والزعيم والرئيس . ويكتب إيللو نص العهد فى صيغتين ، الصيغة الأولى تتضمن الإخلاص لڤالنشتاين مع عدم المساس بالإخلاص للقيصر ، والصيغة الثانية تتضمن الإخلاص لڤالنشتاين وتهمل الإشارة إلى الإخلاص للقيصر إهمالاً . أما الصيغة الأولى فيريد أن يقدمها فى بداية الوليمة شفهياً على سبيل الحذر ، وأما الثانية فليقدمها فى نهاية الوليمة ليضع كل موافق توقيعه عليها . وتسير الأمور على النحو الذى أراده إيللو ، ويوقع الضباط الكبار ، ومن بينهم أوكتاڤيو پيكولوميني . ثم تحدث مفاجأة . إن ماكس پيكولوميني ، الابن ، لا يريد أن يوقع على العهد لأنه لا يعتقد أنه يفيد فى شيء . ويغتاظ إيللو من اعتراض ماكس ، ويدخل معه فى مشاحنة ، وقد لعبت الخمر برأسه ، يكشف فيها بلسانه عن اللعبة التى لعبها وهى أنه حصل على توقيعات الضباط على نص آخر غير الذى تلاه ، ليست به إشارة إلى الإخلاص للقيصر . ويتطور الحوار إلى ثورة يرفع فيها إيللو السيف على ماكس . ولكن الحوار ينتهى . ويبدأ حوار آخر بين ماكس پيكولوميني وأوكتافيو پيكولوميني ، بين الابن والأب . يصارح أوكتاڤيو ابنه بما يعلم من خيانه ڤالنشتاين وتآمره على القيصر ثم يطلعه على الوثيقة التى أرسلها القيصر ليعزل بها ڤالنشتاين عن القيادة ويعين قائداً آخر مكانه ، هو أوكتاڤيو پيكولوميني نفسه . ويضطرب ماكس أشد الاضطراب ، فهو يحب تيكلا ابنة ڤالنشتاين حباً خالصاً عميقاً وهو يعلم أن تيكلا تكن له حباً عميقاً خالصاً كذلك ، وهو يحب ڤالنشتاين ويحترمه ، ويعتبره القائد الذى لا ينافسه فى القدرة على القيادة قائد آخر ، ولكنه لا يعلم شيئاً عن

الخيانة ، ولا يعلم شيئاً عن التآمر ضد القيصر . وبينما الأب والابن يتحادثان تأتى الأخبار بأن رسولاً كان ڤالنشتاين قد أرسله للتفاوض مع السويديين ـ الأعداء ـ وقع فى يد العدالة واعترف بالمهمة التى كلفه ڤالنشتاين بها . ولا يعرف ماكس سبيلاً للتصرف سوى الذهاب إلى ڤالنشتاين والحديث إليه ، عله أن يصل إلى الحقيقة . وتنتهى المسرحية أو على الأصح ينسدل الستار على الجزء الأول من « ڤالنشتاين » ، تاركة ماكس پيكولومينى فى الحيرة أشد الحيرة بين أبيه ، وبين صديقه ووالد حبيبته ڤالنشتاين .

أما الجزء الثانى من ڤالنشتاين واسمه « موت ڤالنشتاين »[1] فهو تكملة طبيعية للجزء الأول « آل پيكولومينى » ، تدور أحداثه فى المكان نفسه تقريباً ـ پيلسن ثم إيجر ـ وفى الزمن نفسه عام ١٦٣٤ . ڤالنشتاين يلجأ إلى مُنجِّمه سينى[2] ليعرف المقدر والمكتوب ، وليكشف الطالع هل هو طالع الخير أو طالع الشؤم . ويجيبه المنجم بأن المشترى والزهرة والمريخ قد تجمعت على نحو فيه الخير كل الخير له ، وأن الفرصة للنجاح سانحة وأن العمل قد حانت ساعته . ولكن ڤالنشتاين لا يتعجل ، ويؤثر الأناة ، حتى بعد أن أقبل إليه الرفيقان المخلصان له إيللو وتيرتسكى يحثانه على التقدم . وهو يتصور تريثه على أنه نوع من حرية التصرف ، يمكنه من الرجوع عن مطمح ثقل عليه همه ، واتضحت له مغبته . لقد تباحث مع الأعداء ، السويديين ، وعرض عليه ممثلهم العقيد ڤرانجل[3] عرضاً فيه ما هو مقبول وفيه ما هو صعب القبول : أن يعترفوا له بتاج بوهيميا لقاء التحالف معهم والخروج على القيصر فرديناند وإخلاء مدينتين هما إيجر وبراغ . إنه يفكر فى العرض ، ويقف عند شرط تسليم براغ ، العاصمة ، حائراً ، يميل إلى لرفض أكثر مما يميل إلى القبول . وما أن يرحل ڤرانجل عنه حتى يعود إلى التفكير فى الموضوع كله ، فى علاقته بالقيصر ، وفى النازعة التى بدأت بالفعل على السيادة ، وفى نبوءة المنجم التى تفتح له الباب على سعته ، ولكن تفكيره

(١) Tod Wallensteins

(٢) Seni

(٣) Wrangel

لا يمكنه من القطع بقرار نهائى . إنه لا يستطيع أن يتغلب على صورة الخيانة العظمى التى تلوح له عليها مؤامرته . وتأتى البارونة تيرتسكى فى وقتها ، وتدخل معه فى حوار تقنعه فيه ، بأن القيصر هو البادىء ، وأن القيصر هو الذى تنكر له ، وهو الذى وقف منه موقفاً غير مشرف ، وإنه لهذا قد اكتسب الحق فى أن يدافع عن نفسه الدفاع المشروع . وما المؤامرة فى تصورها ، إلا دفاع عن النفس . ويتخذ ڤالنشتاين قراره النهائى بالعمل لنفسه لا للقيصر . ويتحالف مع السويديين ، ويجمع الأتباع حوله . وينصب أوكتاڤيو پيكولوميني على موقع بعيد ، وهو يظن أنه من المخلصين له . ويجد أوكتاڤيو فى هذا الموقع البعيد فرصة سانحة للعمل فى صمت ضد ڤالنشتاين ، فيضم إليه إيزولانى (١) القائد الكرواتى وبوتلر (٢) قائد الفرسان ، ويطلعهما على أمر القيصر الذى ضرب به ڤالنشتاين عرض الحائط ، ويوغر صدر بوتلر على ڤالنشتاين بأن يروى له أن ڤالنشتاين كان يتهكم على سعيه للحصول على لقب الجراف ، فيغتاظ بوتلر بالفعل ويصمم على الاشتراك فى الانتقام من ڤالنشتاين بعمل حاسم ، فيتظاهر بأنه من رجاله ثم يحاول اغتياله . — أما ماكس پيكولوميني فيدخل معه ڤالنشتاين فى حوار عنيف يريد به أن يضمه إلى أتباعه . وينبه ماكس صديقه ڤالنشتاين إلى أن ما يفعله ثورة عاتية لا خير فيها . ويرد عليه ڤالنشتاين بأنه مصمم على الوقوف فى وجه القيصر ، وأنه يحس بأن حركته من نوع حركة يوليوس قيصر عندما سار بجنده إلى روما ، فجنى شهرة فائقة ظل صداها يدوى فى أرجاء الدنيا إلى اليوم . ويفترق الاثنان دون أن يتمكن أحدهما من إقناع الآخر . ويلتقى ماكس بأبيه أوكتاڤيو ويدور بينهما حوار عنيف كذلك . ماكس يلوم أباه على الصيد فى الماء العكر ، والتدبير للصعود على أشلاء ڤالنشتاين . ويظن الأب أن ماكس يقف فى صف ڤالنشتاين ، وما يبقى ماكس فى المعسكر إلا استجابة لصوت حبه لتيكلا ، هذا الحب الخالص النقى الذى لا يختلط بشائبة من غرض أو مصلحة . وهو لا يريد أن يبقى فى المعسكر دائماً ، بل يريد أن يودع تيكلا قبل أن ينصرف وتتطور

(١) Isolani

(٢) Buttler

الأحداث بسرعة . فى الوقت الذى يعتقد فيه ڤالنشتاين أن كل شىء فى صالحه ، تعلم القوات بأنه خرج على طاعة القيصر ، وتنفض غالبيتها من حوله . وفى الوقت الذى يظن فيه أن أوكتاڤيو پيكولوميني من أخلص أتباعه ، يأتيه النبأ اليقين بأن أوكتافيو على رأس الخارجين عليه . ولكنه لا يفقد الأمل ، لأن القوات السويدية قد تحركت لمساندته . ويظن ڤالنشتاين أن بوتلر هو المخلص الوحيد الذى بقى بعد أن تفرق الأصحاب والأتباع ، فيركن إليه . ويحاول ڤالنشتاين أن يعالج الموقف بحكمة حتى تأتى النجدة ، ولكن تعجل بعض الكتائب المؤتمرة بأمر تيرتسكى [1] فى إنزال علم القيصر ورفع علم ڤالنشتاين ، يزيد الموقف تأزماً ، ويؤدى بفرسان پاپنهايم [2] إلى الابتعاد عن صفوف ڤالنشتاين ، التى ضعفت عدداً وعدة على نحو شديد . ويلتقى ڤالنشتاين بماكس پيكولوميني ويحاول من جديد اجتذابه إليه . ولكن ماكس لا يستطيع أن يختار بين أبيه وصديقه وبين القيصر الشرعى والثائر المتمرد عليه ، ويقرر أن يترك لتيكلا مهمة الاختيار له : هل ينقض العهد الذى قطعه على نفسه حيال القيصر؟ هل يبقى فى معسكر ڤالنشتاين ويقف من معسكر أبيه موقف العداء ؟ هل ينضم إلى معسكر أبيه ويسدد الضربات إلى أبيها ؟ وتفهم تيكلا أن القدر يفرق بينها وبين حبيبها بنفس القوة التى يقرب بها الحب بينهما . وتحكم بعقلها ، وبقلب حبيبها ، فتشير عليه أن يظل على عهده من القيصر ، وعلى علاقته بأبيه . ولم يكن خروج ماكس من المعسكر الڤالنشتاينى بالأمر اليسير ، إنه يودع حباً قوياً لا يعرف كيف يعيش بدونه ويودع قائداً مغواراً ، لا يعرف كيف تكون الحرب بدونه . هو ينظر إلى بوتلر الذى يتظاهر بالإخلاص لڤالنشتاين فيحسده ـ وهو لا يعلم حقيقة أمره ـ على تمكنه من الوقوف بجانب ڤالنشتاين ، ويوصيه بڤالنشتاين خيراً ! ويدخل ڤالنشتاين مدينة إيجر التى يتولى قيادة موقعها صديقه القديم جوردون [3] ، وينتظر أن تصل القوات السويدية حتى تغير ميزان القوى لصالحه . وفى الوقت نفسه يقرر بوتلر تنفيذ مخطط اغتيال

(١) Terzky

(٢) Pappenheim

(٣) Gordon

ڤالنتشاين ويعد العدة لذلك ويبحث عن الرجال . ويتمكن من إقناع جوردون بعدم التورط مع ڤالنشتاين ، فهو خارج على طاعة القيصر ، خارج على الحكومة الشرعية . وتلتحم القوات السويدية مع جماعة من فرسان پاپنهايم الموالية للقيصر ، وتنتصر عليها ، وتقتل منها الكثيرين ، ومن بينهم ماكس پيكولوميني . وما أن تأتي أخبار هذه المعركة حتى يهلل لها حزب ڤالنشتاين ، وبخاصة إيللو وتيرتسكي ، ويظن أن يوم الانتقام من القيصر ، وسيادة ڤالنشتاين قد إقترب . أما تيكلا فتحزن لموت ماكس حزناً شديداً ، وتقرر الذهاب إلى حيث يرقد جثمانه مهما كلفها الأمر . وتخرج من إيجر ومعها الآنسة نويبرون [١] رفيقة مخلصة فى رحلة حزينة . وأما ڤالنشتاين نفسه فيتألم لموت ماكس أشد التألم ، ويعتقد أن شبابه هو قد ولى بموت البطل الحبيب إلى نفسه ، والذى كان رغم كل خلاف يقدره ويعتبره تجسيماً لشبابه هو . ويجد بوتلر ضابطين يوافقان بعد تردد على قتل ڤالنشتاين هما ديڤيرو [٢] وماكدونالد [٣] . ويتقدمان لتنفيذ مهمتهما فى وقت ظل فيه ڤالنشتاين يعتقد أن المحنة التى تردى إليها ليست إلا محنة عابرة وأن النصر النهائى سيكون حليفه بلا شك ، وبلغت الثقة فى اعتقاده درجة جعلتهُ يكذب منجمه سينى الذى أتى يحذره من شر مستطير . ويأوى ڤالنشتاين إلى الفراش لينام فيأتى بوتلر وديڤرو وماكدونالد للفتك به . ويحاول جوردون أن يصرف بوتلر ورجاله عن عزمهم ، فلا يفلح . وتصل إلى الأسماع دقات أبواق معلنة اقتراب جنود . ويظن بوتلر أن القادمين هم جنود السويد ، فلا يستمع إلى جوردون ويذهب عميلاه حيث يقتلان ڤالنشتاين . ويتضح أن القادمين هم جنود القيصر وعلى رأسهم أوكتاڤيو . وتنتهى التراجيديا ، بذهاب بوتلر إلى بلاط القيصر فى ڤيينا لتلقى الجائزة ، وبتلقى أوكتاڤيو وثيقة من القيصر بترقيته إلى مرتبة أمير ، وبانتحار البارونة تيرتسكى التى رأت أن الحياة بعد النكبة التى منى به بيت ڤالنشتاين والمقربون منه لا معنى لها .

(١) Neubrunn

(٢) Deveroux

(٣) Macdonald

ثلاثية ڤالنشتاين ــ المعسكر وآل پيكولوميني وموت ڤالنشتاين ــ من أقوى المسرحيات التراجيدية لا فى الأدب الألمانى وحده بل فى الأدب المسرحى فى كل زمان ومكان . ولقد أصاب جوته فى قوله : « إنها عمل عظيم ولا مثيل له » ، وما من شك فى أن هذا الحكم ما يزال محتفظاً بقيمته حتى اليوم . والحديث عن هذا العمل المسرحى يطول ، ويكفينا أن نشير إلى أنه يعتمد على خلفية تاريخية متينة ، وإنه مع ذلك لا يتقيد بها إلا بالقدر الذى يمده بالعناصر الصالحة للصياغة الفنية ، وإنه يعرض مجموعة من الشخصيات الحية تمثل أمام الأعين بلحمها وروحها ، وبأفكارها وأحاسيسها ، بخيرها وشرورها . شخصية ڤالنشتاين القائد الذى يقع فريسة لعجزه عن اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب . إنه فى البداية كثير التردد ، عظيم الطموح فى وقت واحد ، وإنه ليجيد الكلام أكثر مما يجيد الفعل . إنه ينقاد لقائدين ثائرين فى غير بطولة ولامرأة تحلم بالعظمة الآثمة . ولكنه شخصية فيها عظمتها ، ولها جاذبيتها وتأثيرها ، إنها تسيطر على مشاعرنا وتفكيرنا ، سواء رضينا عليها أو لم نرض ، وهى تعقد العزم فجأة وتتحرك بلا تردد ، مندفعة بطمع إلى السلطة ، وبهمة شيطانية ، وباقتناع ــ فى الوقت نفسه ــ بأن أحداث الدنيا تدور كلها حسب قوانين تحكمها مسبقاً ، وبأن طالب النجاح عليه أن يعرفها ، أو يتعرف عليها ، ويربط بين نواياه وأعماله وبينها . وشخصية أوكتاڤيو بيكولوميني الذى ربما تحيز الإنسان إلى جانب ڤالنشتاين فاعتبره خائناً ، ولكنه فى الحقيقة ليس بخائن . إنه رجل يتمسك بالمبادىء والمثل ويعرف كيف يقدم ڤالنشتاين على نفسه فى أثناء القتال عندما يتزل له عن جواده . ولكنه لا يفهم مؤامرة ڤالنشتاين ، ولا يجد لها معنى ، ولا يعرف من الأسباب ما قد يجعله يشترك فيها ، إنه يتمسك بالقيصر ، ويتمسك بالعهد الذى قطعه على نفسه حياله ، ويفرح بأن القيصر يعرف له إخلاصه ، ويختاره لقيادة الجيش بعد تنحية المتآمر . وهو يعرف كيف يدبر أموره على نحو لا يثير ريبة ڤالنشتاين ، ولا ينتقص من شخصيته فى آن واحد . ولكنه يفترق عن ڤالنشتاين فى أنه يفتقر إلى الشخصية اللامعة ، إلى هالة الضوء الباهرة التى تخطف الأبصار ، ولهذا نجد ابنه يرجح كفة ڤالنشتاين عليه ، ولا يميل بسهولة إلى تصديق كل ما يقال عن القائد البطل ، حتى يمثل له الدليل الواضح الذى

لا سبيل إلى إنكاره . وتقابل شخصيتي ڤالنشتاين وأوكتاڤيو شخصيتان مختلفتان عنهما كل الاختلاف وإن ارتبطا بهما بأوثق رباط ، شخصية ماكس پيكولوميني وشخصية تيكلا . إنهما يجسمان المثل الأعلى الشيللرى « الروح الجميلة » ، يعرفان الحب النقي ، ويعيشان كل للآخر ، بعيداً عن دائرة المطامع والمطامح ، بعيداً عن المؤامرات والمهاترات . فإذا انجذبا إلى داخل الدائرة وجدا في الحب والإيمان بالمثل القوة التي تعيدهما إلى طريق الصواب . ولكن سعادتهما ما تلبث أن تتحطم على صخرة الصراع بين أبويهما . وتعتبر شخصية تيكلا من أعظم الشخصيات النسائية التي صورها شيللر في إنتاجه المسرحي كله . ــ وكأنما أراد شيللر أن تكون ثلاثية ڤالنشتاين قائمة على عالمين متداخلين ، عالم الصفاء والمثالية وعالم الشرور الواقعي وأن تكون نموذجاً على استحالة اندماج العالمين ، وعلى المحنة التي تصيب هذا العالم وذاك على السواء . ــ وهناك شخصيتا القائدين إيللو وتيرتسكي اللذين يعضدان ڤالنشتاين في مؤامرته ويذهبان في هذا التعضيد إلى أقصى الحدود . إنهما يتفقان في أنهما يتزعمان حزب ڤالنشتاين ، ولكنهما يختلفان في طريقة التصرف . تيرتسكي يبرز في تدبير الجزء « القانوني » من المؤامرة ، من إعداد لوثيقة مزيفة ، وتدبير لقسم جديد يضع الأمور في يد ڤالنشتاين ، دون القيصر ، ولا يبرز في الأعمال العسكرية بجرأة أو براعة . أما إيللو فيبرز في الأعمال التي تحتاج إلى جرأة عسكرية وعنف ، ويندفع غضوباً إلى النضال ، ولا يسلم حتى تنزف آخر قطرة من دمه .

وقد شمل جوته صديقه شيللر في أثناء العمل بالنصح والتشجيع والنقد ، راداً بذلك شيئاً من جميل شيللر السابق ، وأفادت الثلاثية من ذلك الكثير . وقد وقف شيللر في تشكيل العنصر التراجيكي مضطرباً بين أمور مختلفة لا يستقر على أمر منها . فهو يعرف الإغريق وطريقتهم في تشكيل العنصر التراجيكي ، وخاصة في تراجيديا أوديب ، حيث يقع الإنسان فريسة لقدر لا سبيل إلى الإفلات منه . وهو يعرف شيكسپير وطريقته في تشكيل العنصر التراجيكي التي قد يربطها بالجريمة والإثم ، كما في حالة ماكبث ، وخطر لشيللر أن يسلك سبيلاً آخر يجمع فيه على نحو عصري بين جوهر المفهوم الإغريقي القديم وجوهر المفهوم الشيكسپيري وفكر في التنجيم وفكر في الوقت نفسه في الإيمان بالخرافات والخزعبلات ، وعكف على كتب التنجيم القديمة والكتب المهتمة بالخرافات

والخزعبلات يدرسها . وجاءت نصيحة جوته مرجحة كفة التنجيم ، لأن النجوم ـ على حد قوله ـ معروفة فى خبرة الناس بتأثيرها على الجو وعلى النبات ، فلا بأس بتوسيع خبرة الناس عن تأثير النجوم وجعل هذا التأثير يشمل مصائر البشر . واستعمل شيللر عنصر التنجيم ، ولكنه لم يصرح فى أى موضع بإيمانه بأن التنجيم حقيقة ، كذلك لم يصرح بالعكس ، لقد وجد فى التنجيم ضالته الفنية ليعوضه عن القدر والعرافة عند الإغريق .

وبلغ من اهتمام جوته بالوقوف إلى جانب شيللر فى أثناء خلق « ڤالنشتاين » ، أنه انتقل إلى ينا وقضى بها شهراً مع شيللر يناقشه ويشجعه وينقده ويمدحه ويصوبه . كذلك اتصل التبادل الفكرى بينهما فى أثناء الإعداد لعرض الجزء الأول « المعسكر » ، عندما أتى شيللر إلى ڤايمار ونزل ضيفاً على الأمير فى القصر نفسه . وكان جوته يشترك اشتراكاً أساسياً فى البروفات وكان شيللر يقر آراءه فى تصوير المناظر على المسرح وفى الإلقاء وفى تحريك الممثلين وفى ملابسهم وما إلى ذلك من الأمور الفنية المسرحية .

ولقد أتاح النجاح الهائل الذى نجحه هذا العمل الضخم لشيللر الفرصة لتحسين ظروفه المعيشية . وأول ما نلاحظه أن تقارباً شديداً حدث بين الأمير الڤايمارى وشيللر ، وأن الأمير أخذ يلبى طلبات شيللر التى كانت تهدف أولاً وأخيراً إلى التفرغ للعمل الفنى ، وأن الأميرة الڤايمارية لويزة كانت هى الأخرى تسعى لإرضاء شيللر تعبيراً عن امتنانها له على المسرحية التى أنجزها رائعة للاحتفال بعيد ميلادها ، وكانت تعبر عن امتنانها بالكلام والعمل ، ومن ذلك أنها أهدت إلى شارلوته شيللر « طقم قهوة » من الفضة الخالصة . ـ وكان نجاح المسرحية وتكرار تمثيلها على المسارح المختلفة يأتى لشيللر بدخل كان يحتاج إليه كل الاحتياج للإنفاق على متطلبات الحياة اليومية . وهكذا انتهت سنوات الفاقة ، وسنوات العمل من أجل لقمة العيش ، وسنوات الكفاح المرير للتوفيق بين مطالب الفن ، ومتطلبات الحياة اليومية ، وجاءت سنوات ، استطاع فيها أن يعيش للفن ، وللفن وحده ، وإن كان خوفه على أسرته قد أخذ يتزايد لأنه كان يعرف أن آلامه لا سبيل إلى شفائها وأنها ستأتى عليه بعد سنوات قد لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة .

الباب الثالث عشر

ماريا ستوارت

فرغ شيللر من ڤالنشتاين ، وكان يحس حيال هذا العمل بالفخر ويذكر فى الوقت نفسه الإعياء الذى أصابه فيه . فهو يكتب إلى الناشر كوتا قائلاً : « ولسوف تفرح بڤالنشتاين ، فلم أوفق فى حياتى إلى عمل قدر ماوفقت إليه ، وأرجو أن أكون قد جمعت فيه بين قوة ونار الشباب وبين سكون وصفاء السنوات الناضجة » . وهو يكتب إلى كورنر قائلاً : « كم سأشكر السماء عندما يختفى هذا الڤالنشتاين من يدى ويتزاح من فوق مكتبى » . ولكنه ما لبث أن تبين أن كتابة المسرحيات قد سهلت عليه ، وتيسرت له ، وتملكته وسيطرت عليه فى وقت واحد . كتب إلى جوته بعد الفراغ من ڤالنشتاين ــ ١٩ مارس ١٧٩٩ ــ يقول : « طالما كنت أخشى اللحظة التى تمنيتها أشد التمنى ، لحظة الفراغ من عملى . والحقيقة أننى فى حريتى الحالية أسوأ حالاً مماكنت فى عبوديتى الماضية . لقد ضاعت المادة فجأة ، المادة التى كانت حتى الآن تجذبنى وتمسكنى ، وإننى لأحس كأننى أتدلى بدون أى هدف فى مكان لا هواء فيه . ثم إننى لأحس فى الوقت نفسه بأنه يستحيل على مطلقاً أن أنتج عملاً آخر . ولن أجد الراحة إلا عندما أرى أفكارى تتركز بأمل وميل على مادة محددة .. » .

وعاد ، كما كتب فى خطاب تال إلى جوته ، إلى دراسة تاريخ عصر الملكة اليزابث . ولم تكن الدراسة التى بدأها ، وليدة ساعتها ، بل كانت عميقة الجذور ، تصل إلى أيام إقامته فى باورباخ بعيداً عن الأبصار فى عام ١٧٨٣ ، بعد الفراغ من « مكيدة وحب » وكان فى ذلك الوقت يختار بين موضوع « دون كارلوس » وموضوع « ماريا ستوارت » واختار دون كارلوس أولاً ، وأخر ماريا ستوارت إلى حين يأتى وقتها . وعادت فكرة مسرحية ماريا ستوارت تراوده ، فى الوقت الذى أحس فيه بالفراغ والحاجة إلى الكتابة ، فأخذ يعد لها بالدرس كعادته ، ثم بدأ فى كتابتها فى يونية ١٧٩٩ وأتمها فى يونية من العام التالى ، وتخللت هذا العام أحداث كثيرة ، منها ما حفزه ومنها ما عطله .

كان شيللر قد فكر منذ مدة طويلة أن يترك يينا وينتقل للحياة فى ڤايمار ، ولكن جوته نصحه بأن يبقى فى يينا ما دام قائماً بوظيفة الأستاذية فيها . فلما توثقت العلاقة بينهما كان جوته يلح عليه أن ينتقل إلى ڤايمار ليعيشا على اتصال دائم . ولقد تبين شيللر فى أثناء اشتراكه فى بروفات ڤالنشتاين أن الحياة وسط الممثلين والفنيين على خشبة المسرح وراء الكواليس ، والاندماج فى العروض المسرحية ، كل ذلك له أكبر الأثر على شحذ القريحة ، أو على حد تعبيره هو على « تيسير العمل » و « اثارة الخيال » . وينتقد شيللر نفسه ، على عادته ، فيقرر – فى خطاب إلى كورنر – أنه عاش السنوات الماضية فى يينا منعزلاً عن الحياة ، وأنه تكبد فى تأليف ڤالنشتاين مشقة كبيرة ، ليأتى من داخله بعناصر تأليف مشاهد الحياة الخارجية . وفى نص آخر – خطاب إلى جوته – يقول : « عندما أكون وحدى فإننى أغرق فى ذاتى . » وهو انما يعنى بعبارة « وحدى » البعد عن جوته ، وعن المسرح الڤايمارى الذى شهد قمة نجاحه ، والذى كان جوته قائماً على ادارته – وتقدم شيللر فى أول سبتمبر عام ١٧٩٩ إلى الأمير الڤايمارى بطلب قال فيه : « لقد كان للأسابيع القليلة التى أقمتها فى ڤايمار على مقربة وثيقة من سموكم فى الشتاء الماضى وفى الربيع تأثير منشط على أحوالى الفكرية على نحو يجعلنى أحس احساساً مضاعفاً بالفراغ والافتقار التام إلى المتعه الفنية اللذين قدر لى أن أعانى منهما فى يينا . ولقد كنت أعتبر أننى فى مكانى الصحيح تماماً ، طوال الوقت الذى ظللت فيه مشتغلاً بالفلسفة ، أما وقد أعادنى ميلى وصحتى المتحسنة إلى

الاشتغال بالشعر بحماس جديد ، فإننى أعتبر أننى هنا كالملتى به فى صحراء » ـ ورد عليه الأمير بالموافقة وبالترحيب ، ورفع مكافأته من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ تالر سنويا ، وشجعه على اتمام المسرحيات التى ينوى كتابتها ، وعرضها على المسرح الفايمارى وكتب بذلك فى ١١ سبتمبر خطاباً إلى شيللر قال فيه : « إن ما يقصد إلى التأثير على المجتمع ، ينشأ بلا شك عندما يكون الإنسان محاطاً بالعديد من الناس ، على نحو أفضل مما لو كان الإنسان فى عزلة . وأنا آمل بصفة خاصة أن أتمكن من لقائك كثيراً ومن التعبير لك مرة أخرى عن تقديرى وصداقتى لك » .

واختار جوته لصديقه شيللر مسكناً كانت تقيم فيه شارلوته فن كالب ثم تركته وتركت ڤايمار ورحلت . وساعد الأصدقاء فى تهيئته وتأثيثه ، وخاصة السيدة فون شتاين وكارولينه أخت شارلوته التى تزوجت ڤولتسوجن وأقامت معه فى ڤايمار . ولكن شيللر لم يستطع أن يغادر يينا على الفور ، لأن زوجته كانت توشك على الوضع . فلما وضعت فى ١١ أكتوبر ١٧٩٩ ، الطفل الثالث ، بنتاً اسموها كارولينا ، ظلت نحو اسبوعين فى خطر ، وظل شيللر يحمل الهم ، ويسهر الليل إلى جانب فراشها ، ويرعاها ما استطاع ، خاصة وأنها كانت تصاب بنوبات أليمة من الصرع أو ما شابهه من النوبات العصبية ، حتى ظن شيللر أنها فقدت عقلها تماماً وأنها لن تسترده بعد ذلك . ثم تحسنت حالتها فعجلا بالسفر إلى ڤايمار فى ٣ ديسمبر ١٧٩٩ ، تاركين يينا تطوى مجموعة من الذكريات الجميلة والمريرة . وظل شيللر يحتفظ ببيته الكبير فى يينا نحو عامين ثم باعه واشترى فى ڤايمار بيتاً هادئاً ، تحيط به الحدائق والحقول من جوانب ثلاثة ، هو البيت الذى كتب فيه بقية أعماله ، والذى ظل يعيش فيه حتى النهاية .

ظل شيللر مهتماً بالموزناالمناخ ، تلك الباقة السنوية من الشعر التى عهد إليه منذ عام ١٧٩٦ بإخراجها ، حتى صرفته أعماله الأخرى عنها ، وكرهته فيها الأعمال الشعرية الضعيفة التى كان أصحابها يرسلونها إليه لينشرها فيها . وكان العدد الأخير الذى أخرجه هو عدد عام ١٨٠٠ (ظهر فى ١٩ أكتوبر ١٧٩٩) . وكأنما أراد شيللر أن يختم جهوده فى الموزناالمناخ بعمل عظيم يجعل ذكراها باقية فى

الأذهان ، فنشر « أغنية الناقوس »[1] ، قصيدة طويلة تدور حول صب الناقوس فيما يبدو لأول وهلة ، وتصف الحياة والثقافة والطبيعة إذا تعمقنا فيها . وقد بلغ من اعجاب جوته بها ، أنه اعتبرها رمزاً لفن شيللر كله ، وكتب رثاء شيللر بعد وفاته قصيدة بعنوان « تذييل لناقوس شيللر » . والحقيقة أن فكرة هذه القصيدة « أغنية الناقوس » شغلت بال شيللر أكثر من عشرة أعوام ، إذ خطرت له فى رودلشتا فى عام ١٧٨٨ عندما رأى الصناع يصهرون المعدن ويصبونه فى البوتقة فيخرج عمل ضخم ، ناقوس ، مايلبث أن يحمل إلى أعلى مكان ، إلى قمة برج الكنيسة ، حيث يرسل فى الناس نغماته ، منادياً إلى الصلاة ، مذكراً بالسلام والخير . وأخذ شيللر ، كعادته فى التحضير لأعماله ، يتأمل فى فكرة القصيدة ، ويقلبها فى وجدانه ، ثم يجمع المعلومات بالتردد على صناع النواقيس والنظر إليهم والتحدث معهم ، ثم يجمع المعلومات بالقراءة فى الكتب المتخصصة ، ويكون بذلك هيكل العمل ، الذى كثيراً مايكتسى بعدد من الأفكار الفلسفية والتأملات ، أو بالحكمة الشعبية كما هى الحال هنا . من أبيات هذه القصيدة نقتطف :

العاطفة المتأججة تولى
وعلى الحب أن يبقى .
الزهرة تذبل
وعلى الثمرة أن تنمو .
على الرجل أن يخرج
إلى الحياة العسيرة
عليه أن يعمل ويسعى
وأن يزرع ويكد ،
ويتوسل بالحيلة والمكر ،
عليه أن يراهن وأن يجازف

(١) Das Lied von der Glocke

لينال السعادة غلاباً .
فتنساب النعم التى لا تنتهى
وتمتلىء الخزائن بالمال القيم
وتكبر الحجرات ويتسع البيت .
وفى الداخل تحكم
ربة البيت الطيبة
أم الأولاد
وتتصرف بحكمة
فى البيت
وتعلم البنات
وترد البنين
وتحرك بلا نهاية
يديها النشيطتين
وتزيد الكسب
بالتدبير
وتملأ بالكنوز الأدراج العبقة
وتلف الخيط حول المغزل الدوار
وتجمع فى الخزانة المرتبة الجميلة
الصوف اللامع ، والتيل الأبيض الناصع ،
وتضيف إلى النعمة البريق واللمعة
ولاتركن إلى الراحة أبداً .

وهكذا رفع شيللر عن كتفيه عبء العمل ناشراً ومؤلفاً للموزنألمناخ ، وركز جهده على شيء واحد أتى إليه مهاجراً من بينا هو المسرح ، المسرح الذى هاجر من أجله فى صدر حياته والذى لقى من أجل الإنتاج له الصعاب تلو الصعاب ، قبل أن ينعم بالنجاح تلو النجاح . وكان شيللر ، كما تشهد سطور عديدة فى خطاباته فى ذلك الوقت ، يرجو أن يعيش حتى الخمسين من عمره ، ويعتقد أنه

سيتمكن بالجهد المتواصل من خلق عدد من المسرحيات الممتازة التى تخلد اسمه فى سجل المؤلفين المسرحيين . وإذا كان شيللر يحتاج إلى شريك فنان ناقد ناصح ليتحدث إليه ويطيل الحديث ، حتى تتفجر فى نفسه ينابيع الانتاج الدافقة . فقد منحه القدر أعظم شريك : جوته . وقد اجتمع الشريكان الصديقان على الاهتمام بالمسرح وكان المسرح الڤايمارى تحت تصرفهما ، فأنتجا ، وطورا ، وأصلحا بلا كلل أو ملل . ومنذ نجحت ثلاثية ڤالنشتاين ، أعلن شيللر وجوته معاً الحرب على الإنتاج المسرحى التافه سواء من ناحية النص أو التمثيل أو الإخراج ، ووضعا ثقلهما كله لفرض الأسلوب الرفيع . وزود شيللر المسرح الڤايمارى بسرعة بنصوص لماكبث (شيكسبير) وتوراندوت (جوتسى) وفيدر (لراسين) ولم تكن هذه النصوص ترجمات بمعنى الكلمة الضيق ، ولكنها كانت أكثر من ترجمات ، كانت تعيش بروح بثها فيها شيللر ، وكانت تتحور على يديه لتناسب الصورة التى فى ذهنه . كذلك اشتغل فى اعداد ايفيجينيا (جوته) و « جوتس فون برليشيجن ذواليد الحديدية » (جوته) للمسرح . ومن المسرحيات الهامة التى أعدها شيللر فى ذلك الوقت للمسرح مسرحية « ناتان الحكيم » (ليسينج) مسرحية الإنسانية والتسامح التى سقطت على مسرح برلين فى عام ١٧٨٣ ، فانصرف عنها المخرجون . ومن مسرحياته القديمة أعد دون كارلوس للتمثيل ، فاختصرها اختصاراً مخلاً ، وفكر فى إعادة كتابة « قطاع الطرق » و « مكيدة وحب » و « فييسكو » ، ولكنه ــ لحسن الحظ ــ انصرف عن هذه الفكرة .

هذه الأعمال ، على أهميتها باعتبارها تمرينات تمهيدية وخبرات فى الميدان العملى للمسرح ، عطلت شيللر عن اتمام ماريا ستوارت فلم تكتمل الا فى يونية ١٨٠٠ فى إيترسبورج [١] ، حيث كان شيللر يقيم منذ ١٥ مايو فترة للاستجمام بعد أن انتابته أزمة مرضية عنيفة فى فبراير ومارس . وتبين شيللر أن المسرحية تنساب من قلمه فى سهولة فكتب إلى كورنر يقول : « وأخيراً بدأت أتحكم فى الجهاز المسرحى وأفهم حرفتى » أو يقول : « لقد احتجت لكتابة ماريا ستوارت . بعد

(١) Ettersburg

حذف الوقت الذى لم أعمل به فيها ، إلى سبعة أشهر ونصف . ويمكننى أن آمل ، عند زيادة دربتى وتمكنى من الصياغة ، أن أنشىء مسرحية كل ستة أشهر . وبهذا آمل أن أعوض الوقت الذى ضاع ، وأن أنال عن جدارة مكاناً بين الكتاب المسرحيين المثمرين ، إذا ما أتيح لى أن أعيش حتى أبلغ الخمسين » . (يولية ١٨٠٠) .

استمد شيللر مادة مسرحية « ماريا ستوارت » من كتاب كامدن « حوليات ملوك الانجليز » وكتاب روبرتسن « تاريخ اسكتلنده » ، وكتاب تورا « تاريخ انجلترا » وكتاب برنتوم « سير السيدات » وكتاب حياة الملكة اليزابت للمؤرخ أرخنهولتس [١] ، أو بعبارة أدق اعتمد على هذه الكتب فى تكوين صورة عن الوقائع التاريخية التى تناولها بالتعديل ـ كما فعل من قبل فى دون كارلوس وڤالنشتاين ـ حسب متطلبات الفن المسرحى ، وحسب تصوراته ومفاهيمه هو . واختصر الأحداث الكثيرة التى يمتلىء بها تاريخ ماريا ستوارت ، وبدأ بالواقعة الحاسمة : قضية ماريا ستوارت والحكم عليها .

وتدور أحداث مأساة « ماريا ستوارت » [٢] فى انجلترا فى عام ١٥٨٧ ، وتبدأ فى قلعة فوذرنجهى [٣] حيث قبض على ماريا ستوارت ، ملكة اسكتلنده ، وزج بها فى السجن . والذى حدث هو أن ماريا ستوارت اتهمت بقتل زوجها ، فنحيت عن العرش ، وطردت من اسكتلنده ، وسعت إلى انجلترا طالبة المساندة والتعضيد . ولكن اليزابت [٤] ملكة انجلترا ، اعتقدت أن ماريا تعمل فى الخفاء

(١) Camden, Annales rerum Anglicarum

Robertson, Geschichte Schottlands

Rapin de Thoyras, Histoire d, Angleterre

Brantome, Vies de dames galantes

Archenholz,

(٢) Maria Stuart

(٣) Fotheringhay

(٤) Elisabeth

للحصول على عرش انجلترا ، علاوة على سعيها لاستعادة عرش اسكتلنده . ولهذا أمرت اليزابت بالقبض على ماريا ، وحبسها تحت حراسة مشددة خاصة بعد أن تكررت محاولات الموالين لها لتخليصها ، أو للثورة من أجل اعادتها إلى عرشها . ولقد كانت ماريا ستوارت تعرف كيف تؤثر على الناس ، بالكلمة والنظرة واللمحة ، وتجعلهم يؤمنون بها ، ويضحون من اجلها . من هؤلاء مورتيمر [١] ، ابن أخت السير أمياس بولت [٢] حارس ماريا . إنه شاب جرىء اتصل من خلال أسفاره إلى إيطاليا وفرنسا ، بالكنيسة الكاثوليكية ، واعتنق مذهبها ، وعرف فى فرنسا الكاردينال دى جيز [٣] ، خال ماريا ستوارت ، وتأثر به فى تكوين أفكاره الدينية والسياسية . ولقد أتى مورتيمر إلى الملكة السجينة يعرض عليها أن توافق على أن يقوم بتخليصها مستعيناً بعدد من الشباب أولى القوة والبأس . فدهشت ماريا لهذا العرض ، وأحالت مورتيمر إلى اللورد ليسيستر [٤] الذى يشغل منصباً كبيراً فى بلاط الملكة اليزابت ويحظى بثقتها . وأرسلت معه إلى ليسيستر صورة لها . وفى الوقت الذى واصل فيه مورتيمر جهوده من أجل ماريا ، كانت المحكمة العليا قد أصدرت حكمها عليها بالإعدام ، وأتى إليها اللورد بورلى [٥] ، القائم على الخزائن الانجليزية ، بالخبر . ورفضت ماريا الاعتراف بالحكم ، ورفضت الاعتراف بالقضاة ، واستنكرت المحاكمة وأسلوبها ، وأخذت تندد بالظلم وأهله . وإذا كانت المحكمة العليا قد أصدرت هذا الحكم ، وتصورت أنها ستنال رضاء البلاط وموافقته الاجماعية فقد أخطأت إلى حد كبير ، لأن رجال البلاط كانوا يمثلون أفكاراً مختلفة فيما ينبغى فعله مع ماريا . كان البعض يرى الاكتفاء بالحبس مدى الحياة ، مثل الجراف ليسيستر ، ويوصى بالانصراف عن سفك الدماء ، وإن كان فى الوقت نفسه لا يرى غضاضة فى قبول الحكم إذا لقى اجماعاً . ولهذا تظاهرت الملكة اليزابت بالتريث حتى تتخذ قراراً نهائياً . وحاولت أن تغتال ماريا بطريقة أخرى . واختارت لهذه المهمة

(١) Mortimer
(٢) Amias Paulet
(٣) Guise
(٤) Graf von Leicester
(٥) Lord Burleigh

الشاب مورتيمر ، دون أن تعلم من أمر اعتناقه الكاثوليكية وتعلقه بماريا شيئاً . وتظاهر مورتيمر بالموافقة على المهمة الآثمة التى كلفته به اليزابت ، حتى يتمكن من خدمة أهدافه على نحو أفضل . وتقدم مورتيمر فى محاولته إنقاذ ماريا خطوة ، ففاتح اللورد ليسيستر فى الأمر ، وعلم منه أنه يهيم بماريا منذ سنوات طويلة ، وأنه فى غمرة الطموح قد رفع بصره إلى أعلى وتمنى أن يتزوج الملكة اليزابت ، ثم تبين أن اليزابت تفضل عليه ملك فرنسا ، فترك الأمر . أما الآن فإنه لا يمانع فى العودة إلى الحلم القديم ، وها هو ذا يستمع إلى صوت قلبه الذى ما زال ينبض بحب ماريا . ويرجو أن ينقذ ماريا ، وأن ينعم معها بحياة سعيدة . وإذا كان اللورد ليسيستر قد رفض أن يشترك فى المحاولة الجريئة التى يريد مورتيمر بها انقاذ ماريا ، فإنه وافق على تدبير لقاء يجمع اليزابت وماريا معاً ، وهو لقاء كانت ماريا ترجوه ، واليزابت تستبعده . وتقابلت الملكتان بالفعل بالقرب من قلعة فوذرنجهى . وبذلت ماريا قصارى جهدها ــ مستمعة فى ذلك إلى نصيحة شروسبرى[1] ــ للسيطرة على مشاعرها ، فأخذت تتوسل إلى الأخت اليزابت ، أن ترعى حقوق القرابة . وأن تشملها بالعفو ، وأعلنت أنها متنازلة عن العرش ، راضية بالحياة بعيداً عن الأضواء . ولكن اليزابت استفزتها واتهمتها بأنها قتلت خطابها كما قتلت أزواجها . ففقدت السيطرة على نفسها ، وراحت تكيل لاليزابت الصاع صاعين ، وتقول لها إنها تخفى تحت رداء الفضيلة نيران شهواتها المتأججة ، وإنها تتربع على عرش انجلترا بدون حق ، فهى سليلة السفاح ، وإن العدل لو عرف سبيله إلى النفاذ ، لكانت هى الملكة وكانت اليزابت ملقاة فى التراب عند قدميها . ــ وهكذا ضيعت ماريا فرصة الحصول على العفو ، وأصبح حكم الإعدام حكماً لا سبيل إلى رده . ولكن مورتيمر وقد شهد الحوار العنيف بين الملكتين فى الخفاء ، تحمس لماريا تحمساً أشد ، وأعلن أنه يحبها ، وأنه يريد أن تكون له ، واستبعد اللورد ليسيستر من مخططه ووصم تردده بالخيانة . وازداد الموقف تعقيداً عندما تعرضت الملكة اليزابت فى طريق عودتها إلى لندن لمحاولة اغتيال قام بها أحد رجال مورتيمر ، لم تصبها بل أصابت اللورد شروسبرى . لاشك إذن فى أن اليزابت ستصمم على حكم الإعدام تصميماً يعتمد على مزيد من الأسباب القوية ، بعد أن تعرضت حياتها لخطر حقيقى . ووقع اللورد ليسيستر فى موقف

(1) Shrewsbury

دقيق ، فقد اكتشف رجال الملكة اليزابت فى أوراق ماريا خطاباً يشير إلى علاقته بالملكة السجينة . وبينما كان مورتيمر يحاول محاولة أخيرة ويحث ليسيستر على التعجيل بفعل شيء لإنقاذ ماريا ، انقلب ليسيستر عليه ، وأمر بالقبض عليه ، وكشف سر المؤامرة للملكة اليزابت حتى يثبت لها ولاءه . ولكن مورتيمر قتل نفسه ليفوت على ليسيستر فرصة اللعب بورقة المؤامرة ، فانتحاره يعنى ضياع أسانيد المؤامرة إلى الأبد . واستعدت اليزابت للتوقيع على حكم الإعدام ، ونبهها اللورد شروسبرى إلى مغبة هذه القتلة ، ولكنها صممت على الإعدام ، بعد أن تحولت ماريا فى نظرها إلى شبح التعاسة الذى يذكرها على الدوام بأنها ابنة غير شرعية ، وأصبحت تحس بأنها لن ترتاح بالاً . ولن تطمئن على سرها إلا بعد أن تسقط رأس ماريا . ووقعت الحكم . وسلمته إلى الوزير دافيسن دون أن تزوده بأوامر صريحة عما ينبغى فعله . وانتقل الحكم من يد دافيسن [1] إلى اللورد بيرلى [2] الذى فرح به ، وعجل باتخاذ الاجراءات لتنفيذه . وودعت ماريا الخدم ، ثابتة الجأش ، عظيمة الشجاعة ، وفرحت بالعجوز ميلڤيل (٣) الذى ترسم من أجلها قسيساً ، ومنحها الغفران . وتلقى اعترافها الأخير ، على مذهبها الكاثوليكى . وظهر بورلى وليسيستر ، أتيا للاشتراك فى إعدامها . فوجهت ماريا إلى ليسيستر الخائن كلاماً أليماً كشفته به أمام نفسه ، فندم على ما قدمت يداه ، ورأى سوء فعلته ، وابتعد عن المشنقة ، خائراً ، وسقط مغشياً عليه عندما سمع صوت تنفيذ الحكم . ــ كانت الملكة اليزابت تنتظر فى قصرها بلندن أن تأتيها أخبار نهاية ماريا . وما إن أتت هذه الأخبار حتى تهللت بشراً ، فقد قضت على كل منافسة وأصبحت الملكة الوحيدة . ولكنها اتخذت بعض الاجراءات المزيفة لتوهم العالم بأنها ليست مسئولة عن موت ماريا ، فأمرت بالقبض على دافيسن بتهمة أخذ الحكم للتنفيذ دون ما أمر صريح منها ، وأمرت بالقبض على بورلى بتهمة التسرع فى تنفيذ حكم الإعدام . ولكن الحقيقة كانت ظاهرة لا تخفى على أولى الألباب ، وأنها لحقيقة خبيثة لا يرضى بها الشرفاء ، ويعبر العجوز شروسبرى عن ذلك بالتماسه الاستقالة من البلاط . أما اللورد

(١) Davison

(٢) Burleigh

(٣) Melvil

ليسيستر الذى تسأل الملكة عنه ، فقد ترك البلاد ، وركب السفينة إلى فرنسا .

تعتبر مأساة « ماريا ستوارت » تحولاً هاماً فى فن شيللر المسرحى ، فهى تختلف عن المسرحيات السابقة ، وبخاصة فالنشتاين ، فى تركيزها . المسرحيات السابقة طويلة ، عريضة ، هائلة فى مناظرها ، ممتدة فى أحداثها ، أما مسرحية « ماريا ستوارت » فتضع لنفسها حدوداً تتحرك فى نطاقها ، فإذا احتاجت إلى عناصر خارج هذه الحدود ، اكتفت بالاشارة إليها ، على طريقة راسين وخاصة فى « فيدر » . وهذا التحديد يشمل المناظر ، والوقائع والشخصيات . فالمسرحية تدور حول شخصيتين : الملكة اليزابت والملكة ماريا ، هاتان هما الشخصيتان الرئيسيتان ، وكل الشخصيات الأخرى تتكون بالدرجة الأوى من انعكاسات هاتين الشخصيتين . ماريا هى المرأة المتأججة التى تثقل عليها تهمة قتل زوجها الثانى دارنلى ، والتى تتحول نتيجة لسنوات السجن إلى النقاء والصفاء ، وتصبح سمة التعاسة فى شخصيتها السمة البارزة المؤثرة . وبينما يعتقد الإنسان أن هذا التحول قد اكتمل تماماً ، يأتى لقاؤها مع الملكة اليزابت فيفجر الانفعالات المتأججة القديمة فى صورة ثورة عنيفة وتؤدى هذه الثورة العنيفة إلى تحول الذلة التى انتهت إليها إلى رفعة ، إلى عظمة غالية الثمن . وهى منذ أصبحت توقن أن الموت ينتظرها لامحالة ، قد تحولت بالفعل ، فأصبحت تجد الشجاعة ، وتجد القوة ، وتعتقد أن هذه العقوبة الظالمة ستكفر عنها ماتقدم من ذنبها وتنقى قلبها وضميرها . وهكذا أصبحت تواجه الموت فى سمو وعظمة . ــ واليزابت هى المرأة الخبيثة المتعجرفة التى تحمل وصمة المولد المشبوه ، وتكره ماريا حقداً عليها وخوفاً منها وغيرة منها . وهى لا تتورع عمن التفكير فى الشر والسعى اللئيم لتنفيذه على يد الآخرين . ولكنها جبانة منافقة ، لاتجرؤ على تنفيذ حكم الإعدام صراحة ، ثم عندما تستجمع فسوقها لتوقيع حكم الإعدام ، تتهم الوزير بالقيام باجراءات الإعدام قبل موافقتها النهائية . وقد لاحظ النقاد أن شيللر لم يحكم ذاتيته فى وصفه للشخصيتين ، فشيللر بروتستانتى المذهب ، ومع ذلك فقد ميز البطلة الكاثوليكية ــ ماريا ــ على البروتستانتية ــ اليزابت . وهو فى موضوعيته هذه إنما يحترم ناحية أساسية فى المادة التاريخية التى يعالجها ، والتى لايسمح لنفسه

بتبديلها أو تغييرها فماكان يغير أو يبدل إلا لداع من الفن ، والفن فقط [1] . وإذا كنا اليوم نفهم هذه الموضوعية ونقدرها بل ونؤمن بها ، فلا ينبغى أن نغفل عن الهجوم الذى تعرض له من بعض البروتستانتيين ، أبناء مذهبه ، الذين اتهموه بخيانة المذهب .

وعرضت المسرحية على المسرح القايمارى فى ١٤ يونية ١٨٠٠ ، واشترك شيللر شخصياً فى البروفات الأخيرة ، وكان النجاح عظيماً . وأعيد تمثيل المسرحية بعد عدة أيام فى لاوخشتيدت فنجحت نجاحاً منقطع النظير ، ويقال إن الجمهور اشترى التذاكر من الصراف فى منزله فلم يذهب إلى شباك التذاكر . وارتفعت أسعار التذاكر فى « السوق السوداء » إلى مئات الأضعاف . وتلقفت المسارح القطعة الجديدة ومثلتها بنجاح مماثل ، وخاصة مسرح برلين . وما تزال «ماريا ستوارت » إلى اليوم من أحب المسرحيات إلى الجمهور الألمانى .

(١) ماريا ستوارت التاريخية كان عمرها عندما أعدمت ٤٥ عاماً ، فجعلها شيللر فى المسرحية فى الخامسة والعشرين حتى يبرر حب ليسيستر ومورتيمر لها . كذلك جعل مدة سجنها ٧ سنوات بدلاً من ١٩ . وتتلخص وقائع حياة ماريا ستوارت التاريخية فيما يلى : ولدت ماريا ستوارت فى ١٥٤٢ وتزوجت فرانسوا الثانى ملك فرنسا ، فلما مات ارتقت عرش اسكتلنده ، وتزوجت هاينريش دارنلى ؛ ثم تزوجت للمرة الثالثة بوثويل قاتل زوجها الثانى ، وثار عليها المواطنون الاسكتلنديون البروتستانتيون ، وتمكنت من الهرب إلى انجلترا فى ١٥٦٨ ، حيث زج بها إلى السجن . وفى ١٥٨٧/٢/٨ نفذ فيها حكم الاعدام بتهمة التآمر على حياة الملكة اليزابث .

الباب الرابع عشر

عذراء أورليان

لم يكن شيللر قد فرغ بعد من «ماريا ستوارت» حينما قرر أن يكتب مسرحية «عذراء أورليان» يخلد فيها شخصية چان دارك، يوهانا محررة فرنسا، شهيدة الجهل والخبل. ولكنه لم يبدأ بالفعل فى الكتابة، على نحو ما تبين الشواهد التى بين أيدينا، إلا فى أوائل يولية من عام ١٨٠٠، أى بعد الفراغ من «ماريا ستوارت» بحوالى ثلاثة أسابيع. ولم يحرك قلمه بسطر فى المسرحية ذاتها إلا بعد أن مهد لنفسه السبيل بقراءات مركزة جديدة للمصادر التاريخية ثم عرض الفكرة على جوته وتحادثا فيها طويلاً وخاصة فى ٨ يوليه و٩ يوليه. وكان شيللر يفكر فى إمكانية إدخال محاكمة چان دارك فى المسرحية ولهذا كتب إلى صديقه كورنر يرجوه أن يبعث إليه بالمراجع اللازمة التى تتناول موضوع محاكمة چان دارك وبصفة عامة موضوع محاكمة الساحرات، وكانت العصور القديمة تطلق اسم الساحرات على البنات والنساء اللاتى يُعتقد أنهن على علاقة بالشيطان وأعوانه فهن يحدثن بالناس الضر. ولكن شيللر غير خطته وانصرف عن قضايا الساحرات وانصرف عن إدخال مشهد المحاكمة فى مسرحيته لأن المادة التى وجدها بدت له فقيرة من الناحية «الشعرية»، على حد قوله. وأتم شيللر تخطيط المسرحية وبدأ يكتب فى ٥ سبتمبر. ولم تكن حالة شيللر الصحية جسمانياً

ونفسياً على ما يرام دائماً ، بل كان يشكو أحياناً من الأرق ومن التقلصات ويشكو من جيرانه الذين يحدثون ضجيجاً يحول بينه وبين العمل . وما بدأ شيللر الكتابة حتى أحس بأنه فى حاجة إلى مزيد من المعرفة بأوزان الشعر اليونانية الكلاسيكية حتى يدخلها فى صياغة مسرحيته ، فأكب على دراستها وبخاصة وزن التريمتر .

كان الإعداد لكتابة المسرحية يمثل المرحلة الأولى من عملية الابداع التى أراد لها شيللر أن تجمع بين العمد والتلقائية ، وأثمرت المرحلة الأولى التخطيط ، فبدأت به المرحلة الثانية ، مرحلة التشبع بالمادة فكراً وإحساساً . ثم تلتها المرحلة الثالثة والأخيرة مرحلة الصياغة . فى ٥ يناير ١٨٠١ كتب شيللر إلى كورنر يقول له : «إن مادة المسرحية تملك على نفسى ، واننى مندمج فيها بكل قلبى ، وها هى هذه تنساب من قلبى أكثر من مسرحياتى السابقة» .

كان شيللر قد أتم فى ١٩ نوفمبر ١٨٠٠ المشاهد من ٦ إلى ٨ من الفصل الثانى ، وهى التى اختار لها قالب التريمتر ، ثم أنجز الشئ الكثير منها فى ٢٤ ديسمبر من العام ذاته .

وكان فى الوقت نفسه يوجه بعض اهتمامه لأعمال أدبية وفنية أخرى ويلتقى بالأصدقاء من أهل الفكر . اشترك على سبيل المثال مع جوته فى وضع برنامج لمهرجانات تستمر عدة أيام احتفالا بنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، ثم أشرف على بروفات أوبرا إفيجينيا التى ألفها الموسيقار جلوك ، وتولى أعمال مسرح ڤايمار لإصابة جوته بالتهاب شديد فى الوجه . وأتم فى ١١ فبراير الفصول الثلاثة الأولى من مسرحية «عذراء أورليان» وذهب بها إلى جوته ، وكان كثير التردد عليه خاصة فى أثناء مرضه ، وتلاها عليه . ثم ترك العمل بالمسرحية مؤقتاً ليعد الطبعة الثانية من «تاريخ انفصال الأراضى الواطئة المتحدة» ومن «دون كارلوس» . ومضت الأيام والمشاغل اليومية تحول بين شيللر وبين العودة إلى مسرحيته . لهذا قرر فى ٥ مارس أن ينتقل إلى الدار الهادئة ذات الحديقة فى يينا ، فكان يعكف طوال اليوم على الكتابة ، ويجعل المساء لأحاديث مستفيضة مع الأصدقاء وبخاصة مع شيللينج ونيتهامر . وأتم شيللر الفصل الرابع

من المسرحية ، وعاد إلى ڤايمار فى أول ابريل ، وما مر أسبوعان حتى كانت المسرحية قد تمت . وبعث بالمخطوط إلى جوته فقرأه جوته وأعجب به كل الإعجاب .

تتكون «التراجيديا الرومانتيكية» «عذراء أورليان» [1] من مقدمة وخمسة فصول . أما المقدمة فهى طويلة يمكن اعتبارها فصلاً ، فتكون المسرحية تراجيديا ذات ستة فصول » ، ذلك أن المقدمة تَعُد ٤٣٢ بيتاً من الشعر من مجموع الأبيات وهى ٣٥٤٤ . وترجع فكرة إضافة مقدمة إلى المسرحيات إلى أوريبيدس ثم استعملها بعد ذلك پلاوتوس وتيرنسيوس ، وعاد إليها بعض الشعراء فى العصر الكلاسيكى الفرنسى ومنهم راسين الذى جعل لمسرحية «استير» مقدمة . ومن الشعراء الألمان جوته الذى صدر الجزء الأول من «فاوست» بمقدمة . ولشيللر نفسه سابقة فى استعمال المقدمة فى «ڤالنشتاين» .

تبدأ مقدمة «عذراء أورليان» فى إطار ريفى يحده من ناحية اليمين تمثال لبعض القديسين فى كنيسة القرية الصغيرة ومن ناحية الشمال شجرة البلوط المعروفة بقيمتها الرمزية منذ عصور قدماء الكهنة . ويظهر والد چان دارك [2] ، تيبو دارك [3] . وهو فلاح ميسور الحال حسن السمعة ، طيب الخلق ، يحتفل بخطبة ابنتيه مارجو ولويزون [4] إلى اثنين من رعاة القرية هما إتيين وكلودماري [5] ، ويحث ابنته الثالثة چان على أن ترضى بريمون [6] ذلك الفلاح الذى تعلق بها وألح منذ سنين فى طلب يدها . وإنما يتعجل الأب زواج بناته لأن الظروف قد ساءت بعد أن نزلت قوات العدو البلاد فأكثرت فيها الفساد ، وأصبحت كل امرأة فى حاجة إلى رجل يحميها ويحمل مسئوليتها . ولكن چان لا تستجيب لحديث أبيها بل تظل غارقة فى تأملات لا يعرف الآخرون من أمرها شيئاً ، فيضطرب الأب

(١) Die Jungfrau von Orleans. Romantische Tragödie

(٢) Jeanne d'Arc

(٣) Thibaut d'Arc

(٤) Margot und Louison

(٥) Etienne, Claude Marie

(٦) Raimond

فى التكهنات والمخاوف ، ويظل ريمون على حسن ظنه بفتاته ، هذا تقوده الهواجس إلى حيث يظن أن البنت قد مسها الشيطان ، والآخر يرى فيها قبساً من نور القدسية . ويدخل الفلاح برتران (١) حاملاً خوذةً دفعت بها إليه فى ظروف غامضة امرأة من الغجر ، فيتحول الحديث من دائرة القرية الضيقة إلى دائرة فرنسا كلها التى انهارت أمام الغزو الإنجليزى حول عام ١٤٣٠ . ويرسم الفلاح ، تارةً وحده ، وتارةً فى حوار يشارك فيها الآخرون ، صورة الأحداث الأليمة التى حاقت بفرنسا ، فما من سبيل إلى نجدتها إلا أن تحدث معجزة . وترى چان فى الخوذة الغامضة إشارة من السماء إلى أن الوقت قد حان لتقوم بمهمتها ، وتتناولها من برتران معلنةً أنها خوذتها ، وأن التحرير قد حان ميعاده ، وأن نجدة السماء وشيكة ، وأن المعجزة ستحدث ، وستندفع الحمامة البيضاء إلى آفاق النسور ، وستنقض على الرم فتأتى عليها . وينصرف الجمع وتبقى چان غارقة فى تأملاتها ، وتتطلع إلى الريف بجباله ووديانه وقيعانه ، وتلقى إليها كلمة الوداع ، ثم تفصح عن سرها : لقد كلمها الرب من بين أغصان شجرة البلوط ، وأمرها بأن تكون آيةً من آياته على الأرض ، فتنقذ فرنسا ، وتساند أبناءها المغاوير ، وتتوج الملك .

ثم يبدأ الفصل الأول فى بلاط الملك كارل (شارل) السابع الذى اجتمع فى شينون (٢) . لقد فقد الملك كل أمل فى النصر ، وإنه لرجل لين رقيق القلب والحس ، كلف بالحياة الناعمة ، شغوف بالكلام الحلو والنغم العذب ، أصبح يؤثر السلامة فى الهزيمة ، على الاستماع إلى صوت الداعين إلى ركوب الأهوال إلى النصر . وهؤلاء هم الخلصاء من حوله قد اضطربت أمورهم وألقى منهم السلاح من ألقى ، وثار عليه منهم من ثار ، وخاصة دونو (٣) الذى لام الملك على مجالسة المغنين واللاعبين والاسترسال وراء الأوهام والأحلام . فلما قدمت حبيبته أنييس سوريل (٤) آخر ما لديها من مال وحلى عن طيب خاطر حتى ينال الجنود أجورهم

(١) Bertrand

(٢) Chinon

(٣) Dunois

(٤) Agnes Sorel

ويشتد القتال ، أنشد فى الثناء عليها الأغانى ، وظن أنها هى المرأة التى تنبأت له راهبة عليمة بالغيب أنها ستنصره على أعدائه . ولكنه لم يكد ينعم بالاطمئنان لهذا الخاطر ، حتى أتاه لاهير[1] من ميدان القتال بالمزيد من أخبار الهزيمة . ولقد اجتمع البرلمان فى باريس وخلع كارل عن العرش وأجلس عليه بدلاً منه هارى لانكستر[2] ودعا الناس إلى الولاء له ، فاستجاب له الأمير فيليب البورجوندى[3] والملكة ايزابو[4] أم كارل نفسها . هذه هى الكارثة قد حلت . وفجأة تغيرت الحال . رأى الفارس راؤل[5] بأخبار عن معركة التحم فيها الفرنسيون والإنجليز ففقد الانجليز ألفين من الرجال ولم يسقط فرنسى واحد . أما صاحبة هذه المعجزة فهى چان التى خرجت وحدها من دومريمى قاصدةً شينون لملاقاة الملك كارل . فلما أقبلت على الملك وصحبه عرفته ، على الرغم من أنها لم تكن قد رأته من قبل ، وعلى الرغم من أنه كان قد أقعد دينوا فى مكانه حتى يختبرها ، وتبددت شكوك الملك عندما أنبأته بسره الذى لم يكشفه لأحد . ثم أعلنت الفتاة عن رسالتها : لقد أتتها العذراء مريم ثلاث مرات ، وأخبرتها بأن الرب قد اختارها لأمر عظيم . واستمع المطران إلى حديثها ، وصدقها ومنحها بركة الكنيسة . واتخذت چان علماً عليه صورة العذراء ، وسيفاً أثرياً طالبت بإحضاره من فناء كنيسة كاترينا فى فيربوا ، ووضعت على رأسها الخوذة ، وأثارت الحماسة فى نفوس الجنود والفرسان فأعلنوا العزم على قهر العدو . وأتى من أورليان رسول الإنجليز يحمل من القائد اللورد سالسبرى[6] إنذاراً إلى الملك كارل ، فتولت چان الرد عليه ، فلم تدعه يبلغ رسالته ، بل فاجأته بنبوءة له أن يعود فيتحقق منها : لقد أصيب سيده بطلقة نارية اندفعت إليه من أورليان . وحملته بعد ذلك رسالة إلى قادة الإنجليز أن يردوا مفاتيح أورليان إلى الملك الشرعى كارل ، وإلا فإنها آتيه إلى هناك ، ورافعة راية النصر .

(١) La Hire

(٢) Harry Lancaster

(٣) Philipp von Burgund

(٤) Isabeau

(٥) Raoul

(٦) Lord Salisbury

ويتغير المنظر مع بداية الفصل الثانى : منطقة صخرية تعسكر فيها القوات الانجليزية . استبد الاضطراب بالقوات الإنجليزية بعد أن حققت جان دارك ما حدثت عنه الرسول الانجليزى . وطردت من أورليان القائد العظيم تلبوت(١) ومعه ليونل(٢) وحليفهما الأمير البورجوندى . وتراشق القائدان المهزومان بالتهم ، ووصم الواحد الآخر بالجبن ، وكادت الخلافات بينهما تتجاوز الحد لولا أن تدخلت الملكة ا يزابو ، فهدأت ثورتهما ووفقت بينهما . ولكنهما ما كادا يهدءان حتى انقلبا على الملكة إيزابو . ووبخاها على سوء خلقها وتنكرها لابنها كارل ، فكالت لهما السباب ، وانصرفت عنهما ، فتوارت فى مدينة ميلان تنتهز فرصة أصلح لمكيدة دنيئة أخرى . وحاول القادة الإنجليز أن يجمعوا أنفسهم لمواجهة چان دارك وهم يظنون أنها ساحرة شريرة . ولكن چان عرفت بنيتهم قبل أن يهبوا لتحقيقها ، وسبقتهم بقواتها فغزت المعسكر وهى تصيح باسم الرب واسم مريم العذراء . ويبدو أن نشوة الحرب استبدت بالفتاة . فأعمتها عن القيم الإنسانية ، وصدتها عن الشفقة ، وجعلت قلبها أشد قسوة من الصخر ، فهى تقتل الانجليز حيثما ثقفتهم ، لا تفرق بين أسير ومحارب أو مكابر ومهزوم ؛ وهى تنزل بهم الموت لأن قلبها يحدثها بأن الموت لن يخطئها . وأحتارت چان دارك فى أمرها فهى. تارة صارمة لا تعرف الشفقة ، وتارة أخرى ناعمة ترتعد من صرامتها ، وتحس كأنها تستبيح الحرمات فيعتصرها الندم . ومهما يكن من أمر فقد مضت مظفرة لا تهاب شيئاً ونجحت فى السياسة نجاحها فى الحرب . ويتغير المنظر للفصل الثالث : بلاط الملك . وقد انعقد فى شالون . بعد أن تحدث الكونت دونوا مع الضابط لاهير عن چان دارك وجمالها وعظمتها والأعمال العظيمة التى حققتها كشف عن رغبته فى الزواج بها على الرغم من حطة أصلها ، فرد الضابط عليه بأن الأمر ينبغى أن يرفع إلى الملك ليفصل فيه . ودخل الملك ، وتغير موضوع الحديث فتناول فيليب البورجوندى ، وإعادة العلاقات بينه وبين الملك إلى مجاريها ، ثم انضم فيليب نفسه إلى اجتماع البلاط ، وتم الاتفاق بينه وبين

(١) Talbot

(٢) Lionel

كارل ، وألقى المطران كلمةً حض فيها الأمراء على الاتفاق ، وحذرهم من الخلاف والشقاق . وهنا ظهرت چان دارك ، وبهرت الأنظار والألباب بطلعتها المهيبة وحديثها المثير ، وتوجهت إلى الأمير فيليب ، فحضته على أن يمد يده إلى دى شاتل[1] وأن ينسى له اشتراكه فى قتل أبيه ، فأطاع عن طيب خاطر . وأخذت تكشف للملك كارل الكثير مما تواريه أستار الغيب ، حتى قرر فى خضم إعجابه بها أن يرفعها إلى رتبة النبلاء ، وأن يختار لها من بين النبلاء زوجاً ، فتقدم دونوا وكذلك تقدم لاهير ، كل منهما يرجو أن ينالها . واحمر وجهها خجلاً ورفضت الزواج ، وصممت على الوصول برسالتها إلى مداها ، وأعلنت أنها تحس بقوة عنيفة تدفعها إلى شىء قد أراده القدر . وكانت هذه الحادثة بداية تحول لن تلبث آثاره أن تظهر خطيرة أليمة . أما الإنجليز فكانوا قد جمعوا قواتهم لقطع الطريق على الفرنسيين المتجهين إلى ريمس ، وقامت المعركة بين الجيشين وأصيب تلبوت ، القائد الإنجليزى المغوار ، الذى تنبأت له چان دارك بنهاية قاسية ، وظهر على المسرح يسنده فستولف[2] ولفظ الأنفاس الأخيرة حانقاً ساخطاً على الدنيا التى استشرى فيها الغباء فلا طاقة لـلآلهة ذاتها على القضاء عليه . ووقف ملك فرنسا ينظر إلى عدوه يحتضر ، فلم يتورط فى شماتة أو سفاهة ، بل قدر القائد الشجاع قدره ودعا له بالرحمة . وأما چان دارك فقد لمحت فارساً غامضاً يرتدى سربالاً أسود ، فاندفعت وراءه تلاحقه ، حتى لحقته ، وهمت أن تضربه ففاجأها بكلمات غريبة ، حضها بها على أن تكتفى بما أصابته من شهرة فى ميدان القتال ، وألا تستسلم لروح المغامرة فتذهب إلى ريمس فإنها إن فعلت هالكة لا محالة . ثم لمسها بيده وغاص فى باطن الأرض . ولم تكن چان دارك قد ثابت إلى نفسها بعد لقاء هذا الكائن الجنى الرهيب ـ وما كانت إلا منكرة وعيده ـ عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام ليونل ، آخر قادة الإنجليز الكبار ، وقد أخذ منه الغيظ كل مأخذ ، على اندحار رفاقه وهزائم قواته . ولم يعد له من هدف إلا أن يضرب رأس الحية . ونازلته چان دارك بكل ما أوتيت

(١) Du Chatel

(٢) Fastolf

من قوة خارقة فتمكنت منه ، ولكنها نظرت إلى وجهه فتحرك قلبها بإحساس مفاجىء شل قوتها ، ومنع يدها من أن تهوى على الرجل فتفتك به ، فتركت عدو الوطن حياً . وسرعان ما عادت چان دارك إلى صوابها ، وندمت على فعلتها أشد الندم فما كان لها أن تتقاعس عن نيتها وأن تحنث بنذرها ، ورأت الخطر يتجسم أمام عينيها ، لقد تحولت فى لحظة من اللحظات الحاسمة إلى امرأة لينة ضعيفة ، وزاد إحساسها بالندم من ضعفها فما بينها وبين نفسها ، وظنت السماء تناديها ، فوقعت مغشياً عليها ، فحملها دونوا ولاهير اللذان كانا قد خفا إليها وطاردا ليونل حتى لاذ بالفرار . ويتغير المنظر مرة أخرى للفصل الرابع ، وكان قد تغير فى أثناء الفصل الثالث من منظر البلاط الملكى إلى منظر ساحة تصلح للقتال ، أما المنظر الذى يستهل الفصل الرابع فيمثل قاعة عظيمة ، عليها الزينات من كل لون ، والموسيقى تصدح من ورائها . وتبدو چان دارك بمفردها حزينة تذكر ما حدث لها وما حدث فى داخل نفسها ، وتتحدث عن خطيئة هى وحدها التى تعرف مداها ، خطيئة النزول من أعالى الربانية إلى قيعان البشرية ، ثم تعيد النظر إلى ما تسميه خطيئة فلا تجد فيه خطيئة ، بل تجد فيه رحمةً بالناس وشفقة بهم . وتدخل عليها أنييس سوريل فترتمى عند قدميها تقديراً لجهودها الخارقة فى تحرير الوطن والخروج به من محنة لم يكن أحد يظن أن الخروج منها يمكن أن يتحقق . وتنتقل أنييس من حديث التكريم إلى حديث المواساة ثم حديث القلب ، لأنها تحث چان دارك على أن تقبل دونوا زوجاً لها وألا تنسى أنها امرأة لها قلب من حقه أن يحب وأن يرتاح للحب . وإذا لم تكن چان دارك قد استجابت كل الاستجابة ، فهى قد أحست بأن الحب قد عرف السبيل إلى قلبها . وهى كلما أحست بهذا الإحساس اشتد ندمها وإنكارها لإنسانيتها . ويدخل دنوا ولاهير يناديانها لحضور الاحتفال القدسى الكبير . ويحملان إليها العلم وعليه صورة العذراء مريم فتخال العذراء تنظر إليها بعين الاستنكار ، فتصرخ من شدة الألم وتستنزل لعنة السماء على نفسها . ويتغير المنظر إلى ساحة أمام الكنيسة يمر بها موكب تتويج الملك بمناسبة عيد النصر . ويأتى إلى هذا الاحتفال العظيم أهل چان دارك ، أبوها وأختاها وخطيبا الأختين وريمون الذى طالما ألح فى طلب يدها . وليست حال الأب كحال الآخرين . لقد ظن أن ابنته چان وقعت ضحية

الشيطان ، وأن كل الذى قامت به لم يكن إلا غواية من الجن وأعوانه . فأتى مصمماً على إنقاذها . ويتقدم الأب أمام الملك ويتهم ابنته علناً بأن الشيطان أغواها ويطالبها بأن تحلف بالله أنها طاهرة الذيل بريئة القلب ، إذا لم يكن اتهامه لها صحيحاً . وما تكاد چان تفتح فمها لترد حتى يدوى الرعد : لقد تحدثت عنها السماء وأمرتها ــ أو هكذا فهمت ــ بأن تصمت حتى تنصب عليها الآلام فتطهرها من خطيئتها وتصهرها إلى القدسية الخالصة . ويتوسل الناس إلى چان أن تنطق بكلمة ترد بها هذه الفرية ، فلا تنطق ولا تعبأ برجاء دونوا ولاهير ولا تسمع للمطران . وهكذا انصرف عنها الملك وابتعدت الحاشية وتخلى عنها الفرسان وفر منها العامة . وصدر أمر الملك بأن تترك چان دارك المدينة آمنة على حياتها . فتقدم إليها ريمون ونجا بها رغماً عنها من المدينة . ويتغير المنظر للفصل الخامس ، فتظهر غابة مظلمة تهب عليها العاصفة ببروقها ورعودها . لقد سار ريمون وچان دارك ثلاثة أيام وثلاث ليال فى البرد والمطر لا يجدان ما يطعمانه سوى حشف الأرض حتى أبصر بكوخ يسكنه حطاب وزوجه ، فطلبا إليهما أن يأوياهما ، فما علما أنها «الساحرة» حتى فرا منها . وانتعشت روح القتال فى صفوف الانجليز من جديد ، وسعوا فيما سعوا إليه من أمور ، إلى القبض على چان دارك حتى لا تعود سيرتها الأولى . وتمكنت بعض القوات الانجليزية من الوصول إلى مكمن چان دارك ، وحملوها إلى السجن أسيرة الملكة إيزابو التى أمرت بوضعها فى الأغلال واقتيادها إلى ليونل القائد الذى كانت على وشك الإجهاز عليه ثم تركته عندما تحرك فؤادها بما تتحرك به أفئدة البشر من أحاسيس وعواطف . ولقد حاولت أن تثنى الملكة إيزابو عن قرارها المهين هذا ، وأن تستبدله بالموت ، ولكن الملكة أصرت . وصمدت چان دارك فى وجه ليونل ، ولم تضعف أمام كلامه اللين بل أحست قبساً من القوة الهائلة التى كانت لديها ، فوجهت إلى العدو تحذيراً أخيراً بمغادرة البلاد إلا إذا كان مصمماً على الرجوع بالخزيان . وبينما أخذ السادة الفرنسيون يتبادلون التهم ويلقى الواحد التبعة على الآخر ، جمع الانجليز صفوفهم لمعركة حاسمة دارت رحاها على مقربة من البرج الذى ألقيت چان دارك فى غياهبه . ووقف جندى انجليزى يصف للملكة ايزابو المعركة ، وحملت الملكة خنجراً لتجهز به على چان دارك إذا كانت الدائرة للفرنسيين . كانت الأخبار

سيئة للغاية . فقد تراجع الفرنسيون وسقط دونوا ووقع الملك فى أيدى العدو . ودعت چان دارك الله أن يعطيها القوة فى هذه اللحظة لتنتصر لوطنها . فإذا بها تحطم أغلالها . وتتناول السيف من الجندى وتندفع إلى ساحة القتال فتحقق النصر . وتصاب چان دارك فى المعركة إصابة بالغة وتموت بعد أن تعلن على الملك وأجناده قدسية رسالتها وطهارة قلبها وتسمع كلمات التكريم والتبجيل . وترى چان دارك وهى فى سكرات الموت العذراء تمد يدها إليها من السماء فيتحول السربال الثقيل إلى أجنحة أثيرية تحملها إلى العالم العلوى .

استخدم شيللر بعض المصادر العامة فى تاريخ انجلترا . منها بطبيعة الحال المصادر التى اعتمد عليها فى كتابة «ماريا ستوارت» ، مثل كتابى Hume. Rapin de Thoyras, بالاضافة إلى ملفات محاكمة جان دارك التى وجدها فى مجموعة De L' Averdys (Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque du Roi) فلما اكتملت لديه المادة التاريخية «تغلب» عليها – على حد قوله – وصاغ المادة الفنية التى تؤدى إلى مسرحية ترضى ذوقه وتتفق وذوق عصره . ولم يكن تغلب شيللر على المادة التاريخية تحريفاً . فنحن نلاحظ أن شيللر لم يضف شيئاً يتعارض مع الأحداث التاريخية المسجلة . بل كان فى أغلبه يقوم على تفسير الأحداث التاريخية . تفسيراً حرص فيه على أن يطابق روح القرن الخامس عشر . وتحويل هذا التفسير إلى إضافات تزيد فى الكلام والأحداث والشخصيات . ولم يكن من المعقول أن يقدم على المسرح كل شىء ترويه كتب التاريخ وخاصة المعارك بتفصيلاتها الكثيرة . ولهذا تناول الفصول المطولة بالاختزال أو التركيز مبقياً على العناصر الجوهرية من ناحية . حريصاً على الوحدة الفنية للمسرحية من ناحية ثانية . ويقوم مفهوم شيللر على احترام «الحقيقة الفنية» وتغليب هذا الاحترام على احترام «الحقيقة التاريخية» . فليس من عمل الشاعر تسجيل التاريخ ، بل إثارة الإحساس الفنى المسرحى فى نفوس المطالعين أو المشاهدين . ويمكننا أن نلقى نظرة فاحصة على المسرحية من هذه الناحية لنرى ماذا فعل شيللر بالتاريخ . القصة التاريخية لجان دارك التى عرفها شيللر هى : چان دارك ابنة مزارع ميسور الحال . ولدت فى عام ١٤١٢ فى قرية دومريمى ، ولما بلغت الثالثة عشر بدأت تسمع أصواتاً تأمرها بأن تحرر وطنها . فلما بلغت

السادسة عشرة أطاعت هذه الأصوات ، واتصلت بولى العهد الفرنسى الأمير كارل فى شينون ، وأقنعته بمخططاتها العسكرية ، وبدأت التنفيذ ، فأخذت الحرب تتحول لصالح فرنسا بعد أن كانت القوات الانجليزية توشك على الانتصار الحاسم ، ورفع تتويج كارل فى ريمس الروح المعنوية بين الفرنسيين فاتبعوا جان دارك فى معاركها كما اتبعوها فى مساعيها لتصفية الجو ووحدة الصف على الجانب الفرنسى ؛ وفى عام ١٤٣٠ وقعت أسيرة فى منطقة كومبييني ، وفى العالم التالى انعقدت فى روان محكمة برياسة كوشون ، مطران بوفيه ، أدانت جان دارك بتهمة السحر وحكمت عليها بالحرق وأحرقتها علنا . ثم أعيدت المحاكمة بعد ذلك فى عام ١٤٥٦ فردت لجان دارك اعتبارها بعد فوات الأوان(١) . يلفت نظرنا لأول وهلة أن شيللر جعل جان دارك تموت فى ميدان القتال على أثر ضربة تلقتها فى أثناء القتال ، ولم يجعلها تموت على كومة الحطب بين ألسنة النيران بعد محاكمة ظالمة . ويتصل بهذا التعديل تعديل آخر وجه به شيللر الأحداث لتنتهى النهاية التى أرادها . ونقصد به خطيئة جان دارك عندما تحولت فى لحظة ضعف عن مهمتها السامية إلى الإحساس بالحب والحنان والرأفة وما إلى ذلك من مشاعر إنسانية . هذه الخطيئة من ابتكار شيللر . ولقد ابتكرها طبقاً لنظريته فى التراجيديا التى ترى أن بطل التراجيديا إنسان بشر يثير فى الناس إحساساً بالشفقة والإشفاق لما يعانيه مما يمكن أن يتعرض له كل إنسان من مصاعب ، فمن غير المعقول أن يثير فينا إحساساً بالرأفة والشفقة إنسان مكتمل العقل ، صارم الحس لا تصل إليه المعوقات الحسية التى نتعرض نحن لها . وترى نظرية شيللر أن بطل التراجيديا ، وقد جمع فى ذاته البراعة العقلية والصرامة من ناحية والتعرض للمعوقات الحسية من ناحية ثانية . يجب أن يسعى إلى هدف يوشك أن يكون الكمال المطلق أو الفساد المطبق ، ثم يموت البطل ميتة تراجيكية تجمع بين العظمة الإنسانية والعدالة الإلهية .

إن تطبيق هذه النظرية الشيللرية على المسرحية التراجيكية والبطل التراجيكى فى النوع التاريخى بالذات يجعل تحوير المعطيات التاريخية أمراً لا مناص

(١) فى عام ١٩٢٠ اعتبرت جان دارك قديسة من قديسات الكنيسة الكاثوليكية .

منه ، لا بد أن يجعل المؤلف للبطل القوة العقلية والصرامة الشخصية ثم لا بد ان يعرضه للمعوقات الحسية البشرية ، ثم لا بد أن يحركه نحو هدف هو الخير المطلق أو الفساد المطبق ، وعليه بعد ذلك أن يميته ميتةً فيها العظمة الانسانية والعدالة الالهية . ولهذا أضاف شيللر ما أضاف وحذف ما حذف . ولكنه كان حريصاً على ألا يتخذ خطاً منافياً للخط التاريخي ، أو كان بعبارة أخرى حريصاً على ما نصح به ليسينج من أن يراعي "الكاتب في كل ابتكاراته ترابطاً منطقياً بين الأسباب والنتائج . ولهذا يبتكر شيللر لبطلته الخطيئة البشرية ، خطيئة ضعف المرأة أمام الرجل وإحساسها حياله بالإعجاب أو الحب ، ويصنع لها الرجل الذى يصلح لتكتمل به هذه الخطيئة وهو قائد من قادة الأعداء ، ثم يحركها بين الضعف على أثر الخطيئة والقوة بفضل الإلهام الربانى ، حتى تموت منتصرة لبنى وطنها ، منتصرة على نفسها ، فتسير إلى المجد الإنسانى ، وإلى النعيم الربانى .

ويبدأ شيللر إضافاته منذ البداية ، من المقدمة ، فيصنع لجان دارك أختين ويصنع لكل منهما خطيباً حتى يبين الفرق النفسى بين چان دارك وبين الأخريات ويبرز اتجاهها إلى الرهبانية أو الروحانيات ، ثم يصنع شخصية ريمون خطيباً مرفوضاً ثم صديقاً وفياً ورفيقاً للبطلة فى المحنة ومؤمناً بها إلى النهاية . كذلك يجعل للأب اهتماماً بالخرافات يصل مع تطور الأحداث إلى اتهام ابنته بالشيطنة . وهذه كلها شخصيات إضافية المقصود منها إكمال صورة چان دارك التى تحكى المسرحية المأسوية تاريخ حياتها منذ الطفولة إلى النهاية . وينبغى أن نلاحظ أن الصورة التى رسمها شيللر لجان دارك فى صغرها صورة حقيقية مطابقة للمصادر التاريخية : نشأتها ، احساساتها ، أحلامها ، تهيؤاتها ، نيتها الخفية ، علاقتها المتوترة بأهلها .. أما اللقاء مع الملك والتفاوض مع أهل البلاط واقناع رجال الكنيسة ففصول حورها شيللر آخذاً بنهايتها ، فلم يعرض للصعوبات الهائلة التى وجدتها چان دارك بل وصل بنا إلى تحريك الملك والكنيسة والجيش والشعب دفعة واحدة . واتبع شيللر الطريقة ذاتها بالنسبة للمعارك الحربية التى اختصرها واقتبس منها ما يتفق وسير الأحداث فى المسرحية .

ولقد عاش شيللر بفكره وإحساسه فى عصر چان دارك . واستحيا بفضل قراءاته الموسعة الكثير من معتقدات الناس وتصوراتهم واستخدمها فى

مسرحيته ، فهذا هو الرعد يدوى ساعة توجيه السؤال إلى چان دارك ليجيب عنها ، وهذه هى چان دارك تصف السيف الذى ستحارب به وتصف مكانه فيذهب من يذهب إلى حيث وصفت ويأتيها به ، وهذه هى چان دارك تدعو الله أن يمنحها القوة وهى سجينة لتفرغ من مهمتها فيعطيها الله القوة التى تحطم بها أغلالها وتنتصر على عدوها . كل هذه الكرامات كانت فى تصور الناس فى مطلع القرن الخامس عشر حقائق يؤمن بها العامة وكثير من الخاصة ، وهى إنْ لم تجر على چان دارك ذاتها فى الحقيقة فقد جرت فى مواضع أخرى لأناس أخرين ، ولهذا استباح شيللر لنفسه الاستعانة بها .

وليس من الغريب أن يضفى الشاعر الألمانى شيئاً من ألمانيته على هذا الموضوع الفرنسى ، والفرنسيون حينما يطالعون النص يجدون فى شخصية چان دارك صفات من الصرامة استقاها شيللر من الأساطير الألمانية ومن الملاحم القديمة ، ولعلنا نجد فيها شيئاً من صفات برونهيلد فى ملحمة «النيبلونجنليد» ، المرأة الصارمة التى لا تقف فى العنف عند حد . وكان شيللر فى اتباعه لنظريته فى التراجيديا يريد لچان دارك الصرامة صفة أساسية ، ويريد لها الحنان صفة عارضة ، فتكون الصرامة دافع البطولة ، ويكون الحنان الحجر الذى تعثر فيه . وتصل بنا هذه الملاحظة إلى علاقة شيللر بالرومنتيكية . والمعروف أن شيللر كان فى البداية معارضاً للكثير مما يدعو إليه الرومنتيكيون . ولكنه غيّر موقفه وليس أدل على ذلك من تسميته چان دارك «تراجيديا رومنتيكية» . وكان الرومانتيكيون، مثل الأخوين شليجل، يستوحون فلسفة شيلينج وينادون بمفهوم جديد للطبيعة ويضعون المسيحية وثقافة العصر الوسيط وبخاصة عصر الفرسانية حيث كانت الكلاسيكية تضع ثقافة اليونان والرومان . كذلك كانوا يكثرون من الحديث عن الأحاسيس والعواطف وما يتصل بها من مخاطر ومآس ومغامرات وغراميات . وكانوا إلى هذا وذاك يسخرون من القوالب الأدبية المنفصلة والأنواع الأدبية المحددة ويدعون إلى مزجها بعضها بالبعض ، ويمنحون الشاعر السلطة النهائية ليتصرف كما يشاء فى النثر والشعر . فى الخلق والنقد ، وفى القواعد والقوالب ، وكانوا يبالغون فى استنطاق الطبيعة . فلا يكتفون بحديث الأنهار والأشجار والأزهار والحيوان بل يجعلون لكل شيء لساناً حتى قطع الأثاث

وأدوات البيت . وهم دائما يتبعون الخيال ويسيرون وراء كل غريب عجيب أسطورة كان أو خرافة ـ لم يأخذ شيللر بكل ما دعت إليه الرومانتيكية ، ولكنه وجد فيها وهو يكتب چان دارك خيراً كثيراً . ألم تر كيف فعل بجان دارك ورسالتها ، ألم يجعل العجائب والغرائب والكرامات تصحبها مرحلة بعد مرحلة ، وأرسل الرعد يرد عنها ، وجعل طريقها يصل إلى السماء ؟ ولم يكن ما أخذ به شيللر من الرومانتيكية كافياً ليدخله فى زمرة الرومانتيكيين الذين ظلوا يوجهون إليه النقد ، ولم يكن هو يريد الخروج على الكلاسيكية التى آمن بها وصنع لنفسه فيها مذهباً ، وظل يؤثر التعبير عن الاحساسات العامة التى تختلج فى النفس البشرية فى كل زمان ومكان ، وينفر مما حرص عليه الرومانتيكيون من البحث عن الاحساسات الغريبة والخلجات العجيبة لنفس بذاتها فى وقت بعينه ومكان بعينه . وهكذا امتص الآراء الجديدة وأفاد منها دون أن يتركها تلتهمه، بل ظل يتمسك بأهدافه الكبيرة . كان دائب البحث عن الموضوعات العظيمة فى كل ثقافة وفى كل عصر وفى كل بلد إيماناً منه بأن الموضوعات العظيمة هى وحدها التى تستطيع أن تحرك ذات الإنسانية وأن التراجيديا بصورتها الحديثة ينبغى أن تحارب البلادة والسفاهة والسفالة والابتذال ، وأن عليها أن تبسط أمام الناس الخلق والقوة وأن ترتفع بقلوبهم وعقولهم . وإذا كانت الأمم المحظوظة هى وحدها التى أوتيت الجمال الخالص ، فلا بد لمن يتجه إلى الأجيال المريضة من أن ينهل مما حظيت به تلك الأمم وأن يحرك الأجيال المريضة بالانفعالات السامية . هذا هو ما كتبه شيللر إلى سوفيرن فى ٢٦ يولية عام ١٨٠٠ .

بعد أن قرأ جوته «عذراء أورليان» وأعجب بها ، استعارها الأمير الفايمارى وقرأها واستحسنها هو الآخر ولكنه اعترض على تمثيلها على مسرح فايمار وادعى أن الجمهور لن يفهمها لأنه يحمل فى ذهنه صورة چان دارك المضحكة التى بثها ڤولتير منذ سنين ، ثم يفاجأ بصورة تخالفها تماماً ، والحقيقة أن السبب الأول والأخير هو علاقة الأمير بالممثلة ياجمان التى كان المفروض أن تقوم بدور چان دارك ، وكانت علاقة معروفة لا يخفى أمرها إلا على القلة ، فماذا إذا ظهرت فى دور «عذراء» تعلن على الملأ أن مجرد التفكير فى الحب خطيئة ! لا شك أن التراجيديا كانت ستتحول إلى كوميديا ، ولا شك أن الألسن كانت

ستتحرك بألوان من التهكم والتقول لا تنتهى . وكان على «عذراء أورليان» أن تنتظر حتى تحين فرصتها للخروج على المسرح .

كان شيللر يتلو المسرحية على الخاصة من زواره ، وكان فى الوقت نفسه يبحث عن موضوع مسرحية جديدة ، ونجد شيللر فى هذه الأثناء قد فرغ من إعداد مسرحية «ناتان الحكيم» للسينج لتمثل على مسرح فايمار وطالع شيئاً من أعمال شيللينج وفيشته . ولكن البحث عن موضوع جديد ظل يؤرقه . «لقد عاد القلق يستبد بى من جديد ، انبى أتمنى أن أستغرق مرة أخرى فى عمل جديد . فليس هناك شىء يجعل الحياة محتملة سوى العمل سعياً وراء هدف بعينه» . هكذا عبر شيللر عن إحساسه فى خطاب أرسله إلى كورنر . وما مر إلا وقت قليل حتى كتب إليه : «لم أستطع فى الأربعة عشر يوماً الأخيرة أن أصل إلى قرار نهائى بالنسبة للعمل القادم . لقد أصبح اختيار موضوع ، بعد أن بلغت هذه السن ووصلت إلى هذه الدرجة من الوعى ، شيئاً متعاظم الصعوبة ، فلم يعد لدى الطيش الذى يجعل الانسان فى شبابه سريع التقرير ، كذلك أصبح من الصعب تحريك الحب الذى لا يمكن لعمل شعرى أن يقوم بدونه ... واننى لشديد الشغف بتجربة التراجيديا البسيطة على أدق ما يكون عليه القالب الاغريقى ، وإن من بين الموضوعات الحاضرة لدى ما يناسب ذلك أفضل المناسبة» . كانت هذه الموضوعات تحمل اسم «فرسان مالطة» ، «بركين فاربيك» ، «الشرطة» ، «أبناء البيت» ، «أميرة سيلله» ...

وفكر شيللر فى رحلة للاستجمام ، ولكن حالات التقلص التى كان يصاب بها عاودته وجعلته يصرف النظر عنها . ثم فكر فى السفر إلى لايبتسج ودريسدن ، وسافر بالفعل بصحبة لوته وكارولينه فى ٦ أغسطس ١٨٠١ ووصل فى اليوم التالى لايبتسج ، وفى ٩ أغسطس وصل إلى دريسدن . وهناك لقى صديقه كورنر ، واستعاد ذكريات مضى عليها تسع سنوات ، وكثر حديث الصديقين عن المشروعات الأدبية القادمة والأعمال التى تمت . وتحدث شيللر عن «عروس مسينا» مسرحية جديدة يكاد يبدأ فى كتابتها ، وقرأ على صديقه المشهد الأول من مسرحية «فرسان مالطة» (ضاع هذا المخطوط ولم يعثر له على أثر)

وقرأ عليه قصيدته الأخيرة «هيرو وليان‍در»[1] .

وفى الحادى عشر من سبتمبر مثلت «عذراء أورليان» على مسرح لايبتسج ولقيت نجاحاً هائلاً . وفى منتصف شهر سبتمبر سافر شيللر من دريسدن إلى لايبتسج ورافقه إلى هناك كورنر وأسرته وجمع من الأصدقاء . وحضر شيللر فى السابع عشر من الشهر عرضاً للمسرحية ـ العرض الثالث ـ وكانت القاعة ممتلئة بالنظارة إلى آخرها ، وكانوا يعلمون أن الشاعر العظيم يتوارى فى أحد الألواح . وما انتهى الفصل الأول حتى دوى الهتاف بحياته : يعيش فريدريش شيللر ! يعيش فريدريش شيللر ! مئات الحناجر ومعها الطبول والمزامير . فتقدم شيللر فى خجل وانحنى للجمهور . ثم أسدل الستار على الفصل الأخير ، وهرع الجمهور إلى الساحة أمام المسرح ووقف على هيئة صفين ، ورفع الجميع قبعاتهم احتراماً وتبجيلاً للشاعر وهو يمر بين الصفين . لقد أصبح شيللر يفهمه الخاصة ويقدرونه ، ويسمع به العامة ويبجلونه . وتنقلت المسرحية من بلد إلى بلد تلقى فى كل مكان الاعجاب والتقدير . فلما تم بناء مسرح برلين فى أواخر عام ١٨٠١ اختيرت «عذراء أورليان» للافتتاح وخرجت فى ثوب رائع ظل حديث الناس لوقت طويل ، ويكفى أن نذكر أن موكب التتويج فى الفصل الرابع اشترك فيه ثمانمائة ممثل وأن الملابس والموسيقى والمناظر كانت «مذهلة» على حد قول المعاصرين .

وابتلعت الأعمال الصغيرة كثيراً من وقت الشاعر الكبير وشاركتها فى ذلك المشاغل الاجتماعية بين لقاءات فى بيته وزيارات فى دور الآخرين . وأعد «تاريخ حرب الثلاثين عاماً» و «دون كارلوس» لطبعة جديدة . ودخل فى ندوة الأربعاء التى كونها جوته لتجتمع فى بيته كل أسبوعين وضم إليها ڤيلهلم وكارولينه فون ڤولتسوجين ، وماير وأيتزيدل وأماليا فون ايمهوف وغيرهم ، وكان الأمير وأولاده أحياناً يأتون ويشاركون فى الغناء والحديث والعبث واللهو والطعام والشراب . وظل يشارك فى لقاءاتها كلما استطاع ، ويجد فى هذه اللقاءات حافزاً له على

(١) Hero und Leander

كتابة الجديد من الشعر ومن ذلك قصائد : «حظوة اللحظة» و «إلى الأصدقاء» و «أعمار الكون الأربعة»[1] .. وكان بين الفينة والفينة يعد مسرحية «توراندوت»[2] وهى من أعمال المؤلف المسرحى الايطالى جوتسى[3] (ولد عام ١٧٢٠ ومات عام ١٨٠٦) لتمثل على مسرح ڤايمار . وتدور أحداث هذه المسرحية فى الصين حيث يحلو للأميرة توراندوت الانتقام من الرجال فهى تصر على عدم الزواج إلا بمن يستطيع أن يحل ثلاثة ألغاز فان لم يستطع حلها قطعت رأسه . وبعد أن فقد رجال كثيرون رءوسهم تقدم إليها الأمير خلف بن تيمور دون أن تعرف من هو وتمكن من حل الألغاز ، ثم طالبها بأن تحل هى لغزاً واحداً فتقول له من هو ، ووصلت الأميرة بالخديعة إلى حل اللغز ، فلم ينتظر خلف أن يأتيه السياف ، بل هم بقتل نفسه ، وهنا ارتمت الأميرة بين ذراعيه . ويبدو أن البلاط الڤايمارى شغل طويلا بهذه المسرحية ـ وكان شيللر يجدد الألغاز ويستعين بجوته فى ابتكار ألغاز جديدة . وكان فراغ شيللر من إعداد «توراندوت ، الأميرة الصينية» فى ٢٧ ديسمبر ١٨٠١ .

ولم تخل حياة شيللر من المنغصات فى هذه الفترة ، فقد اجتاحت ڤايمار حصبة وبائية على الرغم من جو الشتاء البارد ، وأصيبت زوجة شيللر وأولاده . أما هو فلم تصله عدوى الحصبة ، بل أصيب بنزلة معوية شخصها الأطباء على أنها «كوليرا» ، وكان يعانى علاوة على ذلك من حالات حمى شديدة . وبينما أخذت الأحوال تتحسن مع مطلع عام ١٨٠٢ ، اشتد بوالدة شيللر المرض وانتقلت إلى مدينة شتوتجارت لتكون تحت رعاية طبية أفضل ، وأرسل إليها ابنها مزيداً من المساعدة المالية لتواجه نفقاتها الجديدة .

بعد أن فرغ شيللر من إعداد «توراندوت» تلقى من جوته مسرحيته «ايفيجينيا» ليعدها للمسرح ، فعمل بهمة تناسب المهمة العظيمة وفرغ منها

(١) Die vier Weltalter, An die Freunde, Die Gunst des Augenblicks

(٢) Turandot

(٣) Gozzi

بسرعة ، وعاد يفكر فى كتابة مسرحية «ڤاربك»[1] ثم فى كتابة مسرحية «ڤيلهلم تل» . ويبدو أن المسرحية الثانية شدته إليها أكثر من الأولى فقد تناول كتاب تشودى «تاريخ سويسرا»[2] وطالع فيه تاريخ ڤيلهلم تل . وأرسل فى الوقت نفسه قصيدتى «إلى الأصدقاء» و «أعمار العالم الأربعة» إلى كورنر ليعمل على تلحينها . وشرع يؤلف قصيدة جديدة «كاسندرا» .

كانت العلاقة بين شيللر وجوته على خير ما تكون العلاقة بين أديبين عظيمين ، ويذكر المعاصرون لها حادثة كادت تفسد ما بينهما . فقد حل بڤايمار الكاتب المسرحى أوجوست فون كوتسبو[3] (ولد عام ١٧٦١ وتوفى عام ١٨١٩) وكان رجلا بارعاً فى الحديث وفى التأثير على مستمعيه ، وكانت له صلاته القديمة بڤايمار ، ثم كانت له «مغامرات» كثيرة فى روسيا وغيرها ، عرف كيف يخرج منها كلها بشخصية لامعة تتوق إلى مزيد من الظهور ومزيد من البريق . وحاول أن يفرض نفسه على جوته وشيللر فلم يلق منهما إلا الفتور ، وغضب من جوته ، خاصةً عندما منعه من الانضمام إلى ندوة الأربعاء ، فقد صمم جوته على ألا يدخل عضو جديد إلى الندوة إلا بموافقة الجميع بلا استثناء . وحفظ كوتسبو اللطمة فى نفسه ، وصمم على أن يوجه إلى جوته لطمة من نوعها . فأخذ يعد العدة لاحتفال كبير لتكريم شيللر وبالتالى للنيل من جوته . ولم يستطع شيللر أن يثنى الرجل عن عزمه ، فكيف يرد الإنسان من يسدى إليه صنيعاً ؟ وهل التكريم شيء يستقبح ؟ وكان المفروض أن يقام الاحتفال يوم ٥ مارس ١٨٠٢ فى قاعة مجلس بلدى ڤايمار ، فتعرض فصول من مسرحيات شيللر ، ثم يقام عرض لأغنية الناقوس تتلى فيه الأغنية ويرى الحضور فى الوقت نفسه نموذجاً لناقوس كبير من الورق ينشق فى النهاية عن التمثال النصفى لشيللر الذى نحته دانيكر ، ويتقدم من يتقدم فيضع على التمثال النصفى إكليلاً من الغار . وكان شيللر لا يخفى حرجه من الموقف ، بل انه قال لجوته ذات مرة إنه لن

(١) Warbeck

(٢) Tschudi, Chronicon Helveticum

(٣) August von Kotzebue

يحضر الاحتفال وسيتعلل بمرضه . ولعب الحظ دوره فى إحباط المكيدة ، فقد استحال على كوتسبو الحصول على القاعة والتمثال النصفى .. وانتهى كل شىء .

وظلت العلاقة بين الصديقين بريئة من كل شائبة ، وكان شيللر لا يجد غضاضة فى الاستعانة بجوته فى شئون الحياة اليومية . ويظهر ذلك خير ما يظهر فى شراء بيت جديد فى ڤايمار ، وبيع بيت يينا ، فقد لجأ إليه فأعانه على قدر ما استطاع سواء فى البيع والشراء أو فى تدبير شىء من المال . ولشراء بيت ڤايمار قصة ، كان شيللر قد عرف رجلا انجليزياً اسمه ميلليش (١) يمتلك بيتاً فى ڤايمار ، وتوطدت الصلة بينهما فقد كان الإنجليزى محباً للأدب فترجم «ماريا ستوارت» إلى الإنجليزية . ثم قرر ميلليش أن ينزح عن ڤايمار ، وعرض بيته على شيللر ، فاشتراه بمبلغ ٤٢٠٠ تالر . ولم يكن شيللر يمتلك الثمن حاضراً ، فاقترض من الخزانة الأميرية شيئاً وعرض بيت يينا للبيع ثم اقترض من السيدة فون لينجيفيلد ، وحصل من ناشريه على مبالغ مقدماً نظير طبعات لبعض مؤلفاته . وانتقل مع زوجته وأولاده الثلاثة إلى البيت الجديد فى ٢٩ ابريل من عام ١٨٠٢ . وكان البيت يتكون من طابقين ، اتخذت الأسرة الطابق الأول لها ، واتخذ شيللر فى الطابق الثانى حجرة مكتب ، وحجرة لاستقبال الضيوف ، وحجرة نوم صغيرة . وتصادف أن ماتت أم شيللر فى اليوم نفسه فحزن الابن عليها حزناً شديداً ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من لوم القدر على الجمع بين الحدثين فى يوم واحد . وكانت شارلوته تعلم أن خبر موت والدته فى هذا الوقت بالذات سيحزنه أشد الحزن ، فاخفته عنه بضعة أيام .

وشهدت تلك الأيام تكريماً لشيللر ، لم يكن هو حريصاً عليه ، ولكنه أفاد زوجته ورفع قدرها بين أهل البلاط الأميرى فى ڤايمار ، أو على الأصح رد إليها رتبتها التى كانت لها قبل أن تتزوج من شيللر . كان هذا التكريم هو ضم شيللر إلى طبقة النبلاء والتصريح له بكلمة «فون» قبل اسمه علامةً على ذلك . لم يكن أمير ڤايمار يملك حق التكريم على هذا النحو ، فقد كان هذا الحق خالصاً للقيصر فى

(١) Joseph Mellish

ڤينا . فكتب الأمير الڤايمارى كارل أوجست فى يونية ١٨٠٢ إلى الجراف شتاديون ليقوم بمساعيه لهذا الغرض . وحرر الوزير فوجت مذكرةً طريفة عدد فيها مبررات التكريم . فذكر فيها خدمات والد شيللر فى حرب السنين السبع ، وذكر دراسة شيللر فى أكاديمية شتوتجارت ، وعمله فى التدريس بجامعة يينا ، ومؤلفاته فى التاريخ ، ثم مؤلفاته الأدبية التى أنعشت اللغة الألمانية وحفزت الوطنية الألمانية ونوه بفضل شيللر على الوطن الألمانى ، ولم ينس أن يشير إلى أن زوجة شيللر من أسرة نبيلة هى أسرة «فون لينجيفيلد» . وصدر أمر القيصر فى ٧ سبتمبر برفع شيللر وأبنائه وبناته من بعده إلى طبقة النبلاء ، وصرح له باتخاذ شعار على عادة النبلاء . وكان شيللر يضحك بينه وبين نفسه لهذا التكريم . بل انه صرح بشىء من ذلك لبعض أصدقائه ، فقد كتب إلى هومبولت يقول له : «لا بد أنك ضحكت عندما سمعت عن ترقيتنا التى نلناها إلى الطبقة العالية . لقد كانت تلك فكرة أميرنا ، وما دامت قد تحققت فيمكنتى أن أرضى بها من أجل زوجتى وأولادى» . ولقد سرت زوجة شيللر فعلاً لأنها لم تكن تستطيع المشاركة فى كل ما كانت تحب المشاركة فيه من ضروب النشاط فى البلاط الأميرى ، لأن منها ما كان قاصراً على الطبقة النبيلة دون سواها ، وكانت أختها مثلاً لا تعانى من هذا التقييد ، وكانت الطبقة النبيلة بصفة عامة مقدمة على ما دونها من الطبقات فى كل شىء . ويقال إن كارولينه أخت شارلوته هى التى سعت فى هذه الترقية من أجل أختها ، ويقال كذلك إن الأمير الڤايمارى أراد بها أن يغيظ هردر !

وهكذا ظل شيللر بعد الفراغ من «عذراء أورليان» وقتاً طويلاً يعد نفسه لعمل جديد . ولم يكن البيت الجديد ليتيح له الجو الملائم على الفور فقد اتضح بعد الانتقال إليه أن هناك تعديلات وإصلاحات لا بد من إجرائها ، ولم يستطع شيللر وسط الضجيج أن يغترف من نفسه شيئاً . كذلك كانت الأعباء المالية الجديدة سبباً فى مزيد من القلق . ولكن شيللر أبى أن يحرك قلمه بأعمال متعجلة تتيح له كسباً سريعاً ، وكثيراً ما كانت الفرص تسنح لذلك ، ولكنه كان دائماً قوياً لا يتسرب الضعف إلى نفسه . وفى مايو ١٨٠٢ ذهب جوته إلى لاوخشتيت ليفتتح مسرحها وبقى هناك أسبوعاً ، ووجد الجمهور متلهفاً على أعمال مسرحية جديدة ، فتحدث إلى شيللر فى ذلك ، وحثه على أن ينشىء أعمالا أكثر فاعلية

من الناحية المسرحية وألا يعطل نفسه كثيراً بالدراسات التمهيدية والتحضير الطويل . فكتب إليه يقول : «إنك على حق فى أنه ينبغى علىّ أن أزيد فى مسرحياتى من التركيز على ناحية التأثير الدرامى . وهذا ، بغض النظر عن المسرح والجمهور ، مطلب فنى شعرى . وأنا لا يمكننى أن أهتم به إلا على هذا الاعتبار . وإذا كان لى أن أنجح مرة فى تأليف مسرحية جيدة ، فلا يمكن أن يتم ذلك إلا عن طريق الفن . لأن التأثير عن غير طريق الفن شىء قد يتمكن من الوصول إليه من لديه موهبة عادية أو من ليس لديه سوى الصنعة ، ولكنه شىء لا يمكننى أن اتخذه لى هدفاً ، ولو اننى اتخذته هدفاً لما وصلت إليه ... فأنا لا أستطيع تحقيق شىء دون تعمق واندماج » .

الباب الخامس عشر

عروس ميسينا

كان شيللر لا يرتاح من وعكة الا ليعانى من أخرى ، ولا يبرأ من مرض إلا ليصاب بآخر ، وليس من شك فى أن المرض الصدرى القديم قد أفسد جسمه أشد الإفساد فأصبح تغير الجو يؤذيه لا فرق فى ذلك بين حرارة وبرودة ، وليس من شك فى أن هذا المرض الصدرى لم يبرح الرئتين بل ظل ينخر فيهما شيئاً فشيئاً ، ثم كانت إصابة يناير ١٧٩١ فأحالت شيللر إلى رجل مريض بمعنى الكلمة . واشتد السعال مصحوباً بالتقلصات والحمى فى صيف عام ١٨٠٢ . وكانت نوبات السعال تشتد فى الليل خاصةً ، ولهذا رتب حياته على أن ينشط فى فترات النهار لأعماله قدر الاستطاعة ، وأن يجعل الليل للألم . وفى يوليه بدأ يعالج السعال بتناول لبن الحمار (!) ويبدو أن هذا العلاج أفاده لأنه ما مر أسبوعان حتى ارتاح من السعال تماماً . كذلك ظهرت فى الأفق بوادر ظروف مواتية ، فقد تولى كارل فون دالبرج عرش الأمير الناخب فى ماينتس وانتخب مستشاراً أول ، وأصبح من حق شيللر أن يتوقع العون من صديقه الذى اجتمعت له أسباب السلطة والمال . وتحققت توقعات شيللر فى الفترة التالية وبدأ الغيث ينهمر بمساعدة مالية قيمة فى مطلع عام ١٨٠٣ .

ومع هذا التحسن العام وعودة الهدوء إلى البيت بعد فراغ العمال من أعمالهم ، بدأ شيللر العمل جدياً فى مسرحية « عروس ميسينا » . كان هذا فى منتصف شهر أغسطس ١٨٠٢ . وكتب شيللر إلى صديقه كورنر يبرر اختياره لهذا الموضوع دون غيره من الموضوعات التى شغل بها : «وبعد أن طال تأرجحى من موضوع إلى آخر أقدمت على هذا الموضوع لأبدأ به ، ولى فى ذلك أسباب ثلاثة : أولاً لأننى كنت قد خطوت أبعد شوط فيه فيما يختص بالهيكل ، وهو هيكل بسيط جداً ، ثانياً لأننى كنت بحاجة إلى حافز ما يأتينى من الأخذ بالجديد فيما يتعلق بالشكل ، وبالذات بشكل يقترب خطوة أخرى من التراجيديا القديمة ، وهو ما يتحقق فى هذه القطعة فعلاً ، لأنها تتخذ بالفعل شكل التراجيديا الإسخيلية ، وثالثاً لأننى رجحت اختيار عمل لا يتطلب طول النفس ، لأننى وقد توقفت فترة طويلة بحاجة إلى أن أرى أمامى شيئاً قد تحقق » . وفى ١٥ نوفمبر ١٨٠٢ كتب يقول : «إن أهم شىء هو العمل الدءوب ، إنه لا يوفر سبل الحياة فحسب ، بل يعطى الحياة قيمتها الوحيدة التى لا قيمة لها غيرها . لقد عملت منذ ستة أسابيع بهمة ونجاح ــ على ما أعتقد ــ وأنجزت من «عروس ميسينا » ١٥٠٠ بيتاً وسأفرغ منها فى مطلع فبراير ١٨٠٣ » . وفرغ منها بالفعل فى الموعد الذى حدده لنفسه . وكان فى الوقت نفسه يطالع المسرحيات التراجيدية لإسخيلوس ويدرس استخدام الكورس بل ويفكر عى كتابة مقال عن استخدام الكورس فى التراجيديا .

تدور أحداث تراجيديا «عروس ميسينا » أو «الشقيقان المتعاديان »[١] فى ميسينا بجزيرة صقلية فى العصر الوسيط ، هنا تتقدم دونا إيزابيلا[٢] أميرة الجزيرة إلى الكبراء معلنة لهم أنها قامت بكل ما فى وسعها لتسوى الخلاف المحتدم بين ولديها دون مانويل[٣] ودون تسيزار[٤] ، والذى قسم الأمة إلى حزبين ، كل حزب يشايع أخاً على أخيه ، دون أن تصل إلى نتيجة . وهى تصارحهم بأن

(١) Die Braut von Messina oder Die feindlichen Brüder

(٢) Donna Isabella

(٣) Don Manuel

(٤) Don Cesar

العداء الذى ملأ قلبى الأخوين ظل كامناً طالما كان زوجها على قيد الحياة ، فلما مات تحول الأخوان من شابين تفخر بهما الأمة ، إلى كائنين انحرفت فيهما الطبيعة عن وجهتها السوية ، وخرجت على قوانينها القائمة . وعلى الرغم مما وصلت إليه الأمور من سوء فإن الأميرة الأم لا تزال ترجو أن يثوب الشابان إلى رشدهما ويقبلا تسوية تعيد الوفاق بينهما بعد الشقاق . وهى لهذا تدعوهما إليها لتجرب معهما أقوى ما لديها من الوسائل ، فيأتيان ويتبع كلاً منهما كورس يمثل حزبه ، وتلقى الأم عليهما كلاماً صريحاً نافذاً ملحاً يحيل جمودهما إلى لين وعنادهما إلى طواعية ، ويستجيبان لرجائها ، ويلتئم شملهما . فما أسعد الأم بهذه النتيجة الجميلة ! إنها تظن أن ما حدث كان محنة عارضة ، وأن المياه قد عادت إلى مجاريها ، وأن السعادة لن تلبث أن تحيط الأسرة كلها بظلالها الوارفة . وهى لهذا تقرر أن تركب موجة السعادة إلى مداها ، وأن تكشف لابنيها سراً ظلت تخفيه عنهما . وها هى هذه ترسل الشيخ الوفى المخلص دييجو[1] إلى دير قائم فى مكان بعيد عن مسالك البشر ليأتى بابنتها بياتريس[2] التى أخفتها هناك ولم تذكر لأحد طوال السنوات المنصرمة شيئاً عن أمرها . وتظن الأم أنها إذ تعرف الأخوين باختهما تفاجئهما بما يفرحا له أشد الفرح . ولكن النحس كان قد سبق وأحكم قبضته على مصائر هذه الأسرة المنكوبة . فلم تبق بياتريس فى مكمنها بعيدة عن الناس كما ظنت أمها ، فقد دفع القدر يوماً دون مانويل فى أثناء الصيد وراء أنثى أيل هاربة ، إلى الدير ، فدخله ورأى بياتريس وأعجب بها دون أن يعرفها ، ودون أن يذكر لها شيئاً عن أصله وحسبه ونسبه . وتحول الإعجاب إلى حب عنيف استبد بقلبيهما جميعاً . ثم إن القدر دفع بياتريس إلى حيث التقت بدون تسيزار . فقد سمح لها دييجو بأن تغادر الدير خلسة يوم جنازة الأمير الكبير ، وأن تشهد الحفل فرآها دون تسيزار واشتعلت نار الحب فى قلبه تجاهها منذ اللحظة الأولى ، وأخذ يبحث عن طريق توصله إليها فلم يجدها ولم يعرف عن مكانها شيئاً بعد ذلك .

(١) Diego

(٢) Beatrice

وذات يوم رأى اتباع دون تسيزار بياتريس فى حديقة على مقربة من ميسينا ، وكان دون مانويل قد بعث إليها من اقتادها إليها ليلقاها هناك ويعرفها بأمه ويعلنها عروساً له . وبينما وقفت بياتريس تنتظر مقدم دون مانويل فى شوق الحبيب إلى الحبيب ، أتى إليها الشاب الثانى ، دون تسيزار ، وصارحها بحبه الشديد لها ، وكشف لها عن شخصيته . فلما سمعت أنه ابن أمير ميسينا ، ارتعدت لأنها كانت قد سمعت بالعداوة المطبقة التى يكنها إبنا أمير ميسينا أحدهما للآخر ، ولكنها لم تكن تعلم هى نفسها شيئاً عن أصلها وصلتها بالأسرة الأميرية . وبينما الأميرة الأم تدبر للقاء جميل ، يأتى دييجو إليها ويعلن أنه لم يعثر على بياتريس فى الدير وأنه يظن أن القراصنة قد اختطفوها . فتبلغ الأم ابنيها بأن لهما أختاً كانت ترجو أن يلتقيا بها ، وأنها علمت لتوها أن القراصنة قد اختطفوها ، وتأمرهما بأن يخرجا على عجل لمطاردة القراصنة واستعادتها . أما بياتريس فكانت فى الحديقة ، وكان أشياع كل أخ من أخويها قد اجتمعوا هناك وانتصر كل فريق لصاحبه ، ثم تحول الأمر إلى صدام عنيف بين الحزبين ، ثم بين الأخوين . وها هى هذه العداوة تعود فتفرق بين الأخوين ولما تهدأ نيرانها فى قلبيهما إلا قليلاً . وقف كل أخ يطالب بالفتاة لنفسه ، فتقدم دون سيزار وسدد إلى دون مانويل ضربة أردته قتيلا . وتتكشف الحقيقة الأليمة أمام الأم : لقد قتل الأخ أخاه وهو لا يعلم أنهما يتصارعان على حب اختهما . وكانت الأم منذ سنين تخشى أن تتحقق نبوءة ذلك العراف العربى الذى فسر حلم زوجها قائلاً إن ابنة ستولد لها تكون سبباً فى مقتل أخويها ونهاية حكم أسرتها . وكان الأمير قد رأى فى المنام فراش عرسه تخرج منه شجرتان عظيمتان من أشجار الغار وتظهر بينهما زهرة زنبق تتحول إلى شعلة من النار هائلة تأتى على البيت كله . فلما وضعت الأميرة بنتاً أمر الأمير بها أن تقتل ، ولكن الأم أشفقت على فلذة كبدها وأرسلتها سراً إلى دير بعيد لتنشأ فيه مجهولة لا يعلم أمرها أحد . كذلك كانت الأميرة الأم قد رأت مناماً آخر فسره لها أحد الرهبان العليمين بعلوم الغيب بأنها ستلد بنتاً تحيل ما فى قلبى الابنين من عداوة إلى حب عارم يجمع بينهما . ـ لقد تحقق القدر ، والقدر لا يفر منه انسان مهما حاول . فها هى هذه الأم ومعها البنت تحاولان الإبقاء على دون تسيزار حياً ، ولكنهما تحاولان المستحيل ، فقد استبد به الندم على قتل

أخيه ، وتملكه فوق ذلك احساس بالمرارة والغيرة العقيمة لأن بياتريس فضلت أخاه عليه ، فقتل نفسه على مقربة من جثة أخيه . ويختتم الكورس التراجيديا : «ليست الحياة كبرى النعم ، أما الذنب فهو كبرى النقم» .

كان شيللر قد ملك فى «ڤالنشتاين» ناصية الفن المسرحى ، كان قد وصل درجةً درجةً إلى قمة الاتقان ، وتركز اهتمامه بعد ذلك على تنويع أبعاد هذا الاتقان والسلوك به سبلاً مختلفة . وكان شيللر يرى فى هذا التنويع تقدماً متجدداً لا تقوم للفن الحديث قائمة بدونه ، وكان يرى فيه فى الوقت نفسه ضرورة فنية يفرضها الموضوع ، أو تفرضها مادة المسرحية . كان يرى أن كل مادة مسرحية لها قالبها الذى يناسبها أخصن المناسبة ، وأن على الشاعر أن يجد هذا القالب ولا يظل عند قالب واحد لأنه إن فعل ذلك قضى على الفن المسرحى بالتدهور . و«عروس ميسينا» محاولة من شيللر لوضع عناصر التراجيديا اليونانية القديمة فى صورة عصرية تجمع بين طرف من الثقافة الإغريقية وطرف من الثقافة المسيحية وطرف من الثقافة العربية الوسيطية . وكان شيللر قد درس المسرح اليونانى فى عام ١٧٨٨ وقرأ كثيراً مما نقل منه إلى اللغة الألمانية ، ولكنه لم يعمد إلى محاكاته أو تطويره ، ثم عاد إلى الاشتغال به مرة أخرى فى أثناء كتابة ڤالنشتاين فى عام ١٧٩٧ وأخيراً وجد طريقه . أما مادة «عروس ميسينا» فهى من اختراع شيللر ، وواضح أنه اعتمد فى اختراعها على «أوديب ملكا» لسوفوكل وشىء من حكايات ألف ليلة وليلة ، وشىء من الأخوين المتعاديين فى مسرحيته الأولى «قطاع الطرق» . إذا أنعمنا النظر فى «أوديب ملكا» وبحثنا عن الخيوط التى استعارها شيللر لنسيجه الجديد وجدنا مثلاً : فكرة القدر الذى يفرض نفسه فلا يفر منه أحد .. اللعنة التى تحل بأسرة .. الخطف .. الحب الحرام .. قتل القريب ، وقتل الابن لأبيه وقتل الأخ لأخيه .. الانسان البرىء الذى يصبح دون علم منه أداة القدر فى تحقيق اللعنة .. الانسان البرىء الذى يقرر أبوه أن يتخلص منه حتى لا يصل القدر إلى غايته ..

وليس من شك فى أن شيللر تعلم من اليونان معالجة عاطفة انسانية عامة ، هى عاطفة الحب ، وتعلم منهم السلوك بهذه العاطفة مسالك مفزعة فتتحول من

شيء جميل إلى شيء بشع ، حتى تسيل من أجلها الدماء . وتعلم من اليونان استخدام العرافة ولكنه لم يدع الأشخاص فى مسرحيته يقفون كلهم أمام منطوق العرافة مكتوفى الأيدى بل جعل فيهم من يتحركون ويسعون إلى صناعة مصائرهم بتدبيرهم . لقد أدخل شيللر على مفهوم القدر واللعنة والعرافة عند اليونان مفهوم الذنب الذى يتحمل به الإنسان نتيجة لحريته فى التصرف أو بتعبير أدق نتيجة لنصيبه من حرية الإرادة . واضح أن دون تسيزار استسلم لعاطفته ولم يتحكم فى نفسه ، فحطم اتفاق الوفاق الذى قام بينه وبين أخيه ، فتسبب بذلك فى إثارة دون مانويل وتسبب فى الضربة التى راح ضحيتها ، فلم تكن تلك الضربة ضربة عمياء من قدر محتوم ، بل ضربة لها أسبابها ومبرراتها . كذلك جاءت نهاية دون مانويل ـ بغض النظر عن العرافة والقدر ـ حلقة فى سلسلة من الخطوات التى يمكن فهمها بالمنطق وردها إلى مكانها من الأخلاق . ويتضح رأى شيللر فى عبارة دون تسيزار : «إن العمل الحر ليستطيع تحطيم أغلال القدر» . وأدخل شيللر من الفكر المسيحى مفهوم الذنب ، وضمه إلى مفهوم القدر ، ثم أضاف إلى المفهومين العرافة على النحو الذى كان المنجمون العرب قد برعوا فيه فى العصر الوسيط .

أما قالب المسرحية فهو إحياء للقالب الإغريقى القديم ، فقد حرص شيللر على أن يجرى خط واضح من الأحداث فى زمن لا يزيد على يوم وفى مكان محدود لم يغيره كثيراً كما كان يفعل فى مسرحياته الأخرى وجعل تغييره مطابقاً لخطة أخص ما يميزها التوازن والتماثل ، فهذه هى الأحداث تنتقل من بهو ذى أعمدة إلى حديقة ومن الحديقة إلى حجرة داخل القصر ، ثم تعود من الحجرة داخل القصر إلى الحديقة ومن الحديقة إلى بهو الأعمدة ، كذلك التزم شيللر بعدد محدود من الأشخاص ، واستهل المسرحية بمونولوج محكم بسطت فيه الأميرة الأم خلفية الأحداث ومهدت لتطورها .

وأهم عنصر اغريقى اقتبسه شيللر هو الكورس ، وقد استعمله شيللر على مستويين ، المستوى القديم الذى كان معروفاً عند الإغريق ، ومستوى حديث مبتكر . فالكورس من ناحية يواكب الأحداث ويفسرها بما يتلوه من مقاطع

غنائية ، والكورس من ناحية ثانية ينقسم وينشق عن أفراد يشاركون فى أحداث المسرحية . ولم يكن اقتباس شيللر للكورس وليد خاطر عابر ، بل نتيجة لتفكير طويل وعميق سجله الشاعر فى دراسة بعنوان «استخدام الكورس فى التراجيديا »[1] بدأ يدونها فى مايو عام ١٨٠٣ ونشرها كمقدمة للمسرحية فى طبعتها الأولى . ويقدم شيللر لموضوعه بملاحظات عامة فى «فلسفة الفن» منها مثلا أن العمل الفنى ينبغى أن يجمع بين جانبين ، الجانب الواقعى ، والجانب الخيالى ، فعرض الحياة الواقعية بما فيها من خير وشر يؤدى بالمشاهد إلى السعى إلى الأحسن والأفضل ، ولكن المشاهد لعمل فنى يرجو فى الوقت نفسه ان يمكنه هذا العمل الفنى من التحرر من قيود الواقع والتحليق فى عالم الخيال . ولا يصح أن يعرض الفنان على المشاهد عملاً فنياً قوامه الخيال والأحلام فحسب ، لأن المشاهد عندما يعود إلى الحياة الواقعية يضيق بها أكثر من ذى قبل . والأصوب فى رأى شيللر أن يصل الفنان المبدع بالمشاهد إلى ما يصبو إليه من تحرر بأن يوقظ فى نفسه القدرة على أن يبعد العالم الحسى الذى يتبرم به إلى حيث يلوح به عمل حر من ابتداع فكره يستطيع أن يسيطر فيه على المادية المثالية . فينبغى أن يقوم العمل الفنى على الحقيقة والطبيعة ولكن ينبغى عليه فى الوقت نفسه أن يوجه المشاهد إلى البنيان المثالى ، فالفن مثالى وواقعى فى وقت واحد . والاكتفاء بتصوير الواقع يعنى تسجيل ظواهر الطبيعة العارضة ، وهو بذلك يفتقر إلى الإحاطة بروح الطبيعة . والاكتفاء بالخيال وربط الخيالات بعضها بالبعض فى عمل فنى لا يعنى السير إلى المثالية . إن تصوير الطبيعة والإحاطة بالطبيعة عنصران لابد من أن يكونا معاً ، فليست ظواهر الطبيعة التى تلوح للإنسان هى الطبيعة ، بل هى ظواهر عارضة ، والطبيعة فكرة أو مثال لا يعيها إلا العقل . فكيف يجمع المؤلف المسرحى فى التراجيديا بين الطبيعة والمثالية ؟ ان شيللر يرفض طريقة الإيهام المفتعل ، ويرى أن القشرة الخارجية للمسرحية تعكس الواقع عن طريق الرمز : ليس الوقت على المسرح هو الوقت فى الواقع ولكنه رمز له ، وليست الصور على المسرح هى الصور فى الواقع بل هى رموز لها ، وكذلك لغة المسرح ليست إلا لغة

(١) Über den Gebrauch des Chors in der Tragödie

مثالية بينها وبين الواقع مثل ما بين الرمز والواقع . أما الأحداث فلا بد أن تكون واقعية . واستعمال الكورس فى التراجيديا هو استعمال لوسيلة فنية تغلف الجزء الواقعى الطبيعى الحقيقى بغلاف شعرى يحفظ للتراجيديا جوهرها المثالى . ولقد نشأت التراجيديا القديمة من الكورس ، وظلت التراجيديا تحرص على الكورس طالما كانت قاصرة على الآلهة والأبطال والملوك ، وكان الكورس عنصراً طبيعياً يرافق الأبطال ويبدو تعبيراً مثالياً عن الحياة الواقعية التى كان الأبطال يحيونها . أما الآن وقد تغيرت الحياة ، فلم يعد من الممكن استخدام الكورس على النحو نفسه . ان الكورس الآن هو الصورة التى يظهر عليها الشعب على المسرح . ولهذا فإن الكورس يعبر عن العموميات ، سواء منها ما يتصل بالماضى أو الحاضر أو المستقبل ، وهو الذى ينطق بالحكمة العامة ، وهو الذى يرد الأحداث إلى أصولها وينتهى منها إلى نتائجها . والكورس فى ذلك يحلق فى آفاق الخيال ويستعين بالحرية الغنائية التى تنساب كخطى الآلهة فى إيقاع جميل وحركة سماوية . فبينما يظل سياق الأحداث فى حدود الواقع ، يرتفع غناء الكورس إلى منطلق الخيال ، ويضفى هذا الثوب الكورالى الخلاب على شخصيات التراجيديا ذاتها مهابةً وجلالاً ونبلاً . وإذا كانت التراجيديا تتميز بالضربات العنيفة المتتالية ؛ فان الكورس يتيح للمشاهد فترات للراحة يسحبه فيها بعيداً عن العاصفة ويمكنه من أن يجمع شتات نفسه ومن أن يتأمل . والكورس تارة الشخص الفرد وتارة الشخص المثال ، تارة شخص بعينه ، وتارة مجموعة من البشر . والكورس فى أحيان أخرى صاحب الحكمة والأدب وفصل الخطاب . فقد يتحزب الكورس لهذا الشخص ويعبر عن مسعاه ولو كان إلى السوء ، وللكورس أوقات يعلو فيها على كل حزب . هذا هو الجديد الذى أدخله شيللر على كورس القدماء .

هكذا كان شيللر يجمع بين التعمق النظرى فى شئون الفن وبين المقدرة على الخروج بما يصل إليه من تصورات نظرية إلى عالم الكلمة فتكون أعمالاً مسرحية جديدة . وكان شيللر يؤمن بأنه نجح فى إنشاء تراجيديا تربط بين القديم والحديث . وفى ١٧ فبراير ١٨٠٣ كتب إلى هومبولت يقول له : «ستجد متعة فى محاولتى الأولى لتراجيديا ذات قالب محكم ، وستحكم بنفسك هل أستحق جائزة باعتبارى معاصراً لسوفكل . وأنا لم أنس أنك قلت عنى إننى أكثر الشعراء

المحدثين جميعاً عصرية ووضعتني بذلك ضد كل ما هو قديم على خط مستقيم . وسيكون فرحي مضاعفاً إذا استطعت أن أحملك على الاعتراف لى بأنى تمكنت من اتخاذ هذا الفكر الأجنبى خالصاً لنفسى » . وأجاب عليه هومبولت بعبارة تفيض بالحماس وكان إعجابه بالكورس شديداً : «تلك أعلى قمة ينتزع المرء عليها التراجيديا من الحياة العادية ويبلغ عليها بالرمزية الخالصة مراتب الكمال » .

ونالت «عروس ميسينا» من النجاح ما هى جديرة به . فى الرابع من فبراير عام ١٨٠٣ لبى شيللر رغبة الأمير جيورج فون ماينجن[١] ، الذى كان يقوم بزيارة لڤايمار ، أن يسمع المسرحية بمناسبة عيد ميلاده . وطالع شيللر المسرحية على جمهور من الأمراء والأدباء والفنانين ورجال ونساء من علية القوم . والمعروف أن شيللر لم يكن يحسن المطالعة ولم يكن صاحب صوت ممتاز ، ولكنه كان يحب أن يقرأ أعماله بنفسه على الآخرين ، وكان يضع فى قراءاته كل ما يستطيع أن يضعه فيها من احساساته . وكان نجاح شيللر فى تلك الندوة عظيماً . وفى اليوم التالى أرسل شيللر المخطوط إلى جوته فأعجب به أشد الإعجاب وقرر أن يجرى عرضاً على الفور على مسرح ڤايمار ، واجتمع شيللر فى اليوم التالى للاعداد لذلك وتباحث معه فى طريقة اخراج الكورس على المسرح واتفق الاثنان على تقسيم الكورس إلى خمس مجموعات أو خمسة أدوار . وخرجت المسرحية إلى جمهور المشاهدين فى ١٩ مارس وأدى فيها كارل ابن شيللر دور صبى صغير . ونجحت المسرحية نجاحاً كبيراً يفوق كل ما كان متوقعاً . وكتب شيللر إلى كورنر يقول له . «لقد أحدثت أثراً هاماً وقوياً على نحو يفوق المألوف ، وكان أثرها على شباب الجمهور كبيراً لدرجة أن بعضهم صاح فى ختام المسرحية «يعيش شيللر» وهو شىء لم يحدث هنا من قبل قط » . والطريف ان الشاب الذى أطلق هذه الصيحة كان ابن البروفسور شوتس من أساتذة جامعة يينا ، وأن البلاط الأميرى استاء من خروجه على التقاليد مما دفع جوته إلى مطالبة رئيس الشرطة بتوبيخه .

(١) Herzog Georg von Meiningen

وأقبلت المسارح الأخرى فى ألمانيا على «عروس ميسينا» ومثلتها مراراً، وحضر شيللر عرضها فى مسرح لاوخشتيت[1]، وتصادف أن اضطرب الجو وانهمر المطر وكادت ادارة المسرح أن تسدل الستار ولكن تشجيع الجمهور أعطى الممثلين من القوة والحماس ما جعلهم يستمرون إلى النهاية. وقد حكى شيللر قصة تلك الليلة فى خطاب بعث به إلى زوجته قال لها فيه: «عرضت «عروس ميسينا» أمس، وكان جمهور الحاضرين غفيراً، وكان الجو مطبقاً ينذر بحدوث عاصفة، حتى اننى تمنيت لو استطعت أن أنأى بنفسى بعيداً، وكان أن شهدت مصادفة-عجيبة، فقد عصف الجو بعنف أثناء العرض، وأحدث الرعد والمطر دوياً هائلاً، حتى أن الجمهور ظل ساعة بأكملها لا يستطيع أن يسمع كلمة واحدة من الممثلين ولا يعلم من تطور الأحداث إلا ما يبلغه بالتخمين اعتماداً على الحركات والايماءات. وتملك الممثلين خوف لا مراء فيه، وظننت أن الستار سيسدل لا محالة. وكلما أبرقت الدنيا، ذعرت النساء وهرع منهن من هرع إلى خارج المسرح. لقد تخلل العرض من الاضطراب المزعج ما يثير غاية الدهشة. ولكن العرض استمر إلى النهاية، وظل ممثلونا يؤدون أدوارهم على ما يرام. ولم يخل العرض من أثر طريف رهيب معاً، فعندما نطقت ايزابيللا فى الفصل الأخير بلعنات السماء الفظيعة، دوى الرعد، ودوى الرعد خاصة عندما قال الكورس:

عندما تعصف السحب وتجلل السماء بالسواد
وعندما يدوى الرعد فى صخب هائل مطبق
تحس القلوب جميعاً
بأنها فى قبضة القدر الفظيع.

وكان الرعد عنيفاً، فارتجل الممثل جراف حركة معبرة فهمها الجمهور كله».

(١) Lauchstädt

الباب السادس عشر

فيلهلم تل

لم يكن قد مضى على فراغ شيللر من « عروس ميسينا » شهر واحد عندما
دأ يفكر فى عمل جديد ، وتناول فى أول مارس ١٨٠٣ مخطط « فرسان مالطة »
حاول الكتابة لكن القلم لم يطاوعه ، وقضى أمر هذه المسرحية نهائياً ، فلم يعد
ليها بعد ذلك . ويمكن القول إن هذا العمل الكبير كان يحتاج إلى طاقة لم تكن
وجودة فى ذلك الوقت ، وإن شيللر كان بحاجة إلى الراحة حتى يستطيع إنجاز
شيء جديد من مشروعاته الكبيرة . وقد التمس الراحة فى نشاط خفيف ، إذ
عكف على ترجمة مسرحيتين كوميديتين فرنسيتين كان الأمير القائمقام قد أرسلها
ليه لهذا الغرض ، مسرحية Encore des Ménechmes ومسرحية Mediocre et
rampant, ou le moyen de parveni من أعمال لوى بنوا پيكار Louis Benoit
Picard واختار شيللر لترجمتيه عنوانين قريبين من روح العنوانين الفرنسيين :
ابن الأخ فى دور العم » (١) و« المتطفل » (٢) . واستمر يعمل فى الترجمتين حتى
رغ منهما فى أوائل مايو . وبدأ فى السادس من مايو الدراسة التمهيدية لفيلهلم
تل ، وأخذ يقرأ فى تاريخ سويسرا لتشودى . وبينما كان يعد للمسرحية الجديدة

(١) Der Neffe als Onkel

(٢) Der Parasit

كتب قصيدته القصصية « الجراف فون هابسبورج »[1] آخر قصيدة من نوع البللادة .

وفى الثانى من يولية سافر شيللر إلى لاوخشتيت ذات حمامات الاستشفاء المعروفة فى ذلك الوقت ، وكان جوته يهتم بمسرحها الجديد اهتماماً خاصاً . وقد ناب عنه شيللر فى أثناء إقامته هناك فى الإشراف على الممثلين . وشهد شيللر عرضاً لمسرحيته « عروس ميسينا » أشرنا إليه من قبل . وكانت له لقاءات منوعة ، فقد التقى بالأديب الرومانتيكى المعروف فريدريش دى لاموت فوكيه[2] (١٧٧٧ــ١٨٤٣) صاحب « أوندينه » و« الخاتم السحرى » وتحدثا عن إمكانية إحياء التراجيديا الإغريقية القديمة ، وبخاصة تراجيديا إسخيلوس . كذلك التقى شيللر بالأمير أوبجين الڤرتمبورجى ورافقه يومين ، والتقى بمجموعة من الطلاب المتحمسين لأعماله ووجد منهم من التكريم ما أثلج صدره ومنحه القوة والعزم على استئناف رحلته فى عالم الأدب المسرحى . وكان شيللر قد تعرف بمجموعة من الضباط السكسونيين والبروسيين وعلم منهم أنهم سيقومون بمناورة على الطريق إلى ميرسبورج[3] ودعوه إلى مشاهدتها فلبى الدعوة وركب حصاناً تحرك به فى أرض المناورة ، ووجد فى مشاهدة المناورة ما أفاد به فى تعميق معرفته بالمعارك وتأصيل إحساسه بها ، وكان شيللر دائماً حريصاً على هذا التعميق والتأصيل لأنه كان يعلم أن صدق العبارة وتأثيرها رهينان بهما . فإذا ذكرنا أنه كان فى هذه الفترة كثير التفكير فى مسرحية « ڤيلهلم تل » فهمنا مدى حرصه على مشاهدة المناورة وتصورنا مد انتفاعه بها . وفى الثالث عشر من يولية تحدث شيللر ، وكان يتناول العشاء على مائدة المستشار بلومنر[4] ، عن المسرحية القادمة وأعلن أنه قد فرغ من التخطيط لها ، وأنها ستكون عن ڤيلهلم تل . وعاد فى اليوم التالى إلى ڤايمار للعمل .

(١) Der Graf von Habsburg

(٢) Friedrich de la Motte-Fouqué

(٣) Merseburg

(٤) Blümner

ولكن شيللر لم يبدأ فى الكتابة على الفور ، بل عاد إلى تقليب الموضوع من جوانبه المختلفة . وظل أسبوعين يكثر من لقاء جوته والحديث معه عن ڤيلهلم تل وكيفية تشكيل المادة مسرحياً . وكان يرجو من حديثه مع جوته الكثير ، لأن جوته كان عليماً بسويسرا وجغرافيتها وتاريخها وثقافتها ، ولأن جوته هو الذى لفت نظره إلى قصة ڤيلهلم تل وإلى صلاحيتها لعمل فنى ما ، وكان جوته يفكر فى كتابة ملحمة عن ڤيلهلم تل ، ولأن الحديث مع جوته كان يتصل على مستوى من العمق والفهم لا يمكن أن نتصور أعظم منه . وتبين شيللر أنه لا يزال بحاجة إلى مزيد من المراجع ، فكتب إلى الناشر كوتا يرجوه أن يرسل إليه كتاب فوسلين فى وصف سويسرا [١] ، ومؤلفات شوكه [٢] ، ورسائل بونشتيتن [٣] فى وصف مراعى سويسرا ، وكتاب إيبل [٤] فى وصف سكان جبال سويسرا وغير هذا وذاك من الكتب ومنها أعمال أدبية من العصور المختلفة . وبينما سافر جوته إلى يينا ليدرس مشكلة الجامعة هناك التى أخذ الأساتذة الكبار ينصرفون عنها ، بقى شيللر فى ڤايمار يطالع ويمهد للمسرحية . فلما رجع جوته من يينا وجده عاكفاً على الدرس والتفكير ، وعادت اللقاءات بينهما حتى قرر شيللر فى ٢٥ أغسطس ١٨٠٣ أنه فرغ من الدراسات التمهيدية لڤيلهلم تل وأنه سيبدأ الكتابة .

وقد وصف جوته طريقة عمل شيللر فى ڤيلهلم تل بقوله : «كان شيللر يقول إن على الإنسان أن يقدر على تنفيذ ما تنعقد عليه إرادته ، وكان هو يتصرف طبقاً لهذا المنهاج . ولأقدم لكم مثلاً على ذلك : لقد فرض شيللر على نفسه مهمة كتابة « تل » ، فبدأ بلصق كل ما استطاع الحصول عليه من خرائط خاصة لسويسرا على حيطان غرفته ، ثم قرأ كتب الرحالة التى تصف البلاد حتى عرف طرق ومسالك المنطقة التى شهدت الثورة معرفة غاية فى الدقة . ودرس فى الوقت

(١) J.C. Fuesslin Staats- und Erdbeschreibung der Schweizerischen Eidgenossenschaft

(٢) H. Zschokke

(٣) K.V. von Bonstetten, Briefe uber ein schweizerisches Hirtenland

(٤) J.G. Ebel, Schilderung der Gebürgsvölker der Schweiz

نفسه تاريخ سويسرا . فلما جمع المادة كلها ، جلس للعمل ، ولم يقم فعلاً من مكانه إلا بعد أن فرغ من كتابة تل . وكان عندما يدهمه التعب ، يضع رأسه على ذراعه وينام ، ثم ما أن يستيقظ حتى يطلب قهوة سوداء ثقيلة ـ لا شامپانيا ، كما روج البعض كذباً وافتراء ـ يستعين بها على الصحو . وهكذا تم « تل » فى ستة أسابيع ، وكأنه صب فى قالب دفعة واحدة » .

ومن بين مخلفات شيللر أوراق سجل عليها مقتطفات من الكتب التى قرأها عن سويسرا ليستعين بها فى مسرحيته ، وتبين هذه الأوراق مدى الدقة التى كان الشاعر يتحراها فى معرفه المكان . إنه لم يكتف بما رواه له جوته ـ وجوته يذكر فى أحاديثه إلى إيكرمن : « إن كل ما فى تل من وصف للمشاهد الطبيعية السويسرية كان مما حكيته أنا لشيللر » . ـ بل أصر على الاعتماد على المصادر ، وتسجيل العناصر اللازمة له بدقة . نقرأ على بعض هذه الأوراق :

السويسريون يسكنون أعلى قمم الجبال ارتفاعاً فى العالم الأوروبى . جبال فوق جبال . وفوق هذه قمم صخرية . أنهار تهمر منها وتتجه كل الاتجاهات .. أعشاب جبلية تظهر فى أوائل مايو ويساق إليها الحيوان عندما تظهر . وفى نهاية شهر يونية يذهب الرعاة إلى أعالى الألب . هناك أكواخ الرعاة . يعودون يوم القديس پارتولوميوس . هناك جبال ثلجية . تتكون من ثلج فقط . قمم ثلجية تبرق كالزجاج . تتخذ هذه شكل القمع نتيجة للانصهار الذى يحدث فى الصيف . الفصول الأربعة كثيراً ما تظهر جميعاً معاً . ثلوج . أزهار . ثمار . ـ سحب تتكون فى فجوات الجبال وتعلق فى الصخور ـ الاعتماد عليها فى التنبؤ بالجو . عندما يصعد الإنسان فوق السحاب يستطيع النظر من أعلى إلى أسفل فتبدو المنطقة أمامه كبحيرة كبيرة فيها جزر تبرز منها : فإذا انشقت السحب فى مكان ما رأى الإنسان البيوت والكنائس فى الوادى الآهل بالسكان . ـ شلالات ، فى وقت الصيف ، فى كل مكان فوق الجبال ... » وما إلى ذلك من ملاحظات عن النبات والحيوان ، وتحركات الحيوان فى الظروف المختلفة ، والبحيرة وكيف تسير فيها السفن وكيف ترسو .

من بين أهل الفن والفكر الذين ظهر أثرهم فى إنتاج شيللر فى هذه الفترة ، وخاصة فى « تل » ، إيفلاند مدير مسرح برلين الملكى . كان إيفلاند حريصاً على

الحصول على مسرحيات شيللر وعرضها فى ثوب ممتاز على جمهور كبير له من العلم والمعرفة بالفن والعراقة فى الثقافة ما يرجوه كل فنان مبدع من جمهوره ، وكان إيفلاند ينقل إلى شيللر انطباعاته عن العمل وتأثيره على الممثلين . وعلى الجمهور . وقد عبر إيفلاند عن إعجابه « بعروس ميسينا » وأخرجها على مسرح برلين بنجاح ساحق ، ولكنه كان يخشى أن يسأم الناس بمضى الوقت البساطة التى أخذ شيللر بها فى المسرحية إحياءً لتراث الإغريق ، وكان يؤمن عن خبرة أكيدة بأن نجاح المسرحية على المسرح رهن بفعاليتها على خشبة المسرح ، رهن بوفائها بمتطلبات الفن المسرحى من حيث التمثيل والإخراج وما إلى ذلك . ولهذا كتب إيفلاند إلى شيللر يرجوه أن تكون للمسرحية الجديدة هذه الفعالية ، فظن شيللر أن الرجل يطلب منه أن يفتعل شيئاً غير الذى تمليه عليه عبقريته ، وكتب إليه بهذا المعنى فرد إيفلاند مصححاً : « أعوذ بالله أن أرجو منك عملاً لا تسوقك إليه الروح التى تكمن فيك . ولكننى أظن أن هناك ، فى الوقت الذى يسبق اختيار الموضوع ، عندما تكون الروح هائمة فوق الأعماق ، إمكانية لتوجيهها على نحو مستتر إلى المكان الذى تحط فيه . ومن هنا يمكن الوصول إلى تفضيل الموضوع الذى يبسط أمام الحواس روعةً ظاهرية مثل چان دارك وتغليبه على الموضوع الذى يتطلب معرفة مجردة وروحاً منطلقة » . وليس من شك فى أن شيللر أخذ بشىء من هذا فقد كتب إلى كورنر فى ١٢ سبتمبر ١٨٠٣ يقول : « إذا أتاحت الآلهة لى أن أنفذ ما برأسى فسيكون عملاً عظيماً تهتز له مسارح ألمانيا » . وفى ٩ نوفمبر من العام نفسه كتب إلى إيفلاند : « هأنذا أعيش وأنسج فى تل ... إننى أعدك بمسرحية تصلح للجمهور كله » .

عكف شيللر على الكتابة حتى أتم المسرحية فى ١٨ فبراير من عام ١٨٠٤ ، أى أنه كتبها فى ستة أشهر وليس فى ستة أسابيع كما ذكر جوته ، ويبدو أن جوته كان يستعمل عبارة بلاغية يريد بها السرعة والمثابرة . والحقيقة أن شيللر كان على الرغم من إصابته بحالات مرضية متعددة لا يكف عن العمل . ولكنه كان يحتاج فى بعض الأحيان إلى مزيد من المعلومات التاريخية والجغرافية يكتشف فى أثناء الكتابة أنها لم تجتمع بعد لديه ، فكان يسعى إليها . ولم يكن شيللر يعمل كل يوم ، ولم يكن فى كل يوم يعمل فيه يفرغ من الكثير . فلا ينبغى

أن ننسى اهتمامه بالمسرح الفايماري وبما كان يقدم عليه سواء من أعماله هو أو من أعمال الآخرين ، ويصح أن نذكر على سبيل المثال عرض « موت ڤالنشتاين » يوم ٣٠ أغسطس ١٨٠٣ بمناسبة زيارة جوستاف الرابع ملك السويد الذى استقبل شيللر بعد ذلك وكرمه وأهدى إليه خاتماً ثميناً من الماس تقديراً لعبقريته واعترافاً بفضله على السويد فى كتابه « تاريخ حرب الثلاثين عاماً » . كذلك لا ينبغى أن ننسى حرصه على مخالطة الأصدقاء وعلى القيام بواجباته الاجتماعية سواء فى تلبية دعوات الأميرة الأم إلى الشاى ولعب الورق ، أو فى المشاركة فى جنازة هردر الذى مات فى ١٨ ديسمبر عام ١٨٠٣ وما إلى ذلك من أمور . وقد شهدت هذه الفترة زيارة كاتبة فرنسية لها أهميتها هى المدام دى ستال [١] (١٧٦٦ ـ ١٨١٧) التى وصلت ڤايمار فى ١٥ ديسمبر ١٨٠٣ وبقيت حتى ٢٩ فبراير ١٨٠٤ وأجرت اتصالات كثيرة مستمرة مع الشخصيات البارزة فى ڤايمار وبخاص أهل الفكر والأدب ، وأثقلت على شيللر بأحاديثها وأسئلتها ـ ولم يكن يجيد الحديث بالفرنسية ، بل يجهد نفسه فى ذلك جهداً شديداً ـ حتى تبرم بها . ولهذه الكاتبة فضل كبير فى التعريف بالأدب الألمانى فى فرنسا ، وتتسم أحكامها على الأدباء الذين حادثتهم بالفهم الصحيح والتقدير الكامل لهم .

تتكون مسرحية « ڤيلهلم تل » [٢] من خمسة فصول تدور أحداثها فى مشاهد مختلفة بسويسرا فى مطلع القرن الرابع عشر . تبدأ المسرحية ـ على نحو يشبه بداية مسرحية عذراء أورليان ـ بمشهد جميل فى أحضان الطبيعة على شاطىء صخرى يطل على بحيرة فيرڤالدشتيتر [٣] يتغنى فيه صبى صياد السمك والراعى والقناص على أنغام محلية من أجراس وجلاجل قطعان البقر والماعز بحياتهم التى تمتلىء بالجد والنشاط وتفيض بالسعادة بالطبيعة وتقوم على حرص على الخلق الطيب والتراث المجيد . إنها أغنية حلوة وادعة ، تنطلق من الحناجر وتتردد فى أركان الطبيعة ، فتجد كل نغمة فيها ما تهفو إليه ، وتأتلف معه . وفجأة

(١) Anne Germaine Baronesse de Staël

(٢) Wilhelm Tell

(٣) Vierwaldstätter See

يتعكر الجو ، ويتكاثف الغمام ويهب الإعصار . وبينما الجو يتغير على هذا النحو يندفع إلى الجماعة المنتظرة باومجارتن [1] لاهثاً مرتاعاً فقد قتل قائد القلعة دفاعاً عن شرفه ولاذ بالفرار فخرج الفرسان يتعقبونه . وهو يرجو صياد السمك رودى [2] أن يعبر به البحيرة إلى الشاطىء الآخر حتى يكون فى مأمن من الأعداء . ولكن رودى لا يستجيب له لأن العاصفة جعلت الموج يفور ويثور ويهدد بالهلاك كل سفينة تجرؤ على الاندفاع إليه . وبينما اليأس يأخذ طريقه إلى نفس باومجاتن يظهر ڤيلهلم تل وينقذ الرجل دون ما تردد ، إنه ينزل وإياه إلى القارب ويشق به عباب المياه الثائرة . وهنا يقبل فرسان الوالى ويعلنون استنكارهم لتقديم المساعدة لرجل فار من عدالتهم ويتوعدون الأهالى جميعاً بالويل والثبور وعظائم الأمور . وتعلو صيحة الناس : متى يأتى إلى البلاد من ينقذها ؟ لقد وصل الظلم والاستعباد إلى درجة لم يعد هناك من يستطيع احتماله ، إن الوالى الطاغى ورجاله المستبدين يستعبدون الشعب السويسرى الذى نشأ على الحرية وحب الحياة الشريفة الكريمة ، ويتفننون فى وسائل هذا الاستعباد ، ويقيمون السجون الرهيبة ، ويستفزون الناس بقبعة وضعوها فى ألتدورف[3] رمزاً للقيصر يأمرون كل من يمر عليها بالانحناء أمامها عارى الرأس . ولم يرض الأحرار بالسكوت على هذه الحال ، بل أخذوا ينظمون أنفسهم ويستعدون للثورة . ولقد اجتمع ممثلون من المقاطعات السويسرية الثلاث فى بيت ڤالتر فورست [4] وأقسموا على الاعتماد على الله وإثارة الشعب كله ضد الغاصبين حتى تشرق شمس الحرية على البلاد بنورها من جديد . وقد اجتمع الرجال هنا لمساعدة أرنولد فوم ميلشتال [5] على الانتقام لأبيه الذى عذبه عمال الوالى وجلادوه لسبب واه ولم يتركوه إلا بعد أن أفقدوه البصر . ولم تنحصر الثورة فى صفوف الرعاة والصيادين والزراع

(١) Baumgarten

(٢) Ruodi

(٣) Altdorf

(٤) Walther Fürst

(٥) Arnold vom Melchthal

فحسب ، بل امتدت إلى النبلاء كذلك ، فهذا هو النبيل فون أتنجهاوزن [١] البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً يظل متمسكاً بتقاليده العريقة . فلا يجعل بينه وبين خدمه وعماله فرقاً ، بل يقتسم وإياهم شراب الصباح ويذكر كيف كان فى أيام شبابه ينزل معهم إلى الحقول والمراعى ، إنه يعتبرهم أولاده . أما ابن أخته رودنتس [٢] فهو شاب مغرور يحتقر المزارعين ويتشرف بالتعاون مع السادة الغاصبين ويصم أذنيه عن نصائح خاله الذى يحضه على التمسك بالوطن وبالفضائل والمبادىء ويحذره من العمل مع الأعداء . ولقد كشف النبيل الحكيم ما يدفع الشاب إلى الغاصبين ، إنه الحب ، فرودنتس يحب برتا فون برونك [٣] ، ويعرف أنه لن ينالها إلا بالتعاون مع ذويها على تحقيق سياستهم فى إجبار سويسرا على التحول إلى جزء من مملكة النمسا . أما الثوار فيجتمعون ليلاً فى روتلى [٤] ويؤكدون نيتهم على التمسك بوحدة الشعوب السويسرية المتحالفة منذ القدم وعلى السير قدماً فى طريق التحرير ، ويعلنون أنهم لا يدينون بالولاء إلا للقيصر نفسه ، وأنهم يرفضون الانضواء للنمسا كل الرفض ، فهم يمقتون الخضوع بكل أشكاله ويقررون أن من يقبل الاستسلام للنمسا يتجرد من الشرف ويفقد كل حق . ولما كان وقت القيصر لا يتسع لاستقبال رسلهم إليه ، فهم يعتمدون على أنفسهم فى استخلاص حقهم المشروع ، ومطاردة الولاة الأجانب وأذنابهم واقتحام قصور الظلم وحصون الطغيان . ولكن الثوار لا يريدون البدء على الفور بل يؤجلون البدء إلى عيد الميلاد التالى حتى تكون الاستعدادات قد تمت على خير وجه .

أما رودنتس فإنه يتبين أنه لم يفهم برتا على حقيقتها . فهى تعرف آمال الشعب وآلامه وتقف مع الشعب بقلبها وهى لهذا تأسف لموقف رودنتس من قضية وطنه ، وتصارح الشاب بأنها تستقبح تنكره لأصله وخروجه على أهله .

(١) Attinghausen

(٢) Rudenz

(٣) Bertha von Bruneck

(٤) Rütli

ويفرح رودنتس لهذه المفاجأة فرحاً عظيماً ، لأن ضميره كان لا يفتأ يؤنبه على مسلكه الشائن ، ولكن قلبه كان يختلج بحب عارم يعميه عن كل شيء فيما خلا الحب والحبيبة . وما دامت برتا مع الشعب فهو معه كذلك . وينتهز رودنتس أقرب فرصة ليجعل من وقوفه إلى جانب الشعب حقيقة معلنة . — وأما ڤيلهلم تل فإنه يصطدم بالوالى جيسلر [١] فى ألتدورف عند القبعة الموضوعة فوق العصا ، لقد رفض السويسريون الركوع أمام القبعة ، وآثروا الالتجاء إلى طرق ملتوية على أن يمروا بهذا النصب المهين ، وهذا هو تل يمر بالقبعة ومعه ابنه فلا يلتفت إليها . وتل يعلم أنه بهذا يستفز الوالى ، ويعلم أن استفزازه سيؤدى لا محالة إلى عواقب ليست بالهينة . وهو لم يكن حاضراً يوم اجتمع ممثلو الشعب السويسرى وأقسموا على الجهاد ، ولكنه يؤمن بأن الرجل القوى يبلغ غاية القوة عندما يكون وحده . ويعرف أنه يستطيع وحده فعل الكثير . وتقبض عليه شرطة الوالى وتتهمه بأنه عدو للقيصر لأنه رفض الركوع أمام القبعة . ويتجمع الأهالى ومن بينهم ڤالتر فورست ، حمو تل ، وميلشتال من صفوة الثوار ويحاولون الانتصار لتل . ويقبل الوالى جيسلر فى هذه اللحظة وفى معيته برتا ورودنتس . ويقرر الوالى المستبد أن يعاقب تل عقوبة تتفق مع مهارته فى الرماية ، إن عليه أن يصوب سهمه على تفاحة توضع فوق رأس ابنه فيصيبها ، وإن لم يصبها كان للجلاد أن يقطع رأسه . ويتدخل الأهالى وتتوسل برتا إلى جيسلر وكذلك يفعل رودنتش ليرجع عن هذا الحكم البشع فلا يسمع لأحد . ويجد رودنتس الفرصة مواتية ليكيل لجيسلر الصاع صاعين وليعلن على السويسريين أنه معهم وأنه يجرد السيف من أجل قضية الوطن . ويسدد تل السهم إلى التفاحة فيصيبها . ويهلل الجميع إكباراً له وفرحاً بهذه الرمية البارعة التى ستتحدث الدنيا كلها عنها . ويرى جيسلر فى جعبة تل سهماً آخر فيسأله لمن كان يدخره . فلا يجيب إلا بعد أن يؤمنه جيسلر على حياته : لقد ادخره ليقتله به إذا أخطأ التفاحة وأصاب ابنه . وهنا يبلغ الغضب به كل مبلغ ، ويأمر بالقبض على تل والزج به فى غيابة السجن عقاباً له واتقاء لشره . واختار سجناً حصيناً بعيداً فى الناحية الأخرى من البحيرة حتى تكون

(١) Gessler

العقوبة سجناً ونفياً فى وقت واحد ، وهو ما لم تكن القوانين السويسرية تسمح به .

كان جيسلر يدبر شيئاً ، وكان القدر يدبر شيئاً آخر . فبينما سارت السفينة تقل تل مكبلاً بالأغلال ، ومعه جيسلر نفسه قد ركب ليطمئن على تنفيذ حكمه ، هبت العاصفة وعجز الملاح عن التحكم فيها وأصبح غرقها بمن فيها أمراً مقضياً إلا أن يتولى قيادتها ملاح عليم واسع الدراسة والحيلة هو تل . ويضطر جيسلر للنجاة بنفسه إلى الأمر بفك أغلال تل ليخرج بالسفينة من الهلاك . ويقود تل السفينة فى أمان إلى شاطىء البحيرة الصخرى فيقفز إليه ثم يدفعها دفعة قوية فتعود بجيسلر إلى حيث كانت وسط الأمواج العارمة . ويخلص تل من قبضة الطاغية ومن عاصفة هوجاء كادت تنتهى به إلى قاع البحيرة ، ويتأهب للانتقام لنفسه ولذويه ووطنه . ــ أما النبيل أتنجهاوزن فقد وهنت قواه وأوشكت حياته الصالحة أن تنتهى وتصعد روحه إلى بارئها ، ولكنه ظل يحس بمرارة الخيانة ابن اخته رودنتس قضية الشعب والوطن ، ولكن المجتمعين حول سرير موته قصوا عليه عودة ردونتس إلى صفوفهم وعزمه على الجهاد حتى النصر ، فارتاح الرجل ، وتنبأ للشعب بانتصار عظيم وبحياة جديدة كريمة بعد معركة دامية يصمد فيها من يصمد ويستشهد من يستشهد ، ولفظ الحكيم أنفاسه الأخيرة وهو يوجه النصح إلى أهله أن يتحدوا . ــ ويتغير المنظر إلى حيث حمل تل قوسه وسهامه ليقتل جيسلر . لقد كانت نفسه تمج العنف والقتل ، ولكن بشاعة جيسلر حولت لبن التقوى إلى سم فتاك ، وأصبح تل يعتبر نفسه منفذاً للمشيئة الإلهية ، ويستمد القوة من إيمانه بعدالة القضية فيخطو فى طريق العنف إلى مداه . وأقبل جيسلر وقد انهمك فى حديث مع قائد الاسطبلات عن الشعب السويسرى المتمرد على سلطته ، ونيته فى الاستمرار فى الاستبداد حتى يرغم أنوف الأحرار فى التراب ، وإذا بامرأة من الشعب تتوسل إليه أن يرد إليها زوجها المسكين الذى ألقى به فى السجن لسبب واه فأصبحت وأولادها بلا عائل لا يجدون ما يقيم أودهم ، ولكن جيسلر لا يستجيب لها ويسترسل فى إهانة الشعب والاستهزاء به . هنالك سدد تل سهمه فأصاب جيسلر إصابة قاتلة فى ذات قلبه . وعرف جيسلر من دقة الرمية أن قاتله هو تل ، وظهر تل وأعلن أن

السهم سهمه ، وأن الوقت حان ليأمن من فى الأكواخ على أنفسهم وأموالهم ومقدساتهم . وتهلل المرأة المسكينة لوفاة الطاغية ، ويهتف من اجتمع من الأهالى بالحرية ، وتدفع المصادفة بموكب عرس سعيد .. وهكذا تتحول ميتة الآثم إلى فرحة عامة . لا يرد فيها إلى الموت مهابته إلا جمع من الرهبان ينشدون بصوت رخيم لحن النهاية : سواء عليك أاتخذت أهبتك أم لم تتخذ . فأنت سائر إلى الموت . ماثل أمام أحكم الحاكمين !

كان سهم تل بمثابة الشرارة التى أشعلت نار الثورة فى جميع أنحاء البلاد . فخرجت جماعات الثوار تهدم قصور الطغيان ومعاقل المستبدين وسجون الغاصبين . وتحررت سويسرا ، وتحققت آمال المتحالفين . وجاءت الأخبار بأن القيصر مات قتيلاً ، اغتاله ابن أخيه الأمير يوهان فون شقابن [1] . ولم يكن فى هذا ما يحزن له السويسريون ، فلم يفقدوا بموت القيصر شيئاً . وإن كان الرأى عندهم أن الأمير يوهان ارتكب ذنباً مقيتاً . وكان كل أملهم أن يحرص القيصر الجديد على حريتهم بعد أن حرروا أنفسهم بجهادهم من الطاغية جيسلر وأعوانه . ويذهب الأهالى فى جمع حاشد إلى بيت تل فى الجبل ليعبروا له عن تقديرهم له وليحيوا فيه بطل التحرير وصانع الحرية . ويشهد بيت فيلهلم تل لقاء لم يكن هناك من يتوقعه . إنه اللقاء بين الأمير يوهان فون شقابن قاتل القيصر ، وفيلهلم تل قاتل جيسلر . لقد أتى الأمير إلى تل وهو يأمل أن يجد فيه نصيراً له فكلاهما قد قتل غريمه . ولكن تل يبين للأمير الفرق بين يد تمتد بالقتل دفاعاً عن الحرية والعرض والمال والقيم ، ويد تمتد بالقتل رغبة فى الاستئثار بالحكم والتماساً لنفع ذاتى . ولكن تل لا يوصد باب الرحمة أمام الأمير القلق . ويوصيه بالذهاب إلى روما وطلب المغفرة من البابا . ثم تصل جموع الشعب إلى بيت تل صائحة مهللة وأنغام الموسيقى تدوى فى نشيد يتردد صداه فى الجبال والوديان : يعيش تل حامى الحرية ! يعيش تل منقذ الوطن ! وتعلن برتا أنها كانت ضحية الطاغية ، وأنها تريد الدخول فى حلف الأهالى الأحرار . فيرحب الشعب بها . وبرودنتس الذى حررها من سجنها ، ويبارك زواجها ويرتفع صوت رودنتس

(1) Herzog Johann von Schwaben

معلناً تحرير كل ما لديه من عبيد .

ليس من المؤكد أن شخصية ڤيلهلم تل شخصية تاريخية ، والأرجح أنها شخصية أسطورية اتخذت مكانها فى الكتابات التاريخية وفى المصنفات الفنية منذ وقت مبكر فى سويسرا كما اتخذت شخصيات شبيهة بها مكاناً فى بيئات ثقافية أخرى : شخصية القناص الذى يجيد الرماية إلى درجة خرافية والذى يضطر إلى إصابة هدف فوق رأس ابنه الحبيب . واندمجت هذه الشخصية الأسطورية فى أحداث معارك التحرير السويسرية التى كانت تهدف إلى التخلص من الحكم النمساوى المتعسف ، واصطبغت الشخصية بصبغة جديدة هى صبغة البطل الذى يحرر وطنه وينتصر لأمته . وأول نص يعالج مادة تل يرجع إلى القرن الرابع عشر ويحمل اسم « أغنية تل » وفيه منظر التصويب على التفاحة وفيه بعد ذلك محاربة الطغاة . وتكرر ظهور المادة فى أعمال مختلفة حتى وصلت إلى شيللر فى كتاب إيجيديوس تشودى « تاريخ سويسرا » Ägidius Tschudi Chronicon Helveticum الذى طبع فى عام ١٧٣٤ ، والذى يحكى عن ڤيلهلم تل حكايته عن شخصية حقيقية تاريخية . والمعروف أن تشودى هذا عاش بين ١٥٠٥ و١٥٧٢ أى أنه وهو يكتب عن ڤيلهلم تل كان يكتب عن أحداث بينه وبينها قرنان من الزمان ، وهى فترة كافية لحدوث تضخم أسطورى . على أن المؤرخ السويسرى المعروف يوهانس فون ميللر Johannes von Müller صاحب كتاب « تاريخ الاتحاد السويسرى » Geschichte Schweizerischer Eidgenossenschaft الذى ظهر فى عام ١٨٧٦ ظل يؤكد تاريخية شخصية تل .

وسواء كانت شخصية تل تاريخية أو لم تكن ، فقد نقل شيللر عن كتاب تشودى ، واتبع كثيراً مما أورد من التفصيلات . وهو كتاب طريف يحكى التاريخ على أسلوب الحكايات ، ويورد قصة ڤيلهلم تل فى العبارات التالية :

« وحدث بعد ذلك فى يوم الأحد بعد أوتمارى الموافق ليوم ١٨ من شهر الشتاء أن ذهب رجل ريفى صالح تقى من أهل أورى يحمل اسم ڤيلهلم تل (كان يشترك سراً فى جمعية بونت) إلى ألتورف مراراً حيث القبعة المرفوعة ولم يقدم التحية التى كان الوالى جيسلر أمر بها . فرفع أمره إلى الوالى . فاستدعاه فى

الصباح التالى . أى فى يوم الاثنين . وسأله فى غلظة لماذا لم يطع أوامره . وكيف سمح لنفسه باحتقار الملك وإياه إذ امتنع عن تحية القبعة ؟ فأجاب تل : سيدى العزيز . لقد حدث ما حا ث مصادفة . ولم يحدث عن احتقار . فاصفح عنى . ولو كنت لئيماً ما كنت حملت اسم تل . إننى التمس العفو ، وأعد بأن ما حدث لن يتكرر . وكان تل يحسن الرماية بالقوس ، لا يكاد يفوقه فى ذلك أحد . وكان له أولاد حسان ، يحبهم كل الحب . فقال له الوالى : أى أولادك أحب إلى نفسك ؟ فأجاب تل : ياسيدى إننى أسوى فى الحب بينهم . فقال الوالى : حسناً يا تل . إنك على ما سمعت ، مشهور بالرماية ، وعليك أن تثبت أمامى براعتك فى هذا الفن ، فتصيب تفاحة موضوعة على رأس واحد من أولادك ، واعلم أنك إن لم تصبها بالرمية الأولى مقضى عليك بالموت . ففزع تل وتوسل إلى الوالى بالله أن ينزل عن هذا الأمر فإنه من غير الطبيعى أن يصوب سهماً نحو ابنه الحبيب . ورجاه أن يقضى بدلاً من ذلك بقتله . فذلك أحب إليه . فقال الوالى : إما أن تفعل ذلك أو تموت وابنك معاً . ورأى تل أن لا مفر من أن يفعل . فاتجه بقلبه خالصاً الى الله أن يحفظه وابنه . وتناول القوس وشد الوتر ، ووضع السهم عليه . وترك سهماً آخر فى الجعبة . ثم وضع الوالى بيده تفاحة فوق رأس الولد الذى لم يتجاوز السادسة من عمره . وأصاب تل التفاحة الموضوعة فوق مفرق الصبى ولم يمس الصبى بأذى . فلما أصابت الرمية دهش الوالى لبراعة الرامى وامتدح تل وفنه وسأله عن معنى وضعه السهم الآخر فى الجعبة خلفه ؟ ففزع تل وفهم أن السؤال لا يهدف إلى خير . ولكنه أجاب إجابة لينة على السؤال فقال : هذه عادة الرماة . وتبين الوالى أن تل تملص من الإجابة الصحيحة . فقال له : يا تل ، قل لى الحقيقة بصراحة . ولا تخش شيئاً . فأنا أؤمنك على حياتك . إننى لست راضياً على إجابتك . وأعتقد أنك أردت بالسهم الآخر شيئاً غير الذى قلت . هنالك تكلم تل . حسناً يا سيدى ما دمت أمنتنى على حياتى . فسأقول لك الحقيقة الصريحة . لقد كنت أنوى إذا أصاب السهم الأول إبنى ، أن أصوب السهم الثانى إليك . وما كنت لأخطئك . فلما سمع الوالى هذا قال : هكذا يا تل ! لقد أمنتك على حياتك . وسأفى بكلمتى . ولكنى وقد علمت بنيتك السيئة حوى . سأنفيك إلى مكان لن

ترى فيه شمساً ولا قمراً ، حتى آمن على نفسى منك ، وأمر خدمه بالقبض عليه وتكبيله بالأغلال ونفيه » .

تبين لنا هذه السطور الالتزام الشديد الذى أخذ شيللر نفسه به فى اتباع تشودى وقصته . وليس معنى ذلك أن شيللر لم يغير شيئاً ، لقد أحدث تغييرات كبيرة وصغيرة . وما دمنا فى مشهد التصويب على رأس الابن ، فيمكننا أن نذكر على الفور التعديل الذى أدخله شيللر عليه ، لقد جعل شيللر الصبى يفخر فى حضرة الوالى ببراعة أبيه فى الرماية ، فخطرت للوالى نتيجة لذلك فكرة عقاب تل وابنه معاً بالرمية البشعة ..والطريف أن جوته هو الذى اقترح على شيللر هذا التعديل . ولا ينبغى أن يفوتنا أن المشهد فى مسرحية يدور فى إطار شعبى تدخل الأهالى طرفاً فيه ، ويؤدى إلى إعلان رودنتس انضمامه إلى صفوف الشعب رامزاً بذلك إلى اتحاد الجيل الجديد من النبلاء مع عامة الشعب . ــ أما التغييرات الكبيرة التى أدخلها شيللر على المادة التى استقاها من تشودى ، فمنها ضغط الأحداث . فبينما يمدها تشودى بين خريف عام ١٣٠٦ وربيع عام ١٣٠٨ ، يحصرها شيللر بين ٢٨ أكتوبر ١٣٠٧ و ٢٠ نوفمبر ١٣٠٧ . وهكذا تستحيل فترة العام ونصف العام إلى ثلاثة أسابيع . وبينما يتناول الحديث فى كتاب تشودى تحرير سويسرا كموضوع أساسى ، ويحكى قصة تل كعنصر فرعى ، يقلب شيللر الوضع فى مسرحيته فيجعل موضوع تل هو المحور الرئيسى ويستعمل أحداث حرب التحرير السويسرية كإطار يصنع المناخ المطلوب . حتى شخصية تل نفسها ، جعلها شيللر مستقلة ، ولم يجعلها تابعة لجماعة التحرير التى تكونت سراً وتحالفت وأقسمت على الجهاد حتى النصر . كان شيللر لا يزال يهوى الشخصيات الفردية القوية التى كان أدب عصر العاصفة يمجدها ، فصور شخصية تل قوية بذاتها ، قوية بالفطرة ثم قوية بالبراعة .. وأدخل هذه الشخصية الفريدة فى قلب المجتمع السويسرى لأنها استشعرت آماله وأمانيه واصطنعتها لنفسها واندمجت فيها فوجدت فيها مزيداً من القوة .. ثم أدخل هذه الشخصية الفريدة القوية بذاتها ، القوية بمجتمعها إلى قلب الثقافة الإنسانية لأنها جعلت القيم الإنسانية نصب أعينها واتخذتها قيماً لها وناضلت من أجلها وانتصرت لها بأنها استمدت منها قوة على قوة على قوة . كان تل يحارب من أجل

الحرية والوطن والبيت ، للفرد وللمجتمع وللإنسانية كلها ، وكان تل يلجأ إلى العنف مضطراً ويحرص على أن يتغلب على نية العنف ، وأن يمجد السلام والصفاء والطريق إلى الله . كل هذه الأبعاد أضافها شيللر إلى شخصية تل معبراً بها عن فلسفته هو . — وكان شيللر حريصاً على أن يصل بمسرحيته إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من الفعالية المسرحية ، فأضاف إلى خط أحداث فيلهلم تل خطا آخر هو « برتا — رودنتس » حتى يتخذ الحب مكانه بين العواطف الأخرى ويحدث بذلك شيئاً من التوازن بين العواطف الصارمة والعواطف الناعمة . ثم أفاد شيللر من خط « برتا — رودنتس » فى توسيع إطار المجتمع السويسرى ، فبدلاً من أن يبقى قاصراً على الفلاحين والصيادين والقناصين والرعاة ، أصبح يضم كذلك طبقة النبلاء الكريمة التى لا تتعالى على العامة بل تعيش آلامها وأفراحها وتقاسمها أمانيها ومطامحها ، وتنتهز الفرص لتنزل عن ميزاتها الطبقية ، فهذا هو رودنتس يعلن العبيد أحراراً مشاركة منه فى الفرحة العامة .

وإذا غضضنا البصر عن بعض مواضع المسرحية التى يغالى فيها شيللر فى تقوية لغته بالمحسات الأسلوبية ، فإن المسرحية مليئة بالمواقف المثيرة والمؤثرة : منذ البداية يعيش الإنسان فى جو المسرحية الخاص الذى تتجاوب فيه الطبيعة مع البشر ، وتنسجم فيه العبارة ذات اللفظ مع العبارة ذات النغم ، وتتجمع فيه الناس فى جموع متسقة ، وتنفصل منها الشخصيات الفريدة لتفصح عن ذاتيتها ثم لتعود إلى أصولها فى الجموع المتسقة ويزيد اندماجها فيها . وينتقل الإنسان بين مواقف الحياة فى البيت والحياة فى المرعى ؛ والحياة فى القصر ، والحياة فى الحصن ، تارة فى الوادى وتارة فوق الجبل وتارة أخرى فى البحيرة أو على شاطئها . ويتحرك الوجدان بالحب والحنان والكره والشفقة والإشفاق والخوف والفزع والفرح والألم والإعجاب والاستنكار ، فهذا مشهد التصويب على التفاحة ، ومشهد احتضار النبيل الكبير ، ومشهد الحب الأعمى ، ومشهد الرجوع إلى الحق ، ومشهد التحالف من أجل الحرية ، ومشهد نفى البطل ، ثم مشهد فك أغلاله ووضعه موضع القائد ، ومشهد الغطرسة المقيتة ، ومشهد التعامى البشع عن آلام الناس ، ومشهد الانتقام ، ومشهد التشفى ، ومشهد الجلال أمام الموتى ... وغيره وغيره من المشاهد .

ومن الطبيعى أن تحدث المسرحية فى الناس أثراً على مستوى قوتها . فما إن تلقى إيفلاند الفصل الأول حتى كتب إلى شيللر يقول : « لقد قرأت ، بل التهمت ، وركعت ، وحمل قلبى ودمعى ودمى الدافق بالانبهار التكريم إلى عبقريتك وإلى فؤادك . ارسل إلى سريعاً ، سريعاً ، المزيد ـ صفحات ـ شذرات كل ما تستطيع إرساله إلى . إننى أقدم يدى وقلبى إلى عبقريتك . يا له من عمل ! يا لها من ثروة ! يا لها من قوة ، يا له من ازدهار ! يا له من سلطان ! حفظك الله . آمين » .

وأرسل شيللر المسرحية فى اليوم التالى لتمامها إلى جوته . ثم أرسل إلى إيفلاند بقية الفصول ، وكان يواليه بكل ما يفرغ منه تباعاً . أما جوته فقد عبر عن إعجابه الشديد بقوله : « لقد وفقتَ فى العمل توفيقاً رائعاً ، وتمتعتُ إذ طالعنه بأمسية جميلة » . وتقرر على الفور إخراج « ڤيلهلم تل » على مسرح ڤايمار ، واشترك شيللر وجوته فى توزيع الأدوار ، وشاهد جمهور ڤايمار العرض الأول فى ١٧ مارس ١٨٠٤ . واستمر العرض خمس ساعات عبر الحضور خلالها عن إعجابهم العظيم بشتى الوسائل . وكان نجاح « تل » أعظم من كل الأعمال السابقة . وتكرر العرض بعد يومين ثم بعد خمسة أيام ، وكان الناس يتجمهرون على المسرح منذ العصر حتى يحصلوا على تذاكر ، وكان الممثلون ينالون فى الختام عاصفة من التصفيق لم يعهدوها من قبل . أما إيفلاند فقد وجد فى المسرحية مواضع رأى تخفيفها أو حذفها لأسباب سياسية ، ذلك أن مسرح برلين الملكى كانت له ظروفه الخاصة التى تختلف عن مسرح فايمار الصغير ، ولم يشأ أن يفصح عن رغباته هذه فى خطاب وآثر أن يرسل إلى شيللر مندوباً عنه هو السكرتير پاولى (١) . وتحدث شيللر إلى رسول إيفلاند ووافق على المقترحات . وعاد الرجل إلى برلين ليعد المسرح هناك لعرض عظيم فى ٤ يولية ١٨٠٤ ، تكرر ست مرات فى أسبوعين . وهكذا لقيت مسرحية « ڤيلهلم تل » على مسرح برلين أيضاً نجاحاً هائلاً .

(١) Theatersekretär Pauly

الباب السابع عشر

ديمتريوس .. وخطط لم تتحقق

لم يقتصر حديث پاولى إلى شيللر على مسرحية «ڤيلهلم تل» ومقترحات من إيفلاند بشأن عرضها على مسرح برلين، بل حمل الرجل إليه دعوة لزيارة برلين ومشاهدة الصورة التى تقدم عليها مسرحياته هناك .. والتفكير فى إمكانية الإقامة هناك فى ظروف أفضل، والحق أن شيللر كان يتمنى القيام برحلات إلى أماكن مختلفة من الدنيا، كان يفكر فى السفر إلى سويسرا ورؤية الطبيعة التى وصفها سماعاً واطلاعاً وتخيلاً، وكان يفكر فى زيارة باريس وبعض مدن إيطاليا وأسبانيا، وكانت السويد من بين البلاد التى يهفو إلى زيارتها والاتصال بأصدقائه فيها. ولكنه لم يستطع فى حياته أن يقوم برحلة كبيرة واحدة. ولهذا صمم على السفر إلى برلين، عاصمة مملكة بروسيا، ليرى كيف تكون الحياة فى مدينة كبيرة. ومن المؤكد أن شيللر، الذى لم يكن يتقاضى من أمير ڤايمار سوى ٤٠٠ تالر، كان يفكر فى ظروف مالية أحسن خاصة بالنسبة لزوجته وابنيه كارل وإرنست وابنته كارولينه والمولود الذى كانت زوجته تنتظره.

وركب شيللر العربة ومعه لوته وابناهما كارل وأرنست فى ٢٦ أبريل ١٨٠٤ واتجهت العربة ناحية برلين. ولم يكن من الممكن قطع المسافة فى يوم واحد.

فتوقف الركب لقضاء الليلة فى ڤايسنفلس [١] وفى ظهر اليوم التالى كان شيللر فى لايبتسج ، فانتهز الفرصة لزيارة المعرض وللحديث مع الناشرين هناك وخاصة كوتا وكروسيوس وجوشن . واستأنف الرحلة فى التاسع والعشرين ماراً بڤيتنبرج [٢] وپوتسدام [٣] . وفى ظهر أول أيام مايو وصل برلين ونزل فى « فندق روسيا » هوتيل دى روسى Hotel de Russie فى شارع أونتر دن ليندن رقم ٢٣ (فيما بعد انتقل إلى هوفيلاند فى شارع فريدريش رقم ١٣٠) وفرح بالتكريم فى كل مكان ، ذلك أن شهرته كانت قد طوقت الآفاق وعمت برلين خاصة . وأسرع اثنان من الرسامين الكبار هما جيورج ڤايتش [٤] وجوتفريد شادو [٥] لرسم صور نصفية له ، وأعد إيفلاند برنامجاً حافلاً عرض فيه المسرح الملكى : عروس ميسينا وعذراء أورليان وموت ڤالنشتاين . وقد حيا جمهور مسرح برلين شيللر ليلة عرض « عروس ميسينا » ـ ٤ مايو ـ تحية عظيمة ، وأخذ يهلل ويهتف باسمه . ولم يقف شيللر عند حد مشاهدة مسرحياته هو بل حرص على مشاهدة كل ما كان يستطيع مشاهدته من أعمال مسرحية وغنائية . وما كان أكثر اللقاءات والدعوات ! كانت لقاءات مع أصدقاء قدامى ومعارف جدد ـ فهو فى اليوم الثانى لوصوله يزور الطبيب هوفلاند ، والمدير المسرحى إيفلاند والموسيقى تسيلتر[٦] وغيرهم . وفى الثالث عشر من مايو ذهب شيللر وزوجته لوته لمقابلة الملكة لويزة [٧] ملكة بروسيا ، ودار حديث ودى فهم منه شيللر أن الملكة تود أن يأتى إلى برلين ليقيم فيها حيث يحظى بمعونة البلاط ، وربما استطاع أن يعمل مدرساً للتاريخ للأمير ولى العهد . ويبدو أن شيللر كان ميالاً إلى التفكير فى الأمر جدياً لأنه تحدث إلى السكرتير پاولى عن رغبته فى تجربة الحياة فى برلين عدة

(١) Weissenfels

(٢) Wittenberg

(٣) Potsdam

(٤) Georg Weitsch

(٥) Gottfried Schadow

(٦) Karl Friedrich Zelter

(٧) Königin Luise

أعوام . وقد تلقف إيفلاند تصريحات شيللر ونقلها إلى أحد الوزراء فى الحكومة البروسية راجياً تدبير عمل مناسب لشيللر فى المسرح أو فى الأكاديمية . وسافر شيللر إلى پوتسدام قرب برلين حيث تناول طعام الافطار مع الملك والملكة فى قصر صانسوسى (١) ، ثم طعام الغداء على مائدة الوزير البروسى بايمة (٢) . وجرى حديث بين شيللر والوزير عن الانتقال إلى برلين . ووعد الوزير بتقديم منحة مالية قدرها ٣٠٠٠ تالر إلى الشاعر إذا ما استقر رأيه على ذلك . وطلب شيللر مهلة للتفكير فى الأمر عندما يعود إلى ڤايمار .

ووصل شيللر إلى ڤايمار عائداً من رحلته فى ٢١ مايو ١٨٠٤ واستغرق فى التفكير فى الموضوع ، على نحو ما نفهم من خطابه الذى أرسله إلى كورنر فى ٢٨ مايو : « ويمكنك فى يسر أن تتصور أننى لم أكن أقصد برحلتى هذه مجرد المتعة ، بل كنت أريد أكثر من هذا . وأصبح الأمر الآن فى يدى : لأحسن أحوالى تحسيناً جوهرياً . والحق أننى لو لم يكن على أن أفكر فى أسرتى ، لرضيت بالحياة فى ڤايمار فهى على خير ما أرجو . ولكن الراتب الذى أحصل عليه قليل وأنا أضيف إليه كل ما أكسبه فى العام تقريباً حتى نغطى نفقاتنا ، فلا ندخر إلا القليل . وينبغى على ، حتى أكون لأولادى شيئاً من المال ، أن أسعى لترك ما أربحه من الكتابة جانباً ليكون رأسمالاً لهم ، وبرلين تقدم إلى يديها لتحقيق هذا الهدف . وأنا لم أسع هناك لشىء ، فهم الذين خطوا إلى الخطى الأولى ، وطلبوا منى أن أضع شروطى . ولكن الحياة فى برلين غالية ولا يمكننى الحياة هناك مطلقاً بدون عربة ، لأن كل زيارة وكل خروج بمثابة رحلة صغيرة . كذلك كل الحاجيات وكل الأشياء غالية الثمن ، ولا يمكننى أن أعيش هناك مرتاحاً بأقل من ستمائة جنيه فريدريكى ، بل لعلها لا تكفى . والإنسان لا يستطيع أن يدبر أموره فى مدينة كبيرة بالسهولة التى يدبرها بها فى مدينة صغيرة . والآلهة وحدها تعلم ، هل سيعتبرون المبلغ الذى سأضطر إلى المطالبة به ، حتى لا تتحول أحوالى

(١) Sanssouci

(٢) Beyme

إلى أسوأ ، كبيراً كبراً مفرطاً . وبرلين تعجبنى وتعجب زوجتى وقد وجدناها أفضل مما كنا نتوقع . هناك حرية شخصية كبيرة وبساطة فى حياة الناس . والموسيقى والمسرح يقدمان الكثير من المتع على الرغم من أنهما لا يقدمان ما يتناسب مع ما يتكلفان . كذلك يمكننى أن أجد فى برلين أكثر من أى مكان غيرها مستقبلاً لأولادى ، وأن أحسن أحوالى ، عندما أكون هناك ، من جوانب مختلفة . ثم إننى من الناحية الأخرى أكره غاية الكره تقطيع الصلات القديمة ، وأجد فى الدخول فى علاقات جديدة ما يقض راحتى .وأنا هنا فى ڤايمار بطبيعة الحال حر ، مطلق الحرية ، وأحس بنفسى فى دارى بكل ما فى الكلمة من معنى . وتربطنى بالأمير روابط وثيقة آمل أن أستطيع التحلل منها بطريقة حسنة جداً ، ولكنى مع ذلك سأحس بالألم إذا انصرفت عن هنا . فإذا ما قدم الأمير إلى تعويضاً له قيمة ، فسأبقى هنا راضياً . هذا هو وضع الأمور الآن » .

وبالفعل كتب شيللر إلى الأمير كارل أوجست أمير ڤايمار يصارحه بما طرأ على موقفه من تطور بعد لقاء الأسرة المالكة فى بروسيا وعرض أصحاب الأمر فى برلين عليه أن ينتقل إلى هناك فى ظروف مالية أفضل . فرد عليه الأمير رداً جميلاً يكشف عن حب خالص للشاعر وتقدير كريم لعبقريته ، لقد طلب إليه أن يذكر له المكافأة التى يجب أن ينالها لقاء بقائه حتى يقرر منحه إياها ، وأن يذكر له رغباته حتى يحققها له . فطلب شيللر مضاعفة راتبه من ٤٠٠ تالر إلى ٨٠٠ تالر وأن يسمح الأمير له بأن يقضى بضعة أشهر كل عام فى برلين حتى يستحق مكافأة من البلاط البروسى يحسن بها أحواله المالية . ووافق الأمير على الفور وبعث إلى شيللر يشكره أحر الشكر ويقول له : « واقبل ، أيها الصديق الأجل ، أحر شكرى . إننى سعيد غاية السعادة لأننى سأظل أستطيع اعتبارك واحداً منا ، وسيكون من دواعى ارتياحى أن تتحقق فكرتى فى إسهام البرلينيين فى تحسين أوضاعك دون أن يكون فى ذلك ما يضر بأوضاعك هنا » .

ولم يتحقق شىء مما فكر فيه شيللر فى أن يتيح له البرلينيون فرصة الإقامة عدة أشهر فى العام لديهم لقاء ألفى تالر فى العام ، لأن الوزير بايمه لم يرد على خطاب شيللر الذى حمل هذه المقترحات . ويبدو أن البلاط البروسى لم يشأ أن

يقتسم شيللر مع أى بلاط آخر . وبقى شيللر فى ڤايمار بين الأصدقاء الذين عرفهم وعرفوه ، وفرح بذلك البقاء حتى يكون على مقربة من جوته ، وكانت العلاقات بين الاثنين قد توثقت إلى درجة فريدة ، كانا يلتقيان كل يوم تقريباً ، وكانا يلتقيان فى اليوم الواحد أكثر من مرة ، وكان التلاقى بينهما قد أصبح ضرورة لاستمرار كل منهما فى رسالته الفنية .

وكان شيللر كثير التفكير فى مشروعاته القادمة ، ولكنه لم يكن فى حالة تتيح له التركيز على عمل كبير . كان مشغولاً بالإعداد لطبعة فاخرة تجمع مختارات من قصائده مع صورٍ تحليها ، وكان مشغولاً كذلك بتنظيم أحواله المالية وتسديد شيء من ديونه مستعيناً بمنحة مالية تلقاها من كارل فون دالبرج ، وكان بين هذا وذاك يقرأ قصص ألف ليلة وليلة ويحكيها لتسلية المحيطين به ، كما فعل ليلة ١٩ يونية عندما كان مدعواً مع زوجته عند كارولينه فون ڤولتسوجن مع صفوة من المجتمع بينهم جوته والسيدة فون شتاين وأماليه فون أيمهوف وهاينريش فوس . وفى ١٩ يولية سافر مع زوجته إلى يينا لتكون فى رعاية طبيبها الدكتور شتارك الذى كانت ترتاح إليه منذ سنين . وفى ٢٥ يولية وضعت بنتاً أسمياها إيميليا Emilie . وبينما كانت الوالدة والمولودة يتمتعان بصحة جيدة ، كان شيللر يعانى من أزمة صحية بالغة العنف ، فقد خرج مساء ٢٤ يولية للنزهة فى وادى دورنبورج [١] وهناك أصيب بآلام شديدة فى بطنه ، ظن أنها ألمت به لأنه لم يحتط للبرد بملابس ثقيلة ، ويبدو أنها كانت أعراض التفاف فى الأمعاء . وجاء الدكتور شتارك [٢] للكشف عليه فوجده يشرف على الموت . وعلى الرغم من أن الطبيب ظن أنه لن يعيش أكثر من نصف ساعة ، فقد ظل يتألم أربعة أيام ثم أخذ يتحسن تدريجياً ، واستطاع مغادرة الفراش والمشاركة فى تعميد إيميليا فى السابع من أغسطس ، ولكنه ظل ضعيفاً إذا أمسك القلم للكتابة ارتعشت أصابعه . وسبق زوجته عائداً إلى ڤايمار فأشرف على تنظيف البيت وإجراء بعض الإصلاحات العاجلة ، وإن

(١) Dornburger Tal

(٢) Dr. Stark

ظل عاجزاً عن الجلوس إلى عمل يتطلب جهداً وتركيزاً . فى أواخر شهر أغسطس كتب يقول : « لا يزال التحسن يخطو ببطء شديد ، وهذا هو عملى قد تعطل ، لقد فقدت من حياتى للأسف هذه الأسابيع الستة » . ولم يسترد شيللر صحته إلا فى أكتوبر فعاد يزاول شيئاً من نشاطه ، ويذهب إلى البلاط وإلى المسرح . وفى ٤ نوفمبر ١٨٠٤ بدأ يعمل فى التمثيلية الشعرية الغنائية « تكريم الفنون » لتكون جاهزة فى الاحتفال باستقبال الأمير كارل فريدريش ولى عهد ڤايمار وعروسه الأميرة الروسية ماريا پاولوڤانا .

وكان ڤيلهلم فون فولتسوجن ، عديل شيللر ، قد سافر فى صيف عام ١٨٠٣ إلى بطرسبرج ليتقدم إلى أسرة القيصر بطلب يد الأميرة ماريا پاولوڤانا [١] ، ابنة القيصر ، ونجح فى هذه المهمة وعقد القران . وبهذا أصبحت روسيا على كل لسان فى ڤايمار ، وطوف شيللر بفكره فى تاريخ تلك البلاد الملىء بالأحداث . وكان عليه أولاً أن يقدم تحية إلى الأميرة القادمة التى نزلت ڤايمار فى التاسع من نوفمبر وأهدت إلى شيللر خاتماً ثميناً مرصعاً بالماس (لن يمر وقت طويل حتى يضطر إلى بيعه لتسديد قسط من ديونه) ولقيت حفاوة بالغة ، وأحيطت باحتفالات عظيمة . وكان المفروض أن يقدم جوته ترحيب الفنون بها ولكن القريحة لم تسعفه فلجأ إلى صديقه شيللر ، فرحب وجلس خمسة أيام إلى الورق والقلم فأتم ٢٤٨ بيتاً من الشعر تتكون منهم التمثيلية الغنائية القصيرة « تكريم الفنون » [٢] التى تتجاوز كلمات التكلف العاجلة إلى الإحساس بما يجيش فى القلوب . وليس غريباً أن تتأثر الأميرة ماريا وأن تنحدر الدموع من مآقيها :

رباط الحب الرقيق ينعقد سريعاً
حيث يسعد الإنسان يكون فى وطنه .

ويعبر شيللر فيها عن رأيه فى قيمة الفنون فى تربية الإنسان والسمو به وإسعاده :

(١) Maria Paulowana

(٢) Huldigung der Künste

إن السعادة كل السعادة لا تكتمل إلا بنا .

أو :

من التضافر الجميل للطاقات كلها

تقوم الحياة الحقة .

وقدمت التمثيلية بمصاحبة الموسيقى والرقص فى مساء ١٢ نوفمبر ١٨٠٤ فى حضور العروسين وعلية القوم . وكان برنامج الاحتفال فى تلك الليلة يضم بعد تمثيلية شيللر ، «متريدات» لراسين وبعض الألعاب النارية .

أما العمل المسرحى الكبير الذى كان شيللر يفكر فى كتابته ، ويخطط له ، ثم يتركه حيناً ، ليعود إليه ، فكان « ديمتريوس » [1] . كان شيللر قد حلق بأعماله المسرحية فى بقاع كثيرة من الدنيا ، ويبدو أنه كان حريصاً على أن يتنقل فى كل مسرحية جديدة إلى مكان جديد ، فها هو ذا قد تنقل من ألمانيا إلى إيطاليا وأسبانيا وانجلترا وفرنسا وصقلية وسويسرا مع مسرحياته « مؤامرة فييسكو فى جنوا » و« دون كارلوس » و« ماريا ستوارت » و« غذراء أورليان » و« عروس ميسينا » و« ڤيلهلم تل » . وكانت الوقفة بعد الوقفة فى بلد غير البلد تعنى مراحل متتالية من التطور والنمو الفكرى والنضج الفنى . فماذا لو اندفع بخياله هذه المرة إلى ربوع بعيدة أصبح الناس يتحدثون عنها : روسيا ؟ ومن الممكن أن يكون للصديق كورنر دور فى ذلك ، فقد اقترح كورنر فى ٢٥ سبتمبر ١٨٠٣ على شيللر أن يعالج فى مسرحية موضوعاً من التاريخ الروسى لم يحدده . ولما كان شيللر يقيم وزناً كبيراً لآراء الأصدقاء ، وخاصة كورنر ، فقد جد فى البحث عن موضوع مناسب فى هذا الإطار الذى كان فى عام ١٨٠٢ قد حام حوله فيما أسماه « عرس دام فى موسكو » ، ولم يظهر اسم ديمتريوس فى يوميات شيللر لأول مرة إلا فى ١٠ مارس ١٨٠٤ حيث دخلت المادة المسرحية دور الإعداد الأول وتكوين مخطط واستكمال المعلومات بالقراءة المتأنية المركزة المحددة . ثم كانت

(١) Demetrius

رحلة برلين وما صحبها من تفكير فى أمور كثيرة وقلق ، فتعطل العمل . ثم عاد شيللر إليه فى يونية وظل مشغولاً به طوال الشهر ، يكثر من الاستعانة بڤولتسوجن ليدله على ما فى جعبته من مصادر يرجع إليها للتثبت من المادة . ويبدو أن شيللر تعب من وعورة الموضوع ، وأخذ يفكر فى موضوعات أخرى ، وتحدث البعض عن مسرحية بعنوان «أتيلا» (1) وأخرى بعنوان «إلفريدة» Elfride وفى ١٢ يولية رأى تأجيل العمل فى ديمتريوس ، وتناول من بين مشروعاته المسرحية القديمة موضوع مسرحية «أميرة تسيلله» Die Prinzessin von Celle . ومضت شهور ثلاثة أخرى عاد بعدها يفكر فى ديمتريوس ناوياً كتابة المسرحية بالفعل . وحاول الترويح عن نفسه وشحذ قريحته بعمل خفيف ، فعكف على ترجمة «فيدر» لراسين وأتم الترجمة فى منتصف يناير ١٨٠٥ . ويبدو أن حالته النفسية قد أصبحت فعلاً أكثر استجابة للموضوع الروسى ، وأخذ شيللر ينتهز ساعات الصحة لينجز العمل ، وعمل فى فبراير ما استطاع وظن أنه يمكنه أن ينتهى من المسرحية فى الصيف . وظل يعمل حتى وافته منيته ولما يتم الفصل الثانى .

وموضوع «ديمتريوس» مأخوذ من الأحداث المضطربة فى تاريخ روسيا التى تلت موت القيصر إيڤان الرهيب (2) عام ١٥٨٤ ، فقد تولى الحكم فيودور (3) ابن القيصر من زوجته الأولى وكان ضعيف الصحة ، ضعيف العقل معاً ، وظل من عام ١٥٨٤ إلى ١٥٩٨ وهى سنوات حكمه ، لعبة فى أيدى أمير تتارى وصولى هو بوريس جودونوف (4) . وحدث فى عام ١٥٩١ أن مات الأمير الصغير ديمتريوس وهو أخ غير شقيق لفيودور من أم أخرى هى مارفا ناجوى (5) ، وقيل إنه كان مصاباً بمرض عصبى وإنه وقع على سكين فأصابه فى

(١) Attila

(٢) Iwan der Schreckliche

(٣) Fjodor

(٤) Boris Gudonow

(٥) Maria (Marfa) Nagoy

مقتل ، ومات . ولما كان بوريس قد انتفع من موت ديمتريوس ، فأصبح بدلاً منه ولياً للعهد ، فقد انتشرت شائعة تقول إن بوريس قتل ديمتريوس ليخلو له الطريق إلى العرش . وفى عام ١٦٠٤ ظهر فى بولونيا شخص ادعى أنه ديمتريوس ، ولم يكن سوى الراهب جريجورى أوتريبيف [١] ، عرفته كتب التاريخ باسم ديمتريوس المزيف ، وراح يطالب بالعرش الذى مات عنه أخوه فيودور منذ ست سنوات . ووجد ديمتريوس أشياعاً له بين الطبقة الروسية النبيلة وتمكن بمساعدة ملك بولونيا زيجيسموند الثالث [٢] من الهجوم على جنوب روسيا والانتصار على بوريس واعتلاء العرش فى عام ١٦٠٥ بعد أن تعرفت عليه أمه مارفا ناجوى وأكدت أنه ابنها . على أن حزباً قوياً تكون ضده بزعامة ڤاسيلى شويسكى [٣] ، وقرر الإطاحة به ، وتمكن بالفعل من قتل ديمتريوس ليلة احتفاله بزفافه إلى الأميرة البولونية مارينا مينسك [٤] ، وقتل العروس كذلك وعدداً كبيراً من أشياع ديمتريوس . وارتقى شويسكى العرش معلناً أن ديمتريوس الحقيقى مات فعلاً فى عام ١٦٠٦ ودخل فى عداد القديسين ، وأن الذى قتله هو بوريس ، وأن ديمتريوس محتال تقمص شخصية ديمتريوس زيفاً ليصل إلى الحكم .

وقد دخل موضوع ديمتريوس فى عالم المسرح منذ السنوات الأولى للقرن الثامن عشر وتكررت معالجته ، وكان المؤلف المسرحى الألمانى كوتسبو الذى سبق أن أشرنا إليه من بين من عالجوه عام ١٧٨٢ فى مسرحية ذهب فيها إلى أن ديمتريوس الذى ظهر فى بولونيا ليس مزيفاً وأنه ابن حقيقى للقيصر إيڤان . أما شيللر فقد ذهب مذهباً خاصاً ، هو أن ديمتريوس نفسه لم يكن يعلم بأن أعداء بوريس يوحون إليه كذباً بأنه ابن القيصر إيڤان ، فقد نشأ على هذه الفكرة منذ الصغر وصدقها ، وآمن بها ، وتصرف على أنه الحاكم الشرعى المطالب بعرشه

(١) Grigorij Otrepew

(٢) Sigismund III.

(٣) Wassilij Schuiskij

(٤) Marina Minszck

المغتصب ، وظل يتصرف صادقاً مؤمناً بالهدف ، قوياً بإيمانه هذا ، إلى أن فوجىء بزيف حياته ، فاستبد به الضعف .

وتبين الأوراق التى أعد فيها شيللر للمسرحية البيانات الدقيقة التى حرص على جمعها لاستعمالها ، أو للإفادة منها فى تكوين الجو الروسى الصحيح ففيها تعبيرات روسية وأمثال سائرة ، ووصف للكوزاك ، وللعلاقة بين قطاعات المجتمع الروسى فيما بينها ، وفيما بينها وبين القيصر ، ثم وصف للمبانى وللمشاهد الطبيعية فى الريف والحضر . واعتمد على كثير من كتب التاريخ والرحلات ، وكان يريد أن تخرج المسرحية قوية بأشخاصها قوية بمناظرها ، قوية بمضامينها ، مؤكدة من جديد إيمانه بأن الأفكار تتغلب على الأشياء وأن المثالية هى سبيله وسبيل الجماعة إلى الاكتمال .

كان شيللر ينظم مشروعاته تنظيماً جيداً . فيسجل خواطره ، ويدون ملاحظاته ومقتبساته ، ويعد الخطط المبدئية ، ويوسع بعض الخطط المبدئية إلى خطط متكاملة ، وينفذ بعض المشاهد .. يقوم بهذا فى الوقت الذى يكون فيه عاكفاً على تنفيذ عمل كبير أو مستغرقاً فى ترجمة نص أو إعداد مسرحية للتمثيل . وكانت لديه كراسة يوميات يسجل فيه أنباء مراسلاته وشيئاً عن حساباته وما إلى ذلك من أمور الحياة اليومية . وقد دون فى صفحاتها الأخيرة قائمة بالموضوعات التى عالجها والتى ينوى معالجتها ، وتضم القائمة ٣١ موضوعاً . دخلت ستة منها فى أعمال مسرحية كاملة ، وتناول ١٦ أخرى بالدرس والتمحيص ، وبقيت الموضوعات الأخرى على هامش وجدانه .

نقرأ فى هذه القائمة :

- فرسان مالطة — Die Malteser
- ڤالنشتاين — Wallenstein
- زيجسموند — Sigismund
- ماريا ستوارت — Maria Stuart
- ناربون أو أبناء البيت — Narbonne oder die Kinder des Hauses
- رب البيت — Der Hausvater

ـ مؤامرة على البندقية	Verschwörung gegen Venedig
ـ صلاة فى صقلية	Sizilianische Vesper
ـ عذراء أورليان	Das Mädchen von Orleans
ـ مكبث (شيكسبير)	Macbeth
ـ توراندوت	Gozzis Turandot
ـ أجريبينا	Agrippina
ـ حادثة فاماجوستا	Die Begebenheit zu Famagusta
ـ ڤاربك	Warbeck
ـ البوليس	Die Polizei
ـ الأخوان المتعاديان فى ميسينا	Die feindlichen Brüder zu Messina
ـ موت ثيميستوكلس	Themistokles
ـ نبيلة فلاندرن	Gräfin von Flandern
ـ ڤيلهلم تل	Wilhelm Tell
ـ نبيلة سان جيران	Die Marquise von St. Geran
ـ القراصنة	Die Flibustier
ـ عرس دام فى موسكو	Bluthochzeit zu Moskau
ـ السفينة	Das Schiff
ـ شارولته كورداى	Charlotte Corday
ـ رودلف الهابسبورجى	Rudolph von Habsburg
ـ هاينريش الأسد	Heinrich der Löwe
ـ البارون فون كونجسمارك	Der Graf von Königsmark
ـ مونالدسكى	Monaldeski
ـ روزاموند أو عروس الجحيم	Rosamund oder die Braut der Hölle
ـ إلفريده	Elfride

وتبين هذه القائمة ، التى لم يأت فيها ذكر «قطاع الطرق» و «دون كارلوس» ، أن شيلر كان يحلم بكتابة مسرحيات تشمل الدنيا كلها ، من مشرقها إلى مغربها ، وتصور مشاهد متنوعة غاية التنوع ، وبشراً من كل مكان ،

تجول فى ثقافات الأرض فى عصورها المختلفة . ولم يكن يريد لتحقيق هذا الحلم إلا الوقت .. بضعة سنوات حتى يصل إلى الخمسين .. لم يكن يريد أكثر من هذا .. أما الفن والفكر والقدرة على العمل فكان هو كفيلاً بها .

وما دام شيللر قد مضى فى الإعداد لبعض المسرحيات شوطاً كبيراً ، فمن المفيد أن نلقى نظرة عليها ، فهى بلا شك تكمل الصورة التى نكونها عن شيللر وأعماله . اهتم شيللر مثلاً اهتماماً كبيراً بموضوع مسرحية « فرسان مالطة » منذ الوقت الذى كان فيه يكتب « دون كارلوس » ، وهو موضوع الصراع بين الفرسان اليوحانيين فى مالطة ضد السلطان سليمان ، ووضع بالفعل خطة لكتابة المسرحية فى ٢٦ مايو ١٧٨٨ . وقرأ شيللر كتاب ڤرتو عن فرسان القديس يوحنا لزيادة معلوماته ولـلإلمام بالتفصيلات Vertot, Histoire des chevaliers hospitaliers de S. Jean de Jérusalem ومرت سنوات وكتب إلى شار لوته يحدثها عن حماس جوته لخطة مسرحية « فرسان مالطة » واهتمامه بأن تتم وتمثل فى عيد ميلاد الأمير الفايمارى ، كان ذلك فى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٤ . بل إنه وعد الناشر كوتا بأن يرسل إليه المسرحية جاهزة فى ربيع عام ١٧٩٥ . وظل الحديث عن المسرحية يظهر ويختفى حتى كان آخر حديث عنها فى أول مارس ١٨٠٣ : « لقد وضعت أمامى من جديد أوراق القديمة عن المالطيين ، وأجد فى نفسى رغبة كبيرة فى أن أكب على الموضوع من فورى لقد أصبح الحديد ساخناً وأصبح من الممكن تشكيله » . وكان شيللر يريد أن يصور الفرسان اليوحانيين المحصورين فى الجزيرة الصغيرة مالطة ، وقد انقطع كل عون كان يمكن أن يصل إليهم من صقلية أو أسبانيا ، وأصبح عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى شجاعتهم ضد الهجوم التركى المتعاظم . وكان يريد أن يبين محاولة لافاليت تدعيم الطائفة أخلاقياً ونفسياً من الداخل حتى يحول دون انهيار مقاومتها للترك ، لأنه كان يرى أن التمكن من النفس ، يؤدى إلى التمكن من العدو ، وأن القدرة على التماسك فى داخل الجماعة المحاربة تؤدى إلى الصمود على جبهة القتال . ولهذا وضع لافاليت قانوناً صارماً ، وتمسك بتطبيقه أشد التمسك حتى على ابنه ، وكان الابن من العظمة بحيث قبل راضياً أن يذهب ضحية قانون يرمى إلى صالح الجميع . وهكذا كان الأب يتألم للنهاية الأليمة التى انتهى إليها ابنه ، ولكنه كان فى

الوقت نفسه يجد شيئاً من العزاء فى قبول الابن التضحية وتقديره للفكر الخير والغرض النبيل الذى يرمى إليه القانون . وكان شيللر ينوى استعمال الكورس فى المسرحية ، ويفكر فى جعل الكورس يحمل فكرة صالح الجماعة وخلاصها من الخطر الداهم ، فأشخاص الرواية يتجهون فى مشكلاتهم إلى الكورس الذى يحضهم على الارتفاع عن الأمور الشخصية والاهتمام بالقضية الأولى : الحرص على القوة الذاتية والإيمان بها والصمود مهما اشتد الخطر ، والاعتماد على المبادىء الرفيعة والمثل العليا فهى التى تصنع الإنسان القوى . وقد صور شيللر الجزيرة الصغيرة تحيط بها أساطيل الأتراك التى تغطى مياه البحر الهائل فلا يظهر شىء من البحر لشدة تكاثف السفن ، والسفن تلق على الجزيرة بقذائفها فكأنها تحيطها بحزام من الرعد . وجعل للجانبين المتحاربين ، جانب اليوحانيين المسيحيين وجانب الأتراك المسلمين ، رمزيهما التقليديين الهلال والصليب .

وبينما كان شيللر فى ديسمبر عام ١٨٠٤ يعمل فى ترجمة فيدر لراسين أكب على أعمال راسين الأخرى قراءة ودراسة ، وبخاصة مسرحية بريتانيكوس ، واكتشف شخصية أجريبينا أم نيرون وخطط لمسرحية تدور حولها وتتيح له ارتباطاً بالتراث اللاتينى القديم وتنافساً مع راسين ومن على نهجه من الشعراء المسرحيين الذين اغترفوا من ثقافات الأمم القديمة . وكان شيللر يرى رد شخصية الإمبراطور المجنون إلى الوراء والتقدم بشخصية أمه إلى الأمام لتدور حولها الأحداث ، ويرى تصويرها على أنها امرأة آثمة ، ولكن إثمها لا يصل إلى حد الخطأ فى حق ابنها ، فهى تخطو فى الأحداث على مستويين ، مستوى المرأة الآثمة ، ومستوى الأم البريئة . إنها تقتل زوجها كلاوديوس — لم يكن كلاوديوس(١) أبا نيرون — لكى يصل ابنها نيرون إلى العرش . ويؤدى التصادم بين المستويين إلى خلق المأساة . فالشاعر يجد فى فعل أجريبينا ما يتيح له إثارة إحساس الناس بالشفقة عليها فى الوقت الذى ينصب فيه عليها إحساسهم باستقباح إثمها . فإذا أضاف إليها النهاية الأليمة التى انتهت إليها ، اجتمعت

(١) Claudius

للتراجيديا كل عناصرها . فما تحث بوبيا سابينا (١) وهى عشيقة نيرون عشيقها على قتل أمه حتى يدس السم لها ويقضى عليها ، وعلى أخته أكتافيا (٢) وعلى روما كلها .

كان شيللر بعد الفراغ من « عذراء أورليان » فى عام ١٨٠١ يبحث عن مادة مسرحية بسيطة تصلح لتراجيديا محكمة القالب على النمط الإغريقى ، ويبدو أنه منذ مايو ١٨٠١ بدأ دراسة إمكانية صياغة أحداث حياة القائد السياسى العسكرى الأثينى ثيميستوكليس (٥٢٧ ـ ٤٥٩ قبل الميلاد) على النحو الذى كان يرجوه . وكان شيللر يعرف الكثير عن حياة هذا الرجل فيما كتبه عنه بلوتارك . ويعرف ما صنعه من أجل أثينا فقد تزعم بعد الحرب الميدية الأولى الحزب الديمقراطى وواجه غريمه أرستيد بشجاعة إلى أن تمكن أرستيد (٣) من استصدار حكم من الشعب ضده فى عام ٤٨٤ ق . م . ولكنه وصل بعد أربعة أعوام إلى منصب كبير المستشارين فى أثينا وجرد أسطولاً عظيماً تولى قيادته عند هجوم الفرس فى عام ٤٨٠ ق .م . ودعا إلى محاربة العدو . ورتب خطة لذلك وعرف كيف يواجه أصحاب الآراء المعارضة بثبات ورباطة جأش وثقة فى النفس ، ويروون عنه أنه دخل فى مناقشة عنيفة مع القائد الاسبرطى أويربياد ، وكان هذا هو القائد العام للقوات المتحالفة ضد الفرس ، فغضب القائد الاسبرطى ورفع عصاه نحو ثيميستوكليس كأنه يريد أن يضربه ، فما كان منه إلا أن قال فى هدوء : « اضربنى ، ولكن اسمعنى ! » ، وسجل التاريخ له انتصاراً عظيماً على الفرس فى موقعة سلاميس . وكان معروفاً باعتداده بنفسه ، وبصلابته وحبه لوطنه . ولكن الصراع بينه وبين أرستيد لم يهدأ ، وتمكن هذا فى عام ٤٧١ ق . م . من استصدار حكم شعبى جديد ينفى ثيميستوكليس ، فغادر البلاد مرغماً ، وعاش فترة فى كنف الفرس حتى مات . وكما كان شيللر يريد فى « أجريبينا » تصوير الحياة اللاتينية ، وعرض التراث اللاتينى من خلال فهمه

(١) Poppäa Sabina

(٢) Octavia

(٣) Aristid

هو له ، فقد كان يريد فى مسرحية « موت ثيميستوكليس » تصوير الحياة الأثينية وعرض تراث الإغريق من وجهة نظره المثالية . أما شخصية ثيميستوكليس فكان يريد الجمع فيها بين الحرص على الكرامة والتورط فى الإثم ، إنه وهو القائد الوطنى العظيم لا يجد غضاضة فى الرضاء بالعيش فى أرض العدو ومعونته . وقد فكر شيللر فى أن يبدأ مسرحيته بمشهد مسرح داخل المسرح ، فيجمع طائفة من الإغريق فى بلاط ملك الفرس ويجعلهم يمثلون قطعة من مسرح إسخيلوس ، فما إن يراها ثيمستوكليس حتى يذكر وطنه ، ويشعر بألمه ، ويسترجع الأيام العظيمة المجيدة التى عاشها فى أهله ، ثم ينظر فيما انتهت إليه حاله من حياة بين أعداء الوطن ، ويحس بأنه ارتكب إثماً فى حق وطنه ، ثم يذكر أبناء وطنه وكيف يحتقرونه وهو يحبهم .

كان شيللر يعتمد على كتب الرحلات فى الحصول على التصوير الحى للمشاهد المختلفة التى يحتاج إليها فى مسرحياته ، وكان كغيره من قراء ذلك الزمان يجد متعة وترويحاً فى هذه الكتب . وقد خطر بباله فى عام ١٧٩٨ أن يتخذ من هذه الرحلات مادة لمسرحية يسميها « السفينة » ، ثم أخذ يخطط لهذه المسرحية بالفعل ، واختار لها جزيرة عند ساحل الهند أو جزءاً من ساحل الهند حتى يعرض حياة البحارة والتجار والمغامرين والبضائع الغريبة والنباتات والحيوانات العجيبة والشعوب الملونة والمختلطة . وكان يفكر فى أن تدور الأحداث حول رجل من أوروبا ارتكب خطأ كبيراً فى وطنه اضطر معه إلى الابتعاد إلى منفى لا أمل له فى الرجوع منه ، ولكن حنينه إلى وطنه ظل شديداً لا يهدأ . ووضع شيللر فى مواجهة الشاب فتاة ليس بها ما بالشاب من حنين حار إلى أوروبا ، ولكنها تدبر الأمور لتعود مع الشاب إلى أوروبا . ويبدو أن شيللر لم يتقدم فى رسم الأشخاص وربط الأحداث إلى أكثر من ذلك ، وكان اهتمامه الأكبر موجهاً إلى تصوير مناظر طبيعية وبيئة ثقافية ومجموعات بشرية تتسم بالغرابة كل الغرابة بالنسبة للجمهور الألمانى ، ولهذا فكر فى المنطقة الاستوائية .

وشبيه بهذا هذا الموضوع موضوع آخر أسماه « القراصنة » اقتبسه أيضاً من كتب الرحلات وخطط له فى عام ١٨٠٣ على الأرجح . وكان ينوى أن يحصر الأحداث فى مكان واحد هو السفينة يعرض كل ما يتصل فوقها من حياة ،

الحياة العادية للبحارة ، والأحداث الغريبة التي تطرأ عليها من تمرد بعض البحارة على القبطان ، أو حدوث حريق فوق المركب ، أو التورط فى معركة بحرية ، أو الوقوع فى يد القراصنة ، أو مواجهة صعوبات فى نقل المبعدين والخارجين على القانون والمجرمين ، أو التصرف عند موت أحد الموجودين على السفينة وإقامة القداس الجنائزى وترتيبات الدفن أو على الأحرى قذف الجثة فى عرض البحر . وفكر شيللر فى أن يصور قبطاناً يقود جماعة وضعت لنفسها قوانينها الخاصة متحالفة مع القراصنة ، وأراد أن يجعل الأحداث تدور حول اضطراب هذه الجماعة وخروجها على القبطان ، بحيث يتصرف القبطان على ثقة من قوانين الجماعة وفى نفس الوقت على ريبة من تمردها . فالقراصنة حيارى فى أمورهم لأنهم انقطعوا عن مجتمع البشر الشرفاء دون أمل فى عودة كريمة أو عفو كريم ، وهم فى حياتهم يواجهون الخطر من كل ناحية وهذا أحدهم يقع فى أيدى أكلة لحوم البشر فيلتهمونه .

ومن الموضوعات الطريفة التى فكر شيللر فى اتخاذها للمسرح ، موضوعات « بوليسية » ، خطرت بباله وهو يطالع فى عام ١٧٩٢ مجموعة من القضايا الغريبة ليكتب مقدمة لها ، ثم عاد إلى التفكير فيها فى عام ١٧٩٥ ؛ واختار موضوعين : موضوع جريمة قديمة نسيها الناس وكاد أمرها ينتهى نهائياً ولكن محاولات المجرم الدائبة لإخفاء الجريمة على الرغم من أنها مختفية أدت إلى كشفها وانتهت به إلى أيدى العدالة . والموضوع الثانى يصور الشرطة وقد تلقت بلاغاً كاذباً عن سرقة وهمية واتخذت إجراءات كثيرة مثيرة للكشف عن السارق ثم تكشفت الحقيقة المضحكة فى النهاية . وقد استمر اهتمام شيللر بالموضوع الأول قائماً فى السنوات التالية وزاد فيه وحوله إلى « ناربون أو أبناء البيت » وجعل الجريمة جريمة قتل تكشفها العدالة الإلهية عن طريق القاتل نفسه . وتدخل فى هذه الدائرة ذاتها مخططات « عروس فى ملابس الحداد » و« مركيزة سان جيران » و« نهاية قاطع لطرق مور » . واتخذ مخطط شيللر فى عام ١٨٠٢ وضعاً يقترب به من مرحلة التنفيذ ، فقد اكتسب الكثير من التفصيلات خاصة فى تصوير مكان الأحداث ويرجع الفضل فى هذا التطور إلى كتاب ف . ماير : رسائل من العاصمة الفرنسية ومن قلب فرنسا F. Meyer : Briefe aus der

الذى ظهر فى عام ١٨٠٢ Hauptstadt und dem Inneren Frankreichs ووصف فيه ، فيما وصف من جوانب الحياة الفرنسية ، الشرطة المنظمة التى بلغت الكمال فى ملاحقة اللصوص ومعرفة أخبارهم بفضل عيونها الذين دستهم فى كل مكان يمكن أن يجتمعوا فيه ، فلا تكاد تحدث حادثة حتى يعرف رجال الشرطة من ارتكبها ، وكثيراً ما يستطيعون الحيلولة دون وقوعها. وهنا فكر شيللر فى أن يتخذ باريس إطاراً لمسرحيته البوليسية فيجمع إلى تنفيذ الخطة المبتكرة ، تصوير بيئة ثقافية كان دائماً يتوق إلى عرضها . وجمع مزيداً من المعلومات وخاصة من كتاب مرسييه : صورة باريس Mercier, Tableau de Paris ومن كتاب ريتيف دى لابريتون : ليالى باريس Rétif de la Bretonne, Les Nuits de Paris وأصبح المخطط يحمل اسم « الشرطة » . وتقوم الأحداث هنا على جريمة معقدة هائلة تدخل أسر متعددة طرفاً فيها ، ويشتد تعقيد الجريمة كلما خطت الشرطة خطوة فى محاولة الكشف عن غموضها . والشخص الأساسى فيها هو وزير الشرطة الشهير دارجنسون المعروف بعبقرية فذة فى فهم الجرائم وتعقب المجرمين والكشف عن حيلهم وألاعيبهم . وكان شيللر ينوى أن يفتتح المسرحية فى مكتب من مكاتب الشرطة حيث يجلس الضابط ويستمع إلى تقريرات عن الأحوال فى المناطق المختلفة .. وتتيح هذه التقريرات عرض صورة لباريس بكل ما فيها من خير وشر ، وتظهر شخصيات متعددة تمثل كافة المستويات ، مجرمى العصابات السرية ، والمهربين ، والمتطفلين ، وتكشف ما يجرى فى البيوت فوق الأرض وفى الكهوف المتوارية فى باطنها ، وفى الأحياء الراقية ، وفى المسارح ودور اللهو ، وفى السوق الشهيرة التى يأتى إليها بعد منتصف الليل بقليل آلاف الفلاحين يحملون الخضروات والفواكه والزهور ، وآلاف الموردين ينقلون مختلف البضائع . وتتقلب المناظر بالنهار وبالليل ، فى أوقات الراحة وأوقات العمل . وتبين المذكرات التى تركها شيللر أنه كان يهتم غاية الاهتمام بتصوير باريس كاملة ، أو على حد قول شيللر : « ينبغى أن تظهر باريس ... بكمالها وتمامها » .

أما موضوع « ڤاربك » أو وربك ـ إذا أردنا النطق الإنجليزى للاسم ـ فقد اكتشفه شيللر فى أثناء الإعداد لمسرحية « ماريا ستوارت » فى عام ١٧٩٩ .

ويتلخص الموضوع فى أن ڤاربك هذا ظهر فى عصر هنرى السابع فى انجلترا وادعى كذباً انه أحد الأمراء الذين أمر ريتشارد الثالث بقتلهم فى برج لندن . واخترع ڤاربك من الأسباب ما برر به كيفية إفلاته من الموت . واستطاع أن يجمع حوله حزباً تبنى قضيته وسعى إلى تمكينه من الجلوس على العرش . وكان على رأس هذا الحزب أميرة من أسرة يورك كانت تعرف أن ڤاربك محتال ولكنها ساندته مع ذلك نكاية فى هنرى السابع . ولكن ڤاربك لم يستطع الوصول بزيفه إلى النهاية فقد انكشف أمره وقتل . هذا هو الجزء التاريخى الذى وجده شيللر فى كتاب تاريخ انجلترا ، وكان يريد معالجة المادة بحرية كاملة ، ويحولها إلى مأساة تدور حول ڤاربك والأميرة مارجريته البوجورندية التى ساندته . أما ڤاربك فكان يريد تصويره على أنه رجل طيب فى قرارة نفسه تحرضه مارجريته على تقمص شخصية الأمير إدوارد الكليرنسى الوريث الشرعى للعرش ، ويجد فى دمائه نزعة وراثية إلى الملك تفسرها الأحداث التالية بأنه فعلاً من نسل الأسرة المالكة ، وڤاربك يلتزم بطيبته ولا يرضى بخداع الأميرة إديلايد التى آمنت به وأرادت أن تربط مصيرها بمصيره ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع أن يكشف لها التمثيلية التى دفع إلى تمثيلها . بل إنه يجد فرصة فريدة فى التخلص من غريمه هنرى السابع بالقتل ولكنه يرفض التورط فى جريمة بشعة من هذا النوع . وهكذا يتحول من محتال مضطر إلى تمثيل دور بعينه . إلى إنسان كريم النفس متمسك بالمبادىء يفضل راحة ضميره على كل نعمة أخرى . وأما الأميرة مارجريته فكان يريد أن يصورها امرأة شريرة تملكها الشيطان فلم تعد ترى الخير ، وأصبح همها كله أن تصل إلى غايتها بكل الوسائل مهما كانت من البشاعة . وبهذا يتأكد التباين بين الشخصيتين اللتين تتقاذفهما الاحداث معاً أولاً ثم تفصلهما بعد ذلك ، فتسير الشريرة فى الشر إلى النهاية وتلتزم الخيرة بالخير حتى ولو كلفها حياتها . وليس هناك شك فى أن شيللر كان قد وصل بالإعداد لمسرحية « ڤاربك » إلى مرحلة التنفيذ وأنه كان سينفذها بالفعل بعد « ديمتريوس » خاصة وأن بين القطعتين وشائج من الصلة تعجب الفنان لأنها سرعان ما تتحلل ويتبين أن هذه مادة درامية وتلك مادة تراجيكية . ولكن شيللر كان يصمم ويخطط وكان القدر قد انتهى من قراره .

الباب الثامن عشر

النهاية

كان شيللر يرجو أن يعيش حتى يبلغ الخمسين ، ووضع خطة لحياته المستقبلة حتى عام ١٨٠٩ دون فيها الأعمال التى يريد أن يكتبها ، والمبالغ التى يرجو أن يحصل عليها ، وكان فى ذلك يريد أن يرتب لأسرته الأمور من الناحية المالية حتى لا يتركها عرضة للمطالبين بالديون ، وعرضة لضيق ذات اليد . ولكنه منذ عاد من يينا بعد مولد إيميليا كان شاحباً شحوباً مخيفاً ، كان لون وجهه ـ كما يصف المعاصرون ـ يميل إلى الرمادى .

وكان من بين من شاهدوه على هذه الحال ، من ظنوا أن الرجل هالك لا محالة . من هؤلاء جوته الذى حكى أنه كتب إلى شيللر بطاقة تهنئة بالعام الجديد ، وأعاد قراءتها قبل أن يرسلها ، ففوجىء بأنه كتب إليه تهنئة بالعام « الأخير » فمزق البطاقة وكتب أخرى . وكان جوته يتشاءم أحياناً ، فأثرت فيه الحادثة أشد الأثر . وقابل جوته السيدة فون شتاين فى ذلك اليوم وحكى لها ما حدث ، وقال لها إن نفسه تحدثه بأن واحداً منهما ، شيللر أو هو ، سيموت فى هذا العام .

وكما كان جوته يخشى على شيللر أن تعاجله المنية ، كان شيللر يشعر الشعور نفسه حياله ، فقد أصيب جوته فى شتاء عام ١٨٠٥ بمغص كلوى اضطره إلى ملازمة الفراش ، وعلم شيللر بذلك فأحس بالألم يعتصره اعتصاراً . فلما تحسنت حال شيللر قليلاً ، وخرج من بيته فى أول مارس ١٨٠٥ ذهب من فوره إلى جوته . وقد وصف فوس الصغير ، اللقاء بين شيللر وجوته بقوله : « لقد تعانقا ، وتبادلا قبلة ودية طويلة قبل أن ينطق أحدهما بكلمة . ثم لم يذكر أي منهما شيئاً عن مرضه ، بل تمتعا متعة خالصة بلقاء صفت له روحاهما » .

وكان شيللر قد كتب إلى جوته فى ٢٢ فبراير ١٨٠٥ يقول له : « لقد أدت الضربتان العنيفتان اللتان قُدر علىّ أن أتعرض لهما فى فترة سبعة أشهر ، إلى هز كيانى من أساسه وسيكون من الصعب أن أسترد قواى . وعلى الرغم من أن وعكتى الحالية يبدو أنها ترجع إلى نفس السبب الذى ترجع إليه الحالة الوبائية العامة السائدة الآن ، فإن الحمى كانت شديدة جداً ، وقد ألمت بى فى وقت كان ضعفى فيه دون كل ضعف ، حتى إننى لأحس الآن كأننى أقوم بعد مرض من أشد الأمراض عنفاً ، وأجد خاصة صعوبة فى التغلب على حالة من اليأس تتملكنى ، وهذا أشد الأضرار فى ظروفى . عسى أن تتحسن كل يوم وكل ساعة حالتك وحالتى كذلك حتى نلتقى عما قريب فى سرور » .

وقد حكى فوس الصغير - وهو هاينريش فوس بن يوهان هاينريش فوس مترجم الإلياذة ، وكان يعمل مدرساً فى مدرسة ڤايمار وكان يهتم قدر استطاعته بشيللر فى أثناء مرضه ويسهر عليه - الكثير من أخبار هذه الفترة الأليمة . فذكر أن شيللر كان يحرص على إخفاء آلامه على زوجته حتى لا تنزعج عليه ، وإنه ذات مرة أحس بأزمة وشيكة ، فطلب من شارلوته أن تذهب لترتاح وترعى الأولاد ، فلما اطمأن إلى أنها خرجت ، استسلم للأزمة ، وراح فى إغماء طويلة ، وظل فوس يدهن صدره وجبينه بالكحول حتى أفاق . وكان أول ما سأل عنه ، هل كانت زوجته حاضرةً ، وهل لاحظت عليه ما أقلقها ، وهل هذى بشىء أمامها . ثم ارتاح وأخذ يتكلم بأسلوب صاف . فقال إنه يحس أحياناً بمئات من الأشياء تطوف بخاطره ، ويذكر ما حكى عن محمد (صلى الله عليه وسلم) من أنه رأى فى خاطره أحداث أربع عشرة سنة تمر كلمح البصر .

وكان شيللر عندما تتحسن حاله يمرح ويباسط من حوله . وذات ليلة أتى فوس ليسهر الليل بجانبه ، فأصر شيللر ألا يدعه يفعل حتى أخذ الشاب يرجوه أن يسمح له بذلك ، وانهمرت الدموع من عينيه . وهنا صارحه شيللر بالسبب ، فقد كانت هناك فى تلك الليلة حفلة تنكرية ، وكان فوس ممن عرفوا بحب هذا النوع من الحفلات ، فلم يشأ أن يحرمه منها وقال له : «كان الأحرى بك أن تذهب إلى الحفلة التنكرية ، لعلى كنت سأتسلل إلى هناك وراءك أنا الآخر . لم لا ؟ ولاشك أنك لو كنت رأيتنى هناك ، لكنت فزعت وظننت أننى مت وأن عفريتى جاء يتعقبك ! » .

وكان يطلب إلى فوس أن يدخن أمامه ، وأن ينفث الدخان ناحيته حتى يتمتع على الأقل برائحته ، مادام لا يستطيع التدخين . فلما تحسنت حاله قليلاً وعاد يستطيع أن يأكل شيئاً كان يعد اللقيمات فرحاً بأنه عاد يستطيع تناول الطعام . وكان يطلب أولاده لتمضية بعض الوقت لديه ، ويسعد بهم وهم يقبلونه ، وكان شديد الإهتمام بالرضيعة إيميليا التى كان يحملها على ذراعه ، ويقبلها ، وينظر إلى وجهها الصغير فترتسم على وجهه الشاحب سعادة عميقة خافتة .

ثم تحسنت صحته تحسناً واضحاً ، وخرج للنزهة فى العربة يرافقه فوس ، وكانت الأشجار عارية من الأوراق ، ولكن الربيع كان يتأهب للإعلان عن نفسه فى براعمها . وتحدث شيللر عن أمله فى أن تعود إليه قوته حتى يستطيع الكتابة . وتحدث عن رغبته فى أن يقوم بعدة رحلات ، كان يريد أن يرى البحر ، وكان يريد أن يرى سويسرا ليتأكد بنفسه من أنه أصاب فى تصويرها فى « فيلهلم تل » ، وكان يتوق إلى تلك البقعة التى ولد فيها وخطا خطاه الأولى وأمضى سنوات حياته المبكرة فيها ، وكان يقول إنه يريد أن يشرب هواءها شرباً . ولما حدثه الطبيب عن ركوب الحصان وكم يفيد الصحة ، اشترى شيللر حصاناً وظل يأمل أن يأتى الوقت الذى يستطيع فيه أن يجد القوة لركوبه . ولكنه لم يركبه .

وحكت كارولينة فون ڤولتسوجن أخت زوجته فى كتاب دونت فيه ذكرياتها عنه ، وضمت إليه مجموعة من خطاباته أن شيللر فى شتاء حياته الأخير

كان يتحدث بصفاء لا سبيل إلى وصفه ، وأنه كان يعيد التفكير فى أحكامه الشديدة ويرجح كفة اللين . وهكذا صحح أحكامه على كتاب ليفيوس فى التاريخ الرومانى وكتاب هردر فى تاريخ البشرية . أما الموت فكان يتحدث فى غير خوف عنه : «لا يمكن أن يكون الموت شراً ، فهو شيء عام » .

وسارت الأحوال مطمئنة ، وعاد شيللر إلى الكتابة ، وإلى زيارة الأصدقاء وإلى الذهاب إلى المسرح . وفى أول مايو ذهب إلى المسرح مع كارولينه فون ڤولتسوجن ، والتقى فى الطريق أمام بيته بجوته الذى حياه ولم يستطع البقاء معه لأن حالته النفسية كانت مضطربة على أثر حريق شب على مقربة من داره فلما أطفىء شب حريق آخر فى المنطقة ذاتها . وكان هذا اللقاء العابر آخر لقاء بين الشاعرين الكبيرين . وتحدث شيللر إلى كارولينه فأخبرها بأن الآلام التى كان دائماً يحس بها فى جنبه الأيسر قد توقفت ، وأنه لا يحس بهذا الجنب على الإطلاق ، وأن حالته غريبة . وبقى شيللر فى اللوج لمشاهدة المسرحية . فلما انتهى العرض ذهب إليه فوس ليصطحبه إلى العربة ، فوجده فى حالة سيئة ، كانت حرارته مرتفعة ، ووجهه شاحب ، وكانت أسنانه تصطك . فحمله إلى البيت حيث قدمت شارلوته إليه شراباً مهدئاً ولكنه لم يجد نفعاً . واستمرت الحمى على حالتها . وصحبها إغماء فى اليوم التالى وهذيان . فقد أصيب بالتهاب رئوى حاد بالإضافة إلى أمراضه القديمة الأخرى . ومع ذلك كان مشغولاً بمسرحية ديمتريوس ، وكان يكتب فيها على قدر استطاعته ، فكتب مثلاً مونولوج ماريا فى الفصل الثانى . وكان الكلام يتعبه ويسبب له أزمات سعال شديدة ، ولهذا لزم الصمت ما استطاع ، واكتفى بالنظر إلى من حوله ، وكان يرتاح إلى زوجته وأختها كارولينه ، فإذا انشغلتا بشيء من أمور البيت ، بقى مع خادمه المخلص رودلف ، أو مع الشاب هاينريش فوس .

ولما لم يكن طبيبه الدكتور شتارك موجوداً - إذ كان فى صحبة الأميرة الأم فى لايبتسج - فقد جاء الدكتور هوشكه (١) لعيادته ووجده فى يوم ٦ مايو يتنفس

(١) Dr. Huschke

بصعوبة ، ووجد نبضه ضعيفاً ، فوصف له حماماً بمنقوع الأعشاب الطبية . وتحسنت حاله قليلاً . وجاءت إليه كارولينه فأراد أن يتكلم معها فى موضوعات الأدب والمسرح ، ولكنها سكتت حتى لا يرهق نفسه فحزن على نفسه وقال : « ما دام لم يعد هناك من يفهمنى ، وما دمت أنا نفسى لم أعد أستطيع فهمى ، فالأفضل لى أن أصمت » . ثم غفا وتكلم بعبارات متقطعة : « هل هذا هو جحيمكم ! هل هذه هى جنتكم ! أنت يا من تتنزل من أعلى ارحمنى من عذاب طويل ! » وفى الثامن من مايو كان يهذى تارة ، ويتكلم كلاماً مفهوماً تارة أخرى ، فطلب أن يرى الشمس ففتحوا الستارة فدخلت أشعة الشمس الغاربة وتطلع إليها فرحاً . وطلب أن يرى صغيرته إيميليا فحملوها إليه فقبلها . وسألته كارولينه عن حاله فقال : إنها تزداد حسناً وصفاء !

وفى التاسع من مايو زادت حاله سوءً ، ووصف له الطبيب حماماً آخر بمنقوع الأعشاب الطبية ، ولكنه لم يفد شيئاً ، ووصف له كأساً من الشامبانيا ، فتجرعها . وكان يهذى بكلمات لاتينية غير مفهومة ، ويتمنى أن يرحمه الله من عذاب احتضار طويل . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر بدا شيللر منهاراً تماماً لا يستطيع التنفس ، ثم اضطرب الجسم بعد ذلك برعشة عصبية حاول الطبيب تهدئتها بتدليك الجسم بالمسك ، وبينما وقف الطبيب وكارولينه عند رجلى المحتضر يحاولان تدفئتهما بقرب ساخنة ، وأمسكت شارولته يد زوجها الباردة تمسح عليها بيديها ، سرت رعدة فى جسمه كالصدمة الكهربية وفاضت روحه فى الساعة السادسة إلا ربعاً مساء التاسع من مايو عام ١٨٠٥ .

ولم يستطع أحد نقل الخبر إلى جوته لمرضه ، ولكنه فى اليوم نفسه استفسر كعادته عن صحة صديقه فلمح الاضطراب فى وجه زوجته ، فرفع يديه إلى وجهه وغطى عينيه وقال : لقد مات ! وفى العاشر من مايو استطاع المثال كلاور [1] وجه شيللر على قالب جصى ، ورسم المصور فرديناند ياجيمن [2] صورة للميت . ثم قام الدكتور هوشكه بتشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة فتبين أن الرئة

(١) Klauer

(٢) Ferdinand Jagemann

اليسرى متقيحة ومفتتة ، وأن عضلات القلب مشوهة وأن الأمعاء ملتفة وأن الكبد متيبسة وكان رأى الدكتور هوشكه : « إن الإنسان ليدهش والحال هذه كيف استطاع المسكين أن يعيش هذه السنين » . ويرى التقييم الحديث لحالة شيللر الصحية أن المرض تمكن منه منذ ٣ مايو ١٧٩١ عندما أصيب بالتهاب رئوى تحول إلى تقيح الغشاء البللورى ثم إلى التهاب مزمن فى الغشاء البريتونى . أما المغص الشديد الذى أصيب به فى صيف ١٨٠٤ فهو نتيجة التفاف الأمعاء . ويرجع السبب المباشر للوفاة إلى التهاب رئوى حاد صاحبه التهاب كلوى .

وكانت تقاليد الفن فى ڤايمار تقضى بنقل الموتى بعد منتصف الليل فى هدوء إلى حيث يدفنون ، ثم تقام صلاة الجنازة فى الكنيسة فى اليوم التالى . وقد خرج النعش من البيت بين منتصف الليل والساعة الواحدة من صباح ١٢ مايو ، وحمله عدد من أصدقاء شيللر والمعجبين بفكره وأدبه . وعندما وصل النعش إلى السوق انضم إلى الموكب ڤيلهلم فون فولتسوجن ، الذى كان فى طريق العودة من لايبتسج ، فسمع وهو فى مدينة ناومبورج [1] بوفاة شيللر فركب الحصان وأسرع ما استطاع . وكان شيللر فى أيامه الأخيرة يريد أن يتحدث إليه ، ربما ليوصيه على زوجته وأولاده ، فلم يجده . ودفن النعش فى مقبرة الكاسينجروفت Kassengruft التى أقيمت لاستقبال رفات علية القوم فى ڤايمار . وأقيم فى اليوم التالى فى كنيسة يعقوب احتفال جنائزى مهيب ، استهله وختمته نغمات من ابتهالات موتسارت . وألقى فوجت ، وهو من كبار رجال الدين فى ڤايمار ، فى جمهور المشيعين كلمة مؤثرة .

على أن رفات شيللر لم يبق فى مكانه هذا إلا حتى عام ١٨٢٦ حيث لاحظ أندرياس شترايشر صديق شيللر القديم أن النعوش فى مقبرة الكاسينجروفت قد تفتت ، فطلب إلى العمدة أن يتخذ إجراءً للمحافظة على رفات الشاعر العظيم من الضياع . وجرى البحث عن عظام شيللر بين أكوام العظام الكثيرة المتكدسة هناك ، وأمكن التعرف على جمجمة شيللر بين ثلاث وعشرين أخرى بمضاهاتها

(١) Naumburg .

بالقالب الجصى وبأساليب القياس الدقيقة . وقرر الأمير كارل أوجوست الاحتفاظ بهذه الجمجمة فى قاعدة تمثال شيللر النصفى لدانيكر فى مكتبة ڤايمار ، وأقيم لذلك احتفال فى ١٧ سبتمبر ١٨٢٦ حضره إرنست شيللر ابن الشاعر الكبير . واهتم جوته بالاستمرار فى البحث عن بقية عظام شيللر وأمكن للمتخصصين فى التشريح جمع غالبية أجزاء الهيكل العظمى حيث حفظت فى نعش مؤقت إلى أن يتم إقامة مقبرة منيفة لجوته (كان لا يزال حياً) وشيللر معاً ، وكان جوته حريصاً على تنفيذ هذه المقبرة ، وكان يقترح أن تقام على نحو يكشف عن النعشين . وبينما كان الملك لودڤيج[1] الباڤارى يزور ڤايمار فى عام ١٨٢٧ حث الأمير كارل أوجوست على أن يضم الجمجمة إلى بقية العظام . وفى ١٦ ديسمبر ١٨٢٧ دفن رفات شيللر مجتمعاً فى مقبرة الأسرة الأميرية . ودفن جوته فيما بعد على مقربة منه ، وكذلك كارل أوجوست أمير ڤايمار .

وانهالت على أرملة شيللر عندما انتشر خبر وفاته رسائل التعزية من الجميع ، من الملوك والأمراء والنبلاء والمفكرين والأدباء والفنانين فى ألمانيا وخارجها . ولم تتعرض هى والأولاد لشىء من الحياة الصعبة التى كان شيللر يخشى أن تتردى إليها بعد موته ، فقد حرص الجميع على أن تنال أسرة الشاعر الكبير كل ما تحتاج إليه لحياة كريمة .

وانتشرت فى مدن ألمانيا النصب التذكارية تخليداً لشيللر : فى شتوتجارت وڤايمار وبرلين وغيرها ، وحولت الأماكن التى اتصلت بحياته اتصالاً وثيقاً إلى متاحف ، وخاصة البيت الذى ولد فيه فى مارباخ والبيت الذى عاش فيه سنوات حياته الأخيرة فى ڤايمار . وهناك فى ڤايمار أرشيف جوته وشيللر وفى مارباخ متحف شيللر الذى اتسع فى السنوات الماضية اتساعاً كبيراً ليضم أكمل سجلات ممكنة عن حياة وأعمال شيللر . وليس هناك شك فى أن كلمات شيللر الباقية ، التى دخلت فى ثقافة الناس كافة ، هى أعظم النصب التذكارية .

(١) Konig Ludwig

مـــراجع

المنقول من أعمال شيللر إلى اللغة العربية قليل أشرنا إلى ما عثرنا عليه منه فى كتابنا « صفحات خالدة من الأدب الألمانى » ، بيروت ١٩٧٠ ص ٦٤١/٦٤٢ . وفى الكتاب فصل عن شيللر يحتوى على مقتطفات من أعماله ص ١٣٥ إلى ١٥٤ .

وتنقسم المراجع الأجنبية المنتخبة التى نوردها فيما يلى إلى ثلاث مجموعات :

- طبعات أعمال شيللر .
- رسائل شيللر .
- المؤلفات التى كتبت عنه أو التى تحتوى على وثائق تتناول حياته وأعماله .

وقد صرفنا النظر عن الإشارة إلى المقالات العلمية التى نشرتها المجلات المتخصصة لكثرتها ، وكذلك فعلنا بالنسبة لتقريرات الأكاديميات والأرشيف والمتحف واتحاد شيللر .

ولا يكاد يكون هناك داع للإشارة إلى أن المراجع التالية تحتوى على قوائم من المراجع هى الأخرى فيها ما يرضى الباحث المدقق .

Werausgaben

Sämtliche Werke, hg. von C.G. Körner, 12 bände, Stuttgart, 1812-15

Sämtliche Schriften. Historisch-kritische Ausgabe, hg. von Karl Goedeke, 15 Teile, Stuttgart 1867-1876.

Sämtliche Werke, Säkular-Ausgabe, hg. von Eduard von der Hellen, Stuttgart 1905.

Sämtliche Werke, Historisch-kritische Ausgabe, hg. von Otto Güntter & Georg Miltkowski, Leipzig 1909-1911.

Sämtliche Werke, Horen-Ausgabe, hg. v. Conrad Höfer, München und Leipzig 1910-1926.

Werke Nationalausgabe, hg. v. Julius Petersen u. Hermann Scheider, Weimar 1943.

Sämtliche Werke, auf Grund der Original druke hg. v. Gerhard Fricke, Herbert Göbert u. Herbert Stubenrauch, München 1958 ff.

Briefe

Briefe. Kritische Gesamtausgabe, hg. v. Fritz Jonas, Stuttgart 1892 - 1896. (Dazu Ergänzungen).

الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٠٤/١٩٨٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٣١٣ - ١

شيللر شاعر مسرحي أتيحت له القدرة الفائقة على تقمص الشخصيات تقمصاً تاماً وعلى تشكيلها تشكيلاً متكاملاً ، كما أتيحت له بعد ذلك القدرة على ربط هذه الشخصيات ، التي تتميز كل منها بمزاياها الفريدة ربطاً محكماً ، يضع كل واحدة منها في مكانها ، ويحركها في دائرتها . ولما كان شيللر قد فضل الشعر على النثر أسلوباً لمسرحياته ؛ فلقد عرف كيف يطوع هذا الشعر ويلونه بالألوان المختلفة لتتلاءم مع الشخصيات المختلفة . على أن شيللر يفضل النغمة الخطابية ، والجملة الحماسية على ما عداها ، ويوليها اهتمامه الأكبر حتى أصبحت هذه النغمة الخطابية الحماسية من أبرز سمات مؤلفاته

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٠ قرشا